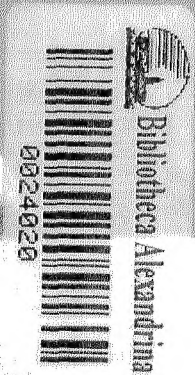


يوسف ميخائيل أسعد

سيكلوجية

الشك



مكتبة غريب

سيكولوجية الشك

تأليف

يوسف منخائيل أسعد

الناشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صديق (الغزالة)

تت: ٩٠٢١٠٧

مقدمة

إن المتأمل لفهرس هذا الكتاب يجد أنه يتضمن موضوعات سيكلوجية من جهة ، وموضوعات فلسفية من جهة أخرى . وكما هو واضح فإنه يضم خمسة عشر فصلا ، ويضم كل فصل منها خمسة موضوعات . فالكتاب يقدم إلى القاري خمسة وسبعين موضوعا . وقد خصصنا سبعة فصول للشك وثمانية فصول للوسوسة . بيد أن الرابطة في المعالجة بين الشك والوسوسة متوافرة وواضحة المعالم :

أما المنهج الذي استعنا به في معالجة هذا العمل فهو المنهج الذي يحاو لنا أن نسميه بالمنهج الخبري ، ونعني به المنهج الذي يتحرى في ضوئه المؤلف تقديم جماع خبراته بالمعنى العام للكلمة . فنحن نعتقد أن المفكر الخلق بهذه التسمية يتأثر بكل ما يصل إليه من معلومات ومهارات وما يوجد به من مواقف وما يجيش في صدره من انفعالات وما يتولد في ذهنه من أفكار نتيجة تلاقح الأفكار داخليا في جبلته الذهنية وفي طيات لاشعوره المحجول . والذي ربما لم ينجح العلم بعد في سبر أغواره وفتح مغاليقه واستكناه أسرارهِ ، ناهيك عن المهارات التعبيرية التي يكون المفكر قد ألم بها وتمكن من فنونها .

وهذا المنهج الخبري لا يجب ولا يتعارض مع المنهج البحثي أو المرجعي . بل يتواءم معه ويتآزر . بيد أن الاعتماد على هذا المنهج الأخير والاجتزاء به يؤدي إلى الانحباس في إطار أفكار الآخرين . فكيف يكون بين ظهرائنا مفكرون أصيلون ونحن نقدر ما كتبه غيرنا بحيث أن ذلك الأحساس بالتقديس يحول بيننا وبين التفكير لأنفسنا وبالاعتماد اعتمادا مطلقا على مانسوحيه من بواطننا مستلهمين ذواتنا ؟ إننا نعتقد أن احترامنا وممارستنا للمنهج البحثي أو المرجعي ينبغي ألا يعمينا عن الاستعانة بالمنهج الخبري نعالج به بعض الموضوعات التي تسمح بهذه المعالجة الخبرية الشخصية البحتة .

واعتمادنا الراسخ هو أن الموضوع الذى يطرقه الكاتب هو الذى يحدد له نوع المنهج الذى يستعين به . ولقد يكون الأفضل من هذين الاختيارين أو هذين المنهجين فى بعض الأحيان القيام بترجمة عمل ما فى احدى اللغات الأجنبية إلى العربية ترجمة كاملة وملزمة وأمانة .

ومن المتوقع جدا أن يناهضنا بعض النقاد أو بعض القراء قائلين : من أين تستقى المعلومات إذن إذا لم تكن تستعين بالمراجع وبما سبقك غيرك إليه من باحثين ؟ الواقع أننا سمعنا هذا السؤال الاستنكارى العديد من المرات بازاء كتب لنا سابقة عولجت بنفس هذا المنهج التجري . فالمدهش أن كثيرا من المثقفين ينكرون إمكان الابداع الفكرى الذى لا يستعين فيه الكاتب بغيره من قريب أو بعيد . وهذا يذكرنا بتلك الدعوى التى ذاعت فى أذهان البعض من أن جميع جوانب الثقافة قد عولجت ، ولم يبق الا استيعابها وإعادة قراءتها وحفظ ما فيها .

ونحن نعلن العصيان التام على هذه الدعوى ، بل وعلى هذه الدعوة إلى الجمود الفكرى ، وننادى بالتخلص من العنينة الثقافية التى يسارع المضغوطون تحنها — وقد أسلموا قياد فكرهم لها — إلى استرقاق أنفسهم لفكر غيرهم ، وقد أخذوا يسجدون أمام أوثان الفكر التى لاتقل خطورة فى استعبادها للمثقفين من الأوثان التى كان البدائيون يتعبدون لها فى الكهوف .

وعلى أية حال إنها معركة اخترنا بمحض الإرادة ولوج معمعنها وقد شد أزرنا ما صادفناه قبل ذلك من تشجيع وتعاطف من بعض من أطلعوا على أعمالنا السابقة . بيد أن عدم السماح باسترقاق فكرنا للغير لايعنى أنكارنا أفضل أساتذتنا الذين أخذنا عنهم وأفدنا من علمهم . ولكن الشكر العميق بصفة خاصة إلى أولئك الذين علمونا أن نفكر لأنفسنا وبأنفسنا والتحرر حتى من فكرهم الذى هو أعز شئ فى حياتهم .

يناير ١٩٨٣

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

معنى المشك

المعنى العقلي :

قد يحدث أن ألمح شخصا مقبلا على وأنا سائر في الطريق فأعتقد أنه أحد أصدقائي ، ولكن ما أن يقترب مني حتى أكتشف أنه ليس صديقي بل هو شخص يشبهه فحسب . فما العمليات العقلية التي استعنت بها في هذا الموقف ؟ إن العملية الأولى بلا شك هي عملية الإدراك البصري حيث وصلت صورة ذلك الشخص المقبل على إلى عيني ثم انتقلت الصورة إلى المخ حيث وجدت لها ترجمة معرفية معينة بمركز الإبصار بذلك الجهاز المعقد . وما أن تمت الترجمة المعرفية حتى ارتبطت بخبرة معرفية قديمة ، فصرنا نعتقد أن تلك الصورة الملتقطة بواسطة العينين ثم المترجمة في المخ ، إنما هي صورة ذلك الصديق . وطبيعي أن يهتز وجداني فيرتبط الحب بالمعرفة ، وأحس بالشوق يدفعني إلى التقدم بسرعة نحو ذلك الشخص . ولكن سرعان ما يراجع المخ نفسه فيرسل إلى إشارة مستعجلة تقول « لقد وقع خطأ في المطابقة بين الصورة المرئية وبين الصورة المتذكرة . فقد أعتقد مركز الترجمة بالمخ أن الصورة واحدة ومطابقة في الحالتين ، ولكن ما أن وردت إلى ذلك المركز مجموعة من الصور الإدراكية الأكثر دقة وتعينا لذلك الشخص حتى تم اكتشاف أن ثمة تباينا مؤكدا بين المدرك والمتذكر ، ومن ثم فثمة اختلاف بين الشخص الموجود أمامك الآن وبين الشخص الذي تتذكره ، أعني صديقك » .

ونستطيع في الواقع أن نقرر أني في هذه الحالة وأمثالها قد مررت في ثلاث مراحل عقلية : الأولى المرحلة الظنية التي هي على نحو ما مرحلة اعتقادية ثم مرحلة شكية حيث تكون الصور الواردة إلى مركز الترجمة بالمخ غير

كافية للبرهنة لى على أن الشخص الموجود أمامى ليس هو صديقى ، والمرحلة الثالثة هى مرحلة اليقين حيث أقرر وأحكم أن الشخص الموجود أمامى هو شخص آخر أو إن كان يشبه صديقى فى بعض النواحي . على أن هذه المرحلة اليقينية التى أحكم فيها أنه ليس صديقى قد يعقبها مرحلة شك أخرى عندما أجد أن ذلك الشخص يحدق فى وجهى وقد علت وجهه ابتسامة . فى تلك اللحظة قد يتزلزل إيمانى القاطع بأنه ليس الصديق الذى مرت عدة سنوات لم أشاهده خلالها ، ويبدأ الشك يداعب ذهنى من جديد . فإذا ما افترضنا أن ذلك الشخص أقبل على معانقا إذ أنه هو بالفعل صديقى القديم ، فانى أعود بسرعة إلى المرحلة الأولى ولكن لا باعتبارها مرحلة ظنية اعتقادية ، بل باعتبارها مرحلة اعتقادية مؤكدة وقد قطع الشك باليقين تماما . ولكن افترض أن ذلك الشخص الذى تفرس فى وعلت وجهه ابتسامة تجاوزنى وذهب لحال سبيله كما ذهبت أنا أيضاً لحال سبيلى ، فإذا يعتربنى إذن من فكر ؟ إنى أظل فترة من الوقت — تقصر أو تطول — وأنا فى حالة بينية لا هى باليقين بأن ذلك الشخص هو صديقى . ولا هى بالانكار بأنه ليس صديقى .

ولاشك أن مثل تلك الحالة البينية ترتبط بحالة وجدانية معينة تتسم بالقلق المستبد أو حتى بالتبرم الشديد . فلقد آتهم نفسى بالذاكرة الحائنة أو الضعيفة ولقد أصدر أحكاما أخلاقية على نفسى وعلى صديقى المزعوم ذاك . لقد أؤنب نفسى على عدم مصافحته لأنه ربما يكون هو ذلك الصديق ، ثم ما أكاد أصدر ذلك الحكم ، حتى أعود وأسأل نفسى : وماذا يكون إذن موقفى لو كنت قد صافحته بينما هو لا يعرفنى وقد اكتشفت أنه ليس صديقى ؟ ولقد أسأل نفسى : ولكن لماذا لم يبادرنى هو بالتحية إذا كان هو ذلك الصديق القديم ؟ إنه بالتأكيد قد نسينى كما نسيته أنا . وهكذا أظل أمطر نفسى بتلك الأسئلة والأحكام الأخلاقية أصدرها على نفسى وعلى ذلك الشخص الذى لا أعرف إذا كان هو صديقى أم أنه شخص شبيه به .

وفى ضوء المثال السابق نجد أننا قد ركزنا الاهتمام على الجانب الإدراكى . حيث ينصب الشك على الترجمة المتعلقة بالواقع الحسى المحيط بالمرء والذى .

يصل إلى المخ بطريق حاسة أو أكثر من حواسه الخمس . والواقع أن نطاق الشك يمتد إلى آفاق بعيدة في المجالات الإدراكية . فقد ينصب الشك على موقف أدراكي بعينه كما هو الحال في المثال الذي ضربناه بالصديق . ولقد ينصب الشك على جميع أنواع المدركات الحسية فيكون إما شكاً فلسفياً عفلانياً ، وإما شكاً نفسانياً وجدانياً مرضياً .

ولقد ينصب الشك على بعض الصور الذهنية التذكرية . فلقد أحاول تذكر اسم ذلك الصديق الذي قابلته أو قابلت شبيهه فأجد صعوبة في الوقوع على اسمه ، ثم ترد إلى ذاكرتي بعض الأسماء التي اختار من بينها اسماً أعتمد أنه اسمه ، ثم لا ألبث أن أراجع نفسي وأشك في صحة الاسم الذي وقع اختياري عليه . ولقد تمرر على لحظة أجد نفسي خلالها متأكداً من صحة الاسم الذي وقعت عليه ، ثم ما فتئ تمرر على لحظة أخرى أبدأ خلالها في الاحساس بالشك في صحة ذلك الاسم وقد أخذت أقارنه باسم آخر قريب منه . وقد ينسحب أثر على الاسم الأول والاسم الثاني جميعاً وأبدأ في استحضار أسماء أخرى لعل الشك على الاسم الحقيقي لذلك الصديق .

والواقع أن الشكوك المتعلقة بالصور الذهنية التذكرية لا تقتصر على الصور التذكرية الإدراكية ، بل إنها كثيراً ما تتعلق بالصور الذهنية الرمزية المجردة . فالتلميذ أو الطالب في الامتحان كثيراً ما يتلبس بالشك فيما يسرده من معلومات على ورقة الإجابة أو في الامتحانات الشفوية . ولسنا نغالي إذا قلنا إن الشك واليقين قرينان لا يفترقان ، إذ أننا ما نكاد نشك حتى نصل إلى يقين ، وما نكاد نوقن حتى نشك .

ولقد يمتد الشك إلى مجال عقلي آخر هو المجال التذوقي . فأنت عندما تستمع إلى قطعة موسيقية أو عندما تشاهد عملاً فنياً تشكلياً ، فانك تمرر في مرحلة شكية قبل أن تصل إلى قرار وقبل أن يصدر حكمك بمجال أو بقبج ما تستمع إليه أو ما يقع عليه بصرك . فأشد الموضوعات وقعا واستحساناً على قلبك لا بد أن يعتورها بعض الشك قبل إصدار الحكم عليها بأنها جميلة . وأكثر من هذا فإن ما نحكم له بالجمال في وقت ما قد نبدأ في الشك في جماله في وقت

أو في عمر آخر . فكثير من الموضوعات والأنغام والأشكال التي كنا نستجسها ونحكم لها بالجمال في طفولتنا صرنا نستقبحها أو لانرى فيها نفس القدر من الجمال الذي كنا نجده فيها في تلك المرحلة العمرية . وطبيعى أننا نمر في مرحلة شكية حيث نشك في أحكامنا السابقة متهمين أنفسنا بأننا كنا نخطئ فيما سبق لنا إصداره .

ونفس الشيء يصدق بازاء تغيير البيئة أو تغيير الوظيفة أو المهنة أو الحرفة . فمثل تلك التغيرات التي قد تقع في حياة المرء تؤثر تأثيرا بعيدا المدى فيما يصير متذوقا له . فما كان يراه القروى في قريته جميلا لا يراه كذلك بل قد يراه قبيحا بعد أن يترك تلك القرية ويعيش بالمدينة عدة سنوات . وكذا الحال اذا ما قيص للمرء نوع معين من الثقافة كأن يلتحق أحد الاشخاص بكلية من كليات الفنون الجميلة أو بمعهد من معاهد الموسيقى ، أو عندما يغير وظيفته أو مهنته أو حرفته . فاذا ما ترك أحد الأشخاص وظيفته في إحدى المصالح الحكومية والتحق بأحدى الوظائف بأحدى السفارات أو بأحدى الشركات الأجنبية فانه يتأثر قليلا أو كثيرا في تذوقه للأشكال والأنغام . وكذا الحال أيضا اذا ما تغيرت مهنة الشخص أو حرفته كأن يترك المرء مهنة التدريس لكي يشتغل في التجارة ، أو عندما يترك أحد الموظفين الكتابيين وظيفته الكتابية لكي يشتغل كعامل بناء . لا شك أنه يتأثر أيضا في أحكامه الجمالية التذوقية . وفي جميع الحالات فان الشخص يمر في مرحلة بيئية يكون خلالها في حالة شك فيما سبق لك التلبس به من أحكام جمالية الى أن ينتهى به المطاف الى تغيير تذوقه وإحلال تذوق جديد محل تذوقه القديم .

ومن المؤكد ان الثقافة العامة وما يتواكب معها من اتساع في الأفق لما يعمل على الشك في كثير من وسائل التفكير القديمة ، بل ويعمل على الشك في كثير من المعتقدات الشعبية التي كان يعتنقها المرء قبلا . وثمة معارف انسانية تشيع الشك في العقل من أهمها المنطق والفلسفة . فاذا ما تدرب الشخص تدريبا جيدا على التفكير المنطقي وتشيع بروح التفكير الفلسفي ، فانه يأخذ في الشك في كثير من أفكاره التي دأب على التسليم بها وعدم الإرتياب ..

في صحتها . ذلك أنه يأخذ في نشر ما تدرب عليه من مناهج فكرية ليوما
اشتمل عليه فكره من أفكار دأب على التسليم بصحتها وعدم مناقشتها ، فيبدأ
في الشك فيها وتوجيه سهام الارتياح اليها .

الشك العلمي :

سبق أن قلنا إن الشك واليقين قرينان لا يفترقان في الحياة العقلية للمرء .
بيد أن المنهج العلمي يعتمد الى تنظيم العلاقة بين الشك واليقين بحيث لا تترك
تلك العلاقة للمصادفة أو لهوى المرء . فلا بد من تحديد الخطوات التي على
من يريد أن يفكر تفكيراً علمياً اتباعها حتى يأخذ كل من الشك واليقين
نصيبهما من اهتمام وجهد الباحث . ولعلنا نقول بادية ذي بدء إن التفكير
العلمي "يفسح مجالاً واسع النطاق للشك" . ولعل حجر الزاوية في التفكير
العلمي هو الشك وليس اليقين . ذلك أنك إذا ما بدأت بالتصديق والایمان
بشيء ما مسبقاً تفرضه على الظاهرة أو على القضية التي تناوّلها ، فانك لا تكون
أذن عاجلاً على الإطلاق . على أن الشك الذي تتذرّع به في تفكيرك العلمي
ليس ذلك الشك الإنكارى بل هو الشك الاستيضاحي . فأنت لا تكون في
موقفك العلمي منكراً لما قد يقع ولا تكون مصداقاً أو مؤمناً بما سوف يقع ،
بل تكون في منطقة بين بين هي المنطقة الاستيضاحية حيث تضع علامة
استفهام كبيرة أمام النقطة التي تريد بحثها بحثاً علمياً .

والواقع أن الشخص لا يستطيع أن يقف على عتبة التفكير العلمي قبل
أن يتمرس بعادة ذهنية معينة هي عادة التفكير بطريقة موضوعية . وهذه
العادة الذهنية تتسم بمجموعة من السمات أهمها :

أولاً — عدم إصدار أحكام مسبقة على ما يتناوله المرء بالبحث . وهذا
لا يتعارض مع افتراض مجموعة من الفروض المتنوعة مع فتح المجال على
مبصره لتقبل ما يمكن أن يظهر من فروض جديدة .

ثانياً — التخلص من نير المعتقدات الشعبية الشائعة . من ذلك مثلاً أن
يقول الاعتقاد الشعبي الشائع بفائدة إحدى الوصفات العلاجية أو بضررها .

فاذا كنت تبحث في تلك الوصفة بحثا طبيا علميا ، فعليك بعدم الوقوع تحت تأثير المعتقدات الشعبية الشائعة ببينتك حول تلك الصفات .

ثالثا - عدم الوقوع تحت تأثير ثقة أو ثقات في المجال الذي تقوم بتناوله علميا . ذلك أن هناك نقاط ضعف لدى أى عالم. وشاهد ذلك أن العلماء يكتشفون خطأ أساتذتهم في بعض النواحي ولا يحجمون عن إعلان أخطاء أولئك الاساتذة ولا يخضعون فكرهم لتأثيرهم ولا ينهبون بعلمهم . بيد أنهم مع هذا لا يتخذون موقف المعاندين أو من يرغبون في تخطيء غيرهم ، بل هم يرجحون كفة الموضوعية على كفة الذاتية ، وكفة الحيادية على كفة الانحيازية أو التعصبية .

رابعا - التخلص من الشلية أو القطيعية خلوصا تاما في التفكير العلمي .. فالعالم الخلق بهذه الصفة لا يقع تحت تأثير الجماعة . وحتى اذا هو عمل في فريق من الأفرقة العلمية - وهو ما يشيع في العصر الحديث المعاصر وقد انقضى تقريبا وقت العمل فرديا في البحوث العلمية - فانه لا يدوب في إطار الفريق ولا يخضع لتأثير أى من أعضائه عما في ذلك رئيس الفريق نفسه . واذا فرضنا أن ضغط وتأثير الفريق أو رئيسه قد أثر في تفكير العالم أو في انتحائه وجهة معينة ، فانه يكون بذلك قد خرج عن نطاقه كعالم وقد مسخت شخصيته العلمية . والخط الواجب الاتباع بالنسبة للعمل في فريق من العلماء هو المشاركة بقسط في العمل بحيث يتحقق التكامل بين المناشط التي يمارسها الفريق ككل من جهة ، وبحيث يستقل كل باحث أو كل عالم بقطاع معين يعمل في إطاره في استقلال وحرية وعدم تقيده من قريب أو بعيد بأراء غيره . مهما كان ذلك الغير من جهة أخرى .

بيد أننا نجد مع هذا أن العالم كإنسان لا يستطيع أن يتخلص من انحيازاته ولا يستطيع أن يعيد تربية نفسه بحيث يكون كصفحة بيضاء لم يكتب عليها أى شيء . فما من مناص لأى إنسان من التلبس بمجموعة من الانحيازات التي بذرت بذورها منذ الطفولة الباكرة . ولكن مع هذا فان الشك العلمي هو محاولة يجاهد خلالها العالم ضد ميوله التي اكتسبها من بيئته . فهو شخص

ينحى ميوله وعواطفه الشخصية تماما كما يفعل القاضى وقد اعتلى منصة
الاحكامه . إنه لا يستطيع أن ينزع عن نفسه الميول والعواطف ، ولكنه
يستطيع أن يروضها ، بل ويستطيع أن يحول بينها وبين الاعمال والفاعلية .
فهو كمن يبطل مفعول إحدى الدوائر الكهربائية بغير أن يلغيها أو يقضى
عليها . فإبطال إحدى الدوائر الكهربائية لا يعنى القضاء عليها قضاء تاما ،
بل يعنى إيقاف عملها بصفة مؤقتة وبشكل غير دائم . فالقاضى عند نظره
أحدى القضايا يجاهد نفسه بحيث يبطل القابلية للتأثر لديه . فبكاء المتهم أو
استعطافه للقاضى يجب ألا يحولا بينه وبين إصدار حكمه طالما يرى أنه الحكم
العادل . ونفس الشيء يصدق بازاء العالم فهو يصدر أحكامه على ما يعرض
له من قضايا علمية . وتخليه عن تأثير عواطفه ضرورى ضرورة لازمة حتى
يستطيع أن يدرج اسمه فى نطاق العلماء .

ويظل العالم متذعرا بالشك العلمى حتى بعد أن يصل الى قراراته العلمية
التي أصدرها بازاء الظواهر أو القضايا التي قام ببحثها . فهو لا يقول « إني
أعتقد » بل يقول « إني أرجح » . ذلك أنه يترك المجال مفتوحا أمام من
يأتى بعده ليعيد بحث نفس الأمور التي سبق أن قام هو ببحثها . ولا يقول
العالم الخلق بهذا القلب « أنا أعتقد » إلا فيما يتعلق بالأصول المنطقية والرياضية .
فهي الوحيدة التي يستطيع أن يقرر المرء بازائها الحتمية ، فأنت تقول مثلا
إن الكبر أكبر من أى جزء من أجزائه ، وتقول إن وجود الشيء وانعدام
وجوده لا يلتقيان ، وأن ضعيف الشيء أكبر من ذلك الشيء نفسه إلى آخر
تلك القوالب المنطقية الرياضية . ولكن أى حقيقة علمية تتعلق بالوجود
المادى أو الوجود النباتى أو الحيوانى أو الانسانى إنما هي حقيقة احتمالية وليست
حقيقة مطلقة . فلقد كنا ندرس أيام كنا بالمرحلة الثانوية أن الذرة هي أصغر
جزء من المادة وهي لا تقبل الانشطار . ولكن تلك الحقيقة العلمية التي
كانت صحيحة في ذلك الوقت في ضوء ما توصل اليه العقل البشرى وقتئذ ،
لم تعد كذلك وصار تلاميذ اليوم يدرسون أن التواء بالذرة قابلة أيضا للانشطار .

على أن هذا لا يعنى أن العالم يقول بالنسبية التى لا تستند الى أى أرض. صلبة ، بل يعنى أن العالم لا يخلق الباب أمام نفسه أو أمام غيره من علماء بل. يتركه مفتوحا لأى اكتشاف جديد يمكن أن يعمل على تعديل النتائج التى توصل إليها . على أن العالم لدى توصله الى اكتشافاته لا يقول « انى أرى وربما غيرى يرى غير ما أرى » بل يقول « انى أرى كذا ولا بد أن غيرى يرى أيضا ما أراه » ولكنه يردف بالقول « ولكن ما أراه أنا أو يراه غيرى. يكون متطابقا فى ضوء تطابق المعطيات والامكانيات المتوافرة . فاذا ما تغير الحال وزادت المعطيات والامكانيات ، فان ما أراه أو يراه غيرى سوف يتباين » ومثال ذلك ما كان عليه الحال قبل اختراع المجهر الالكترونى وما انتهى اليه الحال بعد اختراعه . فلا شك أن اختراع ذلك المجهر قد فتح نافذة جديدة. وصار بمقدور العلماء مشاهدة أشياء لم يكن لأحد أن يشاهدها لمنتهى صغرها . وطبيعى أنه قبل اختراع المجهر العادى فان احدا لم يكن ليستطيع أن يقرر وجود الميكروبات وجودا واقعا بل كان ما يتقرر على سبيل الافتراض فحسب .

فالحقائق العلمية لا يمكن أن تسمى خرافات حتى اذا دخلت عليها تعديلات كثيرة وجوهرية . ذلك أن ما يجعل الحقيقة العلمية كذلك هو المنهج العلمى نفسه . فالعالم لا يعتبر عالما مجرد وقوفه على الحقائق الموضوعية ، بل لتدرعه بالمنهج العلمى . وقد قلنا إن من أساسيات ذلك المنهج ذلك الشك المنهجى أو بتعبير آخر عدم القول المسبق بمقررات معينة وعدم محاولة البرهنة على معتقدات راسخة فى نفس العالم بوسائل علمية . فالعالم يجرى وراء الظواهر ولا يحمل الظواهر على الجرى وراءه . فاذا ما قسر العالم مشاهداته على أن تتخذ لها مجرى معيناً ، فانه يكون بذلك قد استحالك من عالم الى دجال . فالعالم يستنطق الظواهر ويفتش عن الحقائق أيا كانت ويسجلها ثم يقيم بينها روابط وعلاقات . وحتى بالنسبة لتلك الروابط والعلاقات ، فانه يستبعد حتى عقله كلما وجد الى ذلك سبيلا . فعندما تم اختراع الآلات الحاسبة الإلكترونية (الكمبيوتر) فان العلماء افسحوا لها المجال لتحل

علمهم فيما يتعلق بالعلاقات والروابط بين المقومات المعرفية . فالعلماء يعملون . كفريق في تجميع الحقائق وفي استنطاق عالم الأشياء والأحياء ، ثم يشربونها لتلك الحاسبات أو العقول الالكترونية ، ثم يتركون لها فرصة إقامة الروابط والعلاقات بين المقومات المعرفية التي قدمت إليها . وواضح أن ما تقرره تلك الحاسبات الالكترونية لا يغلق باب الاحتمالية بل العكس هو الصحيح . ذلك أن تيار المقومات المعرفية مستمر في التدفق والتنوع مما يجعل النتائج الذي تقدمه تلك الآلات الحاسبة الالكترونية قابلا للتعديل باستمرار .

وعلى هذا فان الاحتمالية أو الشككية المنهجية تظل هي الديدن الذي لا يمحى عنه العالم والا فقد اهل سمة من سماته الجوهرية . وهذا يسوقنا الى التساؤل عن الفرق بين الشك العلمى وبين الشك الفلسفى ، وهو ما سوف نعرض له فى الموضوع التالى .

المعنى الفلسفى :

هناك فى الواقع ارتباط وثيق بين العالم والفيلسوف من حيث أن كلا منهما يتخذ من الشك وسيلة ومنهجاً فى التفكير . فالعالم لا يضع فى حسبانهِ نتائج معينة وهو مقدم على بحوثه العلمية ، وكذا الحال بالنسبة للفيلسوف . على أننا نستطيع فى الواقع أن نميز بين نوعين من الفلاسفة : النوع الأول — الفلاسفة التقليديون ، والنوع الثانى — الفلاسفة العلميون . والواقع أن النوع الأول من الفلاسفة يتمثل فى عهد الفلسفة قبل استقلال العلوم عنها حيث كان الفيلسوف يقدم نظرة شاملة الى الوجود وقد ضم فى أنحائه جميع المعرفة أو جل المعرفة التى كانت سائدة فى عصره . أما النوع الثانى من الفلاسفة فانهم يتمثلون فى أولئك الفلاسفة الذين يتناولون القوانين العلمية فى علم أو أكثر ويمتدنون بها باعتبار أن تلك القوانين تشكل الحامة أو الجزئيات التى يبدأ منها الفيلسوف عمله . فبينما يبدأ العالم بالمحسوسات يجرى عليها تجاربه ، فان الفيلسوف العلمى يتناول القوانين العلمية وينظر إليها كما لو أنها خامات يجرى عليها تجاربه . وواضح أن ما يقصد اليه الفيلسوف العلمى هو نفس ما يقصد اليه العالم وهو جمع الكثير تحت مفهوم واحد . فالعالم الذى يقول « إن المعادن

تتمدد بالحرارة « يكون قد جمع الكثرة - وهى المعادن - تحت مفهوم واحد هو التمدد بالحرارة . ونفس الشيء يفعله الفيلسوف . ولتأخذ مثالا بفيلسوف تطورى ما . إنه يتخذ من نظريات التطور فى المجالات المتباينة كالمجال البيولوجى والمجال الجيولوجى والمجال الفلكى والمجالات الحضارية المتباينة كاللغات وغيرها نقط ارتكاز ينطلق منها فى تكوين فلسفة تطورية عامة تقسم فى رحابها جميع المجالات المتباينة التى عكف علماء تطوريون متباينون على تناولها بالبحث والاستقصاء .

ونستطيع فى الواقع أن نميز بين نوعين من الشك الفلسفى كما سبق لنا أن ميزنا بين نوعين من الفلاسفة . فالفلاسفة السابقون على استقلال العلوم كانوا يتذرعون بنوع معين من الشك الفلسفى ، بينما يتذرع الفلاسفة العلميون بنوع آخر منه . ولعلنا نقول إن شك الفلاسفة السابقين على استقلال العلوم عن الفلسفة كان شكاً حقيقياً وأصيلاً . وكان الشك عندهم هو شك فى العقائد الشائعة ، سواء كانت عقائد دينية أم كانت عقائد اجتماعية أو عقائد سياسية . ومن هنا فإن شكهم فى مجال ما من المجالات كان فى مقابله إيمان جازم وعميق بخصوصه ، به أنفسهم ويأخذون فى الدعوة اليه . ويثبته فى تلاميذهم والمقررين اليهم . ولتأخذ مثالين ندلل بهما على ما نقوله هنا هما أولاً . -سقراط - ، ثانياً فيثاغورس . فكل منهما كان يناهض مجموعة من العقائد التى استشرت وتمكنت من عقول وقلوب الناس ، وكل منهما قد اصطبغ لنفسه مجموعة من التلاميذ يثبت فيهم معتقداته الجديدة . وكل منهما كان يستخلص العقل ذريعة لتأكيد معتقداته والطعن فى المعتقدات السائدة فى عصره .

ولقد يصح لنا أن نقول إن هذه الفئة من الفلاسفة كانوا بمثابة أنبياء عقلائيين . والفرق بين النبي والفيلسوف من هذا النوع ، هو أن النبي لم يكن كيعزى ما يدعو اليه الى نفسه ولم يكن يزعم أنه توصل الى ما توصل اليه من كشف إيمانية بجهده الشخصى ، بل إن تلك الكشف كانت تنزل اليه بوحى أو إلهام ، وكانت الصلة بينه وبين السماء هى صلة من يسلم رسالة كلف بأن يسلمها الى الناس الذين لم يكلف بأن يبلغهم بمضمون تلك الرسالة .

فالفضل إذن ليس لاجتهاد النبي من الأنبياء بل إنه مجرد رسول يحمل الى الناس توجيهات سماوية تسمو على فكره وتعلو على قدرته الذهنية بل وعلى القدرة الذهنية لجميع الناس قاطبة . ولكن الحال ليست كذلك بالنسبة للفيلسوف الجامع — إذا صح هذا الوصف نطلقه على الفلاسفة السابقين على العلماء — فهو يقرر أن ما يقدمه الى تلاميذه إنما هو من صميم فكره ومن عصاره ذهنه . وأكثر من هذا فانه يقول لم ضمنيا إنه يزعم أنه أكثر ذكاء وإعمالا لعقله من أى شخص آخر . وشاهد ذلك أنه يفند العقائد الدائعة ببراہين عقلية لا تقبل الجب ولا تلين أمام قوى النقد الذهنية . فاذا ما أريد لتلك الفلسفة أن تحقق فليس إذن من سبيل الا بالقضاء على الفيلسوف نفسه : ولكن حتى قتل الفيلسوف سوف لا يجدى شيئا طالما استطاع أن ينشر فلسفته بين تلاميذ له اقتنعوا بها وكفروا بتلك المعتقدات الشائعة .

فالشك عند الفيلسوف الجامع هو شك موجه الى الدائع من الافكار والمعتقدات . ويقابل هذا الشك ايمان فيما يذهب اليه الفيلسوف وما ينادى به . على أن الفيلسوف لا يحمل أتباعه على الايمان الأعمى بما يقول ، ولا يوجه جهده الى عواطفهم يلعب عليها ويثيرها ، بل هو يحاول إقناعهم فحسب بل إنه يؤكد لهم في كل موقف أنه مستعد للاستماع الى ما يخالف عن آرائه منهم . يأخذ في إقناعهم ببطان فكرهم وصلابة فكره . بيد أن تلميذا أو أكثر من تلاميذ الفيلسوف ربما ينشقون عنه وقد وجدوا في أفكاره جوانب ضعيفة فأخذوا لأنفسهم وجهة مباينة للوجهة التي يتجه اليها أستاذهم . ومن ثم فأنهم يبدأون في انشاء مدرسة جديدة خاصة بهم ويجمعون حولهم أتباعا ومريدين وتلاميذ . وتبدأ الدورة من جديد حيث يأخذ تلميذ أو أكثر من التلاميذ الجدد في الانشقاق والعصيان الفلسفي على الأستاذ الجديد ويعمدون الى إقامة مدرسة جديدة . وهكذا دواليك بالنسبة للأجيال من الفلاسفة . وهذا ما نلاحظه في السلسلة الثلاثية التي بدأت بسقراط ثم أفلاطون ثم أرسطو وقد استمررت السلسلة بعد ذلك في تلاميذ كل من أفلاطون وأرسطو على هيئة مدارس فلسفية تتوالد بعضها من بعض .

والواقع أن الشك الفلسفي عند الفيلسوف الجامع كان مفيدا للفلسفة على عكس الشك الديني الذي كان ضارا بالدين . ذلك أن الفيلسوف عندما يشك فإنه يخرج بنظريات فلسفية جديدة تضاف الى التراث الفلسفي في تاريخ الفكر الانساني . أما الشك في الدين فإنه يعد هدمًا لكيانه وإضاعة لقوامه ومسحًا لجوهرة . ولذا فإن الشكاك الدينيين يرمون بالهرطقة تارة ، وبالحاد والزندقة تارة أخرى ، ولا يتم الاعتراف بهم من جانب الجهات الدينية المسئولة عن قوام الدين ومعتقداته سليمة بغير أن يشكك فيها أحد وبغير أن يعدل أحد في اصولها من قريب أو من بعيد .

وبالنسبة للفيلسوف من النوع الثاني — وهو ما أسميناه بالفيلسوف العلمي — فإننا نقول ان شكه من نفس نوعية شك العالم . فهو يجمع النظريات الجزئية ويتركها تلتئم في ذهنه ثم يصيغها بقلمه بحيث يجعل من شتات النظريات اثلافا والتقاء في نظرية واحدة جامعة هي في الواقع فلسفة ذلك الفيلسوف العلمي . وقد ضربنا مثالا على ذلك بالفيلسوف التطوري الذي يلاثم بين نظريات التطور في المجالات المتباينة بحيث يستخلص منها جميعا نظرية تطور واحدة جامعة مانعة لها جميعا .

بيد أن الفيلسوف العلمي لا يقصر همه على إحداث تألف وانسجام بين النظريات الجزئية التي يعتمد إلى تناولها ، بل إنه يقوم أولا بعملية هدم ثم يقوم بعد ذلك بعملية بناء . فهو وان كان يتناول تلك النظريات بالدراسة والتفكير والتأمل ، فإنه لا يكون في موقفه العقلي بازائها موقف المسلم بها بغير قيد أو شرط ، بل هو يكون في نفس الوقت في موقف الشاك فيها . ولعله يرفض بعض ما يقع عليه بل ويؤكد بطلانه وفساد الأساس الذي يقوم عليه . فكما أن العالم لا يكون مجرد مستقرىء لما تبين عنه الخامات من ظواهر بل هو يحدث نوعا من التصادم بين ما يحمله في ذهنه من أفكار وبين ما يشاهده أو يحسه بحيث يتأتى عن ذلك الاصطدام نظرية علمية ، كذا فإن الفيلسوف العلمي لا يكون على بياض بازاء ما يتناوله من نظريات علمية جزئية . إنه إنه يحمل في عقله أفكارا وفروضا ثم يحدث تصادما بين ما يحمله في ذهنه

مبنيًا وبين ما يقف عليه من نظريات : ويتأتى عن ذلك التصادم النظرية الأكبر - أعنى فلسفة ذلك الفيلسوف العلمى .

والواقع أن هناك قطاعا مشتركا من الشك بين الفيلسوف الجامع وبين الفيلسوف العلمى يتبدى فى تلك الشكوك التى يلقيان بها على الفلسفات والمعتقدات الشائعة وذلك بتحديد نقاط الضعف فيها وما وقع فيه الحاملون لها والمؤمنون بها من أخطاء . وشاهد ذلك مثلا ما أبان عنه فرنسيس بيكون من أوهام أخذ ينبه الناس من حوله إليها للحذر منها والتلخص من برائتها . فرسالة الفيلسوف رسالتان : الأولى - التشكيك فيما هو قائم وشائع لأنه لا يقوم على أساس منطقي مكين ، والثانية - تقديم البديل لما هو قائم بعد بلورة فلسفة جديدة مبينة للفلسفة القديمة . ويصح للفيلسوف أن يعدل من الخطوط التى رسمها وسار عليها وابدال غيرها بها . فهو يشهر سلاح الشك المنهجي حتى ضد فكره وفلسفته .

المعنى الأخلاقى :

بينما نجد أن الشك كما تناولناه فى الموضوعات السابقة قد انصب بصفة أساسية على الناحية العقلية ، فإننا نجد الشك فى هذا الموضوع يتسع من المجال العقلى إلى مجالين آخرين هما المجال الوجدانى من جهة ، والمجال التصرفى الإداي من جهة أخرى . ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن الشك بالمعنى الأخلاقى يرتبط بالعقل أيضا . ذلك أننا نستبعد من مجال الأخلاق كل ما يصدر عن الإنسان بغير وعى أو بغير إرادة من جانبه . فالمسئولية الأخلاقية تنتفى تماما من جميع ألوان السلوك التى تخرج عن إطارى الشعور والإرادة . بيد أن هذا لا يعنى أننا لانصدر أحكاما أخلاقية على التصرفات التى تصدر عن الشخص وهو فى حالة فقدان الشعور أو فقدان الإرادة بل يعنى أننا نكتفى فى مثل تلك الحالات بالحكم على السلوك كموضوع وأداء وتوقف فى نفس الوقت عن إصدار أحكام أخلاقية على صاحب السلوك باستثناء ما يكون فى مقدوره فعله أو توفير التدابير اللازمة قبل الإتيان بالسلوك وقبل

الانحراف في حالة اللا شعور أو حالة فقدان الإرادة : فالشخص المصاب بالتجوال النومي *Smnambulism* لا يكون مسئولاً عن تصرفاته التي يأتيها في أثناء تجواله . ولكن يمكن أن نحمله مسئولية أخلاقية سابقة لانحرافه في مثل ذلك التجوال . فإذا قام المصاب بهذا المرض بتناول سكين وطعن بها شخصاً ما ، فإننا لانحمله مسئولية الفعل في أثناء تجواله النومي بل نحمله مسئولية أخلاقية أخرى سابقة على تلبسه بالحالة . فلقد كان من المفروض عليه أن يستبعد جميع ما يمكن أن يعرضه أو يعرض غيره للخطر قبل توجيهه إلى السرير .

ولعلك تلاحظ من هذا المثال أننا نتناول ألوان السلوك الأخلاق بالعقل والموازنة الذهنية بحيث لانعطي حكماً للشخص أو ضده إلا بعد أن نتفحص حالته ونقف على جميع الظروف المحيطة به . فإذا ما عمد أحد المنومين المغناطيسين إلى السيطرة على عقل أحد الأشخاص وجعله تحت تأثيره وطوع بئانه وقد جعله في حالة خضوع نفسى تقبلي لجميع ما يؤمر به بغير نقد أو مقاومة ، ثم أمره بأن يتوجه إلى شخص ما ويقتله ، فإننا لانستطيع أن نصدر حكماً أخلاقياً أو قانونياً على تصرف مثل ذلك الشخص المنوم وقيامه بالقتل طالما أنه لم يعلم شيئاً عن نوايا المنوم ، وطالما أنه لم يجد حيلة يقاوم بها التأثير النفسى الذى تدرع به ذلك المنوم المغناطيسى . وهناك في الواقع حالات هتكت عرض كانت الضحايا فيها سيدات بريئات ولكنهن وقعن تحت تأثير منومين خطيرين سيطروا عليهن وقادوهن إلى طريق البغى بغير أن يكون في مقدورهن المقاومة أو الهرب .

ولعل أول موقف شكى أوضحناه بما قدمناه من أمثلة هو ذلك الموقف الذى نكون فيه بازاء إصدار أحكام أخلاقية على التصرفات التي تصدر عن الآخرين أمامنا . فبعد أن كنا نصدر حكماً أخلاقياً مضاداً للشخص الذى يصدر عنه سلوك ردىء من وجهة نظرنا ، فإننا بدأنا في ضوء ماسبقناه قبلاً

نتناول صاحب السلوك من زوايا متباينة ، بل إننا أخذنا في توجيه الشك إلى مبدأ الأرثوذكس إلى قاعدة مطلقة منها كانت :

خطة قاعدة أخلاقية تقول « القاتل مذنب ومن ثم يستحق القتل » إن هذه القاعدة الأخلاقية بدأت تنزلزل بالشك فيها طالما أخذنا نقوم بدراسة من يقوم بالقتل . لقد نجد القاتل مجنوناً أو متخلف العقل أو شخصاً وقع تحت تأثير منوم أو غير ذلك من ظروف تجعلنا نزلزل القاعدة العامة التي تناولناها بادية ذي بدء بشكل مطلق وعام وشامل . فالزلازل التي أحدثناه هنا هي زلازل أصاب التعميم والاطلاق وشمول القاعدة الأخلاقية لجميع الحالات في جميع الأماكن وفي جميع الأزمان .

وويتجهز آخر فإن النسبية قد خلعت محل الإطلاق ، ولم تعد القاعدة العامة التي تضمنتها جميع الناس في جميع الأماكن والأزمان صالحة للتطبيق ، بل صرنا ننزله من العموم إلى الخصوص ، ومن الحكم العام إلى الحكم الخاص ، ومن التصور المجرد إلى الواقع الحسي والظروف والملازمات التي ترتبط بالواقع الحسي .

ولاشك أن أغلب المجتمعات تقاوم هذه النزعة النسبية : ذلك أنك إذا أفسحت المجال للنسبية وقت بإحلالها محل الإطلاق ، فإنك سوف تخرج العالمية العظمى من حالات الخطأ من مجال المسؤولية الأخلاقية أو حتى من نطاق المسؤولية القانونية . لقد تجد أن الوراثة لها دورها ثم تجد أن البيئة لها دورها الفعال ، بل إننا إذا ما سرنا وراء التفسيرات النفسية لسيكولوجية الجريمة ، فإنك سوف تستبعد معظم الجرائم التي يقرها الأفراد من نطاق الشعوب الكامل والارادة الكاملة ، وسوف تحاول بالتالي انتحال المعاذير لكل من يقع في خطأ أخلاقي أو قانوني .

ولكن القانون يستهدف الحفاظ على الجماعة واستتباب الأمن والطمأنينة للأفراد أكثر من تحري العادلة المطلقة التي تتحرى الشعور والإرادة والعلم

بالصواب والخطأ . وشاهد ذلك أن القانون لا يعنى الجاهل بالقانون من المسؤولية ، كما أنه لا يبرئ ساحة من يقع في حالات القتل الخطأ أو من يبرهن للقاضي على أنه كان تحت تأثير شخص آخر غرر به . فأنت اذن كباحث نفسى تختلف تماما عنك كقاض ينفذ القانون . وأكثر من هذا فأنت كفائد لمجموعة من الأطفال أو المراهقين أو الشباب تختلف عن كونك رائدا اجتماعيا أو زعيما لمجموعة عنك كعالم نفس تفهم الديناميات النفسية التى تسوق المرء إلى التدرج بأساليب وأنماط سلوكية متباينة . فى موقفك كزعيم أو رائد لمجموعة تصدر أحكاما أخلاقية بل وتنفذ مجموعة من القوانين أو اللوائح التى تنصب على صورية الأفعال بغير نظر إلى الحالات الفردية أو الاعتبارات الشخصية أو إلى الظروف والملابسات والعوامل النفسية التى ساقبت أحد أفراد المجموعة إلى الخروج على القاعدة العامة المفروضة على الجميع . ومن المؤكد أنك إذا اتخذت موقف عالم النفس وأخذت فى فحص كل حالة من حالات الخروج على النظام ، فالأرجح أنك سوف لاتصدر أى حكم أخلاقى تخطيء به أى شخص إلا فى النادر . ولعلك تعلق لإصدار أحكامك الأخلاقية على غالبية الأفراد حيث تجد نفسك بحاجة إلى مواصلة الدراسة والغور فى باطن الشخصية للوقوف على الأسرار والديناميات التى دفعت بالمرء إلى الخروج على القاعدة المرسومة .

ومن الشكوك التى يمكن أن تلقى بظلالها على الأحكام الأخلاقية ما يتأتى عن الخروج من مرحلة الطفولة والانخراط فى مرحلة المراهقة ثم مرحلة الشباب ومن بعدها الرشد ، وكذا الخروج من إطار البداوة للانخراط فى إطار الحضرة . فالطفل والبدائى ينحوان إلى الإطلاق فى أحكامهما الأخلاقية ، فيقولان إن الخير خير دائما بالنسبة لجميع الناس فى جميع الأماكن وجميع الأزمنة ، والشر شر دائما بالنسبة لجميع الناس فى جميع الأماكن وجميع

الأزمة . أما الشخص وقد انخرط في المراهقة ثم الشباب ثم الرشد ، وكذا الحال بالنسبة للشخص الذى يخرج من إطار البداوة إلى إطار التحضر ، فإنها يقولان إن الخير والشر نسيان . فاذا سألتها عن حكمها بازاء شخص ما قتل شخصا آخر ، فإنها سوف يبادرانك بسؤال آخر : لماذا ؟ فهذا الاستفسار يعمل على زلزلة الاطلاق في الحكم ويدفع بالشخص الناضج أو بالشخص المتحضر إلى الاستفسار عن الأسباب والدوافع والظروف سواء كانت أسبابا نفسية داخلية أم أسبابا وراثية أم أسبابا موقفية . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الحكم الأخلاقى يصدر على مقياس الشخص صاحب السلوك وليس على مقياس عموم البشر بغض النظر عن أى اعتبار آخر .

ومن الشكوك التى يمكن أن توجه إلى الأحكام الأخلاقية العامة ذلك المجال النسبى الواسع فى القيم الأخلاقية التى تجعل ما هو خير فى أحد المجتمعات شراً فى مجتمع آخر . فتعدد الزوجات فى أحد المجتمعات دليل على مدى ما يتمتع به الرجل من قدرة جنسية ، بينما يعتبر فى مجتمع آخر مؤشرا إلى تخلف الرجل عن ركب الحضارة . وكثرة الانجاب تعد مفخرة للمرأة فى أحد المجتمعات ، بينما تعد مؤشرا للتأخر ونقص الوعي فى مجتمع آخر : والعدوانية فى أحد المجتمعات دليل على الشجاعة ، وفى مجتمع آخر دليل على الهيجية . والصدق القراح يعد قمة الفضيلة فى أحد المجتمعات ، بينما يعتبر سداجة مذمومة فى مجتمع آخر . وفى مقابل الشك فى جميع القيم الأخلاقية من حيث قدرتها على الثبات والتعميم ، فإن هناك من يؤكدون أن هناك فرقا جوهريا بين المبدأ الأخلاقى وبين القاعدة الأخلاقية ، فالقواعد الأخلاقية نسبية ، ولكن المبادئ الأخلاقية مطلقة ولا يتخالفها أى نوع من الشك فى عموميتها . والمبدأ الأخلاقى كأن تقول « كن عضوا مفيدا ومؤثرا فى مجتمعك ، أو أن تقول انتصف المظلوم إذا كان دفع الظلم فى مقدورك » .. إلى غير ذلك من مبادئ أخلاقية تشكل دائرة أوسع من القواعد الأخلاقية التى يمكن إضفاء الشك عليها .

المعنى السيكلوجى :

بينما نجد أن الشك بالمعنى الأخلاقى ينصب بالدرجة الأولى على القيم والمعايير التى تقاس فى ضوئها التصرفات وقد لقيت أحكاما تصدر بازائها ، فاننا نجد أن الشك بالمعنى السيكلوجى يرتبط بأحاسيس المرء وما يدور بخلفه من مشاعر وعواطف وانفعالات . ولعل الحكم الذى يصدر فى هذه الحالة إنما يتعلق بالمعقول والعادى من الشك وكذا الشاذ منه . فنحن نحكم على من يصادفوننا فى الحياة من حيث مدى تمتع الواحد منهم بالصحة النفسية فى ضوء مدى اعتبال الشك فى حياتهم وفى علاقاتهم . فإذا كان الشك المعتمل لديهم مناسباً ، قلنا عندئذ إن الشخص متمتع بصحة نفسية جيدة . ولكن إذا زاد الشك عن المعتاد وعن الشائع بين الناس أو إذا قل أو انعدم لدى المرء ، فاننا نصدر إذن حكماً عليه بأنه مريض نفسياً .

والشك السيكلوجى قد يتبدى فى الشك فى الذات . والشك فى ذات الشخص يمكن أن يتخذ له أشكالاً متباينة وموضوعات كثيرة ، من تلك الموضوعات التى يمكن أن ينصب عليها الشك الذاتى خيرية المرء . ولعل كل واحد منا يسائل نفسه من وقت لآخر قائلاً : هل أنا شخص خير أم أذى شخصين شرير ؟ ولعل الواحد منا أيضاً - وهو شخص متمتع بصحة نفسية جيدة - قد يهتم نفسه بأنه شخص شرير . ولكن إنهامه ذاك - طالما أنه شخص سوى نفسياً - ينصب على موقف واحد أو على حادثة معينة ، أو على سلسلة من الوقائع أو على نوع من التصرفات اليومية . ومعنى آخر فإن الأحكام التى قد يصدرها الشخص الصحيح نفسياً على نفسه بأنه شرير ، إنما ترتبط بالواقع أو بما يصدر عن الشخص من مواقف وليس على صميم الشخصية . أما الشخص المريض نفسياً ، فانه يصب شكه على صميم ذاته . فهو يعتقد أنه شرير أو دنس أو موصوم بالرداءة التى لا سبيل إلى التخلص منها . ومثل هذا الشخص المريض نفسياً لا يحدد موقفاً أو نوعية من التصرفات التى يكون شريراً فيها ، بل هو يعتقد أن شخصيته ذاتها هى الشريرة .

ولقد ينصب الشك السيكلوجى الذاتى على ناحية أخرى هى الناحية العقلية . والواقع أن جميع الناس يمكن أن يشكوا فى ذاكرتهم بازاء موضوع ما أو بازاء اسم شخص أو بازاء أحد أرقام التليفونات التى دأبوا على استخدامها وقد حفظوها . ولكن الشكوك التى تنتاب الشخص السوى بازاء شىء ما من موضوعات التذكر ، إنما تنصب على موضوع أو مسألة محددة ، ولا تتخذ صفة التعميم . ولكن الشكوك السيكلوجية التذكرية لا تعتبر ظاهرة سوية إذا شملت قطاعا تذكريا بأكمله ، كأن يشك الشخص فى صحة جميع أسماء الأشخاص الذين يتعامل معهم أو اسم أقرب الناس إليه . (وفى بعض الحالات يمكن أن يصيب الشك السيكلوجى التذكرى المرء بازاء اسمه هو . فيأخذ فى التساؤل هل هذا الاسم أو ذاك هو اسمه الحقيقى أم أنه قد نسى اسمه الحقيقى) .

والشك السيكلوجى التذكرى يمكن أن ينصب على قطاع آخر هام هو قطاع الأرقام . وهذا يصح أيضاً ويكون ظاهرة صحية غير مشوبة بالمرض النفسى إذا كان متعلقاً بعملية معينة من العمليات الحسابية ولكنه يكون دليلاً على المرض النفسى إذا ما شمل جميع العمليات الحسابية حتى أبسطها وأيسرها . فالمرء هنا لا يستطيع أن يؤكد صحة أى رقم يتذكره أو نتيجة أية عملية حسابية يجربها فى ذهنه أو بقلمه . ولا يكون السبب هنا النقص فى استيعاب أوليات الحساب ، بل يكون سبباً وجدانياً بحثاً وقد وجدت الانفعالات موضوعاً لها فى العمليات الحسابية فانصببت عليها وأملت بها وتمركزت عليها . ومن ثم فإن الشخص غير السليم وجدانياً وغير المنضبط انفعالياً يصاب بالعجز فى ذاكرته الحسابية بحيث يصير غير قادر على إقامة علاقات فيما بين الأرقام التى يعرض لها ، بل إنه أكثر من هذا ينسى تلك الأرقام على قلبها وبساطتها .

ولقد ينصب الشك السيكلوجى الذاتى على ذكاء المرء وعلى قدرته على التفكير . ونعنى بالتفكير مجابهة المشكلات أياً كانت والخروج من تلك المواجهة العقلية بحل مناسب للموقف . والواقع أن أى إنسان سوى يمكن أن تراوده بعض الشكوك فى مدى نجوع تفكيره بازاء مشكلة ما من المشكلات

التي ثقايله ، ولكنه إذا ما أخذ في التعميم الشكى ، بل إذا أخذ في الشك في قدرته العقلية ذاتها ، وصار يشعر بالعجز عن مجرد تحدى الموقف ، فصار بذلك في حاجة إلى من يتولى قياده في كل صغيرة وكبيرة ، فانه يكون إذن مصابا بالشك السيكلوجى المرضى .

ولقد يتجه الشك السيكلوجى وجهة أخرى غير الوجهة الذاتية فينصب على الأشخاص الآخرين من حول المرء وعلى أولئك الذين يتعامل معهم . وهنا نجد أيضاً أن جميع الناس يتقبلون على حالات من الشك في غيرهم . ولكن الشك الذى ينتاب الشخص السوى الصحيح نفسيا يكون مستندا إلى وقائع محددة وإلى أسباب وجيهة . ولكن الشك الذى لا يستند إلى وقائع موضوعية والذى يتخذ صفة العمومية فانه يكون إذن شكاً سيكلوجياً انفعالياً بل ويعتبر شكاً سيكلوجياً مرضياً وليس شكاً سيكلوجياً من النوع السوى حيث يشترط في هذا النوع الأخير من الشك أن يكون وجدانياً من جهة ، وموضوعياً من جهة أخرى .

ومن أمثلة الشك السيكلوجى الغيرى المرضى أن يتهم المرء كل من يتعامل معهم بأنهم لنصوص ، أو بأنهم فاسقون أو زناة . ومن الطبيعى أن الواحد من أولئك المرضى بالشك السيكلوجى الغيرى لا يستطيع أن يثق فى أى من أفراد الجنس الآخر لى يرتبط بها (أو به) فى علاقة زوجية . فإذا ما تم الزواج فانه ما يفتأ يرتاب فى كل حركة وفى كل ابتسامة وفى كل كله تصدر عن الطرف الآخر . فالزوج من هذا النوع دائم الشك فى زوجته ، معتقداً أنها تتحين الفرص لخيانته . وكذا بالنسبة للزوجة المصابة بهذا اللون من الشك السيكلوجى الغيرى المرضى . إنها تعتقد أن أية امرأة يتعامل معها زوجها فى العمل لابد أن تكون قد أقامت معه علاقة جنسية مريبة .

ولقد يتخذ الشك السيكلوجى الغيرى منجى آخر هو الشك فى أن الآخرين يحكون المؤامرات ضد المرء ويرسمون الخطط للعدوان عليه أو حتى لقتله . وقد يرتبط هذا الشعور الشكى بالاحساس بالاضطهاد . فالشخص المصاب

بهذا النوع من الشك السيكلوجى يجعل من نفسه محورا للاضطهاد والايذاء . فكل طلب لايستجاب له ، وكل جزاء يوقع عليه إنما يكون له تفسير واحد هو أن الناس من حوله يكيّدون له ويتربصون به ويعزّزون الاستمرار في إيذاؤه إلى أن يقضوا عليه تماما .

ومثل هذا الشخص يعتقد بالإضافة إلى هذا — أن أى بادرة سلام أو عطف أو حب ، إنما هى فى الواقع لون جديد متقن من التآمر وتحذير الأعصاب . فالشك الذى يلم بقلب هذا الشخص يكون قد أخذ به كل مأخذ بحيث لايسمح له بأن يخلع عن نفسه رداء الشك فى نيات الآخرين حتى إذا هم قدموا إليه البراهين على حسن نواياهم ، وحتى إذا هم عاملوه بغاية الرفق وقد أحاطوه بالحب ولم يوجهوا إليه أى نوع من الإيذاء أو الاضطهاد .

ولقد يتخذ الشك السيكلوجى وجهة أخرى هى وجهة الخوف من التردى فى الخطيئة . والواقع أن الأشخاص الأسوياء يجب أن يحسوا بمثل هذا الخوف ولكن بشكل معقول وفى حدود الواقع ومتطلباته . ولكن إذا بالغ المرء فى التخوف من الوقوع فى الخطيئة نتيجة مخالفة ما استولى على مشاعره من محرّمات فإنه يكون قد استحال من الجانب السوى إلى الجانب المرضى . خذ مثالا لذلك الشخص الذى يشك فى أن اللحم المقدم إليه بأى مطعم يرتاده لم يتم ذبح الحيوان الذى أخذ منه اللحم بالطريقة الدينية السليمة ، ومن ثم فإنه يحس بأنه مقبل على الوقوع فى الخطيئة إذا هو تناول الطعام أو مسه ، فيرفض تناوله وربما ينصرف من ذلك المطعم إلى غيره ويحدث نفس الشيء بتواتر فى جميع المطاعم التى يرتادها . ولقد يشك بعض المرضى النفسيين بأن كل مايحيط بهم من أشياء قد أصابها شيء من النجاسة ، فيأخذ الواحد منهم فى تطهير تلك الأشياء بكافة وسائل التطهير . ولقد يمتد الشك إلى يدي الشخص فيدأب على الاغتسال أملا فى التطهر وتنقية اليدين من أدران الخطيئة . وفى مثل هذه الحالة يكون الشك المرضى قد استحال إلى وسواس ، وهو ما سوف نعود إلى تناوله لدى دراستنا للوساوس .

ولقد ينصب الشك السيكلوجى على المعتقدات الدينية ذاتها . فيأخذ الشخص السوى فى مثل تلك الحالات بالتفكير والبحث أو بالصلاة حتى يثبت الله إيمانه فى معتقداته الدينية . ولكن فى الحالات المرضية فان المريض نفسيا لا يصل إلى بر الإيمان ولا يستطيع أن يحب شكه بالافتناع ، بل يظل فى حالة من الشك بحيث لا يهدأ له بال . ويكون شكه مصحوبا بمجموعة من الانفعالات . فهو لا يشك شكاً عقلياً فى المعتقدات الدينية ، بل يشك شكاً وجدانياً . فهو يتهم الخالق بالظلم أو بأنه لا يقدم إليه العناية التى يستحقها ، بل قد يصل فى شكه إلى حد الاعتقاد فى أن الاله يقف له بالمرصاد ويوقع عليه ألواناً من العذاب لا يستحقها .

الفصل الثانى

سيكولوجية الشك

الشك وانبثاق التفكير :

سبق أن قلنا إن التفكير هو مجابهة المشكلات التي تعترض المرء ومحاولة التوصل إلى مخرج من تلك المشكلات سواء كانت تلك المشكلات هي عقبات عملية أم كانت صعوبات اجتماعية أم كانت معضلات ذهنية . ولعلنا نضيف إلى هذا أن هناك شرطا أساسيا في التفكير هو وجود اختيارات في الموقف . فإذا لم يكن هناك سوى اختيار واحد على المرء الوقوع عليه والأخذ به وتقبله . فإن التفكير ينعدم إذن . ذلك أن التفكير هو جهد ذهنى يبذله المرء من أجل الوقوف على الوسيلة الناجعة الشافية في الموقف . والوسيلة التي يختارها المفكر قد تكون أداة وقد تكون خامة وقد تكون حيوانا أو إنسانا أو علاقة اجتماعية أو فكرة أو رمزا أو أى شئ آخر من بين اختيارات متعددة كثيرة ومتباينة . فإذا لم يكن أمامك سوى وسيلة واحدة بازاء الموقف الواحد ، وقد فرضت عليك أو فرضتها أنت على نفسك أو آمنت بأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة بغير إجمالة الفكر بين الوسائل الأخرى المتباينة المتوافرة بالموقف ، فأنك لا تكون إذن مفكرا من قريب أو من بعيد . فالفكر إذن هو بذل الجهد لاختيار الوسيلة المناسبة للتدريج بها في أحد المواقف من أجل تحقيق هدف أو بلوغ غاية أو التغلب على مشكلة .

والواقع أن وجود اختيارات متعددة في الموقف الواحد يجعل كل واحد من تلك الاختيارات موضع شك من جانب المرء . ولقد نقول إن وجود اختيار واحد في الموقف يكون على المرء تقبله لا يكون بالتالى إذن هناك مجال للشك فيه . فإذا هو شك فيه ، فإن تقبله له لا يكون عن حرية بل عن إجبار

وقسر وبذا تنتقي صفة الاختيار انتفاء تاما من جانب المرء . فالإيمان تقبل
لذلك الاختيار الواحد الموجود بالموقف ، أما الشك فهو لإعمال الفكر بالمقارنة
والمفاضلة بين اختيارات كثيرة متباينة للوقوع على أحسنها . وباختصار نقول
إن الإيمان تقبل والشك اختيار .

افترض أنك تقيم بأحد الشوارع في إحدى المدن وأن مقر عملك يوجد
بنفس الشارع على مسافة قصيرة بحيث لا يكون عليك إلا أن تسير بنفس
الشارع على قدميك لكي تصل إلى مقر عملك وتعود بنفس الشارع إلى بيتك .
إنك في هذه الحالة لاتفكر بل تسلك سلوكا شبه آلي فيما بين بيتك وبين مقر
عملك . وهذا السلوك شبه الآلي هو في الواقع نتيجة إيمان مطلق بأن ثمة اختياراً
واحد أمامك هو ذلك الطريق الذي تسلكه بين بيتك ومقر عملك ، وأنه
لا يوجد أى اختيار آخر يمكن أن تقع عليه . وعلى هذا فيمكن القول بأن عدم
وجود أى اختيار آخر سوى ذلك الطريق الذي تمشي فيه يوميا قد عمل على
انتفاء التفكير في هذا الموضوع انتفاء تاما ، لأنك لاتفكر ولاتقارن ولاتفاضل
لأن أساس التفكير والمقارنة والمفاضلة وجود أكثر من شيء واحد لإعمال
التفكير والمقارنة والمفاضلة ، وهو الأمر الذي لا يتوافر في موقفك ذاك .

ولكن افترض أنك قمت بسياسة إلى إحدى البلاد الأوربية وقت مجولة
حرة في إحدى المدن وقد سلمك المسئول عن الرحلة خريطة تستهدي بها .
إنك ترغب في زيارة أهم المعالم بتلك المدينة في الوقت المتاح لك البقاء بها
والقيام بجولتك الحرة . إنك ستبدأ أولا وقبل كل شيء في تناول الخريطة
لتأملها ، وسوف يقع بصرك على تلك المعالم السياحية الموجودة على الخريطة .
وبعد أن تتصفح الخريطة فانك تأخذ في إعمال فكرك بالمقارنة بين المعالم
الموجودة عليها وما يمكن أن تقوم بزيارته خلال الوقت المتاح للجولة الحرة .
إنك في الواقع تظل مجيلا فكرك شاكا في القيمة السياحية لكل معلم يقع عليه
بصرك . فأنت تريد اختيار ثلاثة معالم من بين خمسين معلما سياحيا موجودة على
الخريطة . من الواضح أنك إذا آمنت بالخمسين معلما جميعاً ، فانك تكون
ملزما بزيارتها جميعاً . ولكن الوقت المتاح لك لا يسمح لك إلا بزيارة ثلاثة

منها . فماذا تفعل ؟ إنك تأخذ في الشك في قيمة البعض منها ، وتصل في درجة شكك إلى حد النبد والحذف . وعملية الاختيار التي تقوم بها لاتكون قائمة على أساس اختيار مسبق . فطالما أنك أجلت فكرك وقت بالمقارنة والمفاضلة فانك تكون مفكرا وبالتالي فانك تكون قد انتحيت منحى الشك .

وإذا نحن تتبعنا الإنسان منذ أن يكون جنينا في بطن أمه إلى أن يولد ثم ينمو ثم ينضج ثم يصير كهلا فشيخا فهرما إذا ما قدر له أن يعيش حتى الهرم ، فاننا نجد أن مدى تمتعه بالفكر يسير في خط متواز مع مدى تمتعه بالقدرة على الاختيار من بين اختيارات متعددة ومتباينة . وواضح أن الجنين في بطن أمه لا يفكر على الإطلاق وذلك لأنه لايقوم باختيار أى شيء، بل هو يضطلع . بعملياته الحيوية بطريقة آلية بحتة . ولسنا نجد اختلافا بينا في التفكير فيما بين الجنين في بطن أمه وبين الوليد والرضيع . فكل ما يقوم به الوليد أو الرضيع من نشاط إنما يكون مسوقا فيه بالغرائز . والغرائز عبارة عن مناشط مرسومة بشكل تطابق بالنسبة لجميع أبناء النوع الواحد من أنواع الكائنات الحية . فلا فرق بين إقبال وليد أو رضيع هندي أو مصرى أو انجليزى على ثدى الأم وبين طفل آخر عاش منذ آلاف السنين في إحدى القبائل البدائية . وأكثر من هذا فان الطفل البشرى لا يختلف في هذا عن الطفل الشمبانزى . فكلاهما لا يختار بل يقبل على انتهاج سلوك تطابق تماما مرسوم بشكل مسبق للنوع كله من أنواع الكائنات الحية وليس لفرد منها بالذات .

ولاشك أنه كلما قيض للواحد من أفراد الإنسان أو من أفراد الشمبانزى العمر والانخراط في نطاق بيئة اجتماعية من نفس أبناء النوع أو من أبناء جنس قريب ، فان مدى الاختيارات يتسع . ولعلنا في غنى عن ذكر المجال الواسع للاختيارات أمام جنس الإنسان عنها لدى نوع الشمبانزى . ونستطيع أن نقرر أن هناك مقومين أساسيين ميزا الإنسان عن جميع الكائنات الحية الأخرى وقد بسطا أمامه مجالا واسعا من الاختيارات : المقوم الأول – هو تمتع الإنسان بجهاز عضلى مرن وبخاصة تمتعه باليدين والأصابع المتحركة بأكثر حرية من أى كائن آخر بما في ذلك الشمبانزى . وهنا نذكر أن تمتع

الشمبانزى بالقوة فى العضلات بحيث يستطيع أن يعلق نفسه فى فرع شجرة بقبضة يد واحدة ، يفضل به بكثير دقة وتخصص أصابع الإنسان ومرونتها بحيث يتسنى له استخدامها بأكثر مرونة بكثير مما يستطيع الشمبانزى أو غيره من أنواع حيوانية قريبة من نوع الإنسان . أما المقوم الثانى الذى يتمتع به الإنسان عن الشمبانزى وغيره من أنواع حية فهو القدرة على استخدام الرمز محل الأصل الشئى وقدرته على الترميز للعلاقات بل وقدرته على توريث الرموز لجميع الأجيال التالية مهما كانت بعيدة عنه . ناهيك عن النقل المسمى للرموز فى الزمن أو الجيل الواحد .

فالاختيارات أمام الجنس البشرى قد اتسعت وتداب على الاتساع أكثر فأكبر بفضل هذين المقومين الأساسيين . وبتعبير آخر فإن التراث التراكمى من جهة ، وتفاعل المقومات التراثية مع المؤثرات الآتية والعلاقات المتشابهة الكثيرة والمتدفقة قد أفضى ويفضى إلى الزيادة المستمرة فى مجال الاختيارات المتاحة أمام بنى البشر . وكلما زادت الاختيارات أمام الإنسان ، كان شكه أوسع نطاقا . ولكنه ليس شكاً إنكارياً ، بل هو شك تفاضلى . فثمة فرق جوهري بين أن تشك لتنكر ، وبين أن تشك لتختار . فإذا عرض التاجر أمامك نوعين من القماش لتختار واحدا منهما وتشتريه ، فإن تفكيرك يكون شكياً بازاء النوعين ، ويكون شكك فى هذا الموقف شكاً تفاضلياً : وواضح أن التاجر إذا ما عرض عليك عشرة أنواع من القماش ، فإن مجال اختيارك التفاضلى يتسع ، وبالتالي فإن فكرك يشتد وتبدل طاقة ذهنية أكبر فى الاختيار . فمن المفروض عليك فى مثل هذا الموقف أن ترفض تسعة أنواع من أنواع القماش المعروضة أمامك وأن يقع اختيارك على واحد منها فحسب .

ونستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن الإنسان الذى يقيض له مدى أكبر من الاختيارات يكون أخصب فكراً وأوفر بدلاً للجهد العقلى . وعلى نقيض ذلك بالنسبة للشخص الذى تنحصر مجالات اختياره فى عدد ضئيل من الاختيارات . ومن هنا فإننا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن إنسان الحضارة يجد أمامه مجالاً أوسع من الاختيارات المتباينة مما يتاح للإنسان البدائى . ولكن يبدو أن

المدنية التي تعتمد على تدليل أبناء الأجيال الجديدة قد حرمتهم في نفس الوقت من كثير من الاختيارات التي كانت متاحة أمام أبناء الأجيال السابقة القريبة. وبالمناخ فأننا ننمي على التربية التي تقرر كل شيء يكون على التلاميذ أو الطلبة كسبة بطريق مايسمى بالمناهج الدراسية والكتب المدرسية ، مما يقلص مجالات الاختيار أمامهم ويضيق بالتالي مجال تفكيرهم .

الشك ومراحل النمو :

قلنا في الموضوع السابق ان الشك يتزايد اتساعا وشدة كلما زادت رقعة الاختيارات التي يختار المرء من بينها اختيارا واحدا أو أكثر من اختيار واحد. وقلنا أيضاً إن الجنين والوليد والرضيع لا يشكون لأنهم لا يختارون بل يندفعون بالغريزة نحو اتخاذ نمط أدائي واحد لا يحيدون عنه تقريبا . وقلنا أيضاً إن السلوك المرسوم للمرء مسبقا لا يكون قابلا للشك والا فإنه يكون بذلك قد تجاوز مع سلوك آخر ممكن ، فيكون بالموقف إذن اختياران على المرء أن يختار واحدا منها .

وعلينا في هذا المقام أن نتناول مدى ذبوع الشك في مراحل النمو المتباينة . ولقد سبق أن قررنا أن الشك ينتهي انتفاء تاما في الطفولة الباكرة ثم يأخذ في البروز كلما اتسعت مجالات الاختيار أمام الطفل . بيد أننا نستطيع أن نقول إن ثمة اختيارا واحدا يتوافر أمام الرضيع هو الاختيار بين أخذ الثدي وبين التأني عنه . ولكن من الممكن أن نقول إن هذا لا يعد اختيارا في الواقع لأننا نعتقد أن الاختيار لا يتم إلا بين الإيجابيات أو بين السلبيات . فإذا أنت توجهت لزيارة أحد أصدقائك فسألك : هل تشرب كوب شاي أم فنجان قهوة ؟ فيكون أمامك الخيار بين هذين المشروبين . ولكن إذا سألت نفسك : هل أذهب اليوم إلى عمل أم أمتنع عن الذهاب إلى العمل ؟ فأننا نرفض أن يكون هناك خيار في هذا السؤال ، وذلك لأنه مفاضلة بين اثنين شيء إيجابي وبين الامتناع عن القيام بنفس ذلك الشيء الإيجابي . فالعلاقة بين الذهاب إلى العمل وبين الامتناع عن ذلك ، شبيهة أو مطابقة للعلاقة بين الوجود والعدم . وطالما أننا لانعتبر العدم وجودا لأنه عدم ، فأننا ننفي الاختيار بين الوجود والعدم .

ومن المؤكد أن الكثير ممن يقرءون هذا الكلام سوف يعترضون مؤكدين أن الاختيار يمكن أن يقوم بين التصرف وبين الامتناع عن الاتيان بنفس ذلك التصرف ، كالتحيار بين الصوم والافطار ، وبين تقديم الخير وعدم تقديمه ، وبين الالتزام بتنفيذ القانون ومخالفة أوامر القانون إلى آخر تلك الثنائيات التي لاتعدو أن تكون وجودا وعدم وجود . والواقع أننا نستبعد من مجال الاختيار جميع الأوامر بجميع أشكالها . فطالما أن من المفروض عليك أن تصوم أو أن تفعل الخير أو أن تنفذ القانون فانك لاتكون مخيرا بين الاتيان بالفعل أو الامتناع عن إتيانه ، بل تكون مأمورا بفعله ولايكون أمامك سوى التنفيذ . فاذا امتنعت عن الادعان فانك تكون عاصيا .

وشرط الاختيار إذن يكون بين شيئين إيجابيين أو أكثر ، أو بين شيئين سلبيين أكثر . ولقد سبق أن ضربنا أمثلة للمفاضلة بين الإيجابيات كأن تختار نوعا من القماش من بين أنواع كثيرة تعرض أمامك . والاختيار بين السلبيات كأن تحيرك أحد قطاع الطريق بين أن تعطيه حافظة نقودك وبين أن يقتلك . فكلتا العملين سلبي وضار بك ، ولكنك ستختار واحدا من العملين السلبيين يكون أخف وطأة عليك وأقل ضررا لك .

وعلى هذا فاننا نستبعد ما قد يظن انه اختيار من جانب الرضيع بين أن يأخذ ثدي أمه وبين أن يعزف عنه . وقس على ذلك جميع أنواع المناشط التي يقدمها الكبار للصغار فيقبلون عليها أو يعزفون عنها . والواقع أن الاختيارات التي تتوافر حول الطفل بحيث تكون اختيارات مناسبة له ويكون بمقدوره أن يفاضل فيما بينها ، إنما تبعث فيه التفكير ، أو بتعبير آخر تجعله يتناولها بروح الشك النقدي حيث يعتمد إلى تقييم كل منها ويفاضل فيما بينها لكي يقف على الأفضل فيأخذه والأقل فضلا فينبذه .

على أننا نقرر بصفة عامة أن هناك مراتب هرمية في الاختيارات يمر بها المرء خلال مراحل نموه مع التنبيه إلى حقيقة هامة وهي أن كل مرحلة نمائية يمر بها المرء لاتستبعد المراتب الاختيارية السابقة بل تحتفظ بها وتضيفها إلى

المرتبة الاختيارية الجديدة التي تنحو اليها مرحلة النمو الجديدة التي يمر بها الشخص . ونستطيع القول بأن الطفولة برمتها ترتبط في اختياراتها بالمحسوسات ولكن هذا لايعنى أن هناك فاصلا بين اختيارات الطفولة الحسية وبين اختيارات المراهقة العقلية . ولقد نقول إن السمة الشائعة في اختيارات الطفولة هي سمة الحس ، بينما نقول إن السمة الشائعة في المراهقة هي السمة العقلية . فعقل الطفل عقل حسي مباشر ومرتبطة بالواقع الموضوعي المتوافر في البيئة المحيطة به . ومعنى هذا في الواقع أن عقل الطفل يكون أكثر قابلية للنمو كلما توافرت أمامه اختيارات أكثر خصوبة وأكثر تنوعا .

ولكن الذي يقصر مجال الاختيارات في الطفولة على الموضوعات الحسية إنما يكون قد ظلمها وأجحف بحقها . ذلك أن الطفل يتمتع غالبا بقدر كبير من الخيال بحيث يستطيع أن يجعل الكبير صغيرا والصغير كبيرا هائلا ، والبعيد قريبا والساكن متحركا ، وما لا يتكلم ينطق بالحكم والأمثال ، بل ويجعل الضعيف قويا بغير أسباب وجيزة تحيل ضعفه إلى قوة ، كما يجعل القوى ضعيفا واهنا ، بل ويجعل الشخص الكبير وقد استحال إلى شخص صغير ، كما يجعل الرضيع ناطقا وماشيا ومتسلقا الأشجار أو طائرا في عنان السماء .

ولعل الطفولة تجد في الخيال اختيارات لا تنقل اتساعا وتنوعا عن تلك الاختيارات التي يجدها بازغة أمامه في مجال الأشياء الحسية . والاختيارات التي تتأني للطفل بخياله تكون من إنشائه واختراعه . فهو يتعرض بخياله ما يمكن وليس ما هو واقع . والممكن أبعد شقة من الواقع . وطالما أنه فتح مجال الامكانية ، فإن الأشياء تتكثر والحوادث تزايد ، والواقع يتسع إلى ما لا نهاية . وخيال الطفل مصحوب بالاختيار من بين تلك الأشياء العديدة التي يلبسها للواقع بالخيال . وهو يتخذ موقفا اختياريا فيفضل الخير على الشر أو المظلوم على الظالم ، والفقر على الغنى ، والطفل مثله على الكبير الذي يوقع العقوبات على الضعفاء من الأطفال .

وواضح أن الطفل بازاء اختياراته الحسية أو الخيالية إنما يكون متخذاً موقفاً شكياً وذلك حتى يتسنى له الوقوع على موقف اختياري من بين تلك المتغيرات أو الاختيارات التي تعرض أمامه أو التي يعرضها هو على نفسه . وقد سبق أن قلنا إن المراهقة لاتلغى ما قبلها ، بل يزداد النمو الهرمى للشخصية علواً . ففي المراهقة نجد أنه بالإضافة إلى الاختيارات المحسوسة والاختيارات المتخيلة تنضاف اختيارات أو متغيرات جديدة هي الاختيارات أو المتغيرات التجريدية التي تتمثل في المفاهيم أو التصورات الذهنية . فيبدأ المراهق في تناول موضوعات مجردة أبعد شأواً من قطاع المحسوسات ومن قطاع المتخيلات . فالكثير ينخرط تحت القليل ، وكلمة واحدة تدل على ملايين الأشياء . وأول نوع من التصورات يعتمد في عقل المراهق هو التصورات التي ترمز إلى المحسوسات . فإذا قلنا كلمة « برتقالة » فإنها تضم تحتها بلايين البرتقال الموجودة الآن والتي وجدت قبلاً والتي ستوجد في أى عصر من العصور القادمة . وعلى الرغم من أن الطفل يستخدم هذه الكلمة وهو يعنى بها أى برتقالة تقدم إليه ، فإنه لم يكن يدرك تلك العلاقة الذهنية إدراكاً واضحاً كما هو حاله في المراهقة . فهو في المراهقة يستطيع أن يتعلم الجبر بدلاً من الحساب ، بل ويستطيع أن يتسع ذهنه للنظريات العلمية والهندسية . ذلك أنه بعد أن يقف على هذا النوع من التصورات ، فإنه يأخذ في تفهم نوع آخر منها هو التصورات المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية والسياسية . فيصير شغوفاً بالفاظ مثل الديمقراطية والدكتاتورية والرأسمالية ونحو ذلك من تصورات ذهنية علاقية يعبر عنها بكلمات تضم تحتها الكثير من العلاقات الاجتماعية والسياسية ، ويأخذ في التساؤل عن مضمونها .

وواضح أيضاً أن المراهق في هذه المرحلة النائية يقبل اقبالا شديداً على الفلسفة وعلم النفس وعلوم الدين التي تقترب من الفلسفة ، بل إنه يميل إلى تناول موضوعات الدين بنظرة فلسفية بحيث يكون قريباً جداً من الفكر الفلسفي في تناوله للمسائل الدينية . ويكون المراهق في مرحلته هذه وقد انفتح على مجال واسع جداً من التيارات ومن التفكير الشكى ، وذلك بأن يتناول

المتغيرات أو الاختيارات العديدة بنظرة تقييمية وليس بنظرة تسليمية . فهو يبحث عن المثالب وعن أوجه النقص فيما يعرض له من أمور . ولعلك تلاحظ أن المراهقين يميلون بوجه عام إلى النقد والهدم ، ولعلهم يحاولون بذلك التأكيد على مبدأ الشك المنهجي ، ولكأنهم يقومون بثورة على ما ظلوا ي نهجون طوال مرحلة الطفولة من تسليم للكبار بما كانوا يقولونه لهم وبما كانوا يثبتونه في عقولهم وقلوبهم من قيم . فالمرهق يكتسح مبدأ الرضوخ التسليمي ، وما كان يدين به للكبار من استسلام ذهني ووجداني ، وقد أخذ يشهر سلاح الشك في وجوههم حتى لقد يجادل في أبسط الأمور وأكثرها بدهاة فيشير ضجر الكبار منه ويتهمون به بالشغب الفكري والعصيان الخلقى ولكن سرعان ما تهدأ ثورة المراهق الفكرية مع استمراره في اختياراته بعد أنخرطه في مراحل العمر التالية .

الشك عند الجنسين :

سبق أن قلنا إن الجنين والوليد والرضيع لا يجدون أمامهم فرصا للاختيار ومن ثم فإننا نستطيع أن نقول إن الواحد من الجنسين في تلك المراحل لا يقع على اختيارات في تلك المراحل متباينة يختار بعضاً منها ويعزف عن بعضها الآخر ، ومن ثم فإنه لا يشك حيث أنه لا يعرض الأشياء التي يتقبلها للنقد والتحجيص . ولكن ما أن يقيض النمو للطفل من الجنسين حتى تفتح آفاق الاختيارات أو المتغيرات أمامه ، وبالتالي يتسع أمامه مجال الشك حيث أنه يأخذ في تحديد قيمة نسبية لكل اختيار ممكن من الاختيارات الكثيرة المتوافرة بالموقف .

وكما تقدم الطفل في مضمار النمو ، فإن الخصائص العقلية التي يتسم بها جنسه تأخذ في التبلور والتمايز .

ونستطيع القول إن الذكر والأنثى يتمايزان بعضهما عن بعض من حيث الأجهزة الذهنية التي يشتركان فيها ويتمتعان بها . ولقد نقول إن الأجهزة الذهنية التي نعينها تتمثل في جهاز الإدراك وهو يضم في نطاقه جهازين فرعيين : أحدهما جهاز الإحساس المتفرع إلى خمس حواس ، ثم جهاز ترجمة

الاحاسيس التي تصل إلى المخ حيث تختص مراكز متباينة بالمخ بترجمة تلك الاحساسات التي تصل إليها كل فيما يخصه . أما الجهاز الذهني الثاني فهو جهاز التذكر وهو الجهاز الذهني المسئول عن تخزين الخبرات السابقة في أنحائه بحيث يمكن إعادة سرد ما سبق تخزينه بها من خبرات . ولقد يصح لنا أن نقول إن ثمة فروعاً لهذا الجهاز الذهني التذكري . فثمة فرع منه مختص بتذكر الأسماء وآخر مختص بتذكر الأرقام وثالث مختص بالأحداث والوقائع إلى آخر تلك الفروع التي يشملها هذا الجهاز التذكري . وثمة جهاز ذهني ثالث هو جهاز التخيل وهو يقوم بتركيب صور ذهنية جديدة من العناصر المعرفية الإدراكية والعناصر الذهنية الخيالية . أما الجهاز الذهني الرابع فهو جهاز التصور وهو يعمل على التجريد من الوقائع الجزئية من جهة ، والتعميم من جهة أخرى . فنصير هناك صورة ذهنية رمزية تشير إلى فئة برمتها من الأفراد كأن نقول « إنسان » لكي نشير إلى أي شخص مهما كان ، سواء كان حياً أم في ذمة التاريخ أم في طي المستقبل المجهول ، وسواء كان إنساناً بدائياً أم كان إنساناً متحضراً . أما الجهاز الخامس والآخر فهو جهاز التفكير وهو كما سبق أن ذكرنا الجهاز المسئول عن مجابهة المشكلات سواء كانت مشكلات واقعية أم كانت مشكلات تصورية علائقية . وهذا الجهاز الذهني يستخدم جميع ما يتوصل إليه سائر الأجهزة الأربعة السابقة مستغلاً العناصر المعرفية المتباينة التي تتأق لها جميعاً .

وبالنسبة للجهاز الذهني الأول فأننا نجد أن الجنسين يشتركان في نفس النشاط الإدراكي ، ولكن يبدو أن إدراك المرأة يتركز على الأشكال والألوان والأصوات والأحجام والعلاقات ، بينما يتركز إدراك الرجل على مقومات الأشياء المدركة وكيف تعمل وكيف تتحرك إذا كانت من الأشياء المتحركة . ومعنى هذا في الواقع أن المرأة في موقفها الشكى إنما تكون بازاء اختيارات متعددة وتكون مركزة نقدها وشكها على الأشكال والألوان والأحجام والعلاقات ، بينما يركز الرجل نقده وشكه على المقومات وطريقة التشغيل والحركات . ولكن يجب أن نذكر دائماً أن المرأة والرجل جميعاً

يشتركان في جميع المقومات الإدراكية ، وأن كل ما نريد إثباته هنا هو أن كل جنس من الجنسين يؤكد بعض الجوانب أكثر من تأكيده على الجوانب الأخرى التي يؤكد عليها الجنس المقابل .

أما بالنسبة لجهاز التذكر ، فإننا نعتقد أن المرأة تتمتع بذاكرة سردية أقوى بكثير مما يتمتع به الرجل . ولعلنا نزعّم أن الرجل يميل الى تمزيق سلسلة الأحداث ويختار من بينها بحيث ربما يقدم حلقة تالية على حلقة سابقة من تلك السلسلة بحسب أهميتها في نظره . أما المرأة فإنها تهتم باستمرار التسلسل الحدتي فتقدمه حسب ترتيب وقوعه وهي ترفض في الغالب تمزيق التسلسل الحدتي أو تقديم حلقة من سلسلة الأحداث وهي في عزلة عما قبلها أو عما بعدها من حلقات حديثة . ولعل السبب في هذا يرجع الى أن طبيعة المرأة تتسم بالنزعة السياقية ، حيث تهتم كل الاهتمام بالسياق وتدعى المعانى . ومعنى هذا أن فرصة الاختيار بين اختيارات كثيرة بازاء القصة الواحدة يكون منعدما بالنسبة للمرأة ، بينما هي متاحة أمام الرجل . ذلك أن الرجل يعتمد إلى تقسيم أو قل تحليل السلسلة الحدثية الى حلقاتها ويجعل كل حلقة من تلك الحلقات كائنا قائما بذاته ، ويكون أمامه فرصة للخيار من بينها بحيث يعيد ترتيب تلك الحلقات لا من حيث ما يربط بينها من تسلسل زمني ، بل من حيث ما ينوطه الرجل بكل حلقة من أهمية . فهو يعيد ترتيب تلك الحلقات بحسب أهمية كل حلقة منها . ويترتب على هذا أن الشك التذكري لدى المرأة يكون أقل بكثير منه لدى الرجل ، وذلك بسبب ضيق نطاق الاختيارات عند المرأة فيما يتعلق بالسياقات التذكيرية عنها لدى الرجل .

وبالنسبة للجهاز الذهني الثالث الخاص بالتخيل ، فإن الصور المتخيلة لدى المرأة تكون شديدة الشبه بالتسلسل التذكري . فالمرأة تعتمد الى تخيل قصة متصلة الحلقات ومتناسكة وعضوية بحيث لا يكاد يختلف تخيلها لاحدى القصص المؤلفة عن واقع الحياة أو عن قصص الحياة . أما الرجل فإنه انتقائي أيضا في خياله . فهو اذا ألف قصة أو إذا ما عمد الى رسم لوحة أو نحت تمثال فإنه يسارع الى الانتقاء ، ولكأنه يختار من بين حلقات سلسلة أو أكثر من

السلاسل أو القصص التي سبق أن مرت في حياته أو في حياة غيره ، ثم يعتمد الى تشكيل سلسلة جديدة لا تعتمد على التسلسل الزمني بقدر ما تعتمد على التسلسل الذي يخلقه الرجل خلقا ويصنعه صنعا ويبتكره ابتكارا .

ويختلف الرجل والمرأة أيضا بازاء الجهاز الذهني الرابع الخاص بالتصورات . فهنا نجد أن المرأة تكتسب أو قل تفهم التصورات التي سبق أن توصل اليها جنس الرجال ، ولكنها لا تعتمد الى خلق تصورات ذهنية مجردة ورمزية . ولعل السبب في هذا يرجع الى أن المرأة تنشئ بالحياة كما هي في الواقع وليس كما ينحو الرجل الى جعلها مجردة وخالية من الحياة . فالمرأة ترجح الواقع الذي يضم الجزئيات على الصورة الذهنية التي تشير الى فئات من تلك الجزئيات . ومن هنا فان المرأة التي تتمكن من المنطق بصوره الذهنية المجردة تتنازل عن استخدامه في تفكيرها مفضلة على ذلك الواقع الحى والارتباط أشد الارتباط بالجزئيات وما يتعلق بها من أحداث ووقائع .

أخيرا فان المرأة تختلف عن الرجل فيما يتعلق بالجهاز الذهني الأخير الذي يتعلق بالتفكير . فالمرأة ترغب في التفكير التشبيهي بمعنى أنها تفكر في المشكلة الراهنة في ضوء ما وقع بنجاح بازاء مشكلة سابقة مشابهة . أما الرجل فانه يفكر تفكيرا آتيا ، وذلك بأن يجند ويحشد جميع الخبرات المعرفية السابقة سواء كانت خبرات إدراكية أم خبرات تذكيرية أم خبرات تخيلية أم خبرات تصورية ويعتمد إلى انتقاء العناصر المناسبة والناجعة للموقف ويستخدمها .

ويتضح مما سبق أن النزعة الشكية تبدى لدى الرجل بأكثر من تبديها لدى المرأة وإن كانا يشتركان في الواقع في قطاع مشترك فيما بينهما . وأكثر من هذا فاننا نستطيع الوقوع على نساء أكثر شكية من الرجال ، بينما نجد بعض الرجال يتلحفون بالنزعة التقبلية أكثر من بعض النساء . ولعل السبب في هذا يرجع إلى ما يوجد من تداخل بين الجنسين فيما يتعلق بالهورمونات الذكورية والهورمونات الأنثوية . فالرجال لديهم هورمونات أنثوية ، كما أن النساء يشتملن على هورمونات ذكورية . وفي بعض الحالات تزيد نسبة.

المورمونات الأنثوية عند بعض الرجال ، كما تزيد نسبة المورمونات الذكرية عند بعض النساء . وبالتالي تزداد الصفات النسوية عند أولئك الرجال ، كما تزداد الصفات الذكرية عند أولئك النساء .

ونود أن نذكر القارئ بمعنى الشك الذى حددناه قبلا ، وهو عدم التقبل والقيام بالمقارنات والموازنات والتقييمات لما يمكن أن يتوافر بالموقف من خيارات كثيرة أو قليلة بحيث يقع الاختيار على بعض الخيارات والنبو عن باقى الخيارات الموجودة بالموقف . ولقد أكدنا مرارا أنه كلما كان مجال الخيار أرحب فإن مجال التفكير الشكى يتسع نطاقا ويستخدم نشاطا . وعلى العكس من ذلك فإذا لم يكن هناك سوى خيار واحد فى الموقف ، فإن التفكير ينتفى وبالتالي فإن التقييم والشك لا يوجدان إطلاقا . وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن المرأة تنسم بصفة عامة بالزعة التقبلية ، بينما يتمتع الرجل بالزعة التقييمية الشكية ، مع اعترافنا بالفروق الفردية من شخص لآخر من نفس الجنس فيما يتعلق بهذه الزعة الشكية .

الشك والمعرفة :

عندما نذكر المعرفة فإننا نأخذ فى اعتبارنا جانبيين أساسيين : الأول - المضمون المعرفى ، والثانى - المنهج المعرفى بما يشتمل عليه من وسائل معرفية . وهناك فى الواقع تداخل فيما بين هذين الجانبين ، أو بتعبير آخر هناك نظرة نسبية إليهما . فنفس الشيء يمكن أن يعتبر وسيلة فى موقف ومضمونا معرفيا فى موقف آخر . فعندما نقوم بتعليم الطفل القراءة والكتابة والحساب ، فإننا نعلمها له كمضمون معرفى . ولكن هذا المضمون سرعان ما يستحيل إلى وسيلة لمضمون معرفى أبعد شأوا فيصير بالتالى وسيلة معرفية . فعادة مثل الجغرافيا نعلمها للطفل مستعنين فى تعليمه لها بالقراءة والكتابة ، فتكون المعلومات الجغرافية هى المضمون المعرفى ، بينما تعتبر القراءة والكتابة وسيلتين لبلوغ وتعلم ذلك المضمون المعرفى . ولقد يكون تعليمنا الجغرافيا للطفل وسيلة لمضمون معرفى آخر كالتفاهم بين الشعوب أو تربية الناشئة تربية قومية .

وهكذا دواليك بالنسبة لأي معرفة إذ تكون في أحد المواقف وسيلة وفي موقف آخر مضمونا معرفيا .

وعلى الرغم من هذا التقسيم إلى مضمون ومناهج أو وسائل ، فإننا نستطيع أن نقرر أن الشخص الناضج ثقافيا يميز في معرفته مضمونا معرفيا له صفة الثبات والاستقرار ، ومنهج معرفيا له صفة الثبات والاستقرار أيضاً . ولقد يكون ذلك المنهج المعرفي منهجا مسبقا ، كما أنه قد يكون منهجا تلويا . والمنهج المسبق هو المنهج الذي يحدده المرء لنفسه ليستعين به في تحصيل معرفة معينة . أما المنهج التلوي فإنه المنهج الذي يضعه المرء لنفسه لكي يستعين به في غربة المعرفة التي سبق له أن حصلها بالفعل . وفي ضوء هذا المنهج الأخير يتم للمرء الفصل بين الغث والسمين ، أو بين الباطل والزائف والمكين الأصيل فيبقى بالغث والباطل الزائف بعيدا مستقبيا السمين والمكين الأصيل منها .

والواقع أن المنهج الأول هو المنهج الذي يتذرع به الدارسون والعلماء في بحوثهم العلمية . فهم عندما يقبلون على دراسة مشكلة أو على تناول قطاع معرفي ، فإنهم يبدأون بتحديد المنهج الذي سوف يراعونه في دراستهم ، فيلزمون أنفسهم به . وإذا كان الدارس خاضعا أو مسترشدا بأحد الأساتذة أو الموجهين أو المشرفين ، فإن المنهج الذي يتم الاتفاق عليه بين الطالب وأستاذه يكون بمثابة عقد علمي يتم التعاقد عليه فيما بينها ، بحيث يكون على الطالب الالتزام به قبالة أستاذه . وفي هذه الحالة لا يكون الأستاذ مسيطرا على الطالب إلا فيما يتعلق ببند ذلك الاتفاق – أعني المنهج – ولكنه لا يكون مسيطرا عليه فيما عدا ذلك ، أي أنه لا يسيطر عليه فيما يتعلق بالمضمون المعرفي ولا فيما يتعلق بالنتائج التي يتوصل إليها في بحثه . فالمضنون والنتائج ملك شخصي للباحث ، بينما يكون المنهج شركة بين الدارس وأستاذه الموجه في البحث .

أما المنهج الثاني التلوي فإننا نستطيع أن نسميه بالمنهج الفلسفي . ذلك أن الفيلسوف أو المفكر يهتم بالمنهج التلوي النقدي الذي يتسنى له بمقتضاه أن يغربل ما تم له تحصيله أو ما سبق أن علق بذهنه من أفكار . والواقع أن هذا

المنهج بمثابة محكمة تعقد جلساتها لمحاكمة ذهن الفيلسوف . والعجيب في هذه المحكمة أن المتهم والقاضي هما ذات الفيلسوف . فالفيلسوف يضع نفسه في قفص الاتهام أمام ذاته ليحاسبها عما اقترفته من ذنوب تقبلية غير متبصرة . ذلك أن الفيلسوف يعتقد أن الخطيئة الكبرى التي يقترفها المرء في المجال المعرفي تتمثل أكثر مما تتمثل في التقبل الأعمى لمعارف لا تقوم على أساس وطيد . ولعل المحاكمة التي تتم في تلك المحكمة العقلية تتمثل في المحاور الآتية : المحور الأول – التناقض المعرفي . فالفيلسوف يسائل المتهم الذي هو ذاته أو عقله عن المتناقضات الذهنية التي قد يكون حملها في ذهنه أو تسربت إلى حصيلته المعرفية ، فاعترف بصحة الشيء ونقيضه وهو في غفلة من أمره . المحور الثاني – ما يمكن أن يكون الفيلسوف قد تقبله واقتنع به بغير أن يكون مدعما بالبراهين الكافية . فبينما تكون الأشياء بادية الاقناع لحظة تقبلها ، فإنها تبدو عارية من الوجاهة وعلى غير أساس كاف لدى تسليط شعاع النقد عليها . المحور الثالث – هو التقبل اللاحائي العاطفي بغير تقديم براهين على الاطلاق . فالفيلسوف يعنف نفسه على أنه قد تقبل جانبا معرفيا نتيجة الاسمالة والتأثر بالايحاء من جانب الكبار منذ نعومة الأظفار حتى الوقت الراهن . المحور الرابع – ماسبق للفيلسوف أن رفضه من أفكار الآخرين لا لشيء الا للعناد أو الكبرياء أو رغبة في عدم الاعتراف لغيره بالتفكير السديد . المحور الخامس – النقص المعرفي وترك جوانب معرفية كانت أولى باهتمامه وجديرة بعنايته ، ولكنه أغفلها أو لم يولها الاهتمام الجديرة به .

وواضح في كلا المنهجين : المنهج المسبق من جهة ، والمنهج التلوي من جهة أخرى ما يستعين به كل من الدارس في المنهج الأول ، وما يستعين به الفيلسوف في المنهج الثاني من تفكير نقدي شكى . فبالنسبة للدارس بازاء المنهج المسبق ، فإنه يعتمد إلى مدارس المناهج الموجودة يأخذ في الانتقاء من بينها . ولعلنا ننوه هنا إلى موقف يجب أن يتلرع به الدارسون وهو عدم أخذهم بأي منهج من مناهج البحث على علاته ، بل يجب أن يحاول الدارس تحديد ملامح المنهج الذي يأخذ به فكره ودراسته بحيث لا يكون موقفه موقف

المتقبل لأي منهج برمته بغير تعديل أو إضافة أو حذف . فعلى الدارس فى أى فرع من فروع المعرفة أن يتصفح المناهج التى سبق لغيره الأخذ بها والاستعانة بذرائعها فى دراسته ، ولكن ذلك التصفح لايعنى التقبل الامتصاصى أو الايمان بإيماننا أعمى بالمنهج الذى يروق له ، بل إن هذا الموقف الاعجابى معناه . أن يقبل الدارس على ذلك المنهج لكى يدخل عليه التعديلات التى تناسب الدراسة التى يقوم بها . فمن حيث المبدأ فاننا نعتقد أنه لا يوجد منهج مقدس . لا يجوز نقد جوانبه ، بل إن أى منهج يصلح للأخذ به ، إنما يكون مثل ذلك الأخذ أخذاً نسبياً وليس أخذاً مطلقاً . ومن ثم فإن على الدارس أن يتناول المنهج العلمى الذى يروق له كما يتناول الصانع الخامة لكى يصنعها . فما يتناوله الدارس من مناهج يستعين بها إنما يستحيل على يديه إلى منهج خاص به . وقد تم تصنيعه بالتعديل والحذف والإضافة .

وواضح اذن أن الدارس فى هذا الموقف بازاء المنهج إنما يكون قد تدرع بالشك فى الوجود وليس موقف المثرب والمتقبل والمستسلم لما يجده أو حتى لما يروقه ويستويه . وإذا كان هذا هو حال الدارس فى أى مجال معرفى ، وقد استعان بالمنهج المسبق ، فانه بالأولى حال الفيلسوف الذى يعتقد محاكمة لعقله أمام نفسه . فلا شك أن الفيلسوف الذى يأخذ بعقله بهذا المنهج التلوى إنما يكون بالفعل قد اتخذ موقفاً شكياً من نفسه . ولكن السؤال الجدير بالطرح فى هذا المقام هو ما إذا كان الفيلسوف يسدل ستار الشك على كل فكره أم أنه يشك فى جوانب معينة من تفكيره . لقد أجاب ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) عن هذا السؤال بأنه استطاع أن يشك فى كل شئ عدا قدرته على الشك نفسه . فهو اذن يرد الثقة إلى عقله مؤكداً أنه كائن عاقل ، بل هو فى أعلى مرتبة من مراتب الكائنات الدنيوية بحيث يستطيع الشك من جهة والحكم العقلى الصحيح والمنطقى الخالص من جهة أخرى . فإيمان ديكارت بعقله كان إيماناً مطلقاً . ولعله كان بذلك أفلاطونياً . ومن المعروف أن أفلاطون قد شك فى العقل الذى غشته الأشياء المادية ، ولكنه فى نفس الوقت آمن بالعقل الذى إذا ما سبر أغوار تلك الغشاوة المادية بالتأمل والخلوص .

من برائن المادة ، فانه يستطيع إذن بلوغ الحقائق المطلقة الأزلية والأبدية في نفس الوقت . على أن الفارق بين أفلاطون وبين ديكرات يتبدى في غاية التفكير . فبينما يجعل أفلاطون غاية التفكير الوصول إلى حال النقاوة الفكرية التي كان عليها الإنسان قبل السقوط من عالم المثل ، فان ديكرات يجعل التفكير من أجل الوصول إلى الحقائق الدنيوية الموجودة بالفعل هنا والآن ، وليس منذ الأزل وإلى الأبد . صحيح أن ديكرات توصل إلى معرفة الله بالعقل ولكن هذه المرحلة الميتافيزيقية من تفكيره كانت وسيلة لغاية دنيوية آتية تتعلق بالدنيا وليس بالآخرة .

وواضح أن ديكرات قد وضع أساس الفلسفة الحديثة التي تنبني على أساس تنقية العقل من الشوائب التي عقلت به ، أو بتعبير آخر توفير الحرية الفكرية للإنسان ، وذلك عن طريق التخلص من الشكائم والأصفاة التي تعوقه عن الوقوف على الحقائق . فالشك الفلسفي التلوى إذن هو الطريق إلى الحرية العقلية .

الشك والعادات العقلية :

يولد الطفل وهو خال من جميع العادات ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن الغرائز هي عادات غير فردية ، بل هي عادات اكتسبها النوع البشري عبر ملايين السنين من تطور تكوينه وتبلور هذا التكوين . وبعد أن يضرب الطفل بسهم في النمو ، فانه يبدأ في التلبس بمجموعة من أنماط السلوك بحيث يأتيها وهو في حالة شبه لاشعورية وكأنه مسوق إلى إتيانها سوا . ولقد دأب الكتاب المتباينون على قصر استخدام كلمة عادة على العادات الحركية . وهذا في الواقع مجحف بالحقيقة . ذلك أن العادات الحركية ليست سوى فئة واحدة من العادات التي يمكن أن يتلبس بها الإنسان ، وهي خمس فئات من العادات هي العادات الحركية والعادات الوجدانية الانفعالية والعادات اللغوية الكلامية والكتابية وجميع وسائل التعبير والابانة التعبيرية سواء كان التعبير هو تعبير عن معنى أم أنه تعبير عن احساس والعادات العقلية وأخيراً العادات الاجتماعية .

والواقع أن تتبع ما يدين عنه المرء بكلامه أو كتابته أو فيما يقوم به من أعمال فنية يمكن أن يقف المتأمل على ماسبق أن تلبس به صاحب التعبير من عادات وجدانية وعادات عقلية . وإذا نحن أجزأنا بالكلام فحسب نتفحصه . فإننا نستطيع أن نستكشف ما يخبئه التعبير الكلامي من عادات عقلية . ويمكن القول بصفة عامة ، إن الناس ينقسمون إلى فئتين أساسيتين : فئة النمطيين ، وفئة المحددين . والواحد من فئة النمطيين يغلط عقله على مجموعة من العادات العقلية أو قل القوالب العقلية التي لا يحد عنها قيد أنملة . أما أفراد الفئة الثانية فإنهم وإن كانوا يمارسون بمجموعة من العادات العقلية ، فإنهم يفتحون المجال أمامهم لاكتساب عادات عقلية جديدة ولتعديل ماسبق لهم أن اكتسبوه من عادات عقلية .

ونستطيع أن نسمى النزعة التي ينحو إليها أفراد الفئة الأولى بالنزعة إلى القولية العقلية . فهم يؤمنون بمجموعة محدودة من العادات العقلية لا يربحون عنها ، بل إنهم يحاربون غيرهم إن هم لم يأخذوا بما يأخذون به ، وإن لم يصبوا عقولهم وكلامهم في تلك القوالب العقلية اللغوية . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن أفراد الفئة الأولى لا يجعلون من العادات العقلية قوالبها الرئيسية ، بل يجعلون من الكلام نفسه قوالب ينصب فيها الفكر برمته . من هنا فإن الشخص القولي يسد أمام نفسه وأمام غيره حرية نمو العادات العقلية أو تعديلها ، وذلك بأن يركز عاداته العقلية فيما يسجن نفسه في إطاره من ألفاظ وعبارات .

أما أفراد الفئة الثانية — وهم كما قلنا فئة المحددين فإنهم لا يجعلون من اللغة سداً يخضعون له ، بل إنهم يجعلون من اللغة خادماً يخضعونه من أجل تحقيق الأهداف العقلية المتجددة لديهم . فبينما يركز أفراد الفئة القولية على الكلام يجعلون منه سبباً يحبسون أنفسهم وغيرهم فيه ، فإن أفراد فئة المحددين يجعلون اللغة مجرد أداة للفكر يستغلها بمرونة شديدة بحيث يتسنى لهم العثور على ألفاظ ومصطلحات وعبارات جديدة نتيجة التوسع الذهني المستمر .

ونستطيع القول بأن فئة القولية الفكرية اللغوية لا يفتحون أمام عقولهم فسحة من الاختيارات ، بل هم يخلقون عقولهم بحيث لا تتسع لأي اختيارات .

جديدة . وكيف يختارون وقد اكتفوا إلى الأبد بمجموعة محدودة من المفاهيم تكبل اجتهاداتهم العقلية ، وبمجموعة محدودة من الكلمات أو الألفاظ والعبارات يصفون بها قدرتهم التعبيرية التي كانت لتتسع لولاها للعديد الجديد منها ؟ وعلى النقيض من ذلك فإن فئة المحددين يجعلون أمامهم الباب مفتوحا لكسب عادات عقلية جديدة ، بل وعادات لغوية متجددة لتلبية المطالب الذهنية المتدفقة أبدا .

ومعنى هذا أن فئة القولية لاتنحو إلى الشك ، بل تنحو إلى الاعتقاد بل وإلى الخضوع والخنوع الذهنيين ، بينما ينحو فريق المحددين إلى الشك العقلي . بل وأيضاً الشك اللغوي ، وذلك لأنهم يقومون بصفة دائبة بتصفح العديد من الاختيارات العقلية واللغوية المتاحة أمامهم والمتجددة باستمرار في أنظارهم . فهم يختارون ، أو بتعبير آخر يشكون فيما يقومون باختياره من ممارسات عقلية ومن تخير متجدد للاستخدامات اللغوية .

بيد أننا نستطيع القول مع هذا إن فئة المحددين لا يكتفون بالتجديد دون إحالة مايكتسبون من أفكار ولغة إلى عادات عقلية وعادات لغوية ، بل إنهم يفعلون ذلك . فهم يجمعون بين شيئين يبدو أن بينهما تناقضاً ظاهرياً . الشيء الأول — هو التجديد ، والشيء الثاني هو إحالة الجديد المكتسب إلى عادات عقلية وعادات لغوية . والواقع أن العادات ليست بصفة عامة قوالب سلوكية لا فكاك من إسارها ، ولا سبيل إلى تعديلها ، بل إن من المؤكد أن العادة أيا كانت سواء كانت عادة حركية أم عادة وجدانية انفعالية أم عادة عقلية أم عادة تعبيرية أم عادة اجتماعية — إنما تكون مسيطرة على المرء ولكن سيطرتها ليست سيطرة مطلقة ، بل هي سيطرة نسبية بحيث يكون هناك مجال واسع للتعديل والحذف والابدال . فبمستطاع المرء أن يعدل فيما سبق له اكتسابه من عادات أيا كان نوع تلك تلك العادات ، وكذا يكون بمستطاعه أن يحذفها تماماً أو أن يبدل غيرها بها ، فيحل عادة جديدة محل عادة قديمة . عمد علماء النفس إلى التمييز بين العادات وبين ما أطلقوا عليه اسم الأفعال القهرية أو الوسوسة الأدائية .

ولقد سبق أن ألمعنا إلى مايعنيه علماء النفس بالأفعال القهرية . فالعادة وإن كانت سلوكا شبه لاشعورى ، فإن الباب يظل مفتوحا لتطويعها وتليينها وادخال عناصر التغيير عليها . أما الفعل القهرى فهو أداء لايمكن علاجه إلا بالوسائل العلاجية لأنه مريض نفسى يتبدى فى مجموعة من الأعراض العصبية من بينها داء الوسوسة الأدائية التى تسمى بالفعل القهرى .

ولعلنا نسأل بعد هذا عن السمات التى يتصف بها المنهج الشكى لدى المحددين بازاء ما يترسون به من عادات عقلية . إننا نستطيع أن نلخص تلك السمات فيما يلى :

أولا - يعتمد المحددون إلى مقارنة الموجود لديهم من عادات عقلية ولغوية قديمة بما يمكن اكتسابه من عادات عقلية ولغوية جديدة . والمقارنة فيما بين الموجود والممكن يجعل أمامهم خيارات لاعدادها ، ومن ثم فإن استمرارهم فى تلك المقارنة والتقييم بين المكتسب والممكن يجعلهم دائبين على تعديل ما سبق لهم كسبه من عادات عقلية .

ثانيا - يضيف المحددون إلى ماسبق لهم اكتسابه من عادات عقلية عادات جديدة مستحدثة . ذلك أن من أهم ما يتصف به المحددون هو القدرة على التطور والتقدم فى معارج الامكانيات العقلية ومن بينها توسيع آفاق العادات وإضافة الجديد إلى القديم .

ثالثا - يبدأن مايكتسبه المحددون من عادات جديدة لا يصل اليهم كما هو ولا يظل منفصلا أو ممتازا من العادات القديمة التى سبق لهم كسبها ، بل إنه يدخل فى إطار تفاعلى شديد . والواقع أن مثل ذلك التفاعل هو العمود الفقرى لتكامل العادات العقلية فيما بينها . ولقد ظن البعض خطأ أن كسب المرء لمجموعة من العادات الجديدة معناه شئ من شيئين : إما أن تظل العادات الجديدة مجاورة ومتعايشة جنبا لجنب مع العادات القديمة ، وإما أنها تتعارك معها بحيث تعمل على إبعادها تماما من نطاق الشخصية . والواقع غير ذلك إذ أن العادات الجديدة تتفاعل مع العادات القديمة بحيث يتأتى عن ذلك التفاعل نشوء قوام جديد للعادات لدى المرء . وهذا التفاعل يتأكد فى المبدأ التجديدى

لدى الشخصية المحددة . وهذا يفرق فيما بين الشخص المحدد والشخص المتقوب ، إذ أننا نجد أن المحدد يتفاعل مع الجديد بما لديه من عادات قديمة ، فان المتقوب لا يسمح بنشوء مثل ذلك التفاعل الخبرى . فما يتسنى للمرء اكتسابه يظل لدى المتقوب سيداً عليه بحيث لا يسمح لأى جديد بالدخول إلى نطاق الشخصية والتفاعل مع تلك العادات الموجودة من قبل بها .

ونذكر أخيراً أن الشك النقدى الذى نعينه هو ذلك الشك الانتقائى ، أعنى الشك الإيجابى الذى ينتهى بانتقاء شىء من بين أشياء ، أو قل تفاعل شىء بأشياء والوصول نتيجة ذلك التفاعل إلى الجديد . على أن على المرء أن يختار لنفسه فلسفة أو فريقاً من الفريقين ينضم إليه بعقله ووجدانه ثم يأخذ فى تدريب نفسه على أسلوب الفئة التى اختارها للسير فى ركبها . فإذا هو اختار لنفسه أن يكون ضمن فئة المتقولين فان عليه أن يأخذ نفسه بمجموعة محدودة من العادات العقلية . وعلى عكس ذلك إذا ما اختار لنفسه أن يكون فى فئة المحددين ، إذن يكون عليه أن يتدرع بالشك الانتقائى بازاء ما يكتسبه من عادات عقلية متباينة .

الفصل الثالث

الشك والصحة النفسية

الشك عند العقلاء :

يعتبر الشك — كأى وظيفة ذهنية — ظاهرة صحية ودلالة على تمتع المرء بالعقل إذا ما مارسه بغير إفراط وبغير تفريط . فاذا ما مارس المرء الشك بإفراط فصار يشك فى أى موقف أو فى أى تصرف أو فى أى فكرة مما لا يستوجب الشك فيه ، فانه يعتبر شخصا غير عاقل . وكذا يقال نفس الشئء بازاء الشخص الذى لا تساوره الشكوك فى المواقف أو التصرفات أو الأفكار التى تستوجب الانتحاء إلى الشك وعدم التصديق . فالإمع — وهو الشخص المصاب بداء الامعية أى التصديق الساذج بغير إعمال الفكر وبغير لجوء إلى النقد — إنما هو شخص غير متمتع بالصحة النفسية الجيدة .

ولعلنا نبادر إلى القول بأن الصحة النفسية إما أن تتعلق بقطاع الجسم المتمثل فى الأعصاب وعلى رأسها المخ والغدد الصماء بما تفرزه من هورمونات واما أن تتعلق بالعقل والتفكير المنطقى ، واما أن تتعلق بالوجدان وما يتأتى عن تبلوره حول موضوعات معينة من عواطف ثابتة نسبيا . وفى ضوء هذا التقسيم المنهجي العام يمكن أن نقول إن شرط التمتع بالاعتدال فى الشك هو أيضاً وفى نفس الوقت التمتع بالصحة العصبية والصحة العقلية والصحة الوجدانية السليمة من جهة ، والتمتع بترية جيدة من جهة أخرى . ذلك أن الخروج عن إطار السوية يمكن أن يتأتى إما عن مؤثر داخلى أصاب بنية المرء البيولوجية أو العقلية أو الوجدانية ، واما أن تلك البنية الثلاثية تكون سليمة ولكن طبعها على مجموعة من العادات العقلية يكون هو السبب فى الالتواء والخروج عن إطار السوية .

ونحن لانقصر استخدام لفظ « بنية » على الجانب البيولوجى من الشخصية بل نتوسع فى هذا الاستخدام لكى نضمه بنيتين أخريين هما البنية العقلية والبنية الوجدانية . ذلك أن العقل والوجدان ليسا مجرد انعكاسين — كما يظن البعض — لواقع بيولوجى كما ينعكس الضوء على المرآة ، بل انهما كيانات يتكونان منذ الطفولة الباكرة بحيث يصير لكل منهما كيان قائم بذاته . وشاهد ذلك أنك لاتفكر فى أى أمر من الأمور بداءة ، بل إنك تفكر بما صار لديك من جهاز عقلى وجهاز وجدانى متمايز عما صار لغيرك من اشخاص . وعلى الرغم من أننا لانزعم أن جهاز العقل وجهاز الوجدان شئ محسوس ولانزعم فى نفس الوقت بأن العقل والوجدان مفارقان للجسم ويمكن استغناؤهما عنه ، فاننا نعتقد أن لكل منهما كياناتاً متمايزاً قائماً بذاته . والشأن هنا كالأشأن بالنسبة للضوء المنبعث من المصباح الكهربى . فذلك الضوء له كيان مستقل عن كيان الكهرباء التى يمكن أن تبدى فى أشكال متباينة كالحرارة والحركة وغير ذلك من أشكال .

ولقد نقول أكثر من هذا إن المسألة أقرب ما تكون إلى المركب الكيميائى الذى يتكون من عناصر مباينة فى خصائصها ومظهرها لخصائصه ومظهره : فاذا شَبَّهنا المقومات البيولوجية الجسمية بغازين مثل الأوكسجين والهيدروجين فاننا نشبه الجهازين العقلى والوجدانى بالماء الذى هو فى الحقيقة ليس سوى هذين الغازين وقد تم لهما التفاعل بعضها ببعض والاتحاد ببعضهما ببعض . فعلى الرغم من أن الماء لا يستمد شيئاً خارجياً عن نطاق هذين الغازين ، فاننا لانستطيع أن نزعم أن الماء هو مجرد مجموع أو مجرد محصلة هذين الغازين . وهكذا نجد أن التفاعل الكيميائى قد أفضى إلى كيان جديد هو كيان الماء . وعلى نفس المنوال نقول إن ثمة مركباً عقلياً وآخر وجدانياً يتأثبان عن تفاعلات معينة بحيث يصير للمرء عقل مركب أشد التركيب ووجدان مركب أو قل بتعبير أصبح مجموعة من العواطف المركبة التى تمايز — كما يمايز العقل — من تلك المقومات البيولوجية التى انبثقا عنها .

وبعد هذا الاستطراد الضروري لإيضاح كيف أن لدى الواحد منا جهازين يتأثران بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر بالحالة الجسمية ، فاننا نقول إن الحالة الشكية التي يكون عليها المرء ، إنما تكون متأثرة بكل من الجسم والعقل والجهاز الوجداني وهي كما اتضح لنا من الاستطراد السابق بمثابة كيانات متميزة ولكل منها قوامه الخاص به .

وحرى بنا أن نعرض بعد هذا للأسس التي يقوم عليها الشك عند العقلاء وشروط الشك السوى الذى يتمتع به الأشخاص الحاصلون على صحة نفسية جيدة . وتتلخص الأسس أو الشروط فيما يلي :

أولاً - اعتماد الشك على واقع موضوعي خارج إطار ذات الشخص الشاك . وبتعبير آخر يجب أن يجد الشاك في الموقف ما يجعله يشك . نجد مثلاً لذلك ما ينحو اليه الشخص من شك في ورقة مالية تعرض عليه ، أو في صحة مشروع يعرض عليه للمشاركة فيه . إن الشك الذى ينحو إليه العاقل في مثل تلك الحالات لابد أن يستند إلى واقع خارجي موضوعي . فمثلاً بالنسبة للأوراق المالية ربما يجد فيها شيئاً شاذاً عما ألف أن يراه فيها ، وربما يجد في طريقة أصحاب المشروع من إلحاح أو من علامات وامارات ترسم على وجوههم أو تظهر في نظراتهم ما يجعله يشك في صحة المشروع أو في شرعيته .

ثانياً - عدم المبالغة في الشك . فإذا وجدنا شخصاً يتناول كل عملة مهما صغرت قيمتها بالفحص والشك بحيث لا يقبل التعامل مع أحد ما ليا إلا بعد فحص كل قرش فحصاً جيداً مشوباً بالشك ، فاننا نشك عندئذ في سوية مثل هذا الشك . فالشك السوى يجب أن يكون معتدلاً بغير مبالغة .

ثالثاً - يجب أن يكون الشك عقلياً وليس وجدانياً . والعقل مرتبط بالواقع الخارجى ، بينما يرتبط الوجدان بذات الشخص . فإذا كان الشك مجرد تفكير منطقي خال من الحالات الوجدانية ، كان بالتالى شكاً موضوعياً بعيداً عن الذات . أما إذا اصطبغ الشك بالوجدان والانفعال فانه يكون إذن إسقاطاً لما يعتمل بدخيلة المرء من اعوجاجات وانحرافات نفسية .

رابعاً - يجب أن يكون الشك وظيفياً وليس شكاً لذات الشك . فإذا كان الشك مجرد وظيفة تنتهى بانتهاء الموقف ، فإنه يكون إذن شكاً موظفاً من جانب المرء بازاء الموقف . أما إذا أستحال الشك إلى غاية تقصد لذاتها ، فإنه يكون إذن دلالة على مرض نفسى ألم بالمرء .

خامساً - وهذا الشرط السابق يرتبط بهذا الشرط الأخير وهو أن يكون الشك متخصصاً وليس عاماً . ونقصد بالتخصص هنا أن ينصب الشك على حالة واحدة أو على شخص واحد أو على فكرة واحدة أو على نوعية واحدة . أما إذا انسحب الشك على جميع الحالات أو الأشخاص أو الأفكار أو النوعيات ، فإنه يستحق أن ينعت إذن بأنه شك مرضى . ومن ذلك الشك المرضى أن يشك المرء فى ذمة جميع من يقابلهم من أشخاص معتقداً أنهم لصوص أو يريدون النصب والاحتيال أو التآمر عليه أو نحو ذلك من شك يتخذ صفة العمومية بازاء جميع الناس . وكذا الحال بالنسبة للشخص الذى يشك فى صحة جميع الآراء أو جميع الكلام الذى يترامى إلى سمعه أو يقوم بقراءته فى صحيفة أو كتاب . أن شكه ذاك العام ينعت باللاسوية وبالانحراف عن خط العقل السديد .

وجدير بنا بعد أن هذا أن نعرض بسرعة لأهمية الشك السوى بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء :

أولاً - إن الشك وسيلة لازمة للنمو العقلى . وقد سبق أن قلنا إن الشك هو الوسيلة الوحيدة لاحتراز المرء خلال مراحل نموه المتعاقبة للنمو العقلى المطرد والسوى فى نفس الوقت .

ثانياً - يعمل الشك على تنقية الفكر مما يكون قد شابه من أفكار أو معتقدات خاطئة ، كما أنه يعمل على إحلال أفكار ومعتقدات أفضل محل الأفكار والمعتقدات الأقل قيمة أو الأقل فاعلية .

ثالثاً - يعد الشك السوى الوسيلة الوحيدة التى تحرز بها الإنسانية تقدماً فى مضامير الحضارة المتباينة . ويكفى أن نقول إن العلم الوضعى برمته لا يقوم

على أساس التسليم المسبق بالمعتقدات أو بالنتائج ، بل هو يتذرع بالشك العلمى الوطنى من أجل التوصل إلى نتائج أفضل ولا حراز منجزات أنجع وأغزر .

رابعا — ان عملية التقييم برمتها وبآفاقها الواسعة فى شتى مجالات الحياة إنما تتركز بالدرجة الأولى على الشك الوطنى . فالغث والسمين ، والخير والشر ، والنافع والضار ، إلى غير ذلك من ثنائيات تنبنى أساسا على الشك والتقدير الموضوعى غير المسبق ، إنما تشكل الأساس فى الحضارة الإنسانية .

خامسا — إن الشك السوى يشكل قواما رئيسيا فى العلاقات الاجتماعية . فنحن لانسلم قيادنا لكل من هب ودب ، بل نثق فى الآخرين مع الاستمرار فى الشك الوطنى فيهم على نحو ما من الأنحاء .

الاتزان المورمونى والشك :

لقد وجد العلماء والمفكرون منذ عهد بعيد أن ثمة صلة وثيقة بين الحالة الجسمية من جهة ، وبين الحالة النفسية من جهة أخرى . بيد أن هناك جوانب جسمية معينة يكون لها تأثير أكبر فى الناحية النفسية من جوانب جسمية أخرى . وعلى رأس تلك الجوانب الجسمية ذات الفاعلية والتأثير القوى فى الناحية النفسية ما كان متعلقاً بالأعصاب وبالمخ بصفة خاصة باعتبار أنه المهيمن على جميع أعصاب الجسم ، وما كان متعلقاً بالغدد الصماء وما تفرزه من هورمونات فى الدم مباشرة . وهناك بعض الأمراض التى تصيب الإنسان فتقعه عن مزاوله مناشطه اليومية التى دأب على ممارستها ، ولكنها مع ذلك لا تؤثر فى حالته النفسية تأثيرا قويا ، بل ربما تؤثر فيه تأثيرا إيجابيا . وشاهد ذلك ما تؤثر به بعض العاهات وبعض الاصابات وبعض الأمراض الجسمية . فهناك عبارة يقررون فى مذكراتهم — أو يقرر عنهم غيرهم — بأن الفضل فى إبراز عبقرياتهم إنما يرجع إلى ما أصيبوا به من عاهات أو ما ابتلوا به من أمراض أقعدتهم عن مشاركة من حولهم فى الأمور التى تعمل على تشيت الفكر واللهو والدعة ، وقد نحت بهم إلى الابتكار أو الإختراع أو التفكير العميق .

ومن الحقائق الثابتة أن ثمة علاقة بين الاثتران الهورموني — أعنى كفاية كمية كل هورمون من الهورمونات المتباينة التي تفرزها الغدد الصماء بالقدر المناسب من جهة ، والحفاظ على النسب بين كميات الهورمونات بعضها إلى بعض من جهة أخرى — وبين الأثتران النفسى . وواضح أن من ضمن مظاهر الأثتران النفسى اتخاذ الموقف الوسط بين الامعية (التصديق الساذج لكل ما يقال) وبين الإنكار لكل ما يقال واتخاذ موقف المتشكك فى كل شئ أو الاصابة بالشكوك المرضية .

والواقع أن المعالجين النفسانيين يعتمدون إلى قرع ثلاثة أبواب فى العلاج النفسى ، أو بتعبير أدق إنهم ينتحون إلى الباب المناسب من الأبواب الثلاثة التي نعرض لها هنا : الأول ما كان متصلا بالمخ والأعصاب ، والثانى ما كان متصلا بالغدد والاثتران الهورموني ، والثالث هو العلاج بالايحاء والتأثير فى الجهاز العقلى والوجدانى وطريقة التفكير أو طريقة النظر إلى الحياة وتغيير بيئة المريض نفسيا أو إبعاد بعض الأفراد عنه وإضافة أفراد جدد إلى حياته ونحو ذلك من عوامل تأثير تتعلق بالعلاج بالعلاقات والكلمات .

وفى حالات كثيرة يجد المعالجون النفسانيون أن حالات الشك غير السوية ترتبط ارتباطا مباشرا بنقص الاثتران الهورموني .

ولقد لاحظ الكثيرون — سواء كانوا أطباء معالجين أم أصحاب المرضى — أنه بعد أن يعالج المريض بالهورمونات لسبب أو آخر ، فإن ثمة آثارا واضحة تبدى فى سلوكه . وأكثر من هذا فإن المريض المصاب بزيادة فى إفراز غدة كالغدة الدرقية ، إنما يكون مصابا فى نفس الوقت بالقلق وبالتشكك فى كل ما يحيط به من أشياء وأشخاص . وتنعدم ثقته فى الحاضر والمستقبل جميعا . ومن جهة أخرى مقابلة فقد لوحظ أن أولئك الأشخاص المصابين ببلادة فى إفراز غددهم الدرقية لهورمون الثيروكسين ، إنما يكونون ميالين إلى الامعية ، فيسهل إقناعهم وقيادتهم وبث الأفكار فيهم بسهولة .

ومن المؤكد أن ثمة علاقة وثيقة فيما بين ما نلاحظه لدى المراهق والمراهقة من تشكك فيما سبق لها تصديقه والأخذ به من أفكار ومعتقدات بثها فيها

الكبار من حولها أيام الطفولة وبين التغيرات الجسمية وعلى رأسها تلك التغيرات الهرمونية التي تواكب مرحلة المراهقة حيث تنشط الغدد الجنسية الداخلية فتقوم بإفراز هورمونات بالدم لم تكن تفرز — على الأقل بنفس القدر — خلال الطفولة .

ومن المؤكد أيضاً أن ما يسمى بسن اليأس الذي تمر بها المرأة عندما تبلغ حوالى الخامسة والأربعين أو الخمسين وتنقطع لديها الدورة الشهرية ، وما يصاحب ذلك الانقطاع من تغيرات جنسية داخلية تتعلق بالنقص في إفراز الهرمونات الأنثوية ، وما يصاحب ذلك من تغيرات نفسية ومن تغيرات في النظرة إلى الحياة وفي تفسير ما يترامى إلى سمعها من كلام أو ما تشاهده من تصرفات ، انما يرجع في الواقع إلى فقدان المرأة في تلك السن لما كانت تتمتع به قبل ذلك من اتزان هورمونى .

وفي الحالات التي يصاب فيها الرجل أو المرأة بالعنة — أى الإصابة بمرض يقعهما عن ممارسة الحياة الجنسية الزوجية على نحو سوى ، — حيث يصير الرجل عنيئا والمرأة عنينة فإن الواحد منهما يبدأ في الشك في سلوك الآخر. وقد تصل به الدرجة في الشك إلى حد الاعتقاد بأنه يخونه مع أفراد من الجنس المقابل من المعارف أو الجيران أو الأصدقاء أو الأقرباء .

وواضح أن العنة التي يصاب بها الرجل أو المرأة ، انما تعود في الغالب إلى فقدان الاتزان الهورمونى . وهناك حالات ليست بالنادرة تزداد فيها الهرمونات الأنثوية عند الرجل أو تزداد فيها الهرمونات الذكرية عند المرأة ، فيفقد الرجل ميله جنسياً إلى النساء ، كما تفقد المرأة ميلها إلى الرجال. وأكثر من هذا فإن الرجل من هذه الفئة يحس بميل جنسى مثلئ ، كما تميل المرأة من هذه الفئة إلى الجنسية المثلية أيضاً . ومن الحقائق البيولوجية المعروفة أن لدى كل من الرجل والمرأة هورمونات ذكرية وأنثوية ، ولكن الهرمونات الذكرية تكون هي الغالبة والسائدة لدى الرجل العادى ، بينما تكون الهرمونات الأنثوية هي الغالبة والسائدة لدى المرأة العادية . فإذاما وقع خلل في

الاتزان الهورموني الجنسي ، نتج عن ذلك آثار سلوكية ظاهرة وباطنة ، ولا تقتصر تلك الآثار على البادى من السلوك الظاهري ، بل تتجه أيضاً تلك الآثار إلى الأفكار والعواطف جميعاً .

وهناك بعض تفسيرات للعبقرية وماتتضمنه من شك في الواقع القائم والبحث عن واقع جديد يحلّه العبقري محل الواقع القائم بما يكون العبقري مصاباً به من عدم اتزان هورموني . فلقد يكون العبقري مصاباً بافراط في إفراز بعض الهورمونات ، كما أنه قد يكون مصاباً بالنقص الكبير في إفراز بعض الهورمونات الأخرى . من ذلك مثلاً ما يقال عن الكاتبة جورج صاند التي كانت تميل إلى تقليد أفراد جنس الذكور بما في ذلك الاسم نفسه ، حيث أنها نبتت أسمها الأصلي وصارت تلقب نفسها باسم جورج صاند ، بل أنها كانت تتخذ الأصدقاء لها من الرجال وتجالسهم . وعلى نقض ذلك كان أوسكار وايلد الشاعر والروائي الأيرلندي الشهير . لقد كان غريب الأطوار تماماً . فقد كان شعره طويلاً كشعر النساء ، كما كان يكره سلوك الرجال ، وقد حكم عليه سنة ١٨٩٥ بالسجن سنتين لجرمة أخلاقية تتعلق بالشذوذ الجنسي . ومن المؤكد أنه كان مصاباً باضطراب في الهورمونات .

ومن العبارة الذين ترتبط عبقريتهم بالاضطرابات في قوامهم البيولوجي وبخاصة فيما يتعلق بافراز الهورمونات - الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو . لقد كانت حياته الجنسية مضطربة وكان في نفس الوقت يظن أن كل إنسان في الوجود منافس له حتى إنه كان يخشى البرق والرعد ويظن أن حدودها موجه ضده ، وهو نوع من انتقام السماء ، وكان لا يأكل الا الطعام الذي يجهزه بنفسه لأنه كان يخشى إذا أكل طعام طاهيته أن يكون أحد منافسيه قد أغرى الطاهية ودس له السم فيه . ويكفي أن تقرأ أية صفحة من كتابه « الاعترافات » لتدرك لتوك أن روسو كان إنساناً أسيراً لأحاسيسه الوجدانية المضطربة ، وكان اضطراب غده وما تبع ذلك من سوء صحته المزمن مؤثراً في شكوكه المرضية .

وإذا كان هذا هو حال العباقرة ، فإنه بالأولى حال المجانين (١) .
والواقع أن الفرق بين العبقرى والمجنون فى رأينا هو فرق فى المنفذ والصبغة
للانفعالات والأفكار . فالعبقرى شخص استطاع أن يصوغ عواطفه وأفكاره
فى صيغ معقولة وفى سلوك يعتبر أعلى من سلوك الأشخاص العاديين ، بينما
ينظر إلى المجنون باعتبار أن صيغته فى مستوى منحط عن صيغ الشخص العادى .
ولكن لاشك أن الكثير من حالات الجنون ترتبط بالاضطراب الهورمونى .
ولكن السؤال الذى يحير الأطباء النفسانيين هو ما إذا كانت الاضطرابات
الهورمونية هى المسئولة عن الجنون ، أم أن الجنون هو المسئول عن الاضطرابات
الهورمونية . صحيح هناك حالات لا تحتل الشك وتكون معزوة بالتأكيد إلى
الاضطرابات التى أصابت غدة صماء أو أكثر ، ولكن هناك حالات أخرى
محيرة حيث لا يمكن تحديد السبب والنتيجة . فالشخص إذا غضب مثلا زادت
افرازات الأدرنالين لديه . ولكن من جهة أخرى إذا زادت نسبة الأدرنالين
لأسباب عضوية ، فإن الشخص المصاب يكون غضوبا وغير منسجم مع
واقعه الاجتماعى .

حالة الجهاز العصبى والشك :

سبق أن قلنا إن الجهاز العصبى المركزى - وعلى رأسه المخ - يسيطر
على الشخصية برمتها ، بل إن هذا الجهاز هو المشرف على الجهاز
العصبى السمبتاوى الذى يقوم بتنظيم أجهزة الجسم الداخلية بطريقة لاشعورية
بما فى ذلك الغدد الصماء التى تقوم بافراز الهورمونات فى الدم مباشرة .

والواقع أن المخ البشرى - بما يتضمنه من أجهزة معقدة - يعد المسئول
عن جميع المناشط الذهنية والعاطفية ويقوم بتنظيمها وتوجيهها . وهناك عمليتان
أساسيتان يضطلع بهما المخ . العملية الأولى هى عملية التأثيرية التقبلي excitatory
والعملية الثانية هى العملية الكفية أو المنعية Inhibitory . فبمقتضى
العملية الأولى يكون الإنسان قابلا لاستقبال المثيرات الخارجية والتأثر بها ،

(١) انظر كتاب «العبقرية والجنون» للمؤلف - مكتبة غريب بالفجالة - القاهرة .

وبمقتضى العملية الثانية يكون الإنسان في موقف الرفض أو في موقف المعارض للتأثر والاستجابة للمثيرات الخارجية .

ولعلنا نترجم هذا مرة أخرى بأن نقول إن العملية الأولى تؤيد الموقف الاقتناعي الایمانی ، بينما تؤيد العملية الثانية الموقف الشكی الرفضی . ذلك أن المخ وهو يضطلع بالعملية الأولى يخضع ويتقبل ، بينما يكون في العملية الثانية مقاوما للخضوع والتقبل .

ولنا أن نقول إن تحقيق التوازن بين هاتين العمليتين يؤدي إلى نشوء موقف ثالث هو مانسميه بالموقف التخيري أو الشكی . ولقد سبق لنا أن عرفنا الشك بأنه القدرة على الانتقاء من بين عدة اختيارات متاحة في الموقف الواحد . فالشك — حسب تعريفنا السابق له — ليس رفضا وليس تقبلا ، بل هو المنزلة بين منزلتين ، أو هو الموقف البيني الواقع بين الرفض والتقبل أو هو مرحلة التردد أو مرحلة التبصر والمقارنة والمفاضلة بين مخيرات متباينة في الموقف يكون على المرء أن يقع على واحد منها .

ونستطيع القول بأن إدراك المرء للأشياء المحسوسة المحيطة به — سواء كانت منظورات أم مسموعات أم ملموسات أم متذوقات أم مشمومات — إنما يمر بمرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى تتسم بأنها مرحلة تأثرية تقبلية ، وهي ما تعرف بمرحلة الإحساس . والاحساس يتم بطريقة استقبالية بواسطة حاسة أو أكثر من الحواس الخمس . فلقد أشاهد أحد الأشخاص وأسمع صوته في نفس الوقت ، فتكون ثمة حاستان مشتركتان في ادراكى ، وهما حاستا البصر والسمع معا . وعندما أتناول الطعام ، فان ثلاث حواس تشترك في ادراكى له ، هي حاسة الأبصار وحاسة الشم وحاسة الذوق . وعندما أذهب لشراء قطعة من القماش ويعرض على التاجر بضعة أنواع لأختار من بينها ، فاني أرى القماش وأتحسسه بأصابعى لكي أكتشف القماش الأنعم أو الأسمنك ، وأقارن كل نوع مع الأنواع الأخرى ، وعندئذ تشترك حاستان في هذا الموقف هما حاسة البصر وحاسة اللمس .

بيد أن الاحساس قد يترجم بمراكز المخ وقد لا يترجم . فنحن في نعاسنا نستقبل الأصوات التي تدور حولنا ، وقد ندرك بعضها ونسقط من إدراكنا بعضها الآخر ، بل إننا قد نترجم ما يصل إلى أمخاخنا من أصوات ترجمة مباينة تماما للترجمة الواقعية . لقد نترجم النقر على أحد الأبواب بأنه قنابل تنفجر أو مدافع تنطلق أو طبول تدق ، وقد نستخدم بطريقة لاشعورية تلك الترجحات الموهومة بحيث تتساوق وتنسجم في إطار حلم مخيف نكون قد انخرطنا في أطاره . وكثيرا ما تستقبل حواسنا انطباعات حسية ، ولكنها تظل في طور الاحساس دون أن تجد لها أية ترجمة بالمخ .

ومعنى هذا في الواقع أن الاحساس في حد ذاته يمثل تمثيلا تاما وأصيلا لما يتصف به المخ من استقبالية . ذلك أن المخ — وقد قلنا إنه المشرف على الجهاز العصبي السمبثاوي — يعد المستول عن ذلك الميل الاستقبالي الذي تنسم به الحواس . ولعلنا نضيف أيضاً إلى هذا أن الترجمة التي يمكن أن يقدمها المخ بطريقة لاشعورية — في أثناء النوم مثلاً — لما يصل إليه ، إنما تنهج هي الأخرى نهجا استقباليا سلبيا . ومعنى هذا أن الاحساس والادراك اللذين يتمان والمرء نائم ، أو وهو مركز ذهنه في أشياء أخرى ، أو وهو ساه وقد أخذ يسرح الطرف في أمور بعيدة عن الموضوعات التي يتم الاحساس بها وأدراكها بطريقة غير واعية ، إنما يتمان وفقاً للعملية التأثرية التقبلية .

ولكن ما الشأن بازاء الموضوعات الادراكية ونحن في حالة من الوعي والشعور الكاملين ؟ اننا نعتقد أن الادراك في أثناء الوعي والشعور والانتباه إنما ينخرط في إطار الموقف الشكى ، وذلك بمساعدة المرحلة أو العملية الثانية التي يضطلع بها المخ في مقابل المرحلة أو العملية التأثرية التقبلية ، أعني العملية الكفية أو المنعية . فعندما يعرض علينا موضوع إدراكي ، فاننا نحاول ترجمته ذهنيا في ضوء ماسبق لنا إدراكه ، وماسبق لنا تخزينه بالمخ من معرفة . فاذا ما رأينا ذئبا ، حسبناه كلبا . ولكن بعض العناصر الادراكية الجديدة تجعلنا نتوقف عن التصديق ، فنعلق حكمتنا بأنه كلب . ولعلنا نستعيد معارف قديمة مرت بنا ، كأن نقارن بين الحيوان الموجود أمامنا بالذئب

الذى شاهدناه ذات يوم بحديقة الحيوان . وبعد فترة من التردد - تقصر أو أو تطول - نصدر حكما بأنه ذئب أو بأنه كلب من فصيلة الوولف :

فالادراك الواعى إذن يمر فى ثلاث مراحل أساسية : الأولى مرحلة الاحساس : وهى مرحلة تقبلية بحتة . والثانية - مرحلة الشك أو المرحلة البينية التى تقع بين التصديق والانكار ، والثالثة - مرحلة إصدار الحكم الشعورى الإدراكى التى تحدد نوعية المدرك الحسى الموجود خارج حواسنا .

وإذا كان للشك موضع يحتله فى الادراك ، فإن له مواضع أيضا يحتلها فى جميع العمليات الذهنية الأخرى التى يقوم بها المخ وهى على النحو التالى :

أولا - العمليات المعرفية التى تنفرع الى عمليات إدراكية وعمليات تذكيرية وعمليات تخيلية وعمليات تصورية (تتعلق بالمفاهيم المجردة كتصورى للقلم وأعنى به أى قلم)

ثانيا - العمليات الوجدانية وهى تنفرع الى عمليات الحب وعمليات الكره .

ثالثا - عمليات النزوع أو الارادة وهى تنفرع الى نوعين من العمليات هما الاقبال والادبار بكل ما يحملهما هذان اللفظان من معان .

فاذا اتفقنا على أن المخ يضطلع بهذه النوعيات الثلاث من العمليات الأساسية ، فإننا نجد فى كل نوعية منها مكانا للشك كما سبق تعريفنا له فى ضوء الاختيارات المتباينة ، وفى ضوء المرحلة البينية وذلك قبل الاضطلاع بالسلوك ، سواء كان سلوكا باطنيا لا يخرج الى الاطار الخارجى للشخصية ، أم كان سلوكا ظاهريا وهو ما يعرف بالابانة الرمزية أو العملية . والابانة الرمزية تكون منطوقة أو مكتوبة أو مرسومة أو منحوتة ، والابانة العملية تكون باتيان تصرفات معينة تؤثر على نحو أو آخر فى البيئة المحيطة بالمرء .

فالانسان فى جميع العمليات السابقة يمر فى المرحلة البينية حيث يكون بازاء اختيارات عديدة يقع على واحد منها يتعرف عليه أو يختاره وجدانيا

بقلبه أو أدائها بالتصرف الى الخارج والتأثير في البيئة من حوله وأخيرا فان المستول الأول عن تلك المواقف الشكية الاختيارية هو مخ المرء وما يتصف به جهازه العصبي من صحة أو مرض ، أو من قوة أو ضعف .

ونستطيع القول بأن الفترة البيئية أو الاختيارية يجب أن تكون مناسبة للمقام ولمدى صعوبة أو تعقد الموقف . ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا إنه في بعض حالات ضعف المخ أو عند اصابته بالمرض ، فان تلك الفترة البيئية قد تستمر بحيث يظل المرء غير قادر على الوصول الى قرار يتخذه أو الى رأى حاسم يصل اليه . ولقد تجد الواحد ممن أصيبوا بالمرض أو الضعف في جهازهم العصبي وقد صار الشك هو سمته الأساسية . فهو يجعل من شكه المرحلة النهائية التي تنتهي اليها بغير أن يصعد الى المرحلة التالية التي يقع فيها على أحد الاختيارات . ومن ثم فان سلوك الشخص من هذا النوع يتسم بالدوران في دائرة مغلقة لا يستطيع منها انفلاتا . ولقد يصل الحال به الى الوقوع في دوامة الوسوسة . خذ مثالا لذلك الشخص الذي يظل طوال الليل متردداً بين السرير وباب الشقة للتأكد من أنه قد أحكم اغلاقه . فهو لا يستطيع الوصول الى حكم قاطع بأنه أحكم اغلاقه برغم تأمله لقفل الباب من الداخل : فهنا في مثل هذه الحالة لا يكون الخطأ في الاحساس ، بل يكون الخطأ في الوقوع على اختيار من اختارين ذهنيين : هما احكام الاغلاق من جهة ، وعدم إحكام الاغلاق من جهة أخرى . ونفس الشيء ينطبق على الشخص الذي يقع في مرحلة بيئية مستمرة بين أن يكون اللصوص قد سرقوا نقوده وبين ألا يكونوا قد سرقوها . ولا يخفى على أحد ما لسيطرة تلك الحالة البيئية واستمرارها في سيطرتها على ذهن المرء المريض من إرهاب نفسي . فالقلق يستبد بالشخص الموسوس كل الاستبداد بحيث يصير في شقوة دائمة وفي تعب نفسي مستمر . فالشك وان كان ظاهرة سوية اذا كان مجرد خطوة أو مرحلة يصل بعدها الشخص الى قرار يصل اليه ، فانه يعد حالة مرضية اذا كان مصحوبا بحالة من العجز عن الخروج من إطاره الى المرحلة التالية حيث الحكم والقرار .

أمراض الوجدان والشك :

نود أن ننبه بادية ذي بدء الى أن الانسان كل متكامل وأن التقسيم الذي ننحو اليه فيما نعرض له من موضوعات بازاء الموضوع الواحد كموضوع علاقة الشك بالصحة النفسية ، إنما هو بمثابة تطلع الى نفس الشيء من زوايا متباينة . فنحن كمن يقف أمام تمثال ثم يبدأ في الدوران حوله ليراه من جوانبه المتباينة بغير أن يقلت أى جانب من ملاحظته . بيد أن مشاهدته للتمثال من زوايا متباينة لا يفقد ذلك التمثال وحدته وتكاملية . فاذا نظرنا الى علاقة الشك بالصحة النفسية وقد بدأنا من الزاوية الجسمية بما تشتمل عليه من هورمونات وجهاز عصبي وأثر الغدد والمخ في الشك لدى المرء فإن هذا لا يكفي لتغطية الزوايا الممكن أن ننظر منها الى هذا الموضوع . فثمة زاويتان باقيتان يجب أن نتناول الشك والصحة النفسية من خلالها ، ألا وهما أمراض الوجدان ثم أمراض العقل وذلك لأن ما يمكن أن تصاب به الشخصية قد يكون ذا طبيعة بيولوجية ، كما أنه قد يكون ذا طبيعة وظيفية أو قل ذا طبيعة مكتسبة من العوامل البيئية التي ينخرط المرء في ظلها وما للوسائل التربوية في تأثير في الوجدان والعقل على السواء .

وإذا نحن ركزنا الحديث هنا على الوجدان وما يمكن أن يصاب به المرء من أمراض وجدانية ، وأجلنا الحديث عن العقل وما يمكن أن يصيب المرء من أمراض عقلية ، فالتا نبادر بالقول بأن هناك ما يمكن أن نسميه بالجوع الوجداني . ذلك أن الإنسان بحاجة إلى أن يحب غيره من جهة ، وإلى أن يجد من يحبونه بصدق من جهة أخرى . فاذا ما وجد الطفل أنه يقدم حبا إلى الناس من حوله ، بينما هم يكرهونه ويرذلونه ، وأنه شخصية منبوذة غير مرغوبة فإنه يصاب بالتالي بما نسميه بحالة الجوع الوجداني . وكما أن الجوع الجسمي إذا ما استمر فترة طويلة من حياة الطفل ، فإنه يصاب اذن بمجموعة من الأمراض التي لا يتسنى علاجها بسهولة بتقديم الطعام بوفرة أمامه ، لأن التعويض بالكثير من الطعام لا يمكن أن يسد النقص أو الفجوة التي أحدثها طول الجوع وشدته خلال طفولة المرء ، كذا فإن الشخص الذي حرم العطف

فترة طويلة من حياته ثم كفّل له العطف بعد ذلك ، فان العطف الجديد مها
كثّر ، فانه لا يكتفى في جميع الحالات — أو في معظمها — لسد الثغرة أو الفجوة
التي نشأت عن استمرار الجوع العاطفي لفترة طويلة .

وجربا وراء نظرية الاختيارات واعتبار الشك هو الوقوف بازاء مجموعة
من الاختيارات ، وأن مرض الشك هو استمرار تلك الحالة الشكية أو الحالة
الاختيارية بحيث لا يتسنى للمرء الوصول إلى قرار أو الوقوع على اختيار معين ،
فاننا نقول إن حالة الجوع العاطفي المستمرة لفترة طويلة من العمر تجعل المرء
في حالة من الشك أو في حالة من محاولة الاختيار من بين الأشخاص المحيطين
به ليقرر من من أولئك الناس يحبه ومن منهم لا يحبه أو يكرهه . والمرضى
الوجداني في مثل هذه الحالة يتبدى في عدم قدرة الجائع وجدانيا على الوصول
إلى قرار يصل إليه أو إلى اختيار يقع عليه بسهولة . فهو يظل معلقا بالحكم
بصفة مستمرة دون أن يقدر على اجتياز هذه المرحلة الشكية إلى ما عداها ،
أعنى مرحلة إصدار القرار والوقوع على اختيار معين .

والواقع أن الفرق بين مثل هذا الشخص الذى استمر جوعه العاطفي
فترة طويلة من حياته وبين الأشخاص العاديين الأسوياء الذين وجدوا غذاء
عاطفيا يغتذون به وينشأون عليه إنما يتبدى في أن هذه المرحلة الشكية أو
الاختيارية لا تظل قائمة مستمرة لديهم ، بل إنهم يتمكنون من اجتيازها إلى
المرحلة التالية التي يقررون عندها من يحبون ومن يكرهون ، بل إنهم في هذه
المرحلة يستطيعون الوصول إلى قرار بازاء من يحبونهم حقاً ومن لا يحبونهم أو
يكرهونهم . فالشخص السوى يستطيع أن يصدر قراراً وأن يخرج من الشك
إلى اليقين ، ومن فرص الاختيار المتاحة أمامه إلى إصدار حكم وانتقاء واحد
من الاختيارات المتاحة أمامه .

ومن أمراض الشك الوجداني أيضاً التذبذب فيما بين الحب والكراهية
بالنسبة للشخص الواحد أو بالنسبة للمجموعة من الأفراد . فإيكاد المصاب
بمرض الوجداني يحب أحد الأشخاص ويتعلق به ، حتى ينقلب حبه له إلى
كراهية ، ثم ما تفتأ الكراهية أن تستحيل إلى حب من جديد . فالشك هنا

يتبدى في عملية الانتقاء من جهة ، وفي عدم الاستقرار على حالة واحدة ، أعنى النكوص من الحب إلى الكراهية والعكس من جهة أخرى . فالشك هنا هو تذبذب في الاختيار ، أو قل انه العجز عن الاختيار والثبات على تخير واحد لمدة معقولة .

ومن أمراض الوجدان التي لها صلة بالشك فقدان الثقة بالنفس . والواقع أن الشخص الذي يفتقد الثقة في نفسه ، إنما يتذبذب بين قطبين متناقضين هما احتقار الذات من جهة ، وتأليه تلك الذات من جهة أخرى والتعالى بها إلى أرفع مستوى ممكن . ويتبدى الشك في حالة فقدان الثقة بالنفس — أو بتعبير أدق في حالة التذبذب في تقدير الذات — في عدم القدرة على الاختيار بين احتقار الذات وبين تأليهها .

ومن أعراض الشك عند الإصابة بأمراض الوجدان ما كان متعلقاً بالتقلب بين التفاؤل والتشاؤم ، أو بين نشوة الفرح وتوقع الشر . ففي هذه الحالة يكون الشخص في موقف شكى أو اختياري مستمر حيث لا يستطيع التوصل إلى قرار يتخذه ولا يستطيع أن يقع على حالة وجدانية يستقر عليها . فهو لا يستطيع أن يختار التفاؤل أو أن يختار التشاؤم . ومن هنا — وبسبب عجزه عن الاختيار — فانه يكون واقفاً تحت رحمة الحالة الوجدانية التي تصادفه . فهو يتفاعل لحظة ثم يتشامخ لحظة أخرى . ويبدو تفاؤله في ابتسامات أو ضحكات يطلقها ، كما يبدو تشاؤمه في رغبته العارمة في البكاء كما ترسم على محياه علامات الحزن والابتئاس .

ومن أمراض الوجدان أيضاً ما كان متعلقاً بلذات الحياة من طعام وملبس وجنس . فعندما يكون الوجدان مريضاً فان الشخص لا يستطيع أن يتخذ لنفسه فلسفة في الحياة يسير وفقها ، أو قل إنه يظل في موقف شكى أو اختياري مستمر بازاء الاتجاهات الوجدانية . فهو يقف حائراً بين التثقف وبين الارتواء في ملذات الحياة . فهل يصوم أم يفطر في أوقات الصيام ؟ وهل يرتدى الثياب العادية أم يرفل في الحلل الغالية ؟ وهل ينبذ الملذات الجنسية ولا يقيم علاقات غرامية ، أم يرتضى في تيار الملذات الجنسية ؟ إننا في الواقع

يُجد الناس ينقسمون بازاء هذه الأسئلة الثلاثة إلى ثلاثة أقسام : فئمة فئة من الناس قد أجابت وقررت الأخذ بالتقشف في المأكّل والملبس والجنس ، وثمة فئة ثانية اختارت الملذات والتنعّم مذهبا لها فهم يقبلون على الأكل ونبد الصيام والتنعّم بأبهى الحلل واقامة علاقات غرامية كلما تسنى لهم ذلك . أما الفئة الثالثة — وهى فئة المتشكّكين — فان أفرادها لا يقعون على اختيار محدد : فلاهم بالمتقشفين ، ولا هم بالملتذّين . فهم يقعون فى مرحلة بينية ، أو قل لإنهم يظلون فى حالة اختيار بغير الوصول إلى قرار وبغير إصدار حكم يقطعون به الشك باليقين .

والواقع أن الإنسان السوى — سواء كان خيرا أم شريرا — هو ذلك الشخص الذى لا يظل فى هذه الحالة البينية ، بل هو يمر بها ويخرج من اطارها لكي ينخرط فى المرحلة التالية ، أعنى مرحلة إصدار القرار والوصول إلى حكم واضح صريح . والأمر هنا شبيه — كما سبق أن قلنا — بمن يكون أمامه طريقان حيث يتفرع الطريق السائر فيه إلى هذين الطريقين . فلا بد له من اختيار واحد منها ليكمل مسيرته . فمن الطبيعى أن يتردد ذلك السائر لحظة فيقارن بينها ويعمل ذهنه لكي يصل إلى الأقصر منها والموصل إلى غايته التى يرومها . بيد أن تلك الفترة التى يختار خلالها لا تظل مستمرة ، بل تنتهى ويصل إلى قرار . ولكن إذا وقف ذلك الشخص عند مفترق الطريقين وهو عاجز عن الاختيار ، ويظل على هذه الحال على طول الخط ، فاننا نهمه عندئذ بالجنون . وهذا فى الواقع هو حال المصاب بمرض الشك الوجدانى . فثل ذلك الشخص لا يستطيع أن ينضم إلى فريق المتقشفين أو إلى فريق عشاق اللذة .

ويتضح مما سبق أن التعريف الذى قدمناه للشك بأنه العجز عن الخروج من مرحلة الاختيار من بين الاختيارات أو المتغيرات المتاحة فى الموقف إلى مرحلة اتخاذ القرار والوقوع على الاختيار بغير رجوع عن ذلك الاختيار وبغير تذبذب بين عدة اختيارات ، إنما ينطبق أيضاً بازاء ما يبدو من أعراض

شككية في حالات أمراض الوجدان . وهكذا نجد أن تعريفنا للشك على هذا النحو قد صلح للتطبيق على جميع الحالات التي عرضناها حتى الآن بما في ذلك حالات أمراض الوجدان .

أمراض العقل والشك :

سبق أن قلنا إن أمراض الشخصية متداخلة أشد التداخل ، وأن النظر إلى الشخصية لدراستها يشبه النظر إلى تمثال من زوايا متباينة . ومعنى هذا أن تناولنا لأمراض العقل لا ينفصل عن تناولنا لأي جانب من جوانب الشخصية سواء كان تناولنا بقصد إبراز جوانب الصحة ، أم بقصد إبراز جوانب المرض والانحراف عن السوية . ونحن إذ نتناول أمراض العقل ، فأنما نقصد ما كان متعلقا بقطاع التفكير . ولقد نحدد أمراض العقل في الجوانب الأساسية التالية :

الجانب الأول — خاص بمنطق التفكير . فمن الأمراض العقلية ما يجعل التفكير متناقضاً بعضه مع بعض بحيث يشتمل على المتناقضات في ذات الوقت أو في لحظات متتالية مستمرة . فالمصاب بالمرض العقلي في هذه الحالة لا يضع فاصلاً بين الوجود وغير الوجود ، ولا يضع فاصلاً بين الصفات المتناقضة أو المتضادة . فهو قد يصف الشيء بأنه جيد وريء في نفس الوقت أو في لحظات متعاقبة ، وقد يصف الطقس بأنه بارد جداً وحار جداً ، ولأمانع لديه من أن يكون الشيء الواحد موجوداً وغير موجود في نفس الوقت ، أو أن يكون الجزء من الشيء أكبر من الشيء نفسه .

الجانب الثاني — خاص بترابط الكلام . ففي بعض حالات المرض العقلي يكون الكلام مفككاً بحيث لا يكون جملاً مفيدة . وطبيعي أن يكون تفكك الكلام صدى ونتيجة لتناقض التفكير وتفكك روابطه .

الجانب الثالث — ما كان متعلقاً بإصدار الأحكام . فالأحكام التي يصدرها المريض عقلياً تكون أحكاماً فجأة وخاطئة حتى بالنسبة لأبسط القضايا اليومية . فإذا سألت أحد الطلبة المصابين بالمرض العقلي : لماذا

لا تستذكر دروسك ؟ فانه قد يجيبك بقوله : « لأن الفران يمكن أن تأكل الكتب وبالتالي فإن المعلومات التي أستخدمها تضعيـع » . فمثل هذه الإجابة لا تربط السبب بالمسبب ، بل تدل على تفكك في التفكير وعدم ربط العلة بمعلولاتها .

الجانـب الرابع — ما كان متعلقا بالأفكار الثابتة . وهنا نجد أن المريض عقليا يتشبث بفكرة أو بالأحرى بمحور فكري لا يرم عنه . فقد يدبر محور تفكيره كله حول نوع من الأشعة التي تصدر عنه أو يمكن أن تصدر عنه فتحقق ما يريد به غير أن يكون بحاجة إلى استخدام أية أداة . فهو يعتقد أن بمقدوره أن يفعل أى شئ أو أن يمنع حدوث أى شئ بواسطة تلك الأشعة . فإذا ضايقه أحد من أفراد الأسرة ، فانه يهدده باستخدام تلك الأشعة الخرافية بل إنه يعتقد أنه يستطيع تحقيق أية أمنية تخطر بباله بواسطتها . فإذا ضيق أحد الجنانـق عليه بتمحيـده إذا فعل كذا أو كيت بواسطة تلك الأشعة ، فانه يسارع بقوله : « إني لا أثمر بأمرك ، وحين يأتيني الأمر من قوة خارجية خارقة معينة ، فاني أفعل ما تأمرني هي به » .

الجانـب الخامس — العجز عن إصدار أى حكم والوقوف أمام الاختيارات المتعددة بالموقف دون القدرة على إصدار قرار بأزاء المفاضلة أو المقارنة بين أشياء أو أفكار في الموقف . ولعلنا نضرب مثالا لذلك بالشخص الذي يوضع أمامه الطعام ، فيقف حائرا بأي شئ يبدأ ، هل يبدأ بتناول الخبز أم يبدأ بتناول الملعقة أم يبدأ بشرب كوب الماء الموجود أمامه ؟ إن المصاب بالمرض العقلي يجد في هذا الموقف مشكلته الكبرى ، فيصير عاجزا عن ترتيب الأولويات في هذا الموقف العادي . ومن ثم فانه يتوقف عن إصدار الحكم ويظل حائرا أمام مائدة الطعام حتى لو مات جوعا . ولقد تصل الحالة بالمصاب عقليا الى درجة التوقف عن ممارسة أى نشاط . فحتى لدى نزوله من السرير يأخذ في التساؤل : هل ينزل بكلتا قدميه أم يلامس الأرض بقدمه اليمنى أولا أم بقدمه اليسرى ؟ فثمة اذن في هذا الموقف ثلاثة اختيارات لا يستطيع أن يقع على واحد منها ويبدأ في تنفيذه .

وإذا كان المصاب عقلياً طالباً فإنه قد يجد مشكلته الكبرى بازاء أى مادة يبدأ بها فى الاستدكار . فهل يبدأ بما أخذه بالمدرسة اليوم ، أم يبدأ بما سوف يأخذه غداً ؟ إن مثل هذه المشكلة قد تصادف الطالب سوى ، ولكنه سرعان ما يتخذ قراراً بازائها . فهو يحسم أمره ويختار واحداً من الاختيارين السابقين . ولكن الطالب لا يكون سويًا إذا هو ظل فى حالة من العجز عن حسم الرأى والوقوع على اختيار من الاختيارين المتاحين بالموقف . فالحالة البينية تعبر عن نوع من العجز الارادى المتعلق بالناحية العقلية .

ولكن هل هناك علاقة ما بين قوة الإرادة وبين الاختيار العقلى ؟ إنما فى الواقع نتوسع فى استخدام كلمة إرادة ونجعل لمفهومها مجالا أكبر من مجال الأداءات العملية والممارسات الاجتماعية التى تتسم باقامة علاقات معينة أو حذف علاقات أخرى بين الأفراد من الناس . فنحن نعتقد أن الانتهاء العقلى الى اختيار من بين أكثر من اختيار واحد إنما هو نوع من الفعل الارادى . فطالما أنك وجهت فكرك أو طالما أنك استطعت أن تقع على رأى أو أن تتخذ قراراً ، فانك بذلك تكون قد استعنت بقدر ما من قوة الارادة .

ومعنى هذا فى الواقع أن قوة الإرادة يمكن أن تتخذ لها خمسة منافذ متباينة : المنفذ الأول هو المنفذ الجسمى الأدائى ، والمنفذ الثانى — هو المنفذ اللغوى التعبيرى ، والمنفذ الثالث — هو المنفذ الاجتماعى المتعلق بالعلاقات الاجتماعية . والمنفذ الرابع — هو المنفذ الوجدانى حيث يقع المرء على منحى عاطفى معين يتجه اليه ويتلبس به . والمنفذ الخامس والأخير هو المنفذ العقلى حيث يختار المرء فكرة أو مذهباً من بين أفكار أو مذاهب كثيرة ويعطيها صوته .

ولقد نقول إن امراض الارادة — ومنها مرض العجز الارادى — إنما تنشر عباءتها على العقل بحيث تجعل المرء فى حالة شك دائمة . ولقد سبق أن

قلنا عدة مرات ان تعريفنا للشك هو أنه حالة مستمرة من الاختيار بغير وصول الى قرار حاسم بازاء ما يمكن للمرء الوقوع عليه واختياره دون سواء من بين المتغيرات الكثيرة بالموقف . فالشخص المصاب بالعجز الارادى لا يستطيع أن يتخذ لنفسه قرارا عقليا حاسما بازاء الاختيارات الكثيرة المطروحة أمامه . إنه يظل مجيلا البصر فى الأفكار المعروضة أمامه يمر عليها ولا يستطيع أن يتوقف عند واحدة منها . ومن هنا فان المصاب بالعجز الارادى العقلى يكون ضحل التفكير . ذلك أنه ما يكاد تمر بعقله فكرة حتى يتحول الى غيرها بغير أن يسر أغوارها أو بغير أن يتصفح جوانبها المتباينة . إنه كمن يمر بسيارة بسرعة فى أحد الشوارع فيلمح لافتات المحال التجارية التى يمر بها بغير أن يفكر فى مضمون أى من تلك اللافتات وما عسى أن ينم عليه المكتوب على اللافتة من سلع أو مناشط تجارية . فكما أن مثل ذلك الشخص يكون سطحيًا فى معرفته بما تحتويه تلك المحال التجارية وما يسطوع به أصحابها من مناشط تجارية أو صناعية ، كذا يكون حال المصاب بالعجز الارادى العقلى . ان محه يكون بمثابة شريط سينمائى يعرض أمام عقله أفكارا متباينة سريعة بغير أن يكون قادرا على الامساك بتلابيب أى منها لى يتفحصه ، ومن ثم اختياره من بين الأفكار الأخرى التى يتم له تفحصها .

ولعلنا نقول إن مرض الفصام (الشيزوفرنيا) هو خير مثال على هذا النوع من العجز الارادى العقلى ، فالمصاب بهذا المرض لا يستطيع أن يحسم أمره وأن يقع اختياره على فكرة بالذات يختارها من بين مجموعة من الأفكار ليعبر عنها . فهو يسرح الطرف فى العديد من الأفكار دون أن ينتهى الى قرار عقلى يتخذه ، وبالتالي دون أن يقدر على الابانة بالكلام عما كان يمكن له أن يختار من أفكار . فهو يظل فى حالة من التوقف الفكرى وفى حالة من العجز الارادى العقلى التام .

ولقد يتبدى العجز الارادى العقلى والتردى فى هوة الشك أو التوقف عن الاختيار العقلى فى سرد لحات خاطفة تتعلق بالأفكار التى تمر كهيئة شريط فى ذهن المريض عقليا . فهو كما قلنا كمن يركب سيارة ويمر بها أمام المحال

التجارية ويرى بسرعة خاطفة الأشياء المكتوبة على لافتات تلك المحال ..
 فالمرضى عقليا قد يعتمد الى الافصح بلسانه عن بعض ما تتضمنه تلك اللافتات.
 العقلية التي تمر على ذهنه المريض . فهو لا يكاد يركز ذهنه على أية لافتة منها ،
 بل هو يقتبس شذرات من هنا ومن هناك يفوه بها ، فيأتي كلامه مفككا
 غير مترابط ولا يدل على التكامل الذهني . فالتعبير اللفظي هنا إنما يدل على
 الشك الضارب بجذوره في شخصية المريض ، كما يدل على استمرار العجز
 عن التركيز الذهني فيما يمر بعقله من أفكار .

الفصل الرابع

الشك والاعتقاد

الاعتقاد الأولى :

لقد سبق أن عرفنا الشك بأنه التواجد في موقف به أكثر من اختيار واحد . فالفترة التي يمر بها المرء للاختيار من بين الاختيارات المتاحة بالموقف تعتبر فترة شك . وقد قلنا أيضا إن تلك الفترة الشكية يمكن أن تقصر أو تطول ، بل إنها في حالة بعض الأمراض النفسية تظل قائمة لا يريم عنها المريض نفسيا . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نجد هناك نوعين من الاعتقاد — طالما أن الاعتقاد ضد الشك — فثمة اعتقاد أولى وهو التقبل الذي يتأتى عن عدم وجود سوى اختيار واحد بالموقف ، أو قل بتعبير أدق عدم وجود سوى شيء واحد يكون على المرء تقبله . أما النوع الثاني من الاعتقاد فهو الاعتقاد الثانوي . وهذا النوع الأخير من الاعتقاد ينقسم الى أربعة أنواع فرعية هي الاعتقاد الاقتناعي ، والاعتقاد الرفضي ، والاعتقاد الغيبي ، وأخيرا الاعتقاد الایحائي .

ولسوف نعرض لكل نوع من هذه الأنواع الأربعة من الاعتقاد التي تدرج جميعا تحت فئة أو نوع واحد هو الاعتقاد الثانوي فيما يقبل من موضوعات اعتقادية .

ولعل أول خطوة في الاعتقاد الأولى يخطوها الوليد هي تقبل الثدي بمتصه للاغتذاء بلبن الأم . ففي هذا الموقف لا يكون أمام ذلك الوليد خيارات يفتي من بينها ، بل يكون عليه أن يقع على هذا الاختيار الوحيد — أعني الثدي — كمصدر وحيد لغذائه . وطالما أن الكبار يتناولون الطفل ويضعون الغذاء في فمه ولا يكون له فرصة للانتقاء من بين وجبات متباينة ، فان تقبله لما يقدم اليه يكون اذن من قبيل الاعتقاد الأولى . ولقد يقول قائل : وما دخل

الاعتقاد في تناول الطعام ؟ » إننا في الواقع نعتقد أن هناك نوعين من الاعتقاد : نوع شعورى يبدو في الأعمال الإرادية وبضمنها الاقتناع - وقد سبق أن أدرجنا ما يختاره المرء بعقله من أفكار ضمن الأعمال الإرادية - ونوع لاشعورى كما هو الحال في الاعتقاد الانيائى ، وأيضا فيما يتعلق بجميع مناحى السلوك التى يأتيا المرء عن غير وعى . وفي ضوء هذه النظرة الواسعة للاعتقاد اللاشعورى الأدائى ، فإننا نستطيع القول بأن العمليات الحيوية والمنشط العضوية التى يقوم بها النبات والحيوان ، وأيضا أجهزة الجسم الداخلية لدى الإنسان كالمعدة في تقبلها للطعام وهضمه ، إنما تعد واقعة في إطار الاعتقاد الأولى . فلا فرق في الواقع بين تناول الرضيع للثدي الأم ، وبين امتصاص الجنين للدم من قلب الأم بواسطة الحبل السرى مباشرة . وليس هناك فرق بين هذا الامتصاص الذى يقوم به الجنين وبين تقبل المعدة للطعام الوارد إليها من الفم بعد أن يجرى عليه عمليات اختبارية وهضمية مبدئية قبل أن تقوم المعدة بعمليات اختبارية وهضمية كبرى .

ولسنا نذهب شططا في هذا الشأن . فعلماء النفس التطوريون سبق أن قالوا بالذكاء الفسيولوجى حيث أناطوا بأجهزة الجسم - بل وبالنبات والحيوان ابتداء من الأميبا - قدرة على التقبل والرفض ، وقد اعتبروا أن ذلك الذكاء الفسيولوجى إنما هو ذكاء لاشعورى . فلنا الحق إذن أن نقول أن هناك اعتقادا لاشعوريا (بالمعنى العام لكلمة لاشعور وليس بالمعنى الفرويدى الشائع) حيث يمارس الكائن الحى نوعا من التقبل بازاء موقف ليس فيه سوى اختيار واحد عليه أن يتقبله أو يرفضه ، ولكن لا يكون في مقدوره أن يضع أمامه عدة اختيارات ينتقى من بينها .

وإذا كان هذا هو حال الاعتقاد في المجال الحيوى ، فإنه أيضا الحال في المجال الوجدانى . فلا شك أن الرضيع يرتبط وجدانيا بثدي الأم ، ثم بالأم نفسها وقد بدأ ارتباطه بها ارتباطا حيويا بادية ذى بدء . فالاعتقاد الحيوى بالاقبال على الثدي يتدرج الى اعتقاد وجدانى حيث يجد أنه متعلق بتلك المخلوقة ومرتبطة بها أشد ارتباط وأقواه . ولعلنا نزعج في نفس الوقت .

أن الطفل يعتقد أيضا في أشياءه التي يلامسها ولا يرى سواها وقد وفرت له الدفء أو استخدمت في تناوله للطعام كأن يتعلق بطبقه الخاص وبمعلقته وسريره وعربته ودميته ونحو ذلك من أشياء ، فنقول ان الطفل صار معتقدا في تلك الاشياء .

وجدير بنا بعد هذا أن نتناول المجال الثالث من مجالات الاعتقاد الأولى ألا وهو الاعتقاد العقلي. ونحن نخطئ إذا فصلنا هذا المجال عن مجال آخر ملازم أو هو في الواقع صنو له ، ألا وهو المجال اللغوي الكلامي . ومن الأسئلة المحيرة التي تصادف المرء وهو بصدد الحديث عن العقل والكلام عند الطفل هو هذا السؤال : هل يفكر الطفل لأنه يتكلم ، أم أنه يتكلم لأنه يفكر ؟ لقد يظن البعض أن فكر الطفل سابق على كلامه ، ونحن نعتقد العكس . فالطفل يتكلم أولا كتعبير فسيولوجي أو لأن أجهزة النطق لديه تريد أن تعمل كما تعمل أنت بازاء جهاز التلفزيون أو الراديو وقد شغلته بغير أن يكون هناك إرسال من محطات التلفزيون أو الاذاعة . فالجهاز يشتغل حتى اذا لم يكن هناك إرسال . ولكن عمله يكون بلا معنى . وهكذا حال الطفل الوليد وقد صرخ صرخته الأولى . انه في تلك الحال لا يعبر عن وجدان معتمل بدخيلته ، ولا عن فكر مختمر في دماغه ، وإنما هو يصرخ لتشغيل أجهزة الكلام لديه ، ولإطلاق الشرارة الأولى للكلام .

ولكن هذا المستوى الفسيولوجي من الكلام — إذا صح التعبير وأجزنا استخدام كلمة « كلام » بازاء صراخ الطفل — ما يفتأ أن يصير له مضمون وجداني . فالطفل يصرخ ويبكي لأنه متضايق ومتبرم لسبب أو لآخر . ولكن هذا المضمون الوجداني سرعان ما يتلبس بمضمون ذهني ، حيث يكون لبكاء الطفل معنى أو قل حيث يكون البكاء تعبيرا عن ثلاثة اضلاع أساسية : ضلع يمثل للمستوى الحيوي الفسيولوجي وضلع يمثل للمستوى الوجداني العاطفي ، وضلع يمثل للمستوى الذهني :

على أن نقطة الانطلاق هذه المتمثلة في الصراخ والبكاء ما تفتأ أن تتطور الى جميع التعبيرات الوجدانية الأخرى كالضحك والابتسام والعبوس ولوى الشفة ، والى جميع التعبيرات الذهنية التي تتمثل في الكلام المعقول .

ونحن نرى أنه في المستويات الدنيا من الكلام يكون الطفل متلبسا بالاعتقاد الأولى ، حيث لا تكون أمامه فرص للاختيار من بين متغيرات متعددة . فهو يكتسب لغة الكلام من الناس المحيطين به كقوالب تعبيرية ينقلها عنهم نقلا بغير اختيار من جانبه . ولعلك تلاحظ الفرق الشاسع بين لغة الكبير الناضج وبين لغة الطفل الصغير من حيث القدرة على الاختيار الكلامي . فأنت تجد أمامك الكثير من المترادفات تنتقي من بينها في أثناء كلامك ، أما الطفل الصغير فانه لا يجد — اذا وجد — إلا كلمة واحدة للفكرة الواحدة ، بل إنه ينمو عقليا في تواز مع نموه الكلامي . وصدق من قال إن النمو اللغوي خير شاهد على النمو العقلي لدى المرء . فننضمحل حصيلته الكلامية يكون بالتالي ضحلا في فكره .

أخيرا فاننا نجد المجال الرابع من مجالات الاعتقاد الأولى — أعني المجال الاجتماعي — فالطفل يتشرب القيم والعرف والتقاليد الاجتماعية من حوله بحيث يكون معتقدا فيها اعتقادا أوليا . ولسنا نخطئ إذا قلنا إن الاعتقاد الأولي له أبعد الشأن في حياة الناس ، بل قل إنه أقوى من جميع الاعتقادات التي يكتسبها المرء طوال حياته . ونذكر بأن الخمس سنوات الأولى تشكل المرحلة الرئيسية في تكوين شخصية المرء ، بل إننا نقرر أكثر من هذا أن ما يكتسبه الطفل وهو في الرابعة يكون أديم وأرسخ في شخصيته مما يكتسبه وهو في الخامسة ، وأن ما يكتسبه وهو في الثالثة أقوى مما يكتسبه وهو في الرابعة ، وقل نفس الشيء بالنسبة للسنتين الأوليين من عمره . ولكن يجب في نفس الوقت مراعاة الزوايا الأخرى التي تتعلق بما يمكن للطفل اكتسابه وما لا يستطيع اكتسابه . فالمبدأ العام هو أنه كلما اقتربنا من نقطة البداية في عمر المرء كان الاعتقاد الأولي أقوى ، ولكن النمو له أكبر دخل في قدرة

المرء على اكتساب الخبرات . فطفل العام الأول لا يكون قد حاز نمواً يمكنه من الكلام كحالته بعد ذلك خلال سنوات طفولته الأولى التالية .

ونختتم حديثنا عن الاعتقاد الأولي بأن نقول إن الاعتقاد الأولي لا يقتصر على الطفولة ، بل انه يتوافر أيضاً لدى القبائل البدائية . وأكثر من هذا فاننا نجد أن هذا النوع من الاعتقاد الأولي يوجد حتى لدى أكثر الناس ثقافة . فالمثقف المريض عندما يعرض نفسه على الطبيب ، فأشار عليه الطبيب بمجموعة من الأوامر الطبية وتقبلها ، فان تقبلها لها يكون بمثابة اعتقاد أولي لأنه لا يشك في كلام طبيبه ولا يضح أمامه مجموعة من الاختيارات ينتقى من بينها ، بل ينفذ أوامر طبيبه تنفيذاً أعمى بناء على اعتقاده الأولي .

الاعتقاد الاقتناعي :

ثمّة فرق أساسي بين الاعتقاد الأولي وبين الاعتقاد الاقتناعي ، في أن النوع الأولي من الاعتقاد غير مسبوق بمرحلة شكية اختيارية ، بينما يتسم النوع الثاني من الاعتقاد بوجود تلك المرحلة الشكية . ولقد سبق أن قلنا ونكرر القول بأن الشك حسب مفهومنا هو الاختيار أو بتعبير أوضح هو الوقوف في موقف الاختيار من بين متغيرات أو من بين اختيارات متاحة بالموقف . والاقتناع في الواقع لا يتأتى للمرء الا بعد أن يجد أمامه أكثر من اختيار واحد . وعلينا بادئ ذي بدء أن نتناول معنى الاقتناع . إن مثل هذا المعنى يتبدى اذا نحن تفحصنا المواقف الاقتناعية المتباينة التي يمكن أن نجابهها في حياتنا اليومية . ولعلنا نجد خمسة أنواع من تلك المواقف على النحو التالي :

أولاً - اقتناع يتعلق بوجود شيء محسوس . فاذا ما دق جرس الباب وأنت بداخل الشقة ، فانك تقتنع بوجود شخص خارج الشقة يدق الجرس على الرغم من أنك لا تشاهده وأنت بالداخل . واذا كنت قد اتفقت مع زوجتك على أن تدق جرس باب الشقة دقائق معينة ، وسمعت تلك الدقات ، فانك تقتنع بأن الشخص الواقف خارج الشقة والذي لا تراه قبل فتح الباب هو زوجتك . والاقتناع في هذه الحالة هو اقتناع يتعلق بالحاضر . ولكن

الاقتناع الوجودى قد يتعلق بالماضى كما هو الحال بازاء الحقائق التاريخية المستخلصة من الاكتشافات الأثرية لعهود قديمة ، وقد يتعلق الاقتناع بالمستقبل كما هو الحال بالنسبة للتنبؤات الطقسية والفلكية والحضارية . فشواهد الحاضر يمكن أن تلقى بالضوء على وقائع المستقبل .

ومن الواضح فى هذا النوع من الاقتناع الوجودى أن ثمة اختيارات أو أكثر فى كل موقف . ولا شك أن أصغر عدد من الاختيارات فى أى موقف اختياري وجودى حسي هو الخيار بين وجود الشيء وعدم وجوده . فأنت إما أن تقتنع بوجود شخص خارج باب شقتك أو عدم وجود أحد . ولكن قد يتضمن الموقف الواحد عدة اختيارات كثيرة . من ذلك مثلا ما يجد الطبيب نفسه بتجاهه عندما يقوم بالكشف على أحد مرضاه بمرض معقد . إنه قد يكون أمام العديد من الاختيارات . فلقد يحتمل التشخيص قيام الطبيب باستعراض أكثر من عشرين أو أكثر من تلك الأمراض يمكن أن يكون واحد منها هو مرض ذلك المريض . وتكون مهمة الطبيب عندئذ هو الوقوع على اختيار واحد فقط من بين هذا العدد الكبير من الأمراض . وبتعبير آخر فان الطبيب - وأيضا الشخص الذى سمع جرس باب شقته - لا يعتقد الا بعد المرور على المرحلة الاختيارية أو الشكية حيث يجد نفسه فى مواجهة عدة اختيارات ويكون عليه الانتقاء من بينها .

ثانيا - اقتناع يتعلق بالعلاقات بين الأشياء أو الأشخاص . والعلاقات قد تتعلق بالحجم أو بالشكل أو بالمساحة أو أو بالمسافة أو باللون أو بالنخمة أو بالصلابة أو بغير ذلك من خصائص تقارن بعضها ببعض . وقد تتعلق العلاقات بنتائج ترتب على نشوء العلاقات كما هو الحال بالنسبة للعلاقات الرقمية وما يمكن أن يتأتى عن العمليات الحسابية من نتائج . وكذا الحال بالنسبة للعلاقات المنطقية . ففي جميع تلك العلاقات يمر المرء بمرحلة شكية ينتهى منها الى اعتقاد معين هو فى الواقع الوقوع على اختيار من بين اختيارات كثيرة متباينة .

ثالثا — اقتناع يتعلق بالتذوقات . فهنا يكون الموقف متضمنا لاختيارات تتعلق بثلاث ثنائيات قيمية : الثنائية الأولى هي ثنائية الخير والشر ، والثنائية الثانية هن ثنائية الجميل والقبيح ، والثنائية الثالثة هي ثنائية اللذيذ والمؤلم . وينبع من تلك الثنائيات الثلاث المفاضلات بين الأكثر خيرا من بين عمليات خيرية متباينة ، والأكثر جمالا والأكثر لذة من بين أشياء جميلة وأشياء لذيدة . ومن الواضح أن المرء وهو في مرحلة المفاضلة يكون مارا في نفس الوقت بمرحلة شكية ، اذ يكون عليه أن يجيل بصيرته في الاختيارات العديدة المتاحة. بالموقف قبل الوقوع على اختيار من بينها .

رابعا — اقتناع يتعلق بالحب والكراهية(١). وهذا النوع من الاقتناع يرتبط ارتباطا قويا بالنوع السابق وقد افردنا له قسما لاهميته وللتركيز عليه . بيد أننا نجد أيضا فرقا بين هذا النوع من الاقتناع وبين النوع السابق يتبدى في الجانب الموضوعي للحب والكراهية . ففي التذوق نجد أن الجانب الموضوعي إن وجد — لا يحتل مكانة ذات بال . أما بالنسبة للحب والكراهية فان الجانب الموضوعي يحتل أهمية بالغة . وليس يعزب عن البال أن السلوكيين في علم النفس قد أقاموا الحب والكراهية على أساس الفعل المنعكس الشرطي حيث ترتبط الموضوعات المحبوبة بموضوعات أخرى كانت محبوبة قبل أن تصبح محبوبة . فالحب يتأق للأشياء بالارتباط بأشياء أخرى محبوبة . فالحب يسرى الى الأشياء كما يسرى المغناطيس من قطعة حديد الى قطعة أخرى بالتجاور والاحتكاك. وما يقال عن الحب ينسحب أيضا بازاء الكراهية . فالحب والكراهية يسريان الى الأشياء التي لم تكن نحبا أو نكرها بتجاورها مع الأشياء التي نحبا أو نكرها . وما يقال عن الأشياء يقال بنفس الدرجة من الصديق أيضا عن الأشخاص . فنحن نحب أو نكره الأشخاص لارتباطهم بأشياء نحبا أو نكرها ، أو لارتباطهم بأشخاص نحبهم أو نكرهم .

(١) أنظر كتابنا « الحب والكراهية » بمكتبة غرب بالفجالة .

ونحن نزعم أن هناك مرحلة شكية نمر بها قبل أن نحب أو نكره شيئاً أو شخصاً . وفي تلك الفترة – قصرت أو طالت – نكون في موقف اختياري حتى ولو كان ذلك الموقف لا شعورياً . وعلينا ألا نقلل من شأن المواقف الشعورية الكثيرة والمتنوعة التي نمر بها قبل أن نأمر قلوبنا بالحب أو بالكراهية . فثمة اعتبارات موضوعية نقيم أحكامنا على أساسها ، ومن بعدها يأتي دور العاطفة .

ونحن نزعم أن هناك مرحلة شكية نمر بها قبل أن نحب أو نكره شيئاً أو شخصاً . وفي تلك الفترة – قصرت أو طالت – نكون في موقف اختياري حتى ولو كان ذلك الموقف لا شعورياً . وعلينا ألا نقلل من شأن المواقف الشعورية الكثيرة والمتنوعة التي نمر بها قبل أن نأمر قلوبنا بالحب أو بالكراهية . فثمة اعتبارات موضوعية نقيم أحكامنا على أساسها ، ومن بعدها يأتي دور العاطفة . صحيح هناك حالات يصعب تحديد تلك الاعتبارات الموضوعية فيها ولكن بالتحليل والتحريض فأننا نستطيع أن نقف على تلك الاعتبارات ونحددها بدقة . ويجب ألا نغفل عامل النسيان الذي يغشانا فننسى الأسباب الموضوعية التي ارتكزنا عليها في حبنا أو كراهيتنا . وطبعاً أننا بعد أن نحب أو بعد أن نكره نكون قد صرنا إلى مرحلة اعتقادية بعد اجتياز المرحلة الاقتناعية المتعلقة بالموضوعات المحبوبة أو الموضوعات المكروهة .

خامساً – اقتناع يتعلق بالمفيد والضار . ونستطيع القول ونحن بصدد هذا النوع من الاقتناع أنه يضم في رجا به القطاع الأكبر من الحضارة الإنسانية . ذلك أن التكنولوجيا بدءاً من المحراث اليدوي والعصا أو الحجر وغيره المستخدمة في الهجوم على الوحوش والأعداء حتى التكنولوجيا الحديثة التي تعتمد على أشد الآلات الحاسبة تعقداً والقنابل النووية التي يمكن أن تحصد ملايين البشر دفعة واحدة ، إنما تعتمد جميعاً في مراحل نشوئها وتبلورها على مبدأ الاقتناع بالمفيد والضار . ولا شك أن العلماء في معاملهم ، والصناع في ورشهم ، والتجار في تجاراتهم ، بل والكتاب والمفكرون ، إنما يعتمدون على هذا المبدأ

الاقتناعى . وحتى بالنسبة للشعراء والفنانين فانهم يقولون إن الفائدة قد لا تكون فائدة واقعية ، بل قد تكون فائدة نفسية . والواقع أن علماء النفس ورجال الدين يؤيدون ذلك ، بل إنهم يؤكدون أن الفوائد النفسية أبلغ أهمية من الفوائد المادية أو هي الأساس لأنك لا تستطيع أن تحس بقيمة الوجود من حولك الا إذا كنت سليما من الناحية النفسية .

وهكذا نجد أن مجرد المفاضلة بين الفائدة المادية وبين الفائدة النفسية يعد نوعا من الشك أو من الاختيار من بين متغيرات في الموقف . وطبيعى أن هذا ينسحب بالنسبة للاختيارات المتوافرة بالموقف الواقعى المحسوس . فالاعتقاد العلمى أو العلمى لا يتأتى الا بعد المرور بمرحلة الشك ومشاهدة أكثر من اختيار واحد بالموقف على المرء أن يقع على واحد منها دون سواه .

وهكذا نجد — بعد استعراضنا للأنواع الخمسة من الاقتناعات — أن الإنسان يمر بمرحلة شكية تخريرية قبل أن يصل إلى مرحلة الاعتقاد الاقتناعى . ولعلنا نلاحظ أن هذا النوع من الاعتقاد متطور وقابل للتبدل . فالإنسان لا يقف عند حد بغير إحراز تقدم جديد وهو بصدد هذا النوع من الاعتقاد . بل هو ما يكاد يصل إلى اعتقاد اقتناعى فى المواقف الخمسة التى عرضنا لها حتى تبرز أمامه مجموعة جديدة من الاختيارات أو المتغيرات بالموقف ، الأمر الذى يحمله أو يدفع به إلى المفاضلة والمقارنة حتى يتسنى له التوصل إلى اعتقاد اقتناعى جديد . ولعل السر يكمن فى هذا النوع من الاعتقاد . الاختيارى ويفسر فى ضوءه ما أحرزه ويحرزه وسيحرزه الإنسان من تقدم فى مضامير حياته المتباينة .

الاعتقاد الرفضى :

سبق أن قلنا بصدد حديثنا عن الاعتقاد الاقتناعى إن الاختيار قد يكون بين وجود الشيء وعدم وجوده . والواقع أن الاعتقاد فى المنفيات أو السلبيات هو ما نقصده عندما نتحدث عن الاعتقاد الرفضى . فإذا كنت

بصدد قضية يتساءل فيها مثيرها قائلًا : هل الخصائص التي يكتسبها الواحد من الأفراد من البيئة تورث لأبنائه وأحفاده ؟ فإذا أنت أجبت بأنك لاتعتقد في امكان توارث الخصائص المكتسبة، فانك تكون بذلك قد حملت في ذهنك اعتقادا رفضيا.

ونستطيع في الواقع أن نعرض للمناحي التي يمكن أن يشملها الاعتقاد الرفضي حتى نكون على بينة من جوانبه المتباينة التي يتضمنها في أنحائه . فالاعتقاد الرفضي يشمل الجوانب الآتية :

أولا - إنكار وجود ما ليس بموجود . من ذلك المثال الذي سقناه آنفا خاصا بتوارث الصفات المكتسبة . ومن ذلك أيضاً إذا كنت بصدد التساؤل عن استتباب الأمن في لبنان . أنك قد تجيب عن مثل هذا التساؤل بقولك « إني أعتقد أن الأمن غير مستتب هناك ، أو بقولك بتعبير آخر إني أرفض القول بأن الأمن مستتب في لبنان » فما تقررره هنا هو رفض التسليم بوجود شيء ما ، هو الأمن في هذا المثال في حين معين هو لبنان . ولاشك أن تقدم العلوم يعزى في قطاع كبير منه إلى هذا النوع أو هذا القطاع أو المنحى من الاعتقاد الرفضي . لقد نشأت الكثير من النظريات العلمية التي يأخذ بها العلماء عن هذا الاعتقاد الرفضي الوجودي . من ذلك إنكار العلماء أن تكون الأرض مسطحة ، وإنكارهم أن تكون الأرض ثابتة ، وإنكارهم أن تكون الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حول الأرض . وكذا إنكار علماء التطور لفكرة ثبات الأنواع وعدم حدوث تغيرات في قوامها من جهة وفي الوظائف المنوطة بمقوماتها من جهة أخرى . وقل نفس الشيء بالنسبة لكل المعتقدات التي كانت سائدة ثم أتى علماء برهنوا على بطلانها وزيفها ، وبالتالي إحلال معتقدات جديدة منافية للمعتقدات التي كانت شائعة قبلهم محلها .

ثانيا - اعتقاد إنكارى يتعلق بعلاقة اجتماعية معينة . من ذلك مثلا إنكار البعض مساواة المرأة بالرجل واقتناعهم بأن المرأة أقل مقاما من مقام الرجل . ومن ذلك أيضاً إنكار مساواة الجنس الأسود بالجنس الأبيض . واعتبار أن السود أقل مقاما وذكاء عن البيض كما هو شائع لدى

كثير من الأمريكيين والأوربيين بوجه عام . والواقع أن الاعتقاد الإنكارى المتعلق بالعلاقات الاجتماعية له أهمية كبرى فى تنظيم العلاقات الاجتماعية ، بل ينسب إليه القيام بالثورات الاجتماعية . فلقد قامت الثورة ضد الرق كفكرة ثم كعلاقة بين الناس بعضهم وبعض ، ثم كتجارة بناء على الاعتقاد الرفضى القائل بأن هناك من أبناء الجنس البشرى من لا يستحقون التمتع بالحرية ، بل يجب استعبادهم واستغلالهم بغير أن يشار إلى ذلك بأنه ظلم أو قسوة . نلقد كان يعتقد أن الرق من النساء والرجال لا يحسون كما يحس سائر البشر ، وأنهم قد خلقوا من معادن رخيصة بحيث يجوز أستخدمهم كما تستخدم الحيوانات لراحة الأحرار من الرجال والنساء والأطفال .. نقول إن الاعتقاد الرفضى يرفض مثل هذا الزعم وينقض الرق من أساسه وما يترتب على الاعتقاد فى شرعيته من علاقات وممارسات وبيع وشراء واستخدام . وقل نفس الشيء بالنسبة لاستعباد الشعوب بعضها ولبعض وما يقوم عليه الاستعمار من نظريات وادعاءات ومزاعم .

ثالثا - اعتقاد إنكارى يتعلق بمبدأ أخلاقى معين . من ذلك مثلا أن ينكر منكر إطلاقية بعض المبادئ الأخلاقية مثل الصدق . فن يحمل اعتقادا إنكاريا بتجاه هذا المبدأ الأخلاقى يقول « إني أنكر أن يكون الصدق حقاً دائماً فى كل موقف وفى كل مكان ، على أساس أن مفهوم الصدق يعنى مطابقة الكلام لما حدث أو يحدث . فبعض الكذب اللفظى أفضل من بعض الصدق اللفظى »

رابعا - اعتقاد إنكارى يتعلق بخيرية الطبيعة البشرية وهى على الفطرة ، أو يتعلق بشريتها وهى على تلك الطبيعة الفطرية . فالاعتقاد الإنكارى هنا ينكر رأى القائل بالخيرية أو بالبشرية يولد الطفل بوحدة منها ، فيحل محل هذا الاعتقاد اعتقاد آخر هو الاعتقاد فى حيادية الطبيعة البشرية . ولكأن الطفل يولد صفحة بيضاء لم يكتب عليها شيء من الخير ولا شيء من الشر .

خامسا - اعتقاد إنكارى يتعلق بشعب أو بقية أو بجنس . من ذلك مثلا أن ينكر معظم المثقفين قدرة العطار على علاج الأمراض . فالإنكار هنا

لا ينصب على هذا العطار أو ذاك فيما يتعلق بمجال العلاج الطبي ، بل ينصب على فئة العطارين جميعاً . ونفس الشيء بالنسبة لفئة أخرى هى فئة المعالجين بالشياطين والسحر ونحو ذلك من وسائل غيبية . ومن المعتقدات الإنكارية أيضاً ما يذهب إليه بعض المدرسين من أن فكرة الحكم الدائى للمدرسة أو للمعهد أو الكلية إنما هى فكرة فاسدة ولا تودى إلا إلى إشاعة الفوضى وتشجيع التلاميذ والطلبة على التعدى على من يقومون بتعليمهم وقلب موازين القوى فى نطاق المدرسة أو المعهد أو الكلية .

والواقع أن بعض الناس يجعلون من الاعتقاد الرفضى فلسفة حياتية يستهدون بها فى نشاطهم الذهنى وفى العلاقات الاجتماعية . فهم لا يخرجون عن الإطار الرفضى إلى ما هو جديد أو إيجابى . وعندنا اليوم من بين مفكرينا من لقوا ذيوفا وشهرة نتيجة المواقف الرفضية التى اتخذوها منها نبراسا وهدفا فيما يعلنونه على الملأ فكرا بالقول أو بالكتابة . فاذا أنت قت بمدرسة أعمالهم وتناولت مشوار حياتهم الفكرية ، فانك لا تجد فيها الا تلك النعمة الرفضية لما هو قائم . فاذا سألت الواحد منهم : اذن ماذا بعد الرفض ؟ فانه يقول لك - أو هكذا يهيا لنا أنه يقول - يكفينى أن أرفض الموجود وليس على أن أقيم بناء جديدا . فهمتى أن أتناول معولا أهدم به ما أراه فاسدا . أما أن أقوم باقامة بناء جديد ، فهذا ليس من شأنى . فكما أن هناك من أختص نفسه بقطع رقاب المحكوم عليهم بالإعدام ، وآخر من الأطباء أختص نفسه بإيلاد النساء بحيث لا تجد الجلاد يولد النساء ، ولا تجد الطبيب يقطع الرقاب ، هكذا نجدنى قد تخصصت فى هدم ما هو قائم تاركا لغيرى إقامة الأبنية الفكرية الجديدة .

وأكثر من هذا فأننا نجد فى مجال السياسة أيضاً فئة من الدول العربية أطلقت على نفسها اسم « جبهة الرفض » . فتلك الدول التى أختارت لنفسها هذا الاسم قد آلت على نفسها أن ترفض ، ولكنها لم تضع فى حسابها شيئا إيجابيا جديدا تطلع به . حسبها أن ترفض ما لم يعجبها مما تم أو يتم انجازه من خطوط سياسية .

ولاشك أنك تقابل في حياتك اليومية أناسا لا هم لهم الا الرفض . وإذا
 قمنا بتصفح الجرائد اليومية ، فاننا نجد أن بعض الصحفيين لم يجدوا طريقاً
 ألد لهم ، وأكثر جلباً للقراء وذيوغاً لشهرتهم من هذا الطريق الرفضى . فهم
 يفصحون كل يوم عن اعتقاداتهم الرفضية . فكل همهم أن يقولوا لقراءهم
 « ان هذا أو ذاك الشيء لا يعجبنا » ، أو أن يسيروا إلى تصرف أو قرار
 ويعلنون مسخطهم عليه ورفضهم له . فاذا ما سألتهم عن البديل لما يرفضونه ،
 فانهم يقولون لك « ليس هذا من شأننا . ان مهمتنا تنحصر فقط في رفض
 ما لا يعجبنا » . ونخشى أن يكون من بين أساتذة الجامعات من يتخذون منهج
 الرفض نبراسا لهم في علاقاتهم الثقافية بطلابهم . فهم يبرزون العيوب والمآخذ
 والمزالق التي وقع فيها الطلاب والدارسون ، ولكنهم لا يريدون – أو لا
 يعرفون – كيف يوجهون النظر إلى الإيجابيات ، ولا يجعلون من واجهم
 تقديم الأفكار الإيجابية إلى أبنائهم الطلاب والدارسين .

ونستطيع أن نقول إن منهج الرفض أيسر بكثير من منهج البناء . وأكثر
 من هذا فان الناس يلتفون حول أولئك الذين أمسكوا بالمعول في أيديهم أو
 بالسياط يذيقون بواسطتها العذاب للآخرين. ولعل مما يهر الشباب تلك السياط
 النقدية التي يمسك بها بعض المتزعمين للرأى سواء في الصحافة أو الاذاعة .
 ولعلك إذا قت بدراسة ما يدور بخلد الكثيرين من المراهقين والشباب عن
 مفهوم الرأى في أذهانهم ، فانك واجد أن ذلك المفهوم ينحصر في أذهانهم
 في الهدم لا البناء ، وفي الرفض لا في القبول . ولقد يخشى المراهق أو الشاب
 من الإذعان خشية أن يتهم بالخنوع والجنح حتى ولو كان إذعانه لما يمكن
 أن يقبله العقل ولما لا يصبح مناهضته أو حتى مناقشته . من هنا فان الاعتقاد
 الرفضى يحتل رقعة أوسع بكثير من الرقعة التي يحتلها الاعتقاد الأقتناعى
 وبخاصة لدى المراهقين والشباب ولدى قليلي الخبرة من العامة . ولستنا بهذا
 نعلن الحرب على المعتقدات الرفضية أيا كانت ، بل مايعيننا هو تحقيق التوازن
 بينها وبين غيرها من معتقدات .

الاعتقاد الغيبي :

يختلف الاعتقاد الغيبي عن الاعتقاد الأولى في ناحية أساسية هي مرور المرء في الاعتقاد الغيبي بمرحلة شكية بالمعنى الذى سبق أن سقناه ، أعنى الوقوف في مقابل أكثر من اختيار واحد بقصد الوقوع على اختيار واحد من بين الاختيارات المتوافرة بالموقف . ولقد سبق أن أوضحنا أن الاعتقاد الأولى يتأتى دفعة واحدة بغير وجود مرحلة بينية شكية في الموقف . أما الفرق بين الاعتقاد الغيبي وبين الاعتقاد الأقتناعى ، فهو أن الاعتقاد الأقتناعى يعتمد على وجود اختيارات موضوعية بالموقف يكون على المرء أن يقع على واحد منها . والاختيارات الموضوعية قد تكون محسوسة وقد تكون أفكارا مجردة أو علاقات كما سبق أن ذكرنا . أما الاعتقاد الغيبي فإن المرحلة البينية الشكية به تكون متضمنة التصديق وعدم التصديق فعسب . من ذلك مثلا وجود الله أو عدم وجوده ، أو وجود آخرة وحياة بعد الموت أو عدم وجود آخرة وعدم وجود حياة للروح بعد الموت . فعلى المعتقد فى هذه المرحلة الشكية أن يقع على الإيجابى لا السلبى فيختار وجود الله والحياة الآخرة وحياة الروح بعد الموت وأن يرفض السلبيات التى تقول أن لا وجود لله وأن لا آخرة ولا حياة للروح بعد موت المرء .

ويخطئ من يعتقد أن الناس فى الاعتقاد الغيبي لا يمرون جميعاً بالمرحلة الشكية . فالواقع أن لا مفر من المرور بهذه المرحلة الشكية . بيد أن الناس يختلفون بعضهم عن بعض من حيث الفترة التى يقضونها فى هذه المرحلة الشكية . وأكثر من هذا فإن بعض الناس يعودون إلى هذه المرحلة الشكية المرة تلو المرة بعد أن يتم لهم الاختيار والوقوع على الإيجابيات . فهؤلاء الناس يكونون مصابين بالتردد بين الاعتقاد الإيماني الغيبي وبين الشك الأرتيابي الغيبي . فهم يمرون فى مرحلة يكونون خلالها معتقدين أشد الاعتقاد فى وجود الله وما يتبع ذلك من مسائل إيمانية غيبية ، ثم يمرون بعد ذلك فى مرحلة أخرى يكونون فيها فى حالة اختيار من جديد إذ يكونون بازاء اختيارين هما

التصديق بالغيبيات وانكارها . وثمة في الواقع بعض الناس يضلون على هذه الحال من التردد بين الاعتقاد والشك مما يجعلهم في حالة نفسية غير سوية .

ويجب علينا أن نميز بين الشك وبين الأحاد بصدد حديثنا عن الاعتقاد الغيبي . فالملحد هو شخص تم له الاختيار بالفعل بين وجود الله وعدم وجوده وقد أختار بالفعل الجانب السلبي واعتقد في عدم وجود الله . بيد أن هناك نوعين من الملحدين : نوع عقلي منطقي وآخر وجداني أنفعالي احتجاجي يكون بمثابة إيمان مقلوب كما هو الحال بإزاء الحب المقلوب والبادي في هيئة كراهية . أما النوع الأول من الملحدين — وهو قلة قليلة من الناس — فان حياتهم لا تكون قد تغلفت بالآيمان الديني ولم يمرؤا في مراحل الخبرات الروحية الدينية ، بل يكونون قد نشأوا منذ نعومة أظفارهم على نوع من التربية لا يعرض للألوهية من قريب أو من بعيد . ونحن نستبعد وجود مجتمعات إنسانية الحادية . وشاهد ذلك أنك تجد أشد القبائل البدائية بعدا عن الحضارة وقد أخذت تعبد الها أو أكثر حتى ولو كان في شكل صنم أو كان طوطا أو حيوانا مفترسا . ولقد لا نخطئ إذا قلنا إن التدين غريزي في الإنسان . فالاحساس بالألوهية يعمل في باطن الإنسان كاحساسه بالجمال يتسرب في أوصاله النفسية .

فاذا قلنا إن الإنسان يمكن أن يفقد الأحساس بالجمال إذا هو خضع لنوع من التربية تهمل هذا الجانب أو تحاربه أو تطفئه ، فاننا على نفس النحو نقول إن الإنسان يفقد الأحساس الغيبي والنزوع إلى التدين والعبادة إذا ما أهمل هذا الجانب من شخصيته أو حورب أو توافرت حوله عوامل التقليل والأطفاء . وبناء على هذا الزعم فاننا يمكن أن نقول إن الحضارة البشرية بضغوطها على الغرائز وعلى ما جعل في فطرة الإنسان يمكن أن تنحرف بالطبيعة البشرية إلى أنحاء بعيدة عن مسارها الطبيعي الذي كانت قد غرزت عليه وفطرت وفقه . فالأصل هو النزوع إلى التدين وليس إلى الاحاد .

ومعنى هذا في الواقع أن الإنسان على الفطرة لم يكن بحاجة إلى المرور بالمرحلة البيئية الشكية . ذلك أن الاعتقاد الغيبي لديه كان اعتقادا أوليا . فهو

كان يمجّد نفسه مدفوعاً إلى التلبس بالإيمان بغير أن يختار بين وجود للإله أو عدم وجوده كما هو الحال بالنسبة للإنسان الحضارى .

فإنسان ما قبل الحضارة لم يكن يفكر بالطريقة النقدية الشكية التى تفكر نحن بها . وكان هذا يعزى إلى عاملين أساسيين : الأول — عامل التكوين الفسيولوجى ، والثانى — عامل التكوين الاجتماعى . فبالنسبة للعامل الأول فإن مخ الإنسان القديم كان يضطلع بالوظائف الوجدانية الانفعالية بالدرجة الأولى ، بينما كان اضطلاع بالوظائف العقلية بالمعنى الذى نعرفه اليوم ضئيلاً لا يكاد يذكر . فكانت مناشطه العملية مرتبطة بمناشطه الوجدانية والانفعالية . ومن جهة أخرى فإن عامل التكوين الاجتماعى وبنية المجتمع الذى كان قائماً كانا يعملان على الأحساس بجاءياً لا فردياً . فلم تكن المشاعر الفردية فى استقلال أو فى تباين أو تعارض فى أية ناحية من النواحي عن المشاعر الجمعية فكان الفرد يقتبس مشاعره من مشاعر الجماعة التى قيض له وكتب عليه أن ينخرط فيها .

أما إنسان الحضارة وبخاصة الإنسان الحديث فإنه صار يمر بالمرحلة البيئية الشكية لفترة طويلة بل أنه صار أكثر من هذا يتقلب بين الاعتقاد الغيبي وبين النكوص إلى المرحلة البيئية الشكية لأكثر من مرة خلال فترات متعاقبة من حياته . ويرجع هذا فى الواقع إلى خمسة عوامل أساسية نعرضها على النحو التالى :

أولاً — التغيرات الفسيولوجية التى وقعت بالمخ الإنسانى عبر تاريخ تطوره وقد كان ذلك التطور لصالح المناطق الذهنية بالمخ ولغير صالح المناطق الوجدانية الانفعالية به . وثمة فى الواقع علاقة تأثيرية متبادلة بين المناشط والأهتومات الإنسانية وبين التكوين الفسيولوجى الوظيقي للمخ . فن الحقائق المعروفة أن العضو الذى يهمل عبر الأجيال المتعاقبة يأخذ فى الذبول والضعف . فاهتومات الإنسان الواقعية الموضوعية وما ترتب على ذلك من طمأنينة وإيمان بالوجود الواقعى يركن إليه ويفيد منه ويعتقد أنه كفيل

بجانيته ، قد عمل على تقوية المناطق المسئولة عن الإدراك والتفكير على حساب المناطق المسئولة عن الوجدان والأنفعال بالمخ الإنسانى . ومن الطبيعى أن ما يقيض من قوة للمناطق الذهنية بالمخ تنعكس بدورها فيما يقوم به الإنسان من مناشط ذهنية .

ثانياً - العوامل التربوية . ومن الواضح الذى لا يحتاج إلى برهان أن الإنسان الحديث يحفل ويكلف بالرموز يضعها نصب عينيه فى المقام الأول . والرموز صنو للتفكير أو هى ثمرته من جهة ومحركته من جهة أخرى . والرمز يتمثل فى الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة والصورة والتمثال وغير ذلك . وطالما أن الإنسان يعتمد على الرمز يستند إليه فى حضارته ، فانه بالتالى يحيل ذهنه وقد وضع نصب عينيه الاختيارات التى يقع على بعضها ويرفض بعضها الآخر . وبالتالى فان الإنسان يمر بالضرورة فى المرحلة البينية الشكية قبل التوصل إلى اختيار محدد . وانك لتجد مؤسساتنا بدءاً بالأسرة واستمراراً بالمدرسة بجميع مسمياتها ثم بالمؤسسات المتباينة إنما تعتمد على الرمز تجعله فى المقام الأول وتمكن أفرادها منه وتشربهم ما يستجد من رموز جديدة .

ثالثاً - أخذ رجال الدين بمناهج رجال العلم والتفكير الوضعى فى سوقهم للمعتقدات الدينية . فلم يعد رجل الدين يعتمد على الغريزة التعبدية تسير سلوك الناس ، بل صار يجادل الناس أو يحاول اقناعهم منطقياً بصحة المعتقدات الغيبية . ومعنى هذا بشكل آخر أن رجل الدين صار يعترف بالمرحلة الشكية البينية ويخوض مع أتباعه فيها محاولاً إخراجهم منها وقد وقع اختيارهم على الجوانب الإيجابية التى ألمعنا إليها كوجود الله وخلود الروح والثواب والعقاب فى الآخرة ونحو ذلك من مسائل غيبية .

رابعاً - ارتباط الكثير من المسائل الغيبية بمسائل إنسانية ليست غيبية ووجود اعتماد من جانب المسائل الإنسانية على تلك الغيبيات . من ذلك التشريع الجزائى والتشريع الاقتصادى والأخلاق والتعامل بل وبعض مناحى الفكر كالفلسفة الدينية والأدب والفن فى بعض جوانبها . والواقع أن مثل هذا

الارتباط جعل من المحتم مرور المرء في جميع المسائل الغيبية وما ينشعب عنها
بالمرحلة الشكية البينية

خامسا - لقد صار لإنسان الحضارة يعتمد على ركيزتين أساسيتين في
تفكيره : الأولى - الفوائد المتأتية عن الأشياء وبضمنها الأفكار والمشاعر ،
والثانية - البرهان على صحة الأفكار واتساقها وعدم تناقضها . وطالما أن هاتين
الركيزتين متوافرتان عند المرء ، فإنه يمر بالضرورة في المرحلة البينية الشكية
قبل الاعتقاد الغيبي .

الاعتقاد الإيحائي :

الإيحاء هو الاقتناع بشيء بغير برهان على الإطلاق أو بما يشبه البرهان
وهو ليس من البرهان في شيء . فثمة اعتبارات أخرى غير المنطق والتفكير
المتجرد عن الهوى لها شأن بعيد المدى في الموقف الإيحائي . ويحسن بنا أن
نعرض لتلك الاعتبارات لأن في ضوئها يمكن أن نستبين أنواعا متباينة من
الإيحاء .

ولعل الاعتبار الأول في الإيحاء يتعلق بمرحلة النمو . فمن الممكن أن نقول
بصفة عامة إن الطفولة تخضع لإيحائيا لأصحاب الأعمار الأكبر . فالطفل مستعد
للتلقي عن الكبار والاقتناع بما يقولونه له بغير أن يقدموا إليه براهين ناجعة
تؤيد ما يقولونه له . وحتى في المراهقة والشباب فإن المرء يكون مستعدا
للأخذ عن الكبار وتلقي ما يوحون به إليه بغير برهان ناجع طالما أن الكبير
يحتل مكان التقدير من جانب المراهق أو الشاب . فالاستيلاء على قلوب
المراهقين والشباب له اليد الطولى في إقناعهم إيحائيا لا عقليا بما يقال لهم من
أفكار أو أوامر أو مقترحات .

أما الاعتبار الثاني في الإيحاء فإنه يتعلق بالخبرة في المجال الذي يتم فيه
الإيحاء . فالتلميذ يكون مستعدا لتصديق مدرسه ، والمريض يكون مستعدا
لتصديق ما يقوله له الطبيب عن مرضه . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع
المواقف التي يكون المرء فيها أقل خبرة من غيره . فشأنك أمام الترسى وقد

حملت له القماش لتفصيل حلة جديدة لك هو القابلية للإيحاء بما يقوله لك عما يناسبك وما لا يناسبك من أشكال وأطوال وأنماط . ولك أن تقول نفس الشيء بالنسبة لجميع الخبرات . فالأقل خبرة في شأن ما من شئون الحياة يكون أكثر قابلية للإيحاء من صاحب الخبرة الكبيرة في ذلك الشأن .

والاعتبار الثالث يتعلق بالمكانة الاجتماعية . فالزعيم والرئيس أكثر قدرة على الإيحاء للتابعين والمرعوسين من قدرة الأعضاء والزملاء بعضهم لبعض . فما يقوله الزعيم لأتباعه لا يكاد يجد مناقشة أو جدالا ، وكذا حال الرئيس في العمل . بيد أن الزعماء يختلفون من واحد لآخر في مدى ما يتمتع به كل واحد منهم من زعامة ، وكذا الحال بالنسبة لما يتمتع به كل رئيس من موهبة رئاسية قيادية في مجال عمله وبازاء من يقوم بقيادتهم وتوجيه دفتهم في العمل . والأغلب أن يكون الزعيم أو الرئيس صاحب قدرة إيحائية كبيرة بفضل ما يتمتع به من حب وخوف في نفس الوقت . فاذا اجتمع هذان العنصران في شخص الزعيم أو الرئيس ، فانه يكون عندئذ صاحب قدرة إيحائية كبيرة . ولكن الملاحظ أنه إذا أفتقد أحد هذين المقومين وذلك بأن يكون مخوفا وغير محبوب ، أو يكون محبوبا وغير مخوف ، فان قدرته على الإيحاء لمن يقعون تحت إمرته تكون ضعيفة وغير ذات فاعلية .

أما الاعتبار الرابع فانه يتعلق بالحصول على قوة غيبية روحانية . فرجل الدين والساحر في القبائل البدائية لهما قدرة إيحائية بعيدة المدى . وفي مجتمعاتنا الحديثة أيضاً نجد أن رجال الدين يتمتعون بتلك القوة الإيحائية ، فلا يلقون نقداً بازاء ما يقولونه بفضل إيمان المؤمنين بدينهم بأن ما يستندون إليه ليس فكرهم البشري ، بل هو فكر لدنى استلهموه بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من الكتب المقدسة ومن الالهام الالهى بفضل انصرافهم إلى التعبد والتقرب من الله .

والاعتبار الخامس والأخير يتعلق بالمواهب الإيحائية الشخصية لأسباب تتعلق بالجمال الشكلي أو جمال الصوت أو جمال الحركة . فالمرأة الجميلة يمكن

أن تخضع الرجال لتأثيرها الإيحائي فتستلب ألبابهم وتبطل قدرتهم على النقد .
والواقع أن الجمال يمكن أن يلعب دوراً كبيراً في جميع شئون الحياة . فلقد
يساعد صوت الخطيب أو المحاضر وبلاغته وجمال لفظه وبهاء طلعته على اقناع
مستمعيه بما يقوله من كلام غير معقول أو حتى بكلام محشو بالمتناقضات
والذى لا يقوم على أساس من الموضوعية أو الفكر الثاقب . وكذا فإن جمال
اللون يمكن أن يصرف النظر عن الخامة في أحد الأقمشة أو عند اختيار الأثاث
فالجمال يلعب دوراً خطيراً في الإيحاء وحمل الناس على الاعتقاد بما يشيع به
من أشياء وأشخاص بغير إجابة للفكر النقدي ومحاولة كشف العيب أو
الزيف .

وفي ضوء هذه الاعتبارات الخمسة السابقة – أعني مرحلة النمو والخبرة
والمكانة الاجتماعية والقوة الغيبية وأخيراً الجمال – فاننا نستطيع أن نقرر أن
الاعتقاد الإيحائي يركز على أسس غير عقلانية وغير منطقية . وليس من
شك في أن الاعتقاد الإيحائي يلعب دوراً بعيد المدى في العلاقات الاجتماعية
وفي تنشئة الفرد وفي تماسك المجتمع . وعلينا فيما يلي أن نعدد جوانب الأهمية
في الاعتقاد الإيحائي على النحو التالي :

أولاً – يعمل الاعتقاد الإيحائي على المساهمة بأكبر قدر في تنشئة الأجيال
الجديدة . ومن المعروف أن الأطفال لم يهيأوا بالتفكير المنطقي الموضوعي
ولم يقيض لهم رصيد من الخبرة يسمح لهم بتمحيص ما يقدم إليهم من أفكار
أو ممارسات . فلو لم يهيأوا بهذا النوع من الاعتقاد يصل بهم إلى التقبل والتشرب
بغير إجابة للفكر وبغير اعتراض بالنقد ، فلم يكن لهم إذن أن يحصلوا على
خلاصة خبرات الكبار ، ولما كانوا قد امتصوا قيمهم ، أو قل لم يكن لهم
أن يحصلوا على الركائز المعرفية الأساسية التي يمكن بعد ذلك أن يبنى عليها
ما هو عقلائي وما هو منطقي . ويخطيء في الواقع من يعتقد أن ما هو معرفي
عقلي وموضوعي يبنى على أسس عقلية منذ بواكير العمر ، كما يخطيء من
يعتقد أن التربية الحقيقية بالاعتبار هي تلك التربية العقلية المنطقية التي لا تنفصح

بجلا للأعتقاد الإيماني . فن الحقائق المعروفة أن المنطقي يبنى على الوجداني ، كما أن الوجداني يبنى على البيولوجي . فالشخصية الإنسانية هرمية البناء . وقاعدة الهرم تتمثل في القوام البيولوجي ، والطبقة الأولى التي تقوم على القاعدة البيولوجية العريضة هي الطبقة الوجدانية ، والطبقة الثالثة هي الطبقة العقلية وأخيرا تأتي الطبقة الاجتماعية : على أن تلك الطبقات متداخلة بعضها مع بعض ولا تنتهي منها طبقة لكي تبدأ طبقة تالية في الظهور ، بل هناك تكامل واستمرار فيما بين الطبقات المتباينة .

ثانيا - الأهمية الثانية هي الحفاظ على التراث والقيم والعادات والتقاليد الاجتماعية : ولاشك أن القيم والمعتقدات الدينية لم يكن لها أن تنتقل راسخة من جيل قائم إلى جيل نابت لولا توافر الأعتقاد الإيماني في الجبهة البشرية منذ نعومة الأظفار . وثمة في الواقع في الحضارة الإنسانية مقومات إيمانية وتلقوية ربما تفسد إذا ما خضعت للنقد والتحريض العقلي ، وليس من سبيل للتشرب بها والتشبع بمقوماتها الا السبيل الإيماني التقبلي غير النقدي . فحتى بالنسبة للكبار فان الطريق إلى تثبيت القيم الدينية في قلوبهم ليس المدارس المنطقية الموضوعية ، بل إدخالهم في الاطار الوجداني الإيماني بالاستمالة والإيماء الإيماني .

ثالثا - تسيير الأمور المصلحية والمسائل اليومية ذات الجوانب المعقدة نوعا أو كثيرا ، والتي لا يتسنى للمرء تمحيصها بعقله والقاء أشعة النقد عليها لأنها ذات أساس خبري يحتاج إلى طول إعداد وإلى نوع من التخصص . وقد ضررنا أمثلة على ذلك بالمريض بازاء الطبيب وبغير ذلك من علاقات بين الأقل خبرة والأكثر خبرة . وواضح أن مواقف الحياة اليومية لا تحتل التمحيص والمدارسة ، بل هي تتركز على الثقة في صاحب الخبرة والاعتماد على الأعتقاد الإيماني في الاستناد إلى مألديه من خبرة .

رابعا - نستطيع القول بأن هذا النوع من الأعتقاد الإيماني هو الذي يكفل التوافق الاجتماعي والتكافل بين أبناء المجتمع الواحد ، بل إنه هو

الذى يضمن استقرار المجتمع وترابطه وخضوع الصغار للكبار — بكل ما تحمله كلمة صغار وكلمة كبار من معنى ومن زوايا كثيرة .

خامسا — أخيراً فإن التقدم الاجتماعى منوط فى جانب كبير منه بهذا النوع من الإيمان الايمائى. ذلك أن هذا الاعتقاد الايمائى يقدم تلخيصا للخبرة البشرية فى جرعة واحدة أو فى موقف واحد بحيث لا يكون على المرء أن يبدأ من الصفر فى كل موقف . فهو يحصل — أو قل يحظى — بآخر مستوى حضارى توصلت إليه البشرية فى شأن ما من الشئون . فعن طريق هذا النوع من الاعتقاد تستطيع أن تقفز من لاشيء إلى كل شيء ، وذلك بمجرد تقبلك لما يقدم إليك من أفكار أو معتقدات أو ممارسات . ولعل الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا النوع من الاعتقاد فى النقل الحضارى بين المجتمعات بعضها وبعض ، سواء فى العصر الواحد أم خلال العصور المتعاقبة منذ القدم .

الفصل الخامس

الشك والعلاقات الأسرية

الشك عند اختيار شريك الحياة :

دأبنا في الفصول الأربعة السابقة على ترديد معنى الشك من وجهة نظرنا. ولعله أن يكون معنى مستحدثاً ، وهو أن الشك يعنى الوقوف بصدد أكثر من اختيار واحد في الموقف بحيث يحس المرء بشيء من الحيرة إلى أن يقع على اختيار من بين الاختيارات المتوافرة بذلك الموقف . ولقد قلنا إن أقل عدد من الاختيارات يمكن أن تتوافر بالموقف هو اختياران ، أعنى الاختيار بين إيجابية الشيء وسليبيته ، كأن يكون بين حَكَمين على شخص ما من الأشخاص : هل هو "صالح أو ردىء" ، أو هل هو خير أو شرير ؟ (١)

وبالنسبة لاختيار شريك الحياة يكون هناك نوعان من المواقف الاختيارية أو الشككية : النوع الأول — وهو النوع البسيط — ويكون الشك فيه منصباً على شخص واحد ، ويكون الشك أو الموقف الاختيارى عندئذ هو : هل هذا الشخص مناسب للأقتران به أم أنه لا يصلح ؟ أما النوع الثانى فهو النوع المركب حيث يكون الاختيار من بين شخصين أو أكثر ، فيكون أمام المرء أن يفاضل بين هذين الشخصين أو أولئك الأشخاص ، وعندئذ لا يكون الاختيار كلياً ودفعاً واحدة ، بل يكون بمقارنة جوانب متباعدة بعضها ببعض في الأشخاص المعروضين بالموقف جميعاً . من ذلك مثلاً شكل الشخص وثقافته وأخلاقه والعمل الذى يمارسه وأسرته إلى غير ذلك من جوانب يمكن

(١) عدلنا هنا عن الرأى الذى سبق أن سقناه بصفحتى ٣١ ، ٣٢ حيث قلنا بأن الخيار ينتفى بازاء إيجابية الشيء وسليبيته ونقرر أن هذا ممكن في مواقف الحياة العملية :

عقد مقارنات فيما بينها لدى الأشخاص المتباينين المتاحين بالموقف الشكى أو الاختيارى .

بيد أن ما يحدث فعلا فى الواقع العملى شىء وما يمكن رسمه على الورق والتأكيد عليه شىء آخر . فمن الممكن أن نخطط لقائمة تقييمية ونوزع عليها درجات بنهاية عظمى ونهاية صغرى بحيث تتضمن تلك القائمة التقييمية معظم النقاط الأساسية التى يجب اخضاع جميع الأشخاص المتوافرين بالموقف الاختيارى لعملية التقييم فى ضوءها بقصد الحصول على قياس موضوعى إلى أبعد حد ممكن ، ثم المفاضلة أخيراً بينهم فى ضوء ما يحصل كل منهم من درجات . ولكن هل توفر مثل هذه الطريقة التقييمية فرص التوفيق فى الاختيار بحيث تكون الحياة مع ذلك الشخص كشرىك عمر سعيدة ؟

إننا نشك فى ذلك ، بل إننا نرفض هذه الطريقة التقييمية الموضوعية لمجموعة من الأسباب يحسن بنا أن نعرضها ملخصة فيما يلى :

أولاً - إن كل واحد منا نحن البشر يهتم بناحية أو أكثر بدرجة بالغة الأهمية بحيث تكون تلك الناحية أو تلك النواحي بمثابة الاهتمام المحورى بالشخصية . فالواحد منا يكون على استعداد للتنازل عن جميع النواحي الأخرى مهما بدت هامة فى أنظار الآخرين ، ولكنه لا يكون مستعداً للتنازل عن تلك الاهتمامات المحورية الجوهرية التى يجعلها نبراساً له يهتدى به فى الاختيار . فإذا أنت ألزمت الشاب أو الشابة بمثل تلك البطاقة التقييمية ، فإن اهتماماته المحورية لا تكون قد حظيت بنصيب الأسد فى التقييم ، بل ربما تكون تلك الاهتمامات المحورية مجرد جوانب ثانوية لا يكون واضع البطاقة التقييمية قد أناطها إلا باهتمام ضئيل و ثانوى .

ثانياً - ومن جهة أخرى فإن تلك الجوانب المحورية تختلف من شخص لآخر ، ومن ثم فإن عليك لدى وضع البطاقة التقييمية أن تمتنع عن توزيع الدرجات على العناصر التى تتضمنها البطاقة ، ومن ثم فإن صفة التعميم - وهى صفة ضرورية - سوف تنزىل من تلك البطاقة ، وبالتالي فإنها تكون قد ألغت نفسها بنفسها .

ثالثاً - بعض مقومات الشخصية التي يحكم عليها بأنها صفات رديئة قد تصادف هوى في بعض القلوب . خذ مثالا لذلك العنف أو القسوة . إنك وأنت تضع بطاقة التقييم ، ربما تعتبر أن العنف أو القسوة صفة تم على النقص والرداءة ، ولقد تضع في بطاقة تقييمك صفة مضادة هي الدماثة والليونة : وأنت لاتدرى أن بعض الناس يتعشقون الشخصيات العنيفة أو القاسية وينبون عن الشخصيات الدمثة أو اللينة .

رابعاً - إن بطاقة التقييم التي يمكن أن تضعها أنت أو غيرك ربما تغفل جوانب غير ذات أهمية في رأيك ، بينما هي بالغة الأهمية لمن تقدم اليهم تلك البطاقة لكي يختاروا شركاء حياتهم في ضوءها . لقد تسقط من حسابك مثلاً لون الشعر أو نوعيته ويكون الشخص الذي يقبل على استخدام بطاقتك مهتماً بتلك الناحية التي ربما تكون قد اعتبرتها نواحي تافهة ولا تستحق أن تذكر .

خامساً - الواقع أن تقييمنا الفعلي لايسير من الأجزاء إلى الكل كما قد يظن بعض واضعي مثل تلك البطاقات ، بل هو يسير من الكل إلى الأجزاء . فأنت عندما تقابل شخصاً لأول مرة فانك تسارع بمجرد ادراكك له بتقديم حكم تدلوقى كلى عليه ، وذلك بأن تتقبله أو لاتقبله . وعلى الرغم من أنك تأخذ في استبانة جزئياته وجوانبه الفرعية ، فانك لدى إصدار أحكامك التالية عليه ، تنسحب بالنظرة الكلية إليه . ولعلنا نترجم هذه الفكرة مرة أخرى وبطريقة أخرى في ضوء مايسمى بالحدس ، وهو مقوم ذهني مباين تمام التباين للعقل . فالعقل منطقي استدلالى ، بينما الحدس وجداني كشفي . فأنت بالحدس تقف على حقيقة الأشياء والأشخاص دفعة واحدة بغير تمييز لمقومات أو أجزاء . انك تحكم على شخص ما بأنه مناسب لأن يكون شريكاً لك في الحياة أو غير مناسب بتلك الموهبة الحدسية الطفولية .

ونستطيع في الواقع أن نقسم الناس جميعاً إلى فئتين كبيرتين : فئة العقلانيين ، وفئة الحدسيين . وأفراد الفئة الأولى يعتمدون على التقييم العقلى المنطقي ، بينما يعتمد أفراد الفئة الثانية على الحدس الطفوى فيقعون على أحكامهم فجأة وبشكل كلى وباحساس داخلى عميق . وبينما نجد أن العقلانيين

يختارون شركاء الحياة وفق معايير منطقية وموضوعية مستخدمين ما يشبه بطاقة التقييم التي ألقيناها قبلاً ، فأننا نجد أن الحدسيين يعتمدون إلى اختيار شركاء حياتهم بالحدس الطفرى الذى لا يعتمد على مقدمات واستدلالات عقلية .

. والواقع أن الشك بالمعنى الذى سقناه قبلاً يتوافر فى موقف الفئتين السابقتين جميعاً . فهو متوافر لدى العقلانيين ولدى الحدسيين . بيد أن توافره لدى العقلانيين يكون بشكل شعورى منطقى ، بينما يكون توافره لدى الحدسيين بشكل ضمنى وبغير مرور فى عمليات عقلية شعورية . فبينما نجد أن العقلانى يفاضل بين من يقابلهم من شخصيات ليختار من بينها شريك الحياة بالتقدير المنطقى الموضوعى ، فإن الحدسى يفاضل بين من يقابلهم ليختار من بينهم بما يحسه ، أو بمقدار ما يحسه قبالة كل منهم . فالمفاضلة التى يعقدها الحدسى مفاضلة طفرية وكلية وبغير مرور فى التفاصيل والجزئيات .

وسواء كنت عقلانياً أم كنت حدسياً ، فإن الواجب عليك أن تجعل مرحلة المفاضلة معقولة بحيث يتسنى لك الخروج من إطارها إلى إطار إصدار الحكم بالاختيار للشخصية التى تقبل أن تكون شريكة حياة أو بالأحرى ترغب فيها . وهناك من بين الشخصيات التى نعرفها أولئك الذين يتعذر عليهم الخروج من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين . إنهم يظلون محبوسين فى إطار المفاضلة العقلية أو الحدسية لا يبرمون عنها ولا يتخلصون من إسار أسوارها العالية . والحقيق بك أن تحيل مرحلة الشك إلى مرحلة إرادة . والشك موقف عقلى والقرار الذى تتخذه موقف نزوعى . فأنت لا تنظر محققاً فى أجواء الفكر أو الحدس ، بل تهبط إلى أرض الواقع فتختار وتصدر قراراً حاسماً بالاختيار .

ولكن قد يكون اختيارك مجابها بالرفض من الطرف الآخر . فبينما تكون أنت قد حسمت الموقف وأصدرت القرار ، فإن الطرف الذى تكون قد اخترته لا يكون قد حزم أمره . فإذا تفعل اذن ؟ ان عليك أن تحضه على الاختيار والخروج من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين حتى ولو لم يكن ذلك اليقين لصالحك وحتى لو لم تكن أنت الشخصية المختارة دون الآخرين . فإذا ظل ذلك الطرف الآخر معلقاً فى سماء الشك ، فإن عليك أن تحدد أنت موعداً

نهائيا له لكي يختار بغير تردد أو تذبذب . فإذا حل الموعد المحدد ، وظل ذلك الطرف الآخر في حالة من الشك ، فانك تكون حرا إذن في البدء من جديد منخرطا في مرحلة شكية جديدة تصل بعدها أنت وطرف آخر إلى قرار نهائي وحاسم .

الشك بين الزوجين :

من المفروض أنه ببداية الحياة الزوجية فان مرحلة الشك أو الاختيار تكون قد انتهت إلى غير رجعة . ذلك أن المفترض أن يتم الزواج بعد فترة اختيار - وقد وحدنا بين معنى الاختيار ومعنى الشك - حيث تكون هناك اختيارات متباعدة يقع الشاب أو الشابة بنهايتها على شريك الحياة بغير تبديل أو تغيير . ولكن ما يفترض شيء وما هو واقع شيء آخر . ولعلنا نعرض فيما يلي لحالات الشك التي تنتاب الزوجين بعضها في بعض :

أولاً - عقد مقارنة بين الطرف الآخر وبين شخص آخر من جنسه . فلقد تقوم الزوجة بمقارنة زوجها برجل آخر ، أو يقوم الزوج بمقارنة زوجته بامرأة أخرى . والواقع أن مثل تلك المقارنة تحمل في طياتها معنى الاختيار أو المفاضلة . فكأن لسان حال الزوجة في هذه المقارنة يقول « أى الرجلين كنت أختار لكي يكون زوجا لي لو لم أكن قد أخترت بالفعل وتزوجت بزوجهي هذا ؟ ونفس الشيء بالنسبة للزوج . فلسان حاله في أثناء المقارنة: بين زوجته وامرأة أخرى يقول « من كنت أختارها زوجة لي من بين المرأتين لو لم أكن قد تزوجت زوجتي هذه بالفعل ؟ ولقد تكون المقارنة مستمرة من جانب الزوج أو الزوجة ، وذلك بأن تعقد المقارنات باستمرار بين شريك الحياة وبين كل رجل يعجبها أو كل امرأة في مواقف الحياة المتباعدة تعجب الزوج .

ثانياً - مقارنة الميزات والعيوب لدى الزوج أو الزوجة للوقوف على القيمة التي يتمتع بها . ولكأن السؤال المثار في هذه المقارنة هو : « هل المزايا المتوافرة في شريك الحياة تفضل عيوبه وترجع عليها ؟ والواقع أن مثل

هذه المقارنات بين المزايا والعيوب لدى شريك الحياة إنما تعبر عن قلق نفسى بازائه . فلسان حال الزوجة أو الزوج هو « هل أنا تورطت فى هذا الزواج وكان يجب ألا أربط حياتى به أم أنى وفقت فى ذلك ؟ » ومعنى هذا بتعبير آخر أن مجال الاختيار يظل مفتوحا ولو فى الذهن فحسب .

ثالثا - عقد مقارنة بين شريك الحياة وبين صورة ذهنية لشخص خيالى أو لمثل أعلى ارتسم فى ذهن المرء قبل الزواج ومنذ طلائع المراهقة يكون قد استمدّه من الأشخاص المحيطين به أو يكون قد ركبّه من عدة أشخاص قابلهم أو عاشهم أو تعامل معهم وأعجب بجوانب معينة بشخصياتهم . ومعنى هذا أن المقارنة الشكية هنا تكون بين الواقع وبين ما كان يجب أن يكون وليست بين الواقع وواقع آخر .

رابعا - المقارنة بين ظاهر السلوك وبين المشاعر الحقيقية التى يكتمها الطرف الآخر للمرء . فهنا نجد أن الزوجة تقول لنفسها « هل الكلام الحلو والمغازلة التى يبديها زوجى لى تعبر عن رصيد وجدانى يحتفظ به لى فى قلبه ، أم أن كلامه وما يبديه لى من عواطف إنما هو زيف من الزيف ؟ » ونفس الشيء فأننا نجد أن الزوج قد يقول لنفسه « هل ماتبديه زوجتى لى من إعجاب وحنان يعبر عن مكنون نفسها وعن حقيقة مشاعرها نحوى ؟ » فالمقارنة هنا هى بين الظاهر والباطن ، أو بين السلوك الخارجى وبين اللاشعور المدفون فى طيات الشخصية .

خامسا - المقارنة بين الصورة الذهنية التى رسمها المرء لشريك الحياة فى ذهنه وبين الصورة الذهنية التى رسمها الناس والمتعاملون معه عنه فى أذهانهم . لقد تقول الزوجة لنفسها « هل بالغت فى رسم صورة ذهنية لزوجى ليست بنفس الروعة فى أذهان الناس ؟ أو بتعبير آخر : هل أحل لزوجى صورة ذهنية وتقريرا عظيما بينما يحمل له الناس فى أذهانهم صورة باهتة ولا يحملون له فى صدورهم أى تقدير ؟ » وعلى نفس المنوال قد يقول الزوج لنفسه « هل أرى زوجتى جميلة بينما يراها الآخرون دميمة الخلق ؟ وهل يمكن أن أكتشف

فجأة ما هي عليه من قبح حيث تتطابق الصورة الذهنية عندى مع الصورة
الذهنية عند الآخرين ؟ »

ولنا أن نزع أنه إذا وصلت العلاقة بين الزوج وزوجته إلى حد الاتهام
بالخيانة الجنسية أو ما يشبه الخيانة الجنسية فإن المسألة في رأينا تكون قد تعدت
حدود الشك إلى حدود الاتهام الصريح . ولقد سبق أن حددنا الشك بأنه
الوقوف في مجابهة اختيارات على المرء أن يختار من بينها . فإذا بلغ المرء حد
اتهام الطرف الآخر بأنه خائن ، فإنه يكون قد جاوز حد الشك إلى إصدار
حكم محدد بأن الطرف الآخر خائن بالفعل . وطالما خرج المرء من حدود
الموقف الاختياري إلى الموقف الحكمي ، فإنه يكون اذن قد خرج من اطار
الشك إلى اطار اليقين . واليقين هنا هو الاتهام بالخيانة .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هناك بعض الفوائد للشك بين الزوجين بالمعاني.
الحمسة التي عرضناها قبلا ، كما أن هناك بعض المضار التي تنجم عنه . وفيما
يلي أهم تلك الفوائد التي تتأتى عن هذا النوع من الشك :

أولاً - إن الواقع النفسى يتباين عن الواقع الأخلاقى . فإذا كانت
الأخلاق تأمرنا بأن نتوقف عن المفاضلة بين شريك الحياة وبين من قابلهم من
شخصيات حقيقية أو خيالية أو مقارنة شريك الحياة بنفسه ، أو مقارنة مزاياه
بعيوبه ، فإن الواقع النفسى يتباين عن ذلك تماما . فالإنسان بطبعه كائن
دائب التقييم لكل شيء بما في ذلك من يرتبط بهم من أشخاص وعلى رأسهم
شريك الحياة . ولاشك أن عقد مثل تلك المقارنات لدليل واضح على اهتمام
المرء بشريك حياته . فن المعقول أن يتغاضى المرء عن تقييم الأشخاص الذين
لا يعبأ بهم فيتخذ موقف اللامبالاة بازائهم . ولكن الحال ليس كذلك بالنسبة
للأشخاص الذين يحتلون مكان الصدارة في اهتمام المرء .

ثانياً - ليس من المفترض أن يكون شريك الحياة كاملاً لا تشوبه أية
نقيصة من أى نوع . ومثل هذا الافتراض لا يعتمل الا في أذهان السذج أو
المجانين . ومن يفترض أن يكون شريك حياته كاملاً والا فإنه يكون قلة

أفقد صفة من له قيمة ، فانه يكون اذن شخصاً غرا غير واقعى . فلا مانع اذن من التقييم حتى يحصل المرء على صورة ذهنية واقعية لشريك العمر .

ثالثاً - إن مثل تلك المقارنات الشكية يمكن أن تشكل باعثاً لدى شريك الحياة يدفع به إلى تحسين سلوكه وتغيير الجوانب الرديئة فى شخصيته وإحلال جوانب جيدة محلها . وأكثر من هذا فان إبراز ما هو حسن فى شخصية الطرف الآخر لما يشجعه على الاستزادة من تلك المزايا والتشبث بها والتقدم خطوات دائبة إلى الأمام .

رابعاً - لاشك أن المقارنات التى يمكن عقدها بين شريك الحياة وبين الآخرين قد تكون لصالحه مما يعمل على زيادة قيمته فى نظر من يقوم بعقد مثل تلك المقارنات سواء كان الزوج أم الزوجة . ولعلنا نتساءل : وكيف يتسنى للمرء أن يقف على قيمة شريك الحياة الا إذا هو قام بعقد مثل تلك المقارنات ؟

خامساً - إننا نجد أنه فى ضوء ما نعيش فيه من واقعية فى جميع مناحى الحياة ، فان موقفنا بازاء شريك الحياة لا يمكن أن يختلف عن موقفنا بازاء كل ما يحيط بنا من أشخاص وأشياء ومواقف . فطالما أننا اعتدنا فى ظل حضارتنا الراهنة أن نكون واقعيين لا رومانسيين ، فان اتخاذ الموقف الشكى - بالمعنى الاختيارى الذى طالما سقناه قبلاً - يكون منسجماً مع واقع حياتنا وما اعتدنا من مواقف واتجاهات .

على أننا لاننكر ما للموقف الشكى من مضار أو أخطار ، وبخاصة إذا كان سبيلاً إلى إصدار قرار بعدم صلاحية أو بعدم قيمة الطرف الآخر . فلا شك أن تغليف الحياة الزوجية بالرومانسية يكسبها قدسية وروعة ، بينما نجد أن خلع الهالة التى تحيط بها وتجريدها من الجو العاطفى الجديرة به ، لما يفقدها ما يجب أن تتسم به من جلال وما يحيط بها من خيال .

وخلاصة القول إن الشك فى الحياة الزوجية إذا كان وسيلة لإبراز مزايا شريك العمر فانه يكون شكاً مفيداً وذافاعلية . أما إذا أستخدم لتعرية ذلك

الطرف الآخر من المزايا بالمقارنة إلى الآخرين فانه يكون إذن معول هدم للحياة الأسرية والنكوص بها عن آفاق السعادة والاعتزاز .

الشك بين الأسرتين النسبيتين :

من الملاحظ أن الدراسات التي كرسست للوقوف على العلاقات الأسرية لم تول اهتماما ذا بال بالأسرتين النسبيتين ، بل ركزت جل الجهد على العلاقة بين الخطيئين أو الزوجين ثم بين الآباء والأبناء . والواقع أن ثمة علاقة هامة تقوم فيما بين الأسرتين النسبيتين سواء في فترة الخطوبة أم بعد ذلك خلال الزواج . ونحن نرى أن العلاقات التي تقوم بين الأسرتين النسبيتين على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للخطيئين ثم بالنسبة للزوجين بعد إتمام الزواج ، بل إن تلك العلاقات تنعكس على نحو أو آخر على العلاقات الأسرية المتباينة إن بالإيجاب وإن بالسلب .

ومن الجدير بالملاحظة أن العلاقات التي تقوم بين الأسرتين النسبيتين هي من النوع المعقد أشد التعقد . فاذا افترضنا أن كل أسرة من الأسرتين النسبيتين تتكون من خمسة أفراد ، فانك لا تستطيع أن تجصر العلاقات التي يمكن أن تقوم فيما بين أفراد الأسرتين . إننا إذا ما أخذنا علاقات التوافق والتبادل في الحسبان ، فاننا نجد أن العلاقات الممكن قيامها بالآلاف . ويمكن أن تتخيل أن كل علاقة فردية بين فرد وآخر يمكن أن تتلون بأطياف متباينة إذ يحدث قلب فيما بين الحب الشديد والكراهية الشديدة . وطبيعي أن كل علاقة من تلك العلاقات الفردية تؤثر على نحو أو آخر في العلاقات الفردية الأخرى ، بل إنها قد تؤثر في العلاقات التي يشترك فيها أكثر من فرد واحد .

وإذا نحن رجعنا إلى مفهوم الشك الذي حددناه وبنينا عليه كل مذهبنا إليه في الجزء الذي قطعناه من مشوار هذا الكتاب ، فاننا نجد أن الفترة السابقة على الخطوبة ، بل وأيضاً فترة الخطوبة إنما تكونان فترتي شك من جانب الأسرتين اللتين ترمعان الاقتران بعضهما ببعض . فقبيل الوقوع على الاختيار تكون هناك بدائل كثيرة أو قليلة أمام كل أسرة من الأسرتين . وحتى في

أشد المجتمعات استقلالا توفره لأبنائها وبناتها ، فان هناك قدرا معينا من تأثير الأسرتين في الأبن والبنات اللذين يزعمان عقد خطوبة فيما بينهما . ويخطئ من يعتقد أن الخطوبة والزواج يمان بين شاب وشابة فحسب ، وأنه لا دخل لأسرتيهما في ذلك . ناهيك عن المجتمعات الشرقية — كالمجتمع المصرى — حيث يكون تدخل الأسرتين في الاختيار بعيد المدى .

والموقف الاختيارى أو الشكى يتبدى في موقف الأسرتين خلال الخطوبة أو قبلها في المواقف الاختيارية المتعددة التى تتبدى لدهما . ولعلنا نحصى الموقف الشكى في أضيق نطاق إذا ما تناولنا الاختيار بازاء شخصية واحدة هي العروس أو العريس ، وبالتالي الموقف بازاء أسرتها أو أسرته . فهنا يكون الموقف الشكى متبديا في الحكم بأنها أسرة جيدة أو أسرة رديئة . ولا شك أن الحكم على الأسرة التى يعتزم الزواج منها إنما هو المحصلة الناجمة عن العديد من الأحكام التى تصدر عن جميع أفراد الأسرة التى يمكن اعتبارها شخصية معنوية واحدة .

ولا يصح لنا أن ننسى مالبعض الشخصيات الأسرية من تأثير بعيد المدى في الحكم الكلى . فثمة زعامات أسرية تستولى على جماع رأى الأسرة . لقد تكون أم العريس أو العروس ، وقد تكون الزعامة في هذا المضمار معقودة للأب ، وقد تكون معقودة لإحدى الأخوات أو لأحد الأخوة ، أو غير ذلك من أقرباء الأسرة . بيد أن الشخصية الزعيمة لا تحاول غالباً فرض رأى على باقى أفراد الأسرة ، بل هى تؤثر في توجيه الآراء الأخرى والتأثير فيها بأنواع متباينة من التأثير . ويتم هذا بذكر المحاسن أو ذكر العيوب بشئ من المبالغة والتهويل . وتلك الشخصية الزعيمة تكون قد حازت في الغالب على قدرة كبيرة على الإيحاء وحمل جميع أفراد الأسرة على الضرب فيما تضرب هى فيه من مشاعر وانتحاءات نفسية وجدانية .

ومن المفروض في الواقع أن يكون العريس أو العروس هما النجمين المؤثرين في أسرتيهما . بيد أن المفروض شئ والواقع شئ آخر . صحيح أنه

أول الخيط ربما يكون في يديها ، ولكن باقى الخيط لا يكون بالضرورة في قبضتها . ذلك أن الأسرة — سواء كانت أسرة العريس أو أسرة العروس — يكون لها تكوين اجتماعى معين . فالزعم المؤثر في كل أسرة من هاتين الأسرتين لا يكون بالضرورة هو العريس أو العروس . والأغلب أن يكون الشخص المؤثر في أسرة العريس هو أمه أو إحدى أخواته كما أن الشخص المؤثر في أسرة العروس يكون في الغالب هو والد العروس أو أحد أخوتها .

ومن أكثر الأمور إيلاما للعريس وللعروس نكوص أسرة الواحد منها عن حالة اليقين إلى حالة الشك . فبعد أن تكون الأسرة قد أستقرت على اختيار شريك حياة أبنتها أو أبنتها وأسرته أو أسرتها ، فإنها تعود من جديد إلى حالة الشك أو المفاضلة ، سواء كانت المفاضلة بين خيرية الأسرة أم شريتها ، أم كانت المفاضلة بين تلك الأسرة وغيرها من أسر ، أو بين شريك الحياة المرتقب وبين شخص أو أشخاص آخرين يمكن الوقوع على واحد منهم ، وبذلك الطرف الذى سبق اختياره وتفضيله .

ولا يقتصر هذا الحال من التذبذب على مرحلة الخطوبة ، بل قد يمتد إلى ما بعد الزواج . فنن المفروض أن تستقر الحياة الزوجية وعدم انسراب الشك — أو العودة إلى الاختيار — بعد عقد القران . ولكن المفروض شيء والواقع شيء آخر . ففي كثير من الأحيان ، وبالنسبة لكثير من الزوجات نجد أن ما كان يسود العلاقة بين الزوجين الحديثين من انبهار واعجاب وتعلق واقبال قد أخذ في الانقشاع ليحل محله جو آخر من الاحتقار والأشمئزاز والنفور والادبار النفسى . ومن الطبيعى أن يصاحب مثل هذا التحول الجديد شعور آخر هو إعادة النظر فيما سبق الوقوع عليه واختياره ، أو بتعبير آخر لإحلال الشك محل اليقين .

ونحن نستطيع في الواقع أن نتخيل وجود محصلة لموقف كل من الأسرتين النسبيتين ، بل نستطيع أن نتخيل وجود محصلة لما تشعر به الأسرتان جميعاً بحيث يمكن أن نقول إن تلك المحصلة المتخيلة انما تشير إلى ما يمكن أن يوجد

من شك في الموقف بينها . ومن الطبيعي أن توجد بعض الغضاضة لدى الزوجين تعتمد في قلب كل منها قبالة الآخر ، ومن الطبيعي أن توجد بعض الاختلافات في المزاج وفي وجهات النظر وفي تفسير الأشياء وتقييمها ، ولكن هناك فرقا بين مثل تلك التباينات أو المضايقات وبين الوصول إلى حالة الشك أو إلى حالة إعادة النظر في الموقف باتجاه الطرف الآخر . ونفس الشيء يصدق بازاء الأسرتين النسبيتين . فمن غير الطبيعي ألا تكتشف كل أسرة شيئا أو أشياء تضيقها من الأسرة الأخرى أو لاترضى عنها ، ولكن اكتشاف مثل تلك الأشياء أو الجوانب شيء وإعادة النظر والتلبس بالشك باتجاه الأسرة الأخرى شيء آخر . فتجد أفراد إحدى الأسرتين يقولون لك أشياء لاتعجبهم في أفراد الأسرة الأخرى ، ولكنهم يعقبون بعد ذكر النقائص والعيوب ، بأن تلك الأسرة في مجموعها معقولة وأن الارتباط بها جيد ولا غبار عليه أو مقبول أو معقول ، وأن طلب الكمال في كل شيء من الحالات . ولكن إذا كانت تلك المعايير جوهرية ، فإن الحال يختلف ويبدأ أفراد الأسرة يطالبون بالرجوع عما سبق أن ضربوا فيه ، بل إنك تجد من ينادى منهم بوجود فصم عرى الخطوبة أو بتر العلاقات الزوجية للبحث عن أسرة جديدة تصلح للارتباط بها .

وفي كثير من الحالات تجد أن الأسرتين النسبيتين وقد اعتوراها الشك أو حتى النزاع ، بينما تجد أن الخطيئين أو الزوجين وقد ارتبطا بعضهم ببعض ارتباطا وثيقا . وأكثر من هذا فقد يجد الخطيئان أو الزوجان قوة دافعة لهما وتأييدا وتأكيدا لذلك الحب والتفاف الوجدان حول قلبهما بسبب الشك والارتياح والنزاع الذي يخيم على الأسرتين النسبيتين . فهنا نجد أن الخطيئين أو الزوجين وقد أعلننا سخطهما على موقف الأسرتين ، وقد شقا عصا الطاعة عليهما مؤكدين أنها يشكلان عالما مستقلا خاصا بهما بحيث لا يسمحان لأي إنسان - حتى ولو كان أباً أو أما - الولوج فيه وهناك أستاذه والاعتداء على مقدساته . فالشك بين الأسرتين النسبيتين لا يشيع بالضرورة بين الخطيئين أو الزوجين ، بل إن العكس هو الذي قد يحدث ، أو قل إن الشك بين

الأسرتين ربما يكون بمثابة الطعم المحصن ضد داء الشك لدى الخطيبين أو الزوجين . ولقد تجد في مثل تلك الحالات أن الشك لدى الخطيبين أو الزوجين وقد خرج عن نطاقهما والتصق بذويهما . فتجد أن الخطيب أو الزوج وقد تحصن نفسيا ضد ما يتمل في قلوب ذويهم ، وكذا يكون حال الخطيبة أو الزوجة قبالة ذويها . وبذا يخرج اليقين الى الوجود من أحضان الشك ، وتشتد روابط الخطوبة أو الزواج بين الخطيبين أو الزوجين .

الشك بين الوالدين والأولاد :

لا يبدأ الأبناء والبنات في الشك في الوالدين بالمعنى الذى سقناه طوال الفصول والموضوعات السابقة إلا بعد بلوغ مرحلة المراهقة . ذلك أن مرحلة الطفولة يمكن أن تعتبر مرحلة انصياع — أو قل بغير تحفظ — لأنها مرحلة تقديس الوالدين والإيمان بكل ما يصدر عنهما من أقوال وأفعال . ولكن مع بزوغ المراهقة ومن بعدها الشباب ، فإن القدرة النقدية لدى الابن أو البنت تأخذ في التوهج فلا يعود الابن أو البنت يرى في الأب أو فى الأم تلك الشخصية التى لا تخطئ ، بل يأخذ في التربص بالوالدين ، وقد صوب نحوهما سهام الشك ، وصار يعقد المقارنات العديدة بينهما وبين غيرهما من أترابهما ، أعنى بينهما وبين الآباء والأمهات الآخرين . والشأن كذلك بازاء مدرسيه ومدرساته وقد ترك المدرسة الابتدائية وانخرط فى ركاب المدرسة الاعدادية ومن بعدها بالمدرسة الثانوية . فبينما نجد أن أطفال الابتدائى يسرون وفق ما يرتثيه المعلمون والمعلمات ، فإن تلاميذ الاعدادى وكذا تلاميذ الثانوى وقد صاروا يخرجون على ما يرسمه لهم المعلمون والمعلمات ، بل انهم يتابعون عمل مدرسيهم ومدرساتهم بالنقد ، وقد أخذوا يعقدون المقارنات بين المدرسين بعضهم وبعض أو بين المدرسات بعضهن وبعض .

ونحن لا نزعم أن مراحل النمو منفصلة بعضها عن بعض ، كما أننا لا نزعم أن السن الزمنية تشير الى ما يتصف به المرء من سمات عقلية ووجدانية . فنحن نعرف بأن مراحل النمو متداخلة أشد التداخل فيما بينها ، كما أننا نعرف بأن هناك أعماراً أخرى غير العمر الزمنى بالنسبة للشخص الواحد .

فهناك العمر العقلي والعمر اللغوي والعمر الوجداني والعمر الاجتماعي ، وأن تلك الأعمار تؤثر من قريب أو من بعيد في الاتجاهات التي يتلذع بها الشخص. بازاء الآخرين وبضمنهم والدان . فلقد يكون الطفل في الثامنة حسب شهادة ميلاده ، ولكن نموه العقلي أو نموه اللغوي أو نموه الوجداني أو نموه الاجتماعي يشير الى عمر آخر أكبر أو أصغر من ثماني سنوات . لقد نجد ذلك الطفل البالغ من العمر الزمني ثماني سنوات ، بينما يكون عمره العقلي قرابة ضعف عمره الزمني .

وهكذا نجد أن الأبناء والبنات يتباينون في نموهم . وأكثر من هذا فان الذكور يتباينون عن الإناث فيما يتعلق بالشك والمقارنة والمفاضلة . ولعلنا نزع من أن الذكور بوجه عام أكثر شكا من الاناث بوجه عام . وهنا أيضا نتحفظ بأن ندخل الفروق الفردية في الاعتبار بمعنى أننا نجد بعض الذكور أقل رغبة أو ميلا الى الشك والمقارنة من بعض الاناث .

والواقع أن الانسان بصفة عامة — كما سبق أن قلنا — ينشأ على الإيمان. ثم يتحول الى الشك ، وكلما بعد المرء عن نقطة الانطلاق التي بدأ منها حياته. وهي حجر أمه وحضن أبيه ، فانه يجد نفسه أكثر ميلا الى وضع أفراد أكثر عددا وأخصب تنوعا نصب عينيه لمقارنتهم بعضهم ببعض . فتجده يقارن بين والده ووالدته وبين آباء وأمهات الآخرين . ومن الطبيعي أن تتسع أوجه المقارنة كلما اتسعت المجالات أمامه . فكلما كان المرء أكثر ثقافة وأخصب لغة وأرهف وجدانا وأوسع أفقا وأغزر وقوفا على العلاقات الاجتماعية ، كان بالتالي أكثر قدرة على عقد المقارنات بين والدته وبين الآباء والأمهات الآخرين .

على أن المسألة لا تقتصر على مجرد المقارنة يعقدها الابن أو تعقدها البنت. بين الوالد أو الوالدة وبين الآباء والأمهات الآخرين ، بل إن المسألة تصل الى حد أبعد من ذلك بكثير . فثمة ما يمكن أن نسميه باصطدام الرغبات . فبعد أن كان الابن والبنت في عهد الطفولة يعمدان الى المطابقة بين رغباتهما

ورغبات والديهما ، فاننا نجدهما بعد انخراطهما في المراهقة والشباب وقد أخذنا
يتباينان فيما يرغبان فيه وما ينحوان اليه ويميلان الى تذوقه أو ممارسته . وبتعبير
آخر فاننا نجد أن ثمة فروقا فردية تتبدى فيما بين الحياة الوجدانية للأبناء والبنات
وبين الحياة الوجدانية لدى الوالدين . وهذا أمر طبيعي حتى في ضوء اعتبارات
السن والاهتمامات والمثل العليا والخبرات وما تتميز به الأجيال من صراع
يوتنابذ في الميول والعواطف والاتجاهات .

ونستطيع أن نقرر أن العوامل والوسائل التربوية والاجتماعية والدينية
تتأثر دائمة التقليل والتخفيف من حدة التصادم والتناوب والشك بين الأولاد
والوالدين . ذلك أن المجتمع الحضارى يحاول ترجيح كفة الكبار على كفة
الصغار كما أنه يحض الصغار مهمل بلغوا من النمو في الثقافة وفي أسباب القوة
على أن يرضخوا ويدعنوا للكبار مهمل بلغوا من الضعف والوهن والتخلف .
واكرام الوالدين قيمة أساسية مقدسة من قيم مجتمعاتنا الحديثة . ولكن مع
هذا كله وبرغم الضغوط الاجتماعية الحضارية فان الصراع بين الأجيال سوف
يظل قائما ، ولسوف تظل الرغائب المتصارعة والميول غير متجانسة والشك
والمقارنات دائرة في عقول المراهقين والمراهقات والشباب والشابات وعلى
ألسنتهم وأقلامهم .

ولعل هناك محورين أساسيين ينشأ حولهما الشك بين الأولاد والوالدين :
المحور الأول - هو المحور الاقتصادى ، والمحور الثانى - هو المحور الجنسى .
وبالنسبة للمحور الأول فاننا نجد أن الأولاد من الجنسين يأخذون بدءا
بالمراهقة والشباب في نقد الوالدين فيما يتعلق بتنظيم مواردهما الاقتصادية وفيما
يقدمان اليهم من مصروف يومية أو أسبوعية أو شهرية . ولقد رُصِغ هذا
النوع من الشك فيما يتعلق بالضروريات والكماليات . فالكثير مما يراه
المراهقون من الجنسين ضروريات يراه آباؤهم وأمهاتهم كماليات ، والعكس
أيضا صحيح . فالكثير مما يراه الوالدان ضروريات يراه الأولاد كماليات .

وهكذا يبدأ الشك في الاحتدام بين تقييم الأولاد من جهة وبين تقييم الوالدين من جهة أخرى فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية .

أما بالنسبة للمحور الجنسي فأننا نجد نقاط تباين أو شك أو صراع بين الأولاد والوالدين تنبئ أولاً — في الاختلاط بين الجنسين وحدوده وما يسمح به وما لا يسمح وما يجب تجنبه وما يجب الاقبال عليه . وبتعبير آخر هناك اختلاف حول الحقوق الجنسية . فبينما يرى جيل المراهقين والشباب بعض الأشياء أو الممارسات حقوقاً مكفولة لهم ، فإن الوالدين يخشيان من مغبة ترك الحبل على الغارب للأبناء والبنات فيما يتعلق بالمسائل الجنسية أو حتى فيما يتعلق بالاختلاط بين أبنائهم وبناتهم وبين الآباء والبنات الآخرين من نفس الجنس أو من الجنس الآخر . ويبدو الاختلاف أيضاً في إطار هذا المحور فيما يتعلق بالحجب . فثمة اختلاف في التقييم الجمالي والاجتماعي بين الأولاد والوالدين . فيما يراه الأب أو الأم من جمال قد يكون في نظر الابن أو البنت قبحاً . وهكذا ينتج عن هذا الاختلاف اختلاف بصدد ما يمكن أن يحبه أو يفضله الابن أو البنت من أشخاص يحبهم ويتعلق بهم . فالابن يحب ابنة الجيران مثلاً ، ولكن أمه تكرهها ولا ترى فيها شيئاً يستحق أن يحب . والعريس الذي تختاره الأم لابنتها وتشاهد فيه جميع مواصفات العريس الممتاز قد لا تشاهد فيه ابنتها سوى الرداءة والقبح وعدم اللياقة لأن يكون زوجها لها .

وعندما يفصل الأبناء والبنات عن الوالدين وقد صار لكل منهم أسرة جديدة مستقلة ، فإن نوعاً من الصراع أو التنافس ينشأ بين كل من تلك الأسر الجديدة الناشئة وبين الأسرة الأم . وشاهد ذلك أن الأسرة الأم تلج على جذب انتباه واهتمام وعاطفة الأبناء والبنات المتزوجين إليها والارتباط بها وعدم التأني عنها ، بينما تعمل الأسرة الجديدة الناشئة على تحقيق الاستقلال لنفسها والانفطام الكامل عن ثدى الأسرة الأم . ومن ثم فأنك قد تسمع نغمت تصدر عن الآباء والأمهات يوجهونها إلى الأبناء والبنات المتزوجين تحمل اليهم اتهامات بالخيانة والتقصير والجحود وغير ذلك من اتهامات تم

على الغيرة عليهم والرغبة في إعادة ضمهم الى الأسرة الأم . ولا شك ان مثل ذلك الصراع أو النزاع بين الأسر الجديدة الناشئة وبين الأسرة الأم إنما يعد شاهدا على روح الشك والمفاضلة بين صورة ذهنية ترسم في أذهان الآباء والأمهات والأبناء والبنات وبين الواقع الذى يحيونه ويمارسونه . ولقد يظل مثل هذا الشك في حدوده الطبيعية فيكون شكاً سوياً ، كما أنه قد يخرج عن نطاق تلك الحدود الطبيعية مشكلاً اتهامات صريحة متلبسة بموضوعات فعلية محسوسة ونزاعات تكون بحاجة الى تدخل أطراف من خارج نطاق الأسرة الأم والأسرة الناشئة لتسويتها والقضاء عليها .

الشك بين الأسرة والعالم الخارجى :

تمثل الأسرة - أى أسرة - وحده أو كيانا عضوياً في مقابل وحدات . أو كائنات عضوية كثيرة أخرى تحيط بها هى تلك الأسر العديدة المحيطة بها من كل جانب . فالأسرة - فى هذه الحالة - لا تعتبر مجموعة من الأفراد ، ولا ينظر اليها باعتبار أنها مكونة من زوج وزوجة وأولادها ، بل باعتبارها شخصاً معنوياً واحداً له محصلة فكرية واحدة واتجاه وجدانى عام وإرادة متسقة تنهج بواسطتها سياسة محددة المعالم ومتعينة القسمات .

على أنه يجب أن نلاحظ - كما سبق أن قلنا - أن ثمة شخصية نجمية مؤثرة فى كل أسرة ، ولا تكون تلك الشخصية هى الأب أو الأم بالضرورة ، بل قد تكون بنتاً أو ابناً . ذلك أن روح الزعامة تتمثل فى أشخاص معينين بغض النظر عن سنهم أو ثقافتهم أو وضعهم الاجتماعى بالمجموعة . فلقد توجد فى بعض الحالات شغالة باحدى الأسر ذات صفة الزعامة ، فتجدها بعد وقت يقصر أو يطول وقد أخذت بعنان الأسرة كلها وصارت تحركها فى الاتجاهات التى تريدها وقد أخذت تحدد لتلك الأسرة السياسة التى تتخذها قبالة الأسر الأخرى .

ومهما يكن من شئ فإن ما يمكن أن ننهى اليه فى جميع الحالات ، وبغض النظر عن الشخصية المؤثرة فى تحديد اتجاهات الأسرة ورسم سياستها

قبالة الأسر الأخرى . ، هو أن لكل أسرة بالضرورة سياسة ما تتخذها بازاء الأسر الأخرى المجاورة لها . وأكثر من هذا فثمة سياسة ما تتخذها الأسرة قبالة العالم كله والمجتمع بأسره تنبثق عما يشيع بها من قيم وعما تتلبس به اتجاهات وعواطف عامة وتفسيرات للمجتمع والوجود ، وعما يشيع بين أفرادها من أخلاق ومثل عليا ومعتقدات وثقافة وعما يسود بها من عادات تبدى في تصرفات أفرادها وفي المناحي التي دأبوا على الضرب فيها سواء كانت تلك المناحي وجدانية أم عقلية أم كلامية أم اجتماعية .

وبتأمل الأسرة الحديثة - وبخاصة الأسرة التي تقطن مدينة كبيرة كمدينة القاهرة - فاننا نلاحظ أنه على الرغم من التجاور والتزاحم والتلاصق في المكان ، فان هناك تباعدا وانفصالا وتفككا في الوشائج العاطفية بين الأسر . والعجيب أن يكون الاقتراب المكاني مرتبطا في نفس الوقت بالتباعد الوجداني ، وأن يكون العكس أيضا صحيحا ، أعنى أن يكون التباعد المكاني مشفوعا بتقارب وجداني . ذلك أنك تلاحظ أن الريف حيث التخلخل وحيث تعيش كل أسرة في بيت مستقل من بابه ، فان كل أسرة تحس وتتجاوب وتتناغم مع جميع الأسر الموجودة بالقرية ، سواء كان ذلك الاحساس بالحب أم كان بالكراهية . أما بالمدينة حيث تضيق الشقق من جهة وتتجاور جدا في نفس الدور من العمارة وتزاحم - وقد تراصت أكثر من أربع شقق في الطابق الواحد ولا يزيد بعد الشقة عن الشقة المجاورة عن شبر واحد - فانك قد تجد أن سكان كل شقة لا يكادون يعرفون شيئا عن السكان الملاصقين لهم تماما . وهم الذين يشتركون معهم في نفس الجدار .

ونستطيع في الواقع أن نزعّم أن العلاقات بين الأسر في الريف هي علاقات إيمانية ، بمعنى أن كل أسرة قد انتهت بالفعل الى اختيار أو تقبل الأسر المجاورة لها . صحيح أن ذلك الاختيار أو التقبل لم يتم بطريقة شعورية بل تم بطريقة لا شعورية ، ولكنه على أية حال موقف إيماني تقبلي حيث لا تكون هناك اختيارات بالقبول أو بالرفض بازاء الأسر الموجودة بالقرية . فلا تكاد أية أسرة بالقرية تجرؤ على قطع العلاقات بالأسر المجاورة أو تجاهلها ، لأن

ذلك ليس من طبيعة العلاقات التقبلية الايمانية بالقرية . وكيف يكون هناك اختيار وقد تم تركيب القرية عضويا ففرعت الأسر بها عن صلب واحد ولهم في الغالب جد واحد وثمة شجرة عائلة واحدة أو ثمة عدد قليل من شجرات الأسر المتباينة ؟ وحتى أولئك الذين لم تجمعهم قرابة بالقرية فان السنوات الكثيرة المتعاقبة تجمعهم منذ الطفولة ومرورا بالمراهقة والشباب والكهولة . فالعلاقات بين الاسر بالقرية أشبه ما تكون بعلاقة الذراعين في جسم الشخص الواحد بعضهما مع بعض . فليس هناك خيار لكل ذراع في انتقاء الذراع التي تعجبها ، بل ثمة نشأة مشتركة وهناك بالتالي تقبل إيماني من جانب كل ذراع للذراع الاخرى .

أما بالنسبة للأسر في المدينة فانها تنسم بفقدان التاريخ الذي تجتمع حوله أسر القرية . فثمة ما يمكن أن نسميه بالاحساس بالاغتراب . فكل أسرة بأي عمارة من العمائر الشاهقة بالمدينة تحس بأنها غريبة بتلك العمارة مهما طال بقاؤها بها. ومن جهة أخرى فانها تحس بأن الأسر الأخرى المجاورة لها والقاطنة بنفس العمارة أو بالعمائر المجاورة ، إنما هي أسر غريبة ووافدة على المكان ، وأنه لا يوجد جذر مشترك يجمع أيًا منها بالأخرى ، أو أنه لا يوجد جذع مشترك يجمعها واياها وقد تفرعت منه ، بل ان لكل منها قوامه الذاتي المنفصل تمام الانفصال عنها .

بيد أن ثمة في قوام الانسان ما يدفع به الى التجاور النفسى والتبادل الاجتماعى وتحقيق التجانس وملاشاة الفوارق وحذف الفواصل . ومثل هذا الاحساس يدفع بكل أسرة الى الاحساس على نحو ما بالأسر الأخرى . ولعلها في تصفحها للأسر المحيطة بها تكون في موقف الاختيار . ولكن كيف لها أن تختار من بين تلك الأسر لكي تندمج فيه أو لكي تقيم وشائج متينة معها. وهذا الاحساس بالاغتراب من جهة وعدم وجود تاريخ مشترك وجذع واحد يجمعها واياها ؟

هناك إذن حل واحد هو الحل البيني ، أعنى إقامة علاقات سطحية هامشية بالأسر الأخرى وتعليق الاختيار إلى أجل غير مسمى . فحالة

الاختيار المستمرة هي التي تخيم على أسر المدينة . وهذه الحالة الاختيارية هي ما أسميناها بحالة الشك ، لأننا طابقنا بين الشك وبين الموقف الاختياري قبل الوقوع على الشيء المختار من بين المتغيرات المتاحة بالموقف .

ولقد نزعنا أن الأسر بالمدينة تتسم بسمة معينة تميزها عن أسر القرية وهي العودة إلى حالة الشك إذا ما قيص لأسرتين أن ترتبطا بحالة اليقين أو بحالة الارتباط الوجداني والذهني المبكين . وهذا يبدو أكثر ما يبدو في العلاقات الاقتصادية والعلاقات الزيجية . فبالنسبة للشركاء في عمل تجارى واحد ، فإن ذلك العمل محكوم عليه منذ اللحظة الأولى لإنشائه بالتفكك . ناهيك عن أن معظم الشركات التي تنشأ بالمدينة ليس لها صاحب معين ، بل هي تابعة لبنوك أو مؤسسات عامة أو ما يسمى بالقطاع العام . والواقع أن الأسر التي ترتبط بروابط اقتصادية وقد تأتى عنها روابط وجدانية مكينة سرعان ما تنفصل بعضها عن بعض وتتبخر علاقات الود والحب التي كانت تظللها .

وبالنسبة للزيجات بين الأسر بالمدينة ، فإننا نزعنا أن الرابطة الزوجية — إذا قيص لها أن تستمر — فإنها بالنسبة للأسرتين النسييتين تكون علاقة مؤقتة ، أو قل تكون علاقة رسمية لاتشيع بها العاطفة الدافئة أو الوشائج القلبية المسكينة . فما يكاد الزواج يتم حتى تبدأ العلاقات التي كانت قوية بين الأسرتين النسييتين في الأضمحلال والضمور بل أنها كثيراً ما تصبح علاقات مشوبة بالكراهية والنفور .

أما عن علاقة أسرة المدينة بالعالم الخارجى ككل فإننا نستطيع أن نسماها أيضاً بأنها علاقة شك . على أن الشك في هذه الحالة هو المفاضلة بين الخير والشر ، أو قل بين الفائدة والضرب في هذا العالم الخارجى الواسع . فأننا لا نستطيع أن نستشف في موقف أسرة المدينة حقيقة علاقتها بالمدينة ككل أو بالعالم كله . انك لا تستطيع أن تتأكد من حقيقة شعور أسرة المدينة تجاه ما يحيط بها . هل هي تحمل الحب لما يحيط بها أم أنها تكره المدينة والعالم كله ؟ الواقع أن ما يعتل في أوصال أسرة المدينة هو ذلك الموقف البينى أو بتعبير أدق الموقف الشبكي الاختياري الذي يتم على عدم الوصول إلى قرار أو على

عدم إصدار حكم على العالم المحيط بها . فهي تستمر حائرة وقد وقفت مشدوهة أمام هذا العالم المحيط بها المشحون بالمتناقضات . فهو عالم يجمع بين الخير كله والشر كله ، أو بين الحضارة والوحشية ، أو بين الترابط والتفكك ، أو بين النظام والفوضى ، أو لعله يجمع جميع مقومات الرعاية وجميع أنواع الإهمال والردل . وهل يمكن أن يعمل أى حساب لأى أسرة والمدينة تحمل عبء ملايين الأسر ؟ وكيف تطمئن أسرة المدينة إلى مستقبل غامض يمكن أن يعصف بكل ماسبق لها كسبه عبر سنين عديدة فى لحظة بصر وفى غمضة عين ؟ إن المدينة التى تشاهد بها ملاجئ الأيتام وبيوت المسنين هى ذاتها المدينة التى تهمل الأيتام والمسنين . فلماذا لا تشك الأسرة فيها إذن ؟

الفصل السادس

أخلاقيات الشك

الشك والحرية الأخلاقية :

تعتمد المسؤولية الأخلاقية بصفة رئيسية على الاختيار من بين بعض المواقف المتباينة . فلا يوصف الشخص بأنه أمين إلا إذا أختار موقف الأمانة وكان بمقدوره أن يسرق ، ولا يوصف الشخص بأنه عفيف جنسيا إلا إذا كان بمقدوره أن يمارس نشاطا جنسيا خارج نطاق الشرعية . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع المواقف الأخلاقية المتباينة والعديدة . فشرط الحكم الأخلاقي بالخيرية أو بالشرية توافر أكثر من موقف واحد في الوقت الواحد وبشرط أن يكون بمقدور المرء أن يختار وأن يتلبس بالسلوك الذي يقع عليه اختياره بغير إجبار من أحد .

وطالما أننا عرفنا الشك بأنه التواجد في موقف يتضمن أكثر من اختيار واحد وأن انتقاء واحد من تلك الاختيارات يخرج بالمرء من نطاق الشك إلى نطاق اليقين ، فاننا نستطيع إذن أن نقرر أن الشك بهذا المعنى الذي حددناه هو الشرط اللازم والذي لامناص منه للحرية الأخلاقية . فأنت لاتوصف بأنك حر أخلاقيا الا كنت أمام مجموعة من الاختيارات ، أو بتعبير آخر الا إذا كنت في موقف شكى . فالشك هو السبيل الوحيد للحرية الأخلاقية .

وإذا نحن أخذنا في تطبيق هذا المبدأ وقلنا إن كل حالة لايتوافر فيها الشك فإنها تكون بالتالى خالية من الحرية الأخلاقية ، فاننا نجد إذن أن الطفل الصغير يكون أقل حرية أخلاقيا من الشخص الذى أشتد عوده وبلغ رشده . وكذا فاننا نقول إن المرأة في معظم المجتمعات الإنسانية أقل حرية من الرجل ،

وأن السجين أقل حرية أخلاقياً من الشخص الذى لم يدفع به إلى السجن. وقل
نفس الشيء بالنسبة لكل شخص لا تتوفر له نفس الكمية من الاختيارات .

ولعلنا نسأل عن مدى الحرية التى يتمتع بها المرء فى أحلامه . فهل الرجل
المتزوج الذى يحلم بأنه يعانق امرأة حسناء يكون مضطراً لمثل هذا الحلم بحيث
يستطيع أن يدفع عن نفسه مسئولية الخيانة الزوجية ؟ اننا نعتقد أن الاختيارات
فى حالة النوم والانخراط فى الحلم أوسع نطاقاً منها فى حالة اليقظة والوجود فى
أحضان الواقع الاجتماعى . ومعنى هذا من زاوية أخرى أن حالة الشك فى
المنام أقوى منها فى حالة اليقظة . وبالتالي فإن الحرية الأخلاقية فى أثناء الحلم
تكون أوسع نطاقاً منها والمرء فى حال اليقظة . ولعل السؤال الملح هنا هو :
هل الشخص مسئول عن أحلامه مسئولية أخلاقية ؟ إننا لكى نجيب عن هذا
السؤال فإن علينا أن ننظر من زاويتين : زاوية نظر الشخص لنفسه ، ثم
زاوية نظر الآخرين إلى الشخص . وحيث أن الحلم هو حالة شخصية بحيث
لا يشارك المرء فيها أحد ، وليس بمقدور إنسان أن يخترق حجاب الشخصية
فى أثناء الحلم أو حتى بعد الاستيقاظ والخروج من إطار النوم إلى إطار اليقظة
لذا فإن المسئولية الأخلاقية عن الأحلام لا تنأتى إلا فى حالة واحدة هى أن
يعرض المرء أحلامه على الملأ ويقصها على غيره . ولكن طالما أن الحلم فى
النطاق الشخصى ، فإن المسئولية الأخلاقية تكون محصورة بين ذات الشخص
ونفسه .

ويخطئ من يقيم فاصلاً بين حياته فى اليقظة وبين حياته فى المنام . ذلك
أن حياة الإنسان بمثابة نهر واحد متدفق ، يظهر سطحه للرائى ، ويختفى
بأى مجراه تحت ذلك السطح . ولكن الظاهر والباطن من النهر يسيران فى
نفس الاتجاه ولا يختلف الماء الظاهر عن الماء الباطن من حيث طبيعتها أو
خواصها . فأنت فى حال يقظتك هو أنت فى حال انخراطك فى النوم ومشاهدتك
للأحلام . ولقد نستطيع القول بأن الطبيب فى أحلامه يكون أيضاً طبيباً ولا
يكون ضابطاً أو مدرساً . وكذا الحال فى السلوك الأخلاقى . فنحن لانستطيع
أى تنخيل الصراف الأمين وقد مد يده إلى الخزينة يسرق منها أو يختلس المال

الذى أو تمن عليه فى الحلم ، ولا نستطيع أن نتخيل شخصاً يحب زوجته ولا يتمنى أن تواتيه الفرصة لخيانتها ثم أنخرط فى حلم يتسم بالخيانة لتلك الزوجة مع امرأة أخرى . فإذا ما حلم الزوج بأنه يخون زوجته ثم ينكر إمكان قيامه بذلك فى حال اليقظة ، فيجب علينا ألا نصدقه . فعدم إقباله على الخيانة الزوجية فى حياته الواقعية لا يكون نتيجة عدم الرغبة فى ذلك ، بل يكون نتيجة عجزه عن ذلك وعدم موافاة الفرصة له . وبتعبير آخر فإن نية الخيانة فى مثل هذه الحالة تكون متوافرة ، ويكون التنفيذ فى الحلم بديلاً نتيجة العجز وعدم الموافاة فى حال الواقع الاجتماعى اليومى .

وعلينا أن نقوم بتحليل الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية . إننا نجد أولاً الجانب المعرفى . فلا بد من تدخل الإدراك أو التذكر فى الموقف . فأنت فى حال اليقظة تستخدم إدراكك للمقومات الموجودة بالموقف لكى يقع اختيارك على واحد منها . أما وأنت فى حال النوم وأنخرطك فى حلم ما ، فانك لا تستخدم العناصر الإدراكية فى الغالب بل تستخدم المقومات المتذكرة . على أنك فى بعض الحالات وأنت نائم وتحلم تستخدم بعض ما يمكن أن يصل إلى سمعك من أصوات فتأخذ فى استخدامك كمخامات فيما تنخرط فيه من أحلام .

أما الجانب الثانى فى الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية فهو الجانب الوجدانى . فأنت توجه شحنات وجدانية إلى تلك المقومات المعرفية المتواجدة أمامك فى المكان أو المتواجدة بذاكرتك وقد أجزئتها المخ واستطعت استعادتها والطفوها على المستوى المعرفى فى اليقظة أو فى أثناء الحلم . وثمة نوعان من الشحنات الانفعالية : ثمة أولاً — الشحنات الانفعالية الإيجابية المتصفة بالحب والاقبال ، وثمة الشحنات الانفعالية السلبية المتسمة بالكراهية والادبار . وفى الموقف الواقعى وأنت فى حال اليقظة ، وكذا فى الموقف التذكرى وأنت فى حال النعاس والأنحراط فى الأحلام تكون هناك موضوعات محبوبة وموضوعات أخرى مكروهة . فبالنسبة للموضوعات المحبوبة فانك توجه إليها شحنات

وجدانية إيجابية ، وبالنسبة للموضوعات المكروهة فانك توجه اليها شحنات وجدانية سلبية .

أما الجانب الثالث فهو المقارنة والمفاضلة . فأنت تقوم بالموازنة فيما بين مائجه وماتكرهه ، ثم تقارن الأشياء المحببة إلى نفسك من حيث شدة حبك . فثمة موضوعات تحبها أكثر من حبك لموضوعات أخرى . بيد أن اختيارك لا يتم في ضوء مبدأ الحب والكراهية فحسب ، بل يدخل في الاعتبار ما يتعلق بالخير والشر ، والمناسب وغير المناسب ، والجميل والقبيح .

وهذا يدفع بنا في الواقع إلى تناول الجانب الرابع في الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية . فأنت هنا لاتعتمد على مايعتمل في أنحائك من عواطف فحسب ، بل تأخذ في المقارنة بين ماتستشعره من حب أو كراهية وبين ما سبق لك أكتسابه من قيم أخلاقية منذ نعومة أظفارك . فأنت في حبك تصدر عن الأشياء الأكثر جلبا للذة ، وفي كرهك تصدر عن مدى إحساسك بالألم . ولكنك لاتقتصر على مستوى اللذة والألم بل ترتفع إلى مستوى آخر هو مستوى الخير والمناسبة والجمال . ولقد تجد أن ما يلذ لك ويستوى قلبك ليس من الخير أو من المناسبة أو من الجمال في شيء ، بل لقد يكون منافيا للخير والمناسب والجميل . وعلى العكس من ذلك فانك قد تجد المؤلم والمكروه متمشيا ومنسجما مع الخير والمناسب والجميل . وهنا يتسع المجال أكثر فأكثر أمام الاختيارات ، أو بتعبير آخر يتسع المجال لاعمال الشك في أنحائك .

أما الجانب الخامس في الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية فهو جانب الإرادة . فأنت لاتقف موقف المتفرج على ما يدور بخلدك من مشاعر ، ولاتحبس نفسك في إطارى المعرفة والعاطفة ، بل إنك تتقدم خطوة إلى الأمام هي الخطوة أو المرحلة الثالثة ، وذلك بأن تعمل ارادتك في الموقف وتقع على اختيار معين من بين المتغيرات الموجودة بالموقف . على أن الإرادة تنشعب شعبتين : شعبة القرار وشعبة التنفيذ . فأنت تصدر قرارا بالاختيار ويكون هناك صورة للفعل في خلدك ثم تقبل فعلا على التنفيذ . ولقد يظن البعض أن الإرادة والفعل شيء واحد . ولكن الواقع أن الإرادة ذات

شعبتين : أحدهما داخلية يمكن أن نسميها نزوعاً ، والأخرى خارجية يمكن أن نسميها تصرفاً . والتصرف لا يقتصر على ما يتم فعله ونحن في حال اليقظة ، بل قد يتم التصرف بالخيال ونحن في الحلم . فالصراف الذي اختلس في الحلم أموال الدولة يكون قد مر في حلمه في مرحلتى النزوع والتصرف وان كان تصرفه قد تم في الخيال فحسب ولم يتلبس بالواقع المحسوس وبذا فانه يكون قد اختار وخرج من إطار الشك إلى اليقين بحرية أخلاقية تامة .

الشك وتوظيف الذكاء :

إذا نحن أقررنا بأن الذكاء معناه الوقوف على العلاقات التي توجد بالموقف والقدرة على خلق علاقات بين عناصر الموقف ، وهى العلاقات التي لم تكن موجودة من قبل ، فاننا نستطيع اذن القول بأن الشخص الأعلى ذكاء هو في نفس الوقت الشخص الأكثر شكاً . ولقد سبق أن وصفنا الشك بأنه إجابة الفكر في المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة بالموقف . فالشخص الذكى لا يكتفى بأن يحيل الفكر في العلاقات القائمة بالفعل في الموقف ، بل هو يضيف إلى هذا أيضاً عملية جديدة يضطلع بها هى خلق العلاقات الجديدة ثم إجابة الفكر فيها ليختار من بينها . فهو شخص خالق للعلاقات ومنتق من بينها في نفس الوقت .

ولنأخذ مثالا بالعالم أو المخترع أو المفكر . إنه ليس كما يعتقد البعض يقع على الحقيقة العلمية أو على الاختراع أو على الفكرة مباشرة ، بل هو في الواقع شخص يكتشف مجموعة هائلة من المتغيرات ، بل هو يضيف إلى ما يكتشفه متغيرات جديدة من خلقه وابتكاره . ولكنه يطرح جميع تلك المتغيرات المتوافرة عن طريق جهود الآخرين وعن طريق ابتكاره وخلقها أمام ناظره لكي يقوم بعملية الغزلة التي تنتهى به في نهاية المطاف إلى الاختيار والانتقاء .

ومعنى هذا أنه ليس من سبيل إلى التفكير إلا إذا توافرت بالموقف صفة الشك . وأكثر من هذا فاننا نستطيع أن نعرف التفكير ذاته بأنه إجابة الذهن

في مجموعة من المتغيرات للاختيار من بينها أو لإقامة علاقات فيما بينها . وليس من الضروري أن يكون الانتقاء انتقاء واحدا ، بل قد يكون الانتقاء لأكثر من شيء واحد أو لأكثر من علاقة واحدة .

على أن من الواجب علينا أن نتناول سيكلوجية المفكر في أثناء عملية الانتقاء هذه من بين المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة له بالموقف . إنه ليس مجرد شخص يقع خارج نطاق تلك المتغيرات أو الاختيارات ويتطلع إليها من علياء سمائه ، وكأنها بعيدة عن مجاله الوجداني . الواقع أن المفكر يفكر ويحس بوجدانه في نفس الوقت مهما كانت الموضوعات التي يتناولها بفكره موضوعية وجافة بطبيعتها ومنسلخة - كما يبدو - عن نطاق الموضوعات الوجدانية . فنحن نزعم أن عاطفة المفكر وأحاسيسه الوجدانية تعمل في الموقف الشكي حتى ولو كان يفكر في موضوعات في الهندسة الفراغية أو في بعض المعادلات الكيميائية . فالتفكير الموضوعي القح ينسم بالموضوعية من حيث المنحى الذي ينحو إليه وليس من حيث المنبت الذي ينبت منه . وبتعبير آخر فإن المفكر في الكيمياء مثلاً يوجه فكره إلى موضوع جامد هو الكيمياء ولكنه من حيث هو مفكر فإنه يفكر بعقله ووجدانه معا . فالكاثن الحلي المفكر وإن اصطبغ فكره بالموضوعية فإن العمليات الفكرية ذاتها لا يمكن أن تكون متجردة عن الذاتية والوجدانية . فالمفكر أيا كان هو إنسان قبل أي شيء آخر . انه ليس كالحاسب الإلكتروني وليس كالإنسان الآلي ، بل هو مركب عقلي وجداني . فطبيعة الإنسان تحمله على أن يفكر بكل جهازه الذهني . وجهازه الذهني يعمل كوحدة متكاملة وليس كأجزاء منفصلة . فالأمر هنا كالتربة في تفاعلها مع البنود وانباتها للنباتات المتباينة . فثل تلك التفاعلات واحدة من حيث جوهرها ، ولكنها في النهاية تخرج أنواعاً متباينة من النباتات والثمار .

ونستطيع في الواقع أن نميز بين نوعين أساسيين من التفكير : أحدهما يبدأ من الذات ويصب في الذات كالتفكير الشعري وجميع أنواع التفكير الوجداني . فالفن والأدب والتأمل الديني تنسم جميعاً بالانطلاق من الذات أو

من المجال العقلى الوجدانى إلى المجال الوجدانى أيضاً . أما النوع الثانى فإن المرء يبدأ فيه من المجال العقلى الوجدانى وينتهى إلى المجال الموضوعى ، أعنى المجال الخارج عن مجال الذات .

وهذا ينتهى بنا إلى تناول ما نستطيع أن نسميه بالمعاناة الشكية . فالمفكر من النوعين السابقين يعانى وجدانياً ، ولا يتخذ موقف المتفرج من المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة بالموقف . ونقصد بالمعاناة الاحتكاك والعراك ذهنياً بالجهاز العقل وجدانى مع عناصر الموقف . ولكأن كل متغير من تلك المتغيرات تلح على المفكر مطالبة بتأييده والاستحواذ على ذهنه . ولكأن ذلك التكالب من جانب العناصر المتغيرة على ذهن المفكر يشعل أوار معركة تتخذ لها ساحة للعراك هى ذهنه ، أعنى جهازه العقل وجدانى . ومن الطبيعى أن تلك المعركة كلما احتدمت فإنها تتسبب فى خصائر قد لا يحتملها ذلك الجهاز فيصاب بالعطب . ومن هنا يمكن تفسير ما يصاب به بعض المفكرين من جنون من أمثال نيتشه ومى زيادة . ولقد يكون الجنون يصاب به المفكر باثناً يوصم به المفكر كما أنه قد يكون جنوناً خفيفاً يبدو فى الغرائب السلوكية التى تبدو فى تصرفاته :

والواقع أننا نستطيع أن نميز المفكرين من غيرهم من كتاب من زاويتين : الزاوية الأولى — جدة المجال الشكى أو الاختيارى ، أو بتعبير آخر جدة ميدان المعركة الذى يخطو إليه المفكر ويلج أبوابه . والزاوية الثانية مدى اعتماد المفكر على نفسه فى المعركة الفكرية . فلقد نجد فى ضوء هاتين الزاويتين صنوفاً عديدة من المفكرين ، أو صنوفاً عديدة من الكتاب المتسمين بالمفكر الصحيح النقى . فأولئك الذين يتناولون موضوعات سبق لغيرهم تمهيداً بحيث لا يكون أمامهم سوى بقية من معركة ، وكذا أولئك الذين يستعينون بآخرين من المفكرين يساعدونهم فى المعركة إنما يقلون مرتبة فكرية عن أولئك الذين يدخلون معركة جديدة تماماً ، وقد اعتمدوا على أنفسهم وحدها . فيها .

وإذا ما صح مانذهب إليه هنا فأننا نستطيع القول اذن إن الفلاسفة - وهم أولئك الذين يشقون لهم طريقاً جديدة لم يسبق لأحد غيرهم شقها - وهم في نفس الوقت أولئك الذين يحملون سلاح الفكر معتمدين على ذاتيتهم بغير استعانة أو حتى بغير تعاون من أحد في خوض المعركة الفكرية مع الآخرين - هم الحقيقيون بأن يوصفوا بالفكر الخالص النقي من شوائب الاتكالية الفكرية.

ولقد يجوز لنا القول بأن اللجوء إلى المجالات المطروقة ، وكذا الاعتماد على ماسبق للآخرين التوصل إليه من أفكار أو اتجاهات ، إنما يعد من قبيل وسائل الراحة وتقليل المعاناة الفكرية . فأنت إذا قت بتناول موضوع مثل هذا الموضوع الذى نعرض له هنا فى هذا الكتاب ، أعنى الشك والوسوسة ، وقت باغتراف فكرة من هنا وفكرة أخرى من هناك واقتبست قليلاً أو كثيراً مما سبق لغيرك كتابته فى هذا الموضوع ، فانك تكون بذلك قد ولجت موضوعاً مطروحاً من قبل ، بل وتكون قد استعنت بفكر غيرك بالإضافة إلى فكرك فى المعركة الفكرية الشكية فى تناولك لهذا الموضوع . أما إذا قت بحمل قلمك ودخلت المعركة وحذك غير مستعين بسوى الحصيلة الثقافية التى تأت لك عن كثير قراءة وغزير خبرة بحيث تقدم على الورق عصارة فكرية خالصة هى عصارتك الفكرية الشخصية ، فانك تكون اذن فى موقف المفكر الذى يكلف نفسه كثير عناء . ذلك أن المعركة تحتدم فى ذهنك بين المتغيرات الكثيرة والمقومات المعرفية العديدة التى تلح على ذهنك تريد كل واحدة منها أن تحظى باستمرار البقاء بل تريد كل منها أن تسجل نفسها فى سجل الوجود بأن تتلبس باللفظ ينقش على الورق . وهل تقل حدة معركة الوجود بين الأفكار عن حدة تلك المعركة التى تنشب بين أنواع الكائنات الحية على هذه البسيطة ؟ إننا نزعم أن معارك الأفكار بذهن المفكر أشد ضراوة من معارك البقاء بين أنواع الكائنات الحية .

ولعل العناء الذهني والاجهاد النفسى الذى يعانى منه أصحاب الأعمال الذهنية المبتكرة سواء فى الشعر أم النثر أم الموسيقى أم الفلسفة أم التصوير والنحت لما يفسر لنا قلة الإنتاج المبتكر ابتكاراً تاماً ، ولجوء المشتغلين بالأعمال

الثقافية إلى المجالات المطروقة من جهة ، واستنادهم على عكايز تسندهم تتمثل في المراجع وماسبق لغيرهم اكتشافه أو تسجيله على الورق أو الانتحاء إليه من طرائق في التنفيذ أو الأداء من جهة أخرى . ولعل هذا يفسر لنا أيضاً ظاهرة المدارس الفكرية والفنية . فثمة ما يشبه التجمعات أو التلث حيث يلتف المثقفون حول زعيم يميلون إلى الانضواء تحت لوائه والسير في ركابه انتجاعاً للراحة الذهنية والتخلص من نهكة الشك والاختيار . فلنأخذ لسان حالهم يقول « لقد رضينا بما اخترته لنا فأرحتنا من الكثير من العناء في الاختيار »

ونستطيع القول إن الشك متواكب مع الذكاء ، وعلى العكس فإن التقبل والخنوع الفكري مواكب للانحطاط الذهني . ولاننسى أيضاً أن نبرز صفات وجدانية أخلاقية في الموقف الشككي على رأسها الشجاعة وامتناع الخوف من النقد والتجريح . فالمفكر الحقيقي ذكي وشاك وشجاع في آن واحد .

الشك وقوة الشخصية :

قلنا إن الشك يتواكب مع ارتفاع الذكاء . فكلما كان الذكاء مرتفعاً كان مجال الاختيارات التي يشاهدها المرء في الموقف أكثر رحابة وأشد خصوصية . وقد قلنا أيضاً إن الشخص الذكي لا يكتفي بما يتوافر في الموقف من اختيارات ، بل هو يعمد فوق ذلك إلى خلق تلك الاختيارات وذلك بتخصيب الاختيارات الموجودة بالفعل وابتكار اختيارات جديدة تماماً لم تكن موجودة من قبل . وهنا نستطيع أن نقرر أن عقل الإنسان ليس مجرد متقبل ومصدر لما سبق له تقبله ، بل هو يدأب على إقامة علاقات جديدة لم تكن موجودة من قبل من العناصر التي يتلقاها من الخارج . ولعلنا نقول بتعبير آخر إن ما يستطيع العقل تصديره إلى الخارج يمكن أن يكون أكثر بكثير من مجموع ما تلقاه . وهذا ربما يكون التفسير الوحيد الوجهه لنمو الثقافة الإنسانية سواء في الفكر أو الفن أو في مجال الاختراع .

والواقع أن هناك فرقا جوهريا بين شخص يجمع في ذاكرته الكثير من المعلومات بحيث يكون على استعداد لسردها كما حفظها من الكتب أو عن طريق السماع ، وبين شخص آخر يقوم بتصنيع ما يتلقاه من مقومات معرفية وخبرية بحيث يقدمها في حياته وفي المواقف المتباينة في أشكال أخرى كثيرة مصطبغة بصبغته الشخصية . ولعلنا لانتخطيء إذا نعتنا الشخص الأول بأنه أبعد ما يكون عن الثقافة . لقد يزعم مثل ذلك الشخص لنفسه بأنه متعلم ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم لنفسه أو لغيره بأنه شخصية مثقفة . فنحن نشترط في الشخصية المثقفة أن تكون هاضمة لما تلقته وتتلقاه من خبرات معرفية أو مهارية أو اجتماعية أو وجدانية بحيث تكون قادرة على السيطرة على تلك المقومات الخبرية سيطرة كاملة ، ولاتكون تلك المقومات الخبرية هي المسيطرة عليها .

فنحن نميز إذن بين شخص تقبلي خاضع لضغوط الخبرات عليه ، وبين شخص آخر لا ينصاع لتلك الضغوط الثقافية . وتعبير آخر نقول إن الشخص الأول شخص إيماني ، بينما الشخص الثاني شخص شكى . والشك — كما دأبنا على القول — هو الوقوف في موقف الاختيار بازاء اختيارات أو متغيرات عديدة أو قليلة بالموقف . والواقع أن الموقف الشكوى يجب ألا يغرينا بالقول بأن الشك أو الاختيار يكون بالضرورة عن طريق الوعي والشعور الكامل بمقومات الموقف التي يختار الشاك من بينها ، بل إننا نقرر أن الموقف الاختياري أو الشكوى قد يكون والمرء في حالة لاشعورية . فلكم استعرض المفكرين والعباقرة المتغيرات أو الاختيارات فيما يتعلق بموضوع أو مشكلة وهم خالدون إلى النوم العميق . ولكم توصل مفكر أو فيلسوف أو مخترع إلى حل لمشكلة أو إقامة علاقة جديدة لم تكن موجودة وهم في تلك الحال من النعاس العميق . ذلك أن الإنسان — كما سبق أن قلنا — بمثابة تيار دافق أو نهج جار بحيث يكون الماء على سطحه ممثلا لحالة اليقظة ، بينما الماء في باطن النهر ممثلا لحالة النوم . والماء هو هو وسريانه نحو المصب هو أيضاً وبنفس السرعة . فأنت في يقظتك شأنك في نعاسك . وما سبق لك أخترانه في ذاكرتك

يقوم عقلك باستعراضه على مائدة فكرك وقد أنخرطت في النعاس العميق ،
وأكثر من هذا فان الكثير مما تصل إليه ومما أختتم في ذهنك يكون قد تبلور
واختتم وأنت في حال النعاس .

ولقد نزع أكثر من هذا أن الإنسان في حال النعاس يكون أكثر حرية
وأكثر أنفكاكا من قيود الواقع ومن ضغوط المجتمع من حوله ومن عوامل
التشتيت التي تعزف به عن التعمق في التفكير . ففي وقت النوم يكون المرء في
مواجهة ذاته ويكون قد خلا لفكره هو . ولكن مع هذا فثمة تحفظ بازاء
هذا الرأي يجب أن نبديه ، وهو أن ضغوط الواقع الاجتماعي كثيرا ما تلاحقنا
في نعاسنا بحيث لانكون متحررين التحرر الواجب أو المطموح إليه ، بل
يكون تحررا شكليا فحسب . ولكن إذا ما أستطاع الشخص أن يترك شكائهم
الواقع وقد حرر نفسه من أصفادها تمام التحرر ، فانه يستطيع أن يكون إذن
في مواجهة نفسه إذا ما أنخرط في النعاس واستسلم للأحلام .

ونستطيع أن نقرر أنه كلما كان الشخص أكثر تحررا من ضغوط الواقع
بما في ذلك الضغوط الثقافية ذاتها ، كان بالتالى أكثر قدرة على اعمال ذكائه
في الموقف والسيطرة على متغيراته ، أو بتعبير آخر فانه يكون أكثر قدرة على
الشك . ولعلنا نقول إن المعادلة الصعبة التي تجابه المفكرين والفلاسفة والمختبرين
هي التخصيل الخبرى من جهة ، وعدم الخضوع لتلك المقومات الخبرية
المكتسبة من جهة أخرى . ولقد لاحظ كثير من المتابعين للمفكرين ودراسة
نموهم الفلسفى أن ثمة فئة منهم كانوا مضغوطين بما اكتسبوه من بطون الكتب
وبكثرة ما حفظوه واطلعوا عليه بحيث لم يكادوا يستبينون أنفسهم استبانة
حقيقية . ولقد اعترف أحد كبار نقاد الأدب المصريين على شاشة التلفزيون
منذ فترة وجيزة بأنه لم يقدم سوى ديوان شعرى واحد ، وكان ذلك في
في مطلع شبابه ولكنه بعد أن عكف على دراسة ماسبق لغيره من نقاد عرب
وأجانب ، وبعد أن أنغمس حتى أذنيه في كتب النقد ، فانه لم يكتب بيتا
واحدا . ومعنى هذا أن ضغوط الخبرات المعرفية قد حالت بينه وبين الابتكار
أو قد حالت بينه وبين الشك أو التفكير الاختيارى . ومن جهة أخرى فاننا

نجد أن واحداً مثل ديكارت لم يكن مهتماً بأن يشحن عقله بما سبق لغيره أن
دونه ، بقدر ما كان اهتمامه بأن يسيطر على ما يقوم بقراءته أو على ما يصل
إلى ذهنه من معرفة . ولقد قال توفيق الحكيم في جلسة مع المؤلف إنه لا يهتم
بأن ينتهى من قراءة أى كتاب بسرعة كما يفعل الكثيرون ، بل هو قد يكتفى
بقراءة بضعة أسطر ثم يسرح الطرف فيما قرأ وقد يقوم بكتابة تعليقات كثيرة
في هامش الكتاب ، أو قد تلهمه قراءة تلك الأسطر القليلة بفكرة جديدة
تماماً ، فيسحب الورق ويبدأ في الكتابة .

وإذا جاز لنا أن نقول إن الشخصية القوية هي الشخصية التي تستطيع أن
تخضع الواقع لها لا العكس فاننا نستطيع إذن أن نقرر أن المفكر الذي يسيطر
على المقومات الخيرية التي يحصلها لا أن يسمح لتلك المقومات الخيرية بالسيطرة
عليه هو المفكر ذو الشخصية القوية . بيد أننا لانقص قوة الشخصية على
الكلام يدبج أو على الفكر يعبر عنه أو على الأحساس يصاغ في صوت أو
صيغة ، بل نتوسع في القول فنقرر أن قوة الشخصية تبدى في جميع مجالات
الحياة بما في ذلك التصرفات اليومية والمواقف المتباينة . فالشخص المتمسك
بقوة الشخصية هو ذلك الشخص الذي يكون متحرراً من ضغوط الناس من
حوله فيما يختاره. ولقد نقول إن الشخصية القوية هي تلك الشخصية التي تخلق
لنفسها مجالات تختار لنفسها من بينها. ذلك أن الإنسان في ظل المجتمع الحضارى
المنظم لابد أن يخضع لكثير جداً من النظم والعادات والتقاليد . ولقد نعت
الشخص الذي يخرج على جميع ما تواضع عليه المجتمع بأنه شخص مجنون أو
أثيم . ولكن والحال هذه فإن الشخص المتمتع بالشخصية القوية يعمد إلى خلق
مجالات نشاطية يسيطر هو عليها لا أن تسيطر هي عليه . وهكذا نجد أن
أصحاب الشخصيات القوية يخلقون لأنفسهم نظماً وتقاليد خاصة بهم حتى في
مجالات حياتهم العملية . فهم يستعرضون اختيارات كثيرة ويختارون من
بينها . وأكثر من هذا فانهم يدعون المتغيرات الموجودة في الحياة باختيارات
أو متغيرات جديدة من خلقهم وابتكارهم . فالموظف قوى الشخصية لا يخضع
نفسه للروتين ، بل هو يسيطر على الروتين ويضيف إليه تقاليد جديدة بل إنه

يعتمد إلى تحليل عناصر الروتين الموجود ثم يأخذ في الاختيار من بينها .
وبتعبير آخر أنه لا يكون خاضعاً للروتين ، بل هو الذى يسيطر على الروتين
ويعمل على تطويره وتخصيصه وتكييفه لمتطلبات الواقع ولما طرأ على المجتمع
من تغيرات متباينة .

على أننا نستطيع القول بأن من الممكن أن نجد شخصاً قوى الشخصية في
جانب وضعيف الشخصية في جانب آخر من جوانب الحياة المتباينة . لقد
تجدد فيلسوفاً أو مخترعاً متمتعاً بقدرة كبيرة على الشك في مجال الفلسفة أو
الاختراع ، ولكنك لا تجدده كذلك في علاقاته الجنسية . إنه يجد نفسه سريع
الخضوع للمرأة الجميلة وكأنها قد سلبت قدرته على الاختيار . فهو لا يمر
بالمرحلة الشككية أو الاختيارية في حبه لى ينتقى أفضل امرأة ممكنة ، بل هو
ينساق سوقاً وراء امرأة معينة تسيطر عليه كما حدث مع جان جاك روسو
في قصة حياته المعروفة . وبالمثل فانك قد تجد أحد الموظفين الناجحين جداً في
تطوير وتطوير وتخصيب الروتين ، ولكنه يكون في نفس الوقت غير
متحرر فكرياً وقد ضاق فكره فلا يستطيع أن يختار من بين متغيرات أو
اختيارات متباينة ، بل يكون قد انغلق في إطار فكري ضيق وسجن عقله فيه .

الخير والشر :

لقد سبق أن قررنا أن الخير الذى يوافق المرء عن غير اختيار ليس من
الخير في شيء ، وكذا فان الشر الذى يصدر عن المرء عن غير اختيار ليس
من الشر في شيء . بيد أن هذا الزعم بحاجة إلى إيضاح وتفصيل حتى نكون
على بينة من أمرنا . فنحن ننظر إلى الخير والشر من زاويتين أساسيتين لا من
زاوية واحدة كما يفعل الكثيرون . والزاوية الواحدة التى ينظر منها كثير
من الذين تعرضوا للخير والشر هى زاوية نتائج الفعل وصورته . فالخير والشر
لديهم ينحصران في البادى من السلوك ، سواء من حيث النتائج التى تترتب
على الفعل أم من حيث الصيغة التى يتلبس بها ذلك الفعل . ولعلنا نصف
أولئك الأخلاقيين بالصورية ، أعنى أنحصار النظرة إلى الفعل وما يتخذ من

صور وطرائق ووسائل وما يتعلق به من أشياء أو أحياء . ونحن لانذكر هذه الزاوية بل نعترف بها ، ولكننا نضيف إليها زاوية أخرى هامة هي زاوية الشخصية العارفة والمنعطفة والمريدة ذاتها . فإذا نظرنا إلى الخير والشر من زاوية الظاهر وزاوية الباطن ، فإننا نستطيع بذلك أن نكون قد نظرنا إلى الخيرية والشرية بنظرة تكاملية هي حصيلة الزاويتين الخارجية والداخلية جميعاً :

وبينما نجد أن الزاوية الخارجية تتحدد في جانبين أساسيين هما النتائج المترتبة على الفعل وصورية الفعل وصيغته وطريقة أدائه ، فإننا نجد أن الزاوية الثانية الداخلية تتضمن جوانب متباينة يحسن بنا أن نتيبن ملاحظاتها ومقوماتها كما استبنا المقومين الأساسيين اللذين تتضمنهما الزاوية الأولى الخارجية .

أما المقوم الأول في الزاوية الداخلية فهو المقوم المعرفي : فنحن نعتقد أن هذا الجانب المعرفي لا ينحصر في الإدراك أو فيما يتناوله المرء بعقله وهو في حال اليقظة فحسب ، بل إنه يتضمن جميع المناشط الذهنية التي تدور بخلد المرء سواء كان في حال اليقظة أم كان في حال النوم . وكذا فإننا لانفصل بين الإدراك أو التخيل أو التذكر أو التصور موضوعياً ، وبين الاضطلاع بتلك المناشط الذهنية وهي في ارتباط وثيق بالحياة الوجدانية للمرء . فنحن — كما ألمعنا من قبل — لانفصل العقل عن الوجدان إلا بطريقة منهجية بقصد التركيز على نوعية معينة من المناشط الذهنية . ففصل العقل عن الوجدان إنما هو كفصل وجه من وجهي العملة الواحدة عن الوجه الآخر . فأنت تستطيع أن تتأمل أحد وجهي العملة ولكنك لاتستطيع أن تنزع أحد الوجهين عن الوجه الآخر . فثمة ارتباط لإذن بين العقل والوجدان مع استمرار التمايز فيما بينهما . فنحن لانصل إلى حد القول بذويان العقل في الوجدان ، أو ذويان الوجدان في العقل ، وإنما نريد فقط أن نقول بمواكبة المقومين بعضهما مع بعض واستمرار عملهما في وقت واحد .

وأكثر من هذا فإننا نزعم أن مثل تلك المواكبة بين العقل والوجدان قد تكون مواكبة توازيرية حيث يشد العقل أزر الوجدان ويشد الوجدان أزر

العقل ، كما أنها قد تكون مواكبة اصطراعية حيث يقاوم العقل الوجدان. ويقاوم الوجدان العقل . ولكن هناك على أى حال مقوماً ثالثاً يتخذ لنفسه وظيفة القاضى فى الشخصية هو الارادة. والارادة هي التى ترجح كفة العقل أو كفة الوجدان فى حالة المواكبة الاصطراعية ، كما أنها توازر العقل والوجدان جميعا فى حالة المواكبة التأزيرية .

بيد اننا نعتقد أن الارادة عند الشخص لا تكون بالضرورة ارادة طيبة خيرة ، بل انها قد تكون إرادة مجرمة أو إرادة مريضة . ولو أن الارادة كانت خيرة باستمرار لما كان هناك أناس أشرار فى الماضى والحاضر والمستقبل. وعلى وجه البسيطة كلها . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقرر أن هناك إرادة تنحو الى الخير وارادة أخرى تنحو الى الشر . ولا شك أن الارادة الأولى ترجح كفة العقل اذا ما انتحى الى الخير ، وتقاومه اذا انتحى الى الشر ، أما الارادة الثانية الشريرة فانها توازر العقل اذا انتحى الى الشر وتقاومه اذا ما انتحى الى الخير . وكذا يكون حال الارادة الخيرة والارادة الشريرة. بازاء الوجدان الخير والوجدان الشرير .

والواقع أن بعض الفلاسفة قد نزهوا العقل عن الخطأ وبالتالى عن الشر ، وقد زعموا أن الوجدان وحده أو غيره من مقومات الشخصية هي المسئولة عن الشر يتردى فيه المرء . فالعقل فى نظرهم لا يخطئ على الإطلاق . وثمة من يعتقدون أن العقل يفكر فحسب وليس له صلة بما هو خير وما هو شر . فهو يرتبط بالعلاقات المعرفية بغير أن تكون تلك العلاقات ذات مدلول أخلاقى . ونحن فى الواقع لا نذهب مذهب الفئة الأولى التى تنزه العقل عن الخطأ — كما فعل سقراط مثلاً — كما أننا لا نجعل العقل ذا نشاط ذهنى حيادى لا يحكم عليه بخير أو بشر ، وانما نحن نعتقد أن العقل مرتبط بالوجدان كما قلنا بحيث أنه قد يدعم ويبرر الشر الذى يذهب اليه وجدان المرء الشرير ، ومن جهة أخرى فان العقل قد يكون نقطة الانطلاق نحو الشر ويتبعه الوجدان بعد ذلك .

ومعنى هذا فى الواقع أن العقل والوجدان يؤثران بعضهما فى بعض سواء بالتأثير الإيجابى أم بالتأثير السلبى . ولعلنا نسأل : مادام الأمر كذلك فما دور وتأثير الإرادة ؟ ان الإرادة فى رأينا تدعم الخير اذا كانت إرادة خيرة وتدعم الشر اذا كانت إرادة شريرة . فالعقل والوجدان يمهدان الأرض ثم تقوم الإرادة بالبناء فى حالات الخير ، وهما يحشوان البندقية بالرصاص وتقوم الإرادة بالضغط على الزناد فى حالات الشر .

وهكذا نجد هذا الثالوث بالشخصية : العقل والوجدان والإرادة ولكل منها دور يلعبه فى الاختيار أو الشك . فنحن نختار بالعقل ، ونحن أيضا نختار بالوجدان ، ونحن أخيرا نختار بالإرادة . ولكن كيف يتأتى للوجدان والإرادة أن يختارا وهما ليسا من العقل فى شيء ؟ الواقع أن الاختيار قد يكون اختيارا عقليا كأن اختيار الصواب وأترك الخطأ ، وقد يكون الاختيار اختيارا وجدانيا كأن أختار بوجداني غريزيا الملذذ وأتجنب المؤلم ، أو أن أختار ما أحبه وأتجنب ما أكرهه . وأخيرا فان هناك اختيارا إراديا فأنفذ عملا يتسم بالخير كأن أقدم مساعدة الى محتاج ، أو أن اضطلع بعمل آثم كأن أمد يدى الى مال ليس لى حق فيه . ولعلنا نذكر بالتكامل يتحقق بين مقومات الشخصية حيث يتم التآزر بين العقل والوجدان والإرادة ، ولكن مع تمايز كل منها فى نفس الوقت . ولعلنا نذكر أيضا بالمعنى اللاشعورى (العام) الذى ينصب على الكائنات الحية كالنباتات والاحياء الدنيا حيث تختار من بين أشياء متعددة فى الموقف . وشأن الوجدان والإرادة هو على نحو ما — مع الفارق — هو نفسه شأن تلك الكائنات الحية التى يتسنى لها الاختيار بغير أن توهب عقلا تميز به تمييزا منطقيا رياضيا :

ولقد يصح لنا أن نقول إن الطفل الذى يضربه أبوه أو أمه ليردعانه عن اللعب بالنار يمكن أن يحس بالكراهية قبالتها ، ولكنه ما يفتأ يدرك أنها كانا يضربانه صوتا له من شر وشيك ، فيقنع نفسه بحبها وأن يحل الحب لهما محل الكراهية . فالوجدان هنا فى هذا المثال قد اختار الكراهية للوالدين ولم يختار الحب ، ولكن العقل اختار الحب وضغط على الوجدان لكي يحول مجراه

من الكراهية إلى الحب . ولقد ينزع ذلك الطفل إلى إفساد أوراق أبيه الهامة أنتقاماً منه لأنه ضربه ، ولكن عقله ينهبه إلى ما يمكن أن يلقاه من ذلك الأب القوى من ضرب مبرح ، فيمتنع عن إفساد تلك الأوراق وقد هم فعلاً بإفسادها بأن يمزقها أو يحرقها . فالارادة في هذه الحال قد اختارت وهمت بالفعل ، ولكن العقل سارع إليها وأجبرها على التوقف عن الاستمرار في الفعل وذلك بفضل النظرة المستقبلية التي وفرها لذلك الطفل .

وعلى نقيض هذا الموقف نجد الشاب المتدين والذي اتجه وجدانه وجهة روحية وتمرس ارادته بالخير ولكن عقله تلوث بأفكار مضادة لتعاليم الدين . لقد يقتنع ذلك الشاب بالمروق جنسياً والضرب في طرق الغواية وإقامة علاقات غرامية ببعض المهتكات . فهو — وقد فسد عقله — ولكن وجدانه و ارادته لم يصل إليها الفساد بعد ، فانه يجد مقاومة منها . فهو برغم اقتناعه بالشر وكأنه هو الحق أو ما يجب أن يضرب في إثره ، فان مانشاً عليه من تربية دينية رقت وجدانه وقد تمرس بمجموعة من العادات الاجتماعية التي تخلو من مروق جنسى ، فانه يجد نفسه غير متجه بوجدانه ولا بارادته إلى الشر الذي تؤكد طريقة تفكيره الفاسدة . وأغلب الظن أن مثل ذلك الشاب لا يستطيع أقراف الخطيئة الجنسية لأن وجدانه الدينى وسيرته الاجتماعية ومائليس به من عادات سلوكية عملية يحول بينه وبين إخراج ما يفكر فيه بعقله الشرير من شر إلى حيز الواقع ، بل يظل ذلك الشر حبيس عقله الشرير فحسب .

المناسب وغير المناسب :

هناك ثلاثة أنواع رئيسية من القيم السلوكية : النوع الأول — هو القيم الدينية ، والنوع الثانى هو القيم الاجتماعية ، والنوع الثالث — هو القيم الجالية ، والنوع الأول من التقييم يتعلق بالخير والشر . والنوع الثانى يتعلق بالمناسب وغير المناسب ، والنوع الثالث يتعلق بالجميل والقبيح . فالتبول تحت أحد الكبارى المقامة بأحد الميادين — وهو من مظاهر السلوك الشائعة بالأسف

بمدننا الشرقية - لا يعتبر شرا أو خطيئة من الوجهة الدينية ، ولكنه يعتبر خطيئة اجتماعية ، أو يعد من السلوك غير اللائق أو غير المناسب . وكذا الحال بالنسبة لبعض الألفاظ أو العبارات التي كانت مقبولة ومناسبة في مجتمعات قديمة أو حتى في بعض المجتمعات العربية الحالية ولكنها لم تعد كذلك في الوقت الحاضر بالمجتمعات العربية الراقية . مثال ذلك أن ينادى الرجل المرأة بقوله لها « يامرء » وكلمة « مرء » اختصار لكلمة امرأة . فالمرأة المصرية المتحضرة تقيم الدنيا وتعقدها إذا ما ناداها أحد الناس بهذه الكلمة . فمثل ذلك الاستعمال - وإن كان غير منحرف عن اللغة ، بل وغير مناف للخير الذي يقول به الدين فإنه غير مقبول وغير مناسب لأن يستخدم في الوقت الحاضر بالنسبة لقطاع كبير جدا من النساء العربيات المثقفات والمتحضرات . وكذا فإن هناك تقيما جاليا ليس مرتبطا بالخير أو بالشر من قريب أو من بعيد . فإعارة الذوق السليم المتسم بالجمال تتعلق بقطاع تقيمي غير قطاع الخير والشر . فالتذوق الموسيقي والتذوق الحركي والتذوق اللوني تنصب بصفة رئيسية على المجال الثالث أو على النوع الثالث من التقييم أعنى المجال أو النوع الجمالي .

وإذا جاز لنا أن نوحّد بين المناسب والجميل من جهة ، وبين غير المناسب والقبيح من جهة أخرى وجعلنا من هذا الدمج أو من هذا التكامل نوعا تقيميما كبيرا واحدا مبينا أحيانا للنوع التقيمي الأول المتعلق بالخير والشر ، فأننا نجد أن مبدأ الشك أو الاختيار واضح كل الوضوح فيه ، وأننا لانستطيع تناول هذا القطاع التقيمي الا بتناول المبدأ الشكّي الاختياري ووضع نصب الأعين .

ولعل أفضل شيء نعمله لكي نوضح ما نقصد إليه هنا هو أن نقوم باستعراض بعض الأمثلة أو المواقف العملية التي تصادفنا في الحياة اليومية والتي يتبدى فيها الموقف الشكّي أو الاختياري بوضوح وجلاء .

المثال الأول يتعلق بقضاء وقت الفراغ . إنك قررت أن تخرج في يوم راحتك للترويح عن نفسك . أخذت في تصفح الإعلانات الخاصة بالأفلام

السينائية فاستهواك فيلمان في دارى سينما قريبتين بعضهما من بعض . لقد أخذت تقارن بينهما من حيث أبطال كل فيلم ، ثم أخذت تقارن الموضوعين ، ثم أخذت أخيراً تقارن بين دارى العرض ذاتها . وبعد ذلك وقع اختيارك على أحد الفيلمين واتجهت إلى السينما التي تعرض الفيلم الذى راقك أكثر وقضيت السهرة مستمتعا بما شاهدته وتابعته من أحداث . انك قضيت وقتا وأنت في حالة من الشك والاختيار . ربما قضيت بعض الوقت تستعرض خلاله ما يمكن أن تقضى فيه أمسياتك ، وربما كان حضور أحد الأفلام السينائية واحدا من بين متغيرات عديدة أخذت تقارن فيما بينها حتى انتهى اختيارك إلى حضور أحد الأفلام السينائية . ربما كان من بين الاختيارات حضور إحدى المسرحيات أو زيارة أحد الأصدقاء أو الجلوس بأحد الأندية أو حتى مجرد التجول بالشوارع الرئيسية بالمدينة لمشاهدة واجهات المحلات التجارية وتصفح المعروضات بفتريناتها . ولكنك بعد فترة من المقارنة حذفت من اختياراتك كل تلك الأشياء ووقعت على اختيار واحد هو حضور أحد الأفلام السينائية . ولكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد . إنك بعد هذا القرار تكون قد أخذت في الانخراط في موقف شكى أو اختيارى جديد هو استعراض الأفلام المعروضة خلال الأسبوع للاختيار من بينها . وبعد الاستمرار برهة في حالة شبكية جديدة ، فانك تنتهى إلى قرار جديد هو حضور ذلك الفيلم الذى راقك موضوعه ، فحزمت أمرك وتوجهت إلى دار السينما التي تعرضه وحضرت عرضه .

أما المثال الثانى فانه خاص بالسياسة التعليمية التي يمكن أن تتبعها الدولة . فهل تهتم تلك السياسة التعليمية بالمهارات اليدوية التي تؤدي إلى ارتفاع مستوى الإنتاج ، أم تهتم بالتثقيف والمعرفة وتهذيب السلوك واشاعة روح الجمال والتلوق لدى التلاميذ والطلاب . وبتعبير آخر هل ترجع تلك السياسة كفة المواد النافعة نفعاً مباشراً ، أم تركز على الاهتمام للمواد والخبرات غير المفيدة فائدة عملية إنتاجية ولكنها تهتم بالإنسان من حيث هو إنسان ؟ لقد

تكون الاجابة المتوقعة هي وجوب الاهتمام بالناحيتين بحيث لا تهمل هذه السياسة الفائدة العملية وتنمية الشخصية في نفس الوقت . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة . فثمة العديد من الجوانب التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار . ثمة مسألة حاجة المجتمع الراهن وشدة تلك الحاجة ، وهناك الإمكانيات الاقتصادية ، بل هناك المعار واعداد المعلمين ومجالات العمل الحالية والمستقبلية . وهناك التراث وضغوطه وما ورثناه من عادات وتقاليد وطريقة في التفكير وفي تناول الأشياء إلى غير ذلك من اعتبارات هامة .

ومعنى هذا في الواقع أن المسئولين عن سياسة التعليم يجدون أنفسهم أمام مجموعة من الاختيارات . أنهم لا يقررون بداءة ، ولا يضعون سياستهم بناء على أفكار ومعتقدات مسبقة ، والا فان ما يضعونه يكون مبتسرا غير ناضج وغير فعال ، بل هم يمرون في مرحلة شكية يعقدون خلالها المقارنات بين العديد من الاختيارات إلى أن يصلوا إلى ترجيح كفة من الكفتين السابقتين (المنفعة ونمو الشخصية) على الكفة الأخرى .

ومن الأمثلة التي يجدر بنا عرضها - وهو أيضاً من التربية - هو ذلك المثال الخاص بتربية الأطفال . فكل أب وكل أم لابد يسأل نفسه : هل أستخدم الضرب في تربية أطفالي ؟ وبتعبير آخر فان الوالدين يجدان أمامها اختيارين : الأول - ترك الحرية للطفل ، والثاني - قسر الطفل على سلوك معين وأخذه بالشدة واستخدام الضرب لإجباره على تقبل ما يقسر عليه . والواقع أن هذين الاختيارين يتضمنان في أنحائهما مجموعة كبيرة من الاختيارات . فاذا ما أنحاز الوالدان إلى الحرية ، فانها يجدان مجالات عديدة يستوجب كل مجال منها إثارة التساؤل عن نوع الحرية التي يسمح بها للطفل . أما إذا أنحاز الوالدان إلى جانب الاجبار والقسر فانها يجدان أمامها أيضاً العديد من الاختيارات . من ذلك مثلا : نوع الضغوط المستخدمة ، وإذا كان الضرب واحدا منها فتي يستخدم وكيف وبأى شدة ، وهل يضرب الطفل أمام الآخرين أم في حجرة منعزلة ؟ وهل نصالح الطفل بعد ضربه أم

تركه إلى أن يفيق لنفسه ، إلى غير ذلك من أسئلة واستفسارات أو قل من مواقف شكية ومجابهات واختيارات عديدة .

وعندما يتجه الرجل (أو المرأة) إلى أحد المحلات لشراء بعض الملابس فانه يجد نفسه بازاء مجموعة من الاختيارات . هناك مايتعلق بشمن القماش وما يتسنى دفعه من نقود ، وهناك نوع القماش المطلوب ولأى مجال يستخدم ، ثم هناك سن الشخص وما يليق به ، وهناك أقشة ذات الوان نسائية وأخرى ذات الوان رجالي إلى آخر تلك الاعتبارات التى تجابه المرء وتجعله يمر فى موقف شكى أو اختيارى . ومهما طال الوقوف أمام تلك الاختيارات ، فن الواجب على المرء أن يخلص إلى اختيار معين ، والا فاننا نعتبر أن الموقف الشكى ممتور . انه يكون حينئذ كالجنين فى بطن أمه لم يقيض له استمرار النمو فمات وولده ميتا . فكما أن من المفروض أن يتم للجنين النمو حتى يولد مكتمل النضج كوليده متكامل الجسم ، كذا فان الموقف الشكى يجب أن ينضج بحيث يتم للمرء الوقوع على الاختيار المناسب فيأخذ به ويخلص إليه .

وفى جميع الأمثلة السابقة نجد أن الموقف الشكى لايتعلق بالخير والشر ، بل يتعلق بالمناسب وغير المناسب . والواقع أنه كلما تعقدت الحضارة وتقدمت ، فان المرء يجد نفسه بازاء اختبارات أخصب وأغزر ويكون عليه بالتالى أن يبذل جهدا لكى يخرج من إطار الشك إلى إطار اليقين بعد أن يستعرض المتغيرات الكثيرة أو القليلة المتوافرة بالموقف ليصل فى النهاية إلى قراره الحاسم والبات .

الفصل السابع

الشك الفلسفى

معنى الشك الفلسفى :

جريا وراء تعريفنا للشك بوجه عام بأنه الوقوف وجها لوجه أمام مجموعة من المتغيرات أو من الاختيارات للوقوع على بعض منها دون الباقيات ، فأننا نستطيع أن نعرف الشك الفلسفى على نفس المنوال بأنه الوقوف أمام مجموعة من المتغيرات أو من الاختيارات الفلسفية للاختيار من بينها دون باقى تلك المتغيرات أو الاختيارات . وهذا يتطلب منا بادية ذى بدء أن نلقى ببعض الضوء على معنى الفلسفة حتى تتضح لنا الصورة الذهنية التى نعيشها عندما نذكر الشك الفلسفى .

ولعلنا نستعين فى تعريفنا للفلسفة بما ذكره برتراند رسل من أن الفلسفة تتناول موضوعات الدين بمنهج العلم . فالالهيات والنفس البشرية وغاية الوجود وغير ذلك من موضوعات يعرض لها الدين بالتسليم والايمان ، تتناولها الفلسفة بالمنهج النقدى الاستنباطى الذى يتذرع به العلم . وطبيعى أن تقف الفلسفة عاجزة عن استخدام التجريب كما يفعل العلم ، بل إنها لاتستعين أيضاً بالاحصاءات والمقارنات الجزئية بين الظواهر أو الاستنتاجات التى يخلص اليها المحرب .

على أن هناك زاوية أخرى يجب ألا يفوتنا النظر إلى موضوع الفلسفة منها . فالفلسفة لم تعد مجرد الجذع الذى أنشعبت عنه أغصان العلوم المتباينة ، بل إنها صارت تسبق العلم لا أن تكون مجرد كيان ثقافى سابق على ظهور العلوم . فبينما نجد أن الفلسفة قديما كانت تنهى عند حد يبدأ منه العلم الطبيعى

خطواته ، فانها صارت في التاريخ الحديث تبدأ من حيث ينتهي جهد العلم ويتوقف ويعجز عن الأمتداد إلى الأمام . ولتأخذ مثالين يوضحان مانعنيه من أن الفلسفة قد تكون في موقف ما سابقة على العلم الطبيعي ، وفي موقف آخر تكون سابقة على العلم أو متقدمة على الخطوات التي خطاها وانتهى اليها .

فانكساغوراس الفيلسوف اليوناني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد قال إن الشمس عبارة عن كتلة من المادة المشتعلة ، كما أن القمر لا يعدو أن يكون أرضا كأرضنا ، وكان الأغريق في ذلك الوقت يعتبرون الشمس والقمر ضمن الآلهة . فمثل هذا الكلام الذي قاله انكساغوراس وقتذاك كان من صميم الفلسفة ، وكان موضوع الشمس والقمر وباقي الكواكب يقع في إطار الدين ويخضع للتسليم الايماني الديني ، كما يقع في إطار الفلسفة ويخضع للنظرة النقدية الفلسفية على يدى هذا الفيلسوف . فالاختلاف في الحالتين لم يكن أختلافا حول الموضوع ، بل كان حول المنهج الذي يتناول به المرء ذلك الموضوع . فطريقة تناول الدين للموضوع هي الطريقة التسليمية الايمانية ، بينما تعتمد الطريقة الفلسفية على الشك والاختيار من بين متغيرات أو بدائل أو أختيارات يعمد الفيلسوف إلى الأختيار من بينها . بيد أن موضوع الشمس والقمر قد أنسلخا عن الفلسفة وصارا من صميم موضوع العلم وقد أستطاع الإنسان أن يتناولها بل وأن يخضعها للمنهج العلمى . وهل يمكن أن يظل التفكير في القمر في مجال الفلسفة وقد هبط الإنسان فوق سطحه وعاد إلى الأرض بأجزاء من تربته ؟

وإذا كان هذا هو حال الفلسفة عندما تستحيل إلى علم كما شاهدنا في المثال السابق ، فأننا نجد العكس يحدث في أحيان أخرى حيث تستحيل النتائج العلمية موضوعا . للفلسفة . فبعد أن خلص العلماء في مجالات متباينة إلى القول بالتطور .. في علم الحياة وعلم الفلك وعلم طبقات الأرض وعلم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) إلى غير ذلك من علوم ، فان ثمة من أخذ يتناول تلك النظريات المتخصصة في مجال علمى معين لكي يبنى على أساسها نظرية عامة للوجود

فتكون تلك النظرية العامة فلسفة وليست علما . وبتعبير آخر فان العالم يخلص من بحثه إلى قوانين أو نظريات ، فيأتى الفيلسوف ويمتد بتلك القوانين أو النظريات ويقيم وشائج فيما بينها ويخلص إلى فلسفة . وأكثر من هذا فان العالم نفسه فى أحد فروع العلم يمكن أن يمتد بأفقه فى المجهول المستقبلى المتعلق بعلمه ويقرر أشياء لاتعتمد على الواقع المباشر بل على مايرتئيه من تفسيرات شخصية فيكون فى هذه الحالة فيلسوفا لا عالما ، أو يكون فى جانب من بحثه عالما وفى جانب آخر منه فيلسوفا . فلقد يشاهد عالم الفلك مجموعة من الأطباق الطائرة فى أثناء تجواله بمنظاره فى الفضاء . لقد يذهب الى تفسير مشاهداته تلك بأن ثمة كواكب أخرى عامرة بالكائنات العاقلة التى تسبقنا فى حضارتها وعلموها وتكنولوجياها . إنه فى مثل هذا التفسير لا يعتبر عالما بل فيلسوفا ، وذلك لأن ما يقرره هنا لا يستند الى مشاهدات مباشرة ، بل الى استنتاجات شخصية . صحيح أنه اذا ما قام بتصوير الأطباق الطائرة ، فان ما قام بتصويره يمكن أن ينحرف فى إطار العلم ، ولكن الخروج عن حدود الواقع الى نطاق ذهنى آخر إنما يخرج أيضا بذلك العالم من حدود العلم الى حدود الفلسفة .

وثمة أيضا مجال آخر للفلسفة شائع فى العصور الحديثة . فأنت اذا تناولت موضوعا أو فكرة أو مفهوما وفسرت كل شيء به ، فانك تكون عندئذ فيلسوفا . لقد تناول مثلا فكرة الحب والكراهية أو فكرة القوة وتخرج علينا بعمل تكون قد جعلت مفهوم الحب والكراهية فيه محورا عاما لا الكائنات الحية وحدها بل للجوامد أيضا ، وليس للأشياء الموجودة على الأرض فحسب ، بل تمتد ببصرك الى جميع الكواكب ، بل انك قد تجمع العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى قبضتك وتخضعها لهذا المفهوم وذلك بتفسير التجاذب أيا كان والتنافر أيا كان بالحب والكراهية أو برد الحب الى التجاذب والكراهية الى التنافر ، نقول انك اذا فعلت ذلك بحيث تكون قد قدمت حلا متكاملا ولا تكون عاطفيا أو شاعرا أو قصاصا فيه ، أو بتعبير آخر لا تكون فنانا أو اديبا فيما تكتب .. نقول إنك اذا فعلت ذلك فانك تكون عندئذ فيلسوفا لا اديبا ولا عالما . ونفس الشيء اذا ما قمت .

بتأليف كتاب عن القوة وجعلت للقوة إرادة تشيع في انحاء الوجود القردى والجمعى ، وفى ارجاء الوجود البيولوجى والوجود الفزيائى . انك تكون بعملك هذا فيلسوفا لا ادبيا ولا عالما .

وأكثر من هذا فانك اذا اعتنقت فكرة لم يسبقك أحد اليها وأدركت حولها حياتك وعاملت الآخرين فى ضوءها واشتهرت بها ، فان الناس من حولك سيصفونك بأنك فيلسوف . فغاندى مثلا اعتنق فكرة امكان استغناء بلاده عن حضارة الغرب استغناء تاما ، وأنه بهذه الطريقة يستطيع ابقاء الهزيمة ببريطانيا العظمى لوقته . إنه كان فيلسوفا عمليا . ولقد ثبت بالفعل أن فلسفته السلبية هذه كانت أمضى من فلسفة الاغتيالات ومن فلسفة الحروب الطائفية أو التكتلات أو الثورات الدموية .

ونستطيع فى الواقع أن نقرر بعد هذه العجالة التى عرضنا فيها لمعنى الفلسفة أن الفيلسوف يجب أن يمر بمرحلة الشك الفلسفى حتى يتسنى له أن يختار من بين المتغيرات الكثيرة التى يعرضها أمام ناظره . على أن الشك الفلسفى ليس مجرد مرحلة تنتهى تماما عند الفيلسوف ، بل هى مرحلة تواترية مستمرة فى حياته . ذلك أن المتغيرات مستمرة التدفق والاعمال فى حياة الفيلسوف ، والقضايا التى تفرض نفسها على فكره لا تنتهى . فهو ما يكاد يختار حتى تطل متغيرات جديدة برأسها فتحمله على إعادة النظر من جديد بمنظار الشك الفلسفى . وخير مثال على هذا برتراند رسل الذى يقول عنه الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » لقد شهدت بعينى .. نقرأ من دارسى الفلسفة ... يهاجمون الرجل (رسل) لأنه ناقض نفسه فى هذا الموضوع أو ذاك ... فأدرك الظلم فى تلك الهجمات ، لأنها تنسى عشرات السنين التى تفصل عند الرجل كتابا عن كتاب ، وتنسى أن الرجل إنسان يتطور وينمو ويفكر ثم يعيد التفكير مدى ثمانين عاما نشيطة منتجة .. فلا شك أن رسل كان يبدأ فى مدارس المتغيرات الجديدة ملتجئا الى الشك الفلسفى كهاد له ليقع على خيارات جديدة بديلة لخياراته القديمة التى لم تكن

تأخذ في اعتبارها تلك المتغيرات أو الاختيارات التي استجذبت في الموقف . ولنتذكر أن رسل قد عاش في معمعان التقدم العلمي المذهل . فلقد عايش دارون وسبنسر وفرويد واينشتين وغيرهم من فحول العلماء ، وكان عليه أن يضع كل فكر هؤلاء وما تطوروا به من فكر وعلم ومكتشفات تحت أضواء شكه الفلسفي . وعلينا في هذا المقام أن نلمع الى ديكارت والغزالي وغيرهما من فلاسفة انتهجوا أيضاً الشك الفلسفي حتى خلصوا الى فلسفات متميزة قائمة بذاتها جعلت منهم أعلاما للفكر الانساني تدفع بغيرهم الى اكمال المسيرة في مشوار الحياة الفلسفية .

مجالات الشك الفلسفي :

بعد أن عرضنا لمعنى الشك الفلسفي ، فان علينا أن نحدد المجالات التي يتبدى فيها ذلك النوع من الشك . إننا نجد في الواقع ثلاثة مجالات يلعب الشك الفلسفي أدواره عليها : المجال الأول - المنهج الذي يتوخاه الفيلسوف في التفكير ، والمجال الثاني - المضمون الذي يركز عليه الفيلسوف ، والمجال الثالث - وسيلة التعبير التي يتذرع بها الفيلسوف لسوق المضمون وفق المنهج الذي اختاره لنفسه .

أما من حيث المنهج الذي يمكن أن يسير الفيلسوف وفقه في تفكيره وفي عرضه لذلك التفكير فاننا نجد أن هناك مجالات فرعية كثيرة تنشعب عن هذا المجال الأول بحيث يكون على الفيلسوف أن يختار واحدا منها يسير وفقه ويضرب في إثره ويلتزم به . ولعلنا نوفق في رسم خريطة لتلك المناهج التي يختار الفيلسوف لنفسه منها :

هناك أولا - المنهج الفلسفي التاريخي : وهو المنهج الذي يعتمد فيه المفكر على تاريخ المفهوم ومراحل نموه وتطوره بحيث يكون متتبعا له منذ بدايته حتى مرحلة النضج التي بلغها ثم يكون عليه بعد ذلك أن يمتد بذلك المفهوم أو ذلك المحور خطوات جديدة الى الأمام . فهنا نجد أن الفيلسوف يكون مستوعبا لما سبق لغيره شقه في هذا المضمار الذي يهتم به ، ثم هو يكون مبتكراً

ومكملا لما سبق لغيره أن بدأه من فلاسفة كثيرين أو قليلين . ومثال لذلك هيريت سبنسر الذى نحال أنه استوعب فكرة التطور منذ بواورها عند اليونان حتى شارلز دارون الذى كان معاصرا له . وعلينا أن نميز بين المنهج الفلسفى التاريخى من جهة وبين المنهج التاريخى الفلسفى من جهة أخرى . فالمنهج الأول يجعل الفلسفة هى المحور الذى يمر عبر التاريخ، بينما يجعل المنهج الثانى الأحداث التاريخية هى المحور ويفلسفها بأن يحاول استخراج قوانين عامة تضرب فى أثرها . وهذا المنهج الأخير لا يهمنى فى هذا المقام ، بل يهمنى المؤرخ المتفلسف .

ثانيا - المنهج الفلسفى الاجتماعى : وفى هذا المنهج يهتم الفيلسوف بالفرد من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى، ويحاول تناول القضايا التى تتعلق بهما . من ذلك مثلا قضية كفضية الحرية بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء . ويجعل الفيلسوف من هذه القضية محورا أساسيا يدير حوله فلسفته . ولعلنا نوفق إذا قلنا إن جون ديوى قد أخذ بهذا المنهج . فالفيلسوف من هذا النوع يعيش مجتمعه الراهن وعالمه المعاصر ويهتم بقضية أساسية من قضاياهم ويقدم لنا فلسفة اجتماعية أو تربوية كما فعل ديوى تحقق هدفه فى تحقيق الحرية للفرد والمجتمع على السواء وتحقيق التكامل فيما بينهما .

ثالثا - المنهج الفلسفى الأنثروبولوجى : وفى هذا المنهج يعتمد الفيلسوف الى تفسير أو تقديم مفهوم شامل للانسان منذ بواكير حضارته أو منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الوقت الراهن ، بل وحتى ما شاء الله . ومثال لذلك اميل دوركايم الذى قال بالعقل الجمعى وأن ذلك العقل سابق على عقول الأفراد وأهم منهم ، وأن المجتمع هو الأساس وأن الأفراد وان تباينوا فانهم لا يغيرون شيئا من ذلك العقل الجمعى ، بل ان الزعماء والقادة ليسوا اكثر من مترجمين لما يرسمه لهم ذلك العقل الجمعى .

رابعا - المنهج الفلسفى العلمى : وفى هذا المنهج يهتم الفيلسوف بالمكتشفات العلمية الحديثة ويبنى عليها فلسفته . وخير مثال لفيلسوف استعان بهذا المنهج دالبر D' ALIEMBERT . فالفيلسوف الذى يستعين بهذا المنهج

يكون من علماء الفيزياء أصلاً ثم يستحيل الى فيلسوف . ولكن هذا لا ينفي
امكان الفيلسوف المتخصص أصلاً في الفلسفة أن يستمد محور فلسفته من
المكتشفات الفيزيائية . من ذلك مثلاً قيام أحد فلاسفة بالافادة من مفهوم
الطاقة الذى نشأ عن انشطار الذرة واقامة فلسفة عامة تدور أساساً حول هذا
المفهوم .

خامساً — المنهج الفلسفى الدينى : وفى هذا المنهج يعتمد الفيلسوف فى
اختيار منهجه على المعتقدات الدينية الأساسية . بيد أنه لا يستحيل الى أحد
اللاهوتيين أو الى واحد من علماء الكلام ، بل يستشف محورا أساسيا من
محاور الدين يبنى عليه فلسفته . ولعل خير مثال لذلك ديكارت فى برهانه على
وجود الله . ناهيك عن منهجه التأملى الذى يتجانس فى كثير من طرائقه مع
ما كان — ولا يزال — يستعين به الرهبان والقساوسة ورجال التصوف الاسلامى
من امثال الغزالى والحلاج .

ومن الواضح أن الفيلسوف يمر فى مرحلة شكية وهو بازاء هذه المناهج
الخمسة لكى يشق طريقه ويختار من بينها منهجا يعتمد عليه فى تشييد بنائه
الفلسفى . ولقد يكون الشك الفلسفى بازاء المنهج شكاً لا شعورياً حيث يعانى
الفيلسوف لا شعورياً من غير وعى من جانب له لدى شقه الطريق والبحث عن
منهج يتلذع به ويعتمد عليه . ولعل من عوامل اختيار الفيلسوف للمنهج نشأته
من جهة ومزاجه الشخصى من جهة ثانية وثقافته التى تتأق له من جهة ثالثة .

أما المجال الثانى الذى يلعب عليه الشك دورا عند الفيلسوف فهو المضمون
الذى يضمته فلسفته . ومن الطبيعى أن يرتبط المضمون الفلسفى بالمنهج الذى
يتلذع به الفيلسوف . على أن هذا لا يعفينا من استعراض المضامين الفلسفية
التي يكون على الفيلسوف أن يختار من بينها . والمضامين الفلسفية هى :

أولاً — الوجود : فالفيلسوف الذى يختار هذا المضمون عليه أن يقدم
تفسيرا للعالم وباقي الكواكب وأصل الوجود . ولقد اهتم بعض فلاسفة
اليونان قديما بهذا الجانب فذهب بعضهم الى تفسير الكون بالهواء وبعضهم

بالماء وبعضهم بالنار الى آخر تلك التفسيرات . وكلما تقدم العلم وزاد سير الانسان للفضاء واكتشف كواكب ومجرات جديدة ووقف على ظواهر فيزيائية وكونية لم يكن لأسلافه علم بها كان المجال الوجودى أخصب لتقديم فلسفة تجعل الوجود مضمونا لها .

ثانيا – الانسان : فالفيلسوف الانسانى يمكن أن ينظر الى الانسان الفرد بمشكلاته وآماله ومطامحه وغاياته وخلوده ، كما يمكن أن ينظر الى المجتمع ويقدم تفسيراً للعلاقات الاجتماعية بين الافراد ولعلاقات المجتمعات بعضها ببعض ، كما يستطيع أن ينظر الى المملكة الانسانية فى علاقاتها بالمملكة الحيوانية وبمملكة النبات الجوامد . ويمكن أن يركز الفيلسوف على القيم بكافة أنواعها بما فيها القيم الدينية والعادات والتقاليد والأعراف ، بل ويستطيع أن يجعل من القيم الجمالية مجالاً لفلسفته .

ثالثا – الرياضيات : فلقد يجعل الفيلسوف الرمز الرياضى هو المضمون الفلسفى لفلسفته . ويسير جنباً لجنب مع هذا الرمز المنطقى . فالمنطق والرياضيات يشكلان مضمونا فلسفياً كما هو الحال لدى هوبس وبرتtrand رسل وغيرهما من فلاسفة رياضيين .

أما المجال الثالث الذى يمكن أن يلعب الشك الفلسفى دوراً على مسرحه فهو أداة التعبير . ولقد قلنا إن من تلك الأدوات التعبيرية الرموز الرياضية والمنطقية . بيد أنه الى جانب هذه الرموز فان هناك أدوات تعبيرية أخرى نلخصها فيما يلى :

أولاً – القصة والمسرحية : وهذا اللون نشاهده عند أفلاطون فى محاوراته . وعند سارتر حديثاً .

ثانياً – الشعر : وخير مثال لذلك أبو العلاء المعرى الذى صاغ فلسفته فى شعر يتضمن معانى غزيرة ومتكاملة .

ثالثاً – الأسلوب النثرى : وهو الأشيع حيث يقدم الفيلسوف فلسفته على هيئة مقالات يضمها كتاباً أو كتباً . والأغلب أن الفيلسوف لا يكاد

يحس بأنه يقدم فلسفة جديدة متكاملة ، ولكن يأتي دارسو الفكر بعده
ويقومون بتجميع كتاباته وسوقها في صيغة فلسفية مبوبة ومدروسة .

رابعا - الأسلوب التوليدي أو الحوارى وهو الأسلوب الذى اعتمد
عليه سقراط فى ايلاد الافكار الفلسفية عن طريق الحوار مع الآخرين .

وعلىنا بعد هذا العرض للميادين الثلاثة التى يلعب عليها الشك الفلسفى
ادواره الرئيسية أن نقرر أن هذا النوع من الشك دائم الفاعلية فى حياة
الفيلسوف . فهو شخصية شاكة بالدرجة الأولى لأنه لا يغلق أمامه مجالات
الاختيار ، بل يدأب على الشك ويحن الى إعادة النظر فيما سبق له الانتهاء
اليه وتقريره . ومن هنا فان حياة الفيلسوف الذهنية لا يمكن أن تتسم بالهدوء
والثقبل والركون والاطمئنان الى ما سبق له تقريره وانتقاؤه وصياغته فى
كلام أو رموز .

خطوات الشك الفلسفى :

يجدر بنا أن نتساءل بادىء ذى بدء عن منشأ التفكير الفلسفى عند المرء
الذى يقضى له أن يهتم بهذا النوع من التفكير ولا يجد اقتناعا بقشوره بل
يصبو الى سبر أغواره ويصل الى أعماقه . اننا نعتقد أن صاحب التفكير
الفلسفى تكون لديه رغبة ملحة لأن يتخلص من قيود الزمان . وهذا خلافا
لصاحب التفكير التاريخى الذى يتابع الأحداث التى وقعت فى إطار الزمان .
فصاحب التفكير التاريخى مرتبط بالواقع الذى حدث بالفعل وقد احتل رقعة
زمانية ومكانية معينة ، بينما نجد أن صاحب التفكير الفلسفى ينزع نفسه من
إطار الواقع المحسوس بل ومن إطار الواقع الزمانى ويصبو الى المطلق والدائم
ولا يهجمه النسبى والمؤقت . فالحدث التاريخى فى نظر الفيلسوف هو حدث
جزئى عابر ، بينما هو يهتم بالوقوف على ما هو عام شامل وثابت خالد . إنه
يتطلع الى الأزلى الأبدى فى نفس الوقت . ولقد نقول إن صاحب التفكير
الفلسفى يتصفح الواقع لا لكى يلتصق به بل لكى ينتزع منه جواهره . فشأنه
شأن العالم الذى يتصفح الحامات لا لكى يلتصق بها ويرسو عندها ، بل لكى

يصل من دراسته لها الى قوانين عامة تجمع الكثير فى نطاق القليل . فهو مثلاً يدرس الحديد والنحاس والرصاص والذهب وجميع المعادن التى يتسنى له التوصل اليها لكى يخلص الى قانون عام يقول إن الفلذات جميعاً تتمدد بالحرارة ، او الى غير ذلك من قوانين تجمع الكثير فى عبارة قصيرة .

بيد أن الفيلسوف أكثر طموحاً من العالم . ذلك أنه يصبو الى الخلوصل الى قوانين أشمل وأعم . فهو يتناول قوانين العلوم لكى يستخلص منها القانون الأعم أو الفلسفة . ومعنى هذا أن مدى الاختيارات أو مدى الشك عند الفيلسوف يزيد اتساعاً عن مدى الاختيارات أو عن مدى الشك عند العالم . والجدير بنا أن نتناول منشأ التفكير الفلسفى عند الفيلسوف منذ بدايته :

اننا نجد أولاً أن الاستعدادات الوراثة تلعب دوراً ذا بال عند الفيلسوف ؛ على أن تلك الاستعدادات الموروثة لا تشكل سوى نقطة البداية التى تشبه شعلة عود الثقاب التى اذا ما قيفض لها أن تصادف مواد قابلة للاشتعال فان مدى اشتعالها يزداد وتنسع رقعته . والعكس بالطبع صحيح . فاذا لم تصادف مثل تلك المواد القابلة للاشتعال فانها سرعان ما تلوى وتنطفئ . ونستطيع أن نقول بغير حرج أن تلك المواد القابلة لاشتعال جذوة التفكير الفلسفى هى ما يمكن أن يصادفه المرء من مشكلات . المهم أن يستشعر صاحب التفكير الفلسفى القلق الذى يدفع به الى الحيرة والبحث عن مخرج يخلصه من شعوره بالتوتر الملح والشديد . ولقد يكون ذلك القلق الذى يحدث التوتر عند الفيلسوف ناجماً عن الجو الأسرى غير المستقر أو عن مشكلة اقتصادية أو عن تهديد يؤرق نوم المحيطين به ، أو قد يكون عاهة ألمت به فأفقدته الاسترخاء النفسى وأحلت محله القلق النفسى .

والواقع أن أول موقف شكى يصادف الفيلسوف هو تلك الخيارات المتبدية أمامه فى طريق حياته . ولعل اقل بدائل ممكنة أمام الفيلسوف انما يتمثل فى الخيار بين اليأس والرجاء ، أو قل بين الانزواء والبعد عن الناس وبين الاندفاع نحوهم وتأكيد الذات فى وجودهم ، أو قل بين إفناء الذات بالانتحار

جسميا أو معنويا بمعاقرة الخمر أو بادمان المخدرات وبين الابداع الفكرى ،
وبتعبير آخر فان الفيلسوف هو الشخص الذى يختار التعويض محل الاعتراف
بالهزيمة والارتقاء فى أكفان القنوط .

وحتى بالنسبة لأولئك الفلاسفة الذين يبدو أن حياتهم كانت موفورة
وليس فيها ما يعكر الصفو أو ما يحدث التوترات النفسية ، فاننا نؤكد أن
استخلاص ذلك من زاوية واحدة هى الزاوية المادية ، إنما هو استخلاص
خاطيء . فلقد نجد فيلسوفا نشأ فى رغد من العيش ولكنه كان لا يستشعر
سعادة فى حياته الأسرية ، أو كان يحس نقصا معيناً فى شخصيته غير معلن
على الملأ . ولقد نجد نوعاً من الفلاسفة مثل برتراند رسل يحسون بمشكلات
العالم كله وكأن تلك المشكلات هى مشكلاتهم الشخصية . فمثل أولئك الفلاسفة
يكونون على قدر كبير من الحساسية . فالجاعات والحروب وما ينجم عنها
من ثكل للامهات وترمل للنساء ويتم للأطفال وتشويه للشباب وخراب للديار
وهلاك للحيوانات والمزارع وهدم للمصانع وتشريد وبطالة للأيدى العاملة
تقلق تلك الشخصيات الحساسة برغم بعدها عنهم وبرغم عدم تعرضهم أو تعرض
ذويهم لأى أذى . فلقد كان رسل يقود المظاهرات ضد انتاج القنابل الذرية ،
وهى القنابل التى لم يكن يتوقع بحال أن يلتقى بها على لندن حيث كان يقيم .
ولكنه كان يحس بالتوتر يملأ جنباته شأنه فى ذلك شأن من كان صاحب
عاهة أو من نشأ فى أسرة مفككة أو كأنه واحد من أولئك الفلاسفة الذين
كانوا يعانون من بعض الأمراض الجسمية أو النفسية المستعصية .

والواقع أن الفيلسوف لا يفتح على العالم المحيط به الا انفتاحاً ظاهرياً .
فالناس لا يشاهدون الفيلسوف خطيباً جماهيرياً أو زعيماً سياسياً أو مصلحاً
اجتماعياً . ولعله إذا فعل ذلك فانه سرعان ما ينكص ولا يستمر بنجاح فى المجال
الاجتماعى . ولعلنا نذكر فى هذا المقام أفلاطون عندما حاول تطبيق جمهوريته
وروبرت أوين حينما حاول تطبيق مبادئه الاشتراكية وقد كان حليفهما الفشل .
ذلك أن الفيلسوف بما غرس فيه من فكر فلسفى لا يصلح للواقع الاجتماعى
بل يصلح للواقع الفكرى . ولا شك أن عالم الفكر مخالف لعالم الواقع .

فالعالم الواقعي جزئى ومحسوس ، بينما عالم الفكر شامل ومجرد . ولعل الفيلسوف الذى يقحم نفسه فى عالم الواقع سرعان ما يتبرم بقيود ذلك الواقع وتهفو نفسه إلى الحرية التى يستشعرها فى عالم الفكر فيجربى إلى أحضانها مخلصا عالم الواقع الاجتماعي .

فالشك الذى يساور الفيلسوف هنا هو الخيار بين هذين العالمين . ولعل الشهرة أو الجاه يحاولان جذبها إلى عالم الواقع ، ولكن الحقيقة والتعلق بصدق الفكر وصدق التعبير يحولان بينه وبين الارتقاء فى أحضان الواقع والاشاحة عنه والانخراط فى إطار عالمه الفكرى .

وثمة موقف شكى آخر فى خطوات الفكر الفلسفى عند الفيلسوف هو ذلك الموقف المتعلق بالتعبير . فالفلسفة بطبيعتها تبغى الدقة وعدم مبالاه الجاهيل بما فى ذلك جاهيل المثقفين أنفسهم . من هنا فإن الفيلسوف لايهمه الذبوع والانتشار ، بل يهمه أن يكون قادرا على التعبير عما يخالجه من فكر بأصدق عبارة وأدقها . ولكأن الفيلسوف لايكتب للناس بل يكتب لنفسه هو . ولقد يأخذ المحيطون به فى حثه على تحرى البساطة فى الكتابة وعلى تناول موضوعات جاهلية ، ولكنه لايستطيع تلبية مطالبهم ويظل يكتب ما يروقه هو لا ما يروق الآخرين .

وثمة خصيصة أخرى فى كتابات الفيلسوف هى خصيصة التجريد . فثمة خياران أمامه : الأول أن يصف مناظر ترتسم فى ذاكرته عن أشخاص أو مواقف ، والثانى التعبير التجريدى . ولعل بعض الفلاسفة يتخذون من القصص أو الشعر وسيلة للتعبير عن فلسفاتهم ، ولكنهم فى الواقع لا يكادون يكونون قصاصين أو شعراء . فالصبغة العامة لديهم تكون الفكر لا القصة ولا الشعر . فالحكم عند الفيلسوف هو أن يعبر عن الشامل والأزلى الأبدى بغض النظر عن الذريعة التى يتلوع بها لبلوغ مراده .

ولسنا نتخيل أن يصل أى فيلسوف إلى مرحلة النضج ما لم يكن قد استطاع أن يخرج من إطار نفسه إلى إطار العمومية . فشكالاته الشخصية بل

ومشكلات أسرته وبلده ووطنه تأخذ لها مساحة أوسع من مساحتها الواقعية . فهو يتسع في نظراته بحيث يرى الإنسانية جمعاء ولا يكتب للتعبير عن مشكلة آنية وجزئية بل يكتب عن مشكلات البشرية ، ولا يكتب عن مشكلة خاصة بشعب معين بل عن مشكلة تنعكس على البشرية جمعاء . لقد يكتب عن التفرقة العنصرية لأن وجود مثل تلك التفرقة يعد وصمة عار في جبين الإنسان باعتباره نوعا هو أرقى أنواع الكائنات الحية .

بيد أن الفيلسوف بعد أن يكتب وينشر ما كتبه فانه يكون قلقا يرغب بلهفة أن يعرف ما يمكن أن يوجه إلى كتابته من نقد . وما يمكن أن يميز الفيلسوف هو شكه حتى في ذاته أو على الأصح فيما كتبه . فهو لا يفكر بأنانية ولا يتحيز لما يكتبه تحيزا أعمى ، بل يكون مستعدا لمراجعة ما كتبه وتعديل الخطوط التي سار وفقها في الكتابة . ولكنه لا يخضع لرأى أحد الا عن اقتناع بوجهة ما يوجه اليه من نقد أو من رأى .

نتائج الشك الفلسفي :

إننا نعتقد أن ثمة نوعين أساسيين من النتائج تترتبان على الشك الفلسفي : النوع الأول من النتائج يتعلق بالفيلسوف نفسه . أما النوع الثاني من النتائج فانه يتعلق بما يخلفه من فلسفة مكتوبة على الورق وبما يقدمه إلى الحضارة الإنسانية من فكر يتأثر به الآخرون ويؤثر في مجرى الفلسفة بصفة عامة على المستوى العالمي . ولنبدا بتصفح النتائج النفسية المتعلقة بالفيلسوف نفسه :

إننا نستطيع بادئ ذي بدء أن نقول إن الفيلسوف بتطلعه الشديد يستشف متغيرات متباينة وخصبة بالنسبة للقضية الواحدة التي يقبل على تناولها بالبحث . فهو يرى من الجوانب فيها ما يعز على الآخرين من حوله مشاهدته أو الوقوف عليه . وأكثر من هذا — كما سبق أن قلنا — فان الفيلسوف يعمد إلى تخصيص تلك المتغيرات أو الاختيارات بما يقوم عقله بخلفه وبما يقوم بنسجه بخياله ، ومن ثم فان مجال الاختيار — أو بتعبير آخر مجال الشك — يتسع في نظر الفيلسوف .

ولعل من أهم النتائج النفسية المترتبة على هذا الاتساع في المجال الاختياري أو الشكى نشوء درجة عالية من التوتر النفسى يحتدم أواره في ذهن الفيلسوف . ولقد سبق أيضاً أن ذكرنا أن ما يعانيه الفيلسوف من توترات نفسية شديدة إنما يعمل على إصابته في بعض الأحيان بما يسمى بالهكة أو الأرهاق النفسى . وهذا شبيه بما يقع لمثل التراجيديا الذين يعانون من المواقف المتوترة لأن الممثل التراجيدى الجيد يمر بالمشهد التراجيدى كما يمر به صاحب الشخصية الحقيقى الذى يقوم الممثل بتمثيل دوره إذا افترضنا أن صاحب تلك الشخصية قد بعث حياً أو خلق إنساناً في دنيا الأحياء .

على أن ما قد يسعف الفيلسوف بالراحة النفسية بعد التوتر هو توصله إلى اختيار من بين تلك المتغيرات أو الاختيارات العديدة جداً التى أكتشفها والتي خلقها بفكره وخياله . فالتوصل إلى خيار يضئ على عقل ووجدان الفيلسوف راحة وينعم عليه بالاسترخاء النفسى .

على أن ذلك الاسترخاء النفسى لدى الفيلسوف لا يستمر طويلاً . فهو ما يكاد يلقى باختياره أو اختياراته على الورق على هيئة كلام مكتوب حتى يبدأ في مراجعة نفسه وذلك بأن يكتشف اختيارات جديدة لم يكن قد كشف النقاب عنها ، كما أن عقله الواعى وعقله غير الواعى يستمران في دأب يخلقان متغيرات جديدة يطرحانها أمام ناظرى الفيلسوف . من هنا فان شعوراً جديداً يوافى الفيلسوف بالإضافة إلى التوتر النفسى الذى كان قد سادته قبلاً قبل الوقوع على الاختيار الأول . ذلك الشعور هو الشعور بالاحباط أو بنحية الأمل . فهو يجد أنه قد تسرع إلى خيار أو خيارات لاترضيه الآن بعد أن كشف أمامه النقاب عن اختيارات جديدة ، وبعد أن قام عقله ووجدانه بخلق اختيارات جديدة أخرى بحيث تنضم جميع الاختيارات المكتشفة والمخلوقة لكى تطارد النوم من أجفان الفيلسوف ولكى تغص عليه راحته ولكى تحرمه من استرخائه وهدوئه النفسى . وبذا فان الاسترخاء والهدوء اللذين نعم بهما الفيلسوف قليلاً من الوقت لا يستمران بل يتلاشيان لكى يحل

محلها الأحاسيس بالتوتر من جهة والأحاساس بنجية الأمل والأحباط من جهة أخرى .

والواقع أن هذين الشعورين المتساوقين ما يفتآن ينعكسان على موقف الفيلسوف من أنتاجه . فهو ينظر إلى ما قام بتدوينه وقذفه إلى فم المطبعة — وهى تلك الآلة التى لا ترحم ولا يدين قلبها للتوسل — وقد امتلأ قلبه حزنا . فهو يقول لنفسه « لو انى قد انتظرت ولم أتسرع فى الكتابة ، اذن لكنت قد كتبت أشياء أخرى غير تلك الأشياء التى قتت بنشرها واذاعتها على الملأ » وليس من شك فى أن معظم الفلاسفة يحسون بالندامة تملأ قلوبهم لأنهم كتبوا أشياء ونشرت لهم ويقول الناس إنها تمثل فكرهم مع أن الواقع أنها كانت تمثل فكرهم وقت كتابتها فحسب ، ولكنها صارت بعد ذلك مخالفة لما يعتقدونه . وهكذا نجد أن النقاد لا يرحمون الفيلسوف ، إذ أنهم كثيراً — أو فى الأغلب — ينكرون عليه التطور ، ويعتقدون أنه ثابت كثبوت عالم الرياضيات . فحكمهم على مايكتبه هو ذاته حكمهم على حل إحدى المسائل الحسابية التى لا تمحتمل لإجابتين ، بل إن إحدى الاجابتين تكون صحيحة والأخرى تكون خاطئة . ولو أنهم قد أنصفوا لاعترفوا للفيلسوف بأنه شخصية متطورة فى شكها و يقينها ، بمعنى أنها ما تكاد تخلص من أحد المواقف الشكية الاختيارية حتى تبدأ فى الانفتاح على موقف شكى اختياري جديد .

والواقع أن هذه النتائج الداخلية التى تبدو فى الحياة النفسية للفيلسوف نتيجة الموقف الشكى ليست هى جميع النتائج الممكنة ، بل هناك نتائج خارجية لا تقل فى خطورتها وبعد شقتها عن هذه النتائج الداخلية النفسية . إنها تلك النتائج المتبدية فى أمرين أو فى مجالين رئيسيين : المجال الأول — مايكتبه الفيلسوف من كتب وما يصدر عنه من أقوال وما قد يبدو منه من تصرفات ، ثم هناك من جانب آخر ما يؤثر به الفيلسوف فى الآخرين من حوله ومن بعده ، أعنى تلك الآثار الخطيرة التى يتركها الفيلسوف فى عقول الناس وتصرفاتهم واتجاهاتهم وعواطفهم . ولعلنا نكفّ اما على هذين المجالين بسرعة قد تغمط حقهما من العناية والتأمل والدراسة .

أما بالنسبة للمجال الأول - وهو ما يتركه الفيلسوف بعلمه من أقوال مكتوبة أو منقولة عنه وما يذكره الناس عنه من مواقف وتصرفات فإننا نعتقد أن الحيرة تأخذ بالباب كثير من الذين يتناولون أعمال الفلاسفة وشخصياتهم وعلاقاتهم وتاريخهم بالدراسة . وثمة من ينظرون إلى فلسفة الفيلسوف بالمنهج الرياضى - أو بالتخصيص بالمنهج الحسابى - حيث يبحثون فى المتناقضات التى قد يكون الفيلسوف قد وقع فيها . وثمة أولئك الذين يتناولون الفيلسوف من منظور تاريخى تطورى زاعمين أن الأحداث والمواقف الاجتماعية والظروف الاقتصادية هى التى حدثت به إلى تغيير مواقفه . والواقع أن كلا المنهجين - الحسابى الاطلاقى من جهة والمنهج التاريخى من جهة أخرى - تفوته ناحية هامة للغاية هى تلك المواقف الشكية التى يعانى منها الفيلسوف الخلق بهذه التسمية . فنحن نرفض المنهج الحسابى الاطلاقى فى تناول عمل الفيلسوف لأنه يخرج به عن كونه كائنا متطورا يدخل فى دوائر شكية مستمرة التناوب على عقله بسبب خصوبة المتغيرات التى يلقاها أمامه ، سواء كانت تلك المتغيرات نتيجة كشفه لها أو نتيجة اختلاقه لها من حيث لم تكن . أما اعتراضنا على المنهج التاريخى فإنه يرجع إلى أننا لنبجعل من الفيلسوف شخصية مرآتية عاكسة لما يحيط بها من ظروف ووقائع اجتماعية وأحداث اقتصادية أو سياسية ، بل إننا نزعم أن الفيلسوف لا يهتز فى الغالب لما يقع حوله ، بل انه يكون كالطود الراسخ الذى يشكل عالما مستقلا قائما بذاته لا يتأثر بما يطرأ على الواقع من حوله من اضطرابات سطحية من قريب أو من بعيد .

على أن كل ما يهمنى أن نقرره ونثبتته هو تلك المتغيرات ومدى وقوعها أمام الفيلسوف ، فالشك أو تأمل المتغيرات أو الاختيارات هى الأساس فى حياة الفيلسوف العقلية وليس ما يخلص اليه من نتائج . فما يخلص اليه الفيلسوف لا يعدو أن يكون ثمرة لما سبق له أن عاناه وما مر به من معاناة شكية . ولعل الأصوب أن يتناول الدارسون تلك المراحل العقلية - وليس الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية - التى مر بها الفيلسوف وأحدثت لديه تلك المعاناة . ولعلنا فى هذا المقام نذكر المنهج الذى اتبعه أستاذنا الدكتور

عثمان أمين في دراسته لديكارت . فهو لم يركز على الظروف الاجتماعية في تناوله ذلك الفيلسوف ، بل دخل الى مسرح فكره وقدم الينا في كتابه « ديكارت » مسرحية أو دراما لحياة ذلك المفكر الكبير . فلقد حاول أن يسير بنا في رحلة حياتية ذهنية وشكية ولم يجعل للثمار الا المكانة الثانية بعد المعاناة الفكرية أو الشكية . وما نزرعه ونضيفه هنا هو أن ما ينطبق على ديكارت ينطبق على جميع الفلاسفة ، بل وعلى جميع المشتغلين بالثقافة من أى لون أو مجال .

أما ما يؤثر به الفيلسوف في غيره ، فانه يكون على ضربين : ضرب تخصصي حيث يؤثر الفيلسوف في غيره من فلاسفة معاصرين أو تابعين له في التاريخ ، سواء كان تأثيره إيجابيا بالتعضيد والتأييد أم كان تأثيره سلبيا بالتنفيد والتنازل . أما الضرب الآخر فهو ضرب عام . ذلك أن جميع المشتغلين بالثقافة حتى القصاصين والشعراء يتأثرون الى حد ما بالفلسفة . فهي النافذة التي تفهم على الحقيقة . وهل يمكن أن يستغنى انسان مثقف بأى لون ثقافى عن التفكير في الحقيقة ؟

سيكلوجية الشك الفلسفى :

قلنا إن الأساس في حياة الفيلسوف العقلية هو الشك لا اليقين . والشك كما قلنا باستمرار طوال الفصول السابقة هو الوقوف في مجابهة خيارات على المرء ان يقع على واحد منها أو أكثر واستبعاد باقى الخيارات الأخرى المتوافرة بالموقف . وقلنا أيضا إن الفيلسوف ما يكاد يخلص من موقف خيارى أو شكى الى يقين بأن يختار حتى يبدأ في التواجد بموقف شكى أو خيارى جديد ، وذلك لأن عقله المكتشف لخيارات جديدة والحالتى أيضا لخيارات لم تكن موجودة لا يريجه ولا يركن به الى بر اليقين ، بل سرعان ما يقذف به الى لجة الشك من جديد لكى يبدأ في مرحلة معاناة جديدة نتيجة الجهد الذى يبذله في مجابهة الخيارات المتجددة والمتكررة أمامه باستمرار .

فاليقين هو العرض في حياة الفيلسوف العقلية ، والجوهر في هذه الحياة هو الشك . وقد صغنا هذا المفهوم بطريقة أخرى بأن قلنا إن اليقين هو الثمار

التي تنضج على شجرة الشك . والشجرة هي الأصل والثمار هي النتيجة العابرة في حياة الشجرة . بيد أن هذا من وجهة نظر آكلي تلك الثمار لا يمثل الحقيقة . فهم يعتقدون أن الثمار هي الجوهر وأن الشجرة هي الوسيلة أو العرض . ولكن إذا نحن نظرنا من زاوية الشجرة ذاتها — وهي هنا الفيلسوف — وليس من وجهة نظر القاطنين والآكلين والمستمتعين بالثمار ، فاننا نجد أن جذع الشجرة وليس الثمار هو الجوهر والأصل .

وإذا نحن قننا بفحص سيكلوجية الفيلسوف حتى نقف على سيكلوجية الشك عنده ، فاننا نجد أنه شخصية تفاعلية وليس شخصية ناقلة أو مقبسة . ولعل هذا يتمثل في كلمة ديكرت الذي كان يزدري تاريخ الفلسفة ويرى الاكتفاء بالتفكير الفردي المبتوت الصلة بما تقدم « لا أريد أن أعرف أقدمي رجال أم لا » . فهو كان يرفض أن يتأثر بغيره . ولكن لعلنا نوفق إلى ترجمة موقف ديكرت — وهو في الواقع موقف جميع الفلاسفة — بأنه لا يريد أن يكون مقيدا بقيود غيره ، بل يرفض أن يشرع الآخرون لفكرة أو أن يتدخلوا في مسار تفكيره . وبتعبير آخر فانه كان يرفض أن يتلقى عن الآخرين يقينهم ، بل يريد أن يسبح وفق طبيعته في محيط الشك الواسع . فالفيلسوف أشبه ما يكون بالحيوت الذي يجد حياته في أعماق المحيطات ولكنه مع ذلك لا يستغنى عن تنسم الهواء بأن يطوف على سطح الماء لكي يملأ رئتيه بهواء ، ولكنه ما يكاد يأخذ حاجته من ذلك الهواء حتى يغوص إلى الأعماق التي هي عالمه الحقيقي .

وليس من شك في أن الارتباط بالزمن مجاف لما جبل عليه الفيلسوف . فهو يصبو إلى المطلق ولا يقيد نفسه بشكائم الزمان ، ولا يخضع لما انتهى إليه غيره عبر الزمان . إنه يرغب في أن يبدأ من جديد ومن لا شيء . فهو كائن خلاق بمعنى الكلمة . فهو ينبو عن تنقيح ما هو موجود ، بل يصبو إلى خلق ما ليس بموجود . ولقد نقول إن أكثر ما يضايق الفيلسوف هو أن يطلب إليه حفظ ما سبق لغيره من فلاسفة تقريره والانتهاه إليه . إنه يقرأ ما كتبه غيره ولكن نتائج تلك القراءة ما تكون . إنه لا يلزم نفسه بشيء مما يقوم بقراءته .

فهو في قراءته كمن يتناول الأطعمة المتباعدة ولا يعلم ما سوف يتقبله جسمه منها وما سوف يرفضه . وما يهمه هو أن يأكل ولكنه غير مسئول عن عملية الهضم من قريب أو من بعيد . فما يقوم الفيلسوف بقراءته أو سماعه أو مشاهدته يمكن أن يجد له صدى إيجابيا في نفسه ويمكن أن يجد له صدى سلبيا وقد لا يجد له أى صدى أو تأثير في نفسه على الإطلاق .

ولعلنا نضيف خصيصة أخرى الى سيكلوجية الشك عند الفيلسوف هي كراهيته للطرق التي سبق تعبيدها بواسطة أقلام غيره . فهو يتعشق الصخر والمستنقعات والمجاهل التي لم يفكر أحد في شق طريق فيها لكي يقوم هو بشق ذلك الطريق الجديد . ولعل أفضل مثال يحضرنا هنا فيثاغورس الذي اخترع الهندسة لا كتطبيقات عملية كما كان يفعل قدماء المصريين ، بل كنشاط فكري كان يعتبر لدى اختراعه من صميم الفكر الفلسفي . وهكذا نجد أن الفيلسوف لا يلوك ما سبق لغيره أن قالوه بل هو يطرق ما لم يطرقه غيره ، وحتى بالنسبة للمحاور التي أدار غيره من فلاسفة فلسفاتهم حولها ، فانه يكون مجددا أيضا أو قل خالقا لتلك الاتجاهات التي يقدمها حول تلك المحاور .

ومن السمات النفسية الهامة في سيكلوجية الشك عند الفيلسوف عدم الاندماج في الآخرين . فهو دائما ينبو عن غيره ولا يذوب في الآخرين . وحتى اذا هو تأثر بغيره — سواء كان استاذًا له كما كان حال أرسطو بازاء أفلاطون — فانه سرعان ما يثور على من سبق أن طأطأ الرأس لهم وخضع لفكرهم . وهذا يقفنا في الواقع على الطبيعة الشكية التي يمتاز بها الفيلسوف . فهو يرفض الذوبان في غيره مهما كان ذلك الغير ، بل إنه يعتمد الى تطهير نفسه من شبهات التأثير بالآخرين . انه يهفو بطبعه الى أن يكون فريدا ونسيجا جديدا مستقلا عن أى نسيج آخر . ولقد يستعين الفيلسوف في ذلك التطهير بوسائل الهدم والثورة ضد أولئك الذين أحنى لهم الرأس . فهو يجد أن عليه أن يتخلص منهم بالعنف الفكري — اذا صح التعبير — وهو عنف كذلك العنف الذي يبيده الوليد لدى نزوله من بطن أمه طالبا الخلاص من احتضانها

له في أحشائها . فهو يرفض تلك التبعية الذهنية كما يرفض الوليد تلك التبعية البيولوجية .

على أن الموقف الشكى الذى يتوهج لى يصير موقفا تنازليا لا يقتصر نطاقه على من سبق للفيلسوف التأثر بهم أو الخضوع لهم ، بل إنه يتعدى الآخرين لى يوجه الى ذات الفيلسوف من قبل ذاته . فكل لحظة زمنية ، أو قل كل دورة شكية يخرج منها الفيلسوف الى اليقين وقد تبعها لحظة أو دورة شكية جديدة إنما تمثل فى نظر الفيلسوف ثورة من جانبه على ذاته . فهو منكسر لما سبق أن قرره وذلك بدخوله فى إطار شكى جديد بعد أن وقف على متغيرات جديدة بالموقف . وهكذا نجد أن المناهضة مستمرة بين الفيلسوف وذات الفيلسوف من حيث هو مراحل أو دورات شكية متعاقبة .

بيد أن ذلك الهجوم الذى يضطلع به الفيلسوف ضد ذاته لا يفقده صفة الإلنية أو الاستمرارية الذاتية ، والا كان الفيلسوف شخصا مصابا اذن بالفصام ، بل إن الفيلسوف يحتفظ بما نسميه بالخيط الرابط لمراحل شكه المتباينة . فهو وإن قاوم الحلقات الشكية السابقة ، أو قل انه عندما يقاوم اليقين السابق الذى انتهى اليه بالشك الجديد ، فانه لا يبدى مقاومته لكل ما انتهى اليه ، ولا يرفض كل ما قرره ، بل هو يرفض جوانب ويبقى على جوانب أخرى . على أن ما يبقى عليه الفيلسوف ليس المضمون بل الصبغة العامة . ولعلنا نقرب المعنى الذى نقصده وذلك بتشبيه الموقف بصور نفس الشخص فى مراحل حياته المتباينة . فصورتك فى طفولتك تشبه صورتك فى مراهقتك ، والصورة الاخيرة تشبه صورتك فى شبابتك ، وصورتك فى شبابتك ، تشبه صورتك فى كهولتك ... الخ . ورغم هذا التشابه فان خلايا جسمك ليست هى نفس الخلايا التى ولدت بها ، ولا هى نفس الخلايا التى تحملها خلال مراحل عمرك المتعاقبة . فالشبه هنا هو شبه فى الصبغة العامة وليس فى المضمون . ونفس الشيء بالنسبة للفيلسوف فى ثورته الدائمة على مراحل حياته الفكرية السابقة . فكل مرحلة تحمل مضمونا جديدا مع استمرار الصبغة العامة أو مع استمرار ملامح شخصية الفيلسوف الفكرية .

ومن الواجب علينا أن ننبه الى أن الفيلسوف لا يقطع صلته بالثقافة المحيطة به بما في ذلك الحياة اليومية والأحداث العابرة . ولكن الذى نؤكد عليه هو أن فلسفة الفيلسوف ليست كرجع الصدى لما يتلقاه من ثقافة أو لما يشاهده في الحياة اليومية ، وإنما فلسفته تشبه الماسة التى ليست كبقاى الكربون أو الأحجار المحيطة بها . فعلى الرغم من أن الماس هو نوع من الكربون ، فإنه متميز عن الكربون ، وليس قينا بكل كربون أن يستحيل الى ماس . فثمة فردانية في حياة الفيلسوف تتمثل أكثر ما تتمثل في ذلك الرفض التمازى الذى يجعل منه شخصية مستقلة ومبتكرة بحيث تصير لها قيمة نادرة . فكما أن الكربون لا يستحيل الى ماس بتأثير عارض أو بمعالجة بسيطة ، كذا فإن المرء لا يستحيل فيلسوفا بمجرد أنه قام باستظهار ما سبق للفلاسفة تقريره ، أو بمجرد أنه يجمع في رأسه أشتات المعارف . إنما الفيلسوف شخص استطاع أن يتفاعل ويسيطر على فرائسه الفكرية يهتمها ويمثلها ثم يخرج لنا عصارة فلسفه نادرة وجديدة تماما .

الفصل الثامن

معنى الوسوسة

الوسوسة والعقل :

بينما نجد أن الشك بمثابة حلقتين : إحداهما الحلقة الخيارية حيث يجد المرء نفسه بازاء متغيرات أو خيارات كثيرة أو قليلة بالموقف يكون عليه أن يختار من بينها ، والثانية الحلقة اليقينية حيث يخرج المرء من دائرة الاختيار الى دائرة الوقوع على خيار أو أكثر بينما هو يستبعد جميع الخيارات المتبقية التي كان يحيل بصره في أنحائها ، فأننا نجد أن الوسوسة ذات حلقة واحدة هي الحلقة الخيارية بغير أن ينتقل المرء الى المرحلة أو الحلقة اليقينية . والفرق بين الشخص الشاك وبين الشخص الموسوس يتبدى في هذه التفرقة بين الشك والوسوسة . فالشاك ينتقل من الموقف الخياري الى الموقف اليقيني بغير أن يحول ذلك دون اندراجه في إطار الموقف الخياري من جديد اذا ما استجدت خيارات أو متغيرات جديدة بالموقف . أما الموسوس فإنه يظل حبيس الموقف الخياري يحيل بصره في أنحائه بغير أن يقيض له النجاح بعبور حلقة الخيار الى حلقة اليقين ، أو بتعبير آخر فإن الموسوس شخص يظل يعقد المقارنات بين الخيارات المتوافرة في الموقف دون أن ينجح في الوقوع على خيار بالذات من بينها ودون أن يحسم الموقف بالانتهاء الى اختيار بالذات .

وكما سبق أن قلنا فإن العقل والوجدان يتواكيان ويتلازمان في عملهما بحيث لا يمكن تخيل قيام نشاط عقلي خالص بغير وجدان حتى بالنسبة لأشد الأمور تجردا عن الجوانب الذاتية . وقد قلنا أيضا إن انشغالك في حل أحد التمارين الهندسية لا يعنى استبعاد وجدانك من النشاط ، بل معناه أنك تعمل بعقلك ووجدانك جميعا في الموقف . واذا نحن تناولنا الوسوسة كما قدمنا

لها التعريف السابق من أنها الانجbas في حلقة الخيارات وعدم القدرة أو العجز عن الخروج الى الحلقة التالية الخاصة بالقرار أو الخلوصل الى بر اليقين ، فاننا نجد أن ما يستهلكه الموسوس من طاقاته الذهنية العقلية والوجدانية أكثر بكثير مما يمكن أن يستهلكه الشخص الشاك . ذلك أن من يشك يستطيع أن يتنفس الصعداء وان يستجمع قواه النفسية وقد قر له قرار واستطاع أن يلم شعثه ويستجمع شتات نفسه .

والواقع أن الموسوس يمكن أن يكون على أكبر جانب من الذكاء ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يجتاز حاجز الاختيار الى مرحلة القرار واليقين . ذلك أن المرء لا ينتقل من حلقة الخيار الى حلقة القرار أو اليقين الا بتعاون الوجدان والارادة معا في ذلك . ولعلنا نعطي الأولوية في هذا الانتقال للارادة التي تحدد الاتجاه الذهني والوجداني معا ، بل وتدفع بالمرء الى الانتقال من حالة الى حالة أخرى . فعن طريق الذكاء يستطيع المرء أن يقف على العلاقات القائمة بالموقف ومن ثم يقف على المتغيرات أو الخيارات المتوافرة به . وعن طريق الوجدان يحب أو يكره ، وعن طريق الارادة ينزع الى انتقال ذهني أو الى انتقال حركي معينين ومحددتين .

فأنت عندما تقوم بحل إحدى المسائل الحسابية في ذهنك كأن تكون في احد المحال التجارية واشتريت بعض السلع وتوجهت الى الخزينة لتسديد ثمن السلع ، فانك تجد نفسه بازاء اختيارات ذهنية تتعلق بأرقام تجيلها في ذهنك وتقيم فيما بينها علاقات حسابية معينة ، وتنتهي من تلك العلاقات التي تجريها في ذهنك الى نتيجة معينة هي ما يجب عليك تسديده . فأنت اذا ما نجحت في عبور العلاقات الحسابية الى النتيجة ويستقر رأيك بصفة نهائية على المبلغ الذي عليك أن تسدده ، فانك لا تكون شخصا موسوسا برغم مرورك في مرحلة شكية اختيارية . ذلك أنك في أثناء اقامتك لتلك العلاقات الحسابية واقامتك لعمليات تفاعلية فيما بينها فانك تكون بازاء اختيارات متعددة حتى وان كنت تجري تلك العمليات بسهولة ويسر وسرعة ، وحتى اذا استخدمت في ذلك آلة حاسبة . فأنت في تلك المرحلة الشكية الاختيارية تكون بازاء سخير من الاحتمالات

الممكنة . ولكن اذا وجدت نفسك غير تادر على التوصل الى اجابة قاطعة أو أنك تدور في حلقة مفرغة حيث تأخذ في اقامة علاقات حسابية لا تشفى من ظمأ ولا توصل الى حل ، فعليك باتهام نفسك اذن بالوسوسة .

أما بين النشاط الحركي فاننا نضرب له مثالا آخر . إن عليك قبل أن تنام أن تغلق باب شقتك بالمزلاج لحماية لشقتك من اللصوص . فإذ هت الى الباب وأغلقتة بالمزلاج وتوجهت الى سريرك ونمت في هدوء بال فانك لا تكون موسوسا . ولكن اذا استمرت طوال الليل في جبهة وذهاب بين السرير وباب الشقة للتأكد من أنك أغلقت الباب بالمزلاج ، فاننا قد نترجم مثل هذا السلوك بأنه ضعف في الذاكرة ألم بك ، كما أننا قد نترجم مثل هذا السلوك بأنه وسوسة . فإذا ما اخترنا ذاكرتك ووجدناها ذاكرة سليمة وأنت لا تنسى الأشياء الأخرى كالمواضيع وأرقام التليفونات وأسماء أقربائك ونحو ذلك ، فاننا نتأكد عندئذ من أن الحالة التي أمامنا ليست حالة ضعف ذاكرة بل هي حالة وسوسة . فالوسوسة هنا تشير الى انقباسك في دائرة الشك أو الاختيار بين كون باب الشقة نا، أغلق بالمزلاج وبين كونه لم يغلق به .

ولعلنا نترجم هذا في ضوء النشاط الذهني الذي نعتبره - - كما سبق أن ذكرنا - - مثلث الاضلاع . فهناك النشاط العقلائي ثم هناك النشاط الوجداني ثم أخيرا هناك نشاط الارادة . ونحن لا نعتبر النشاط الذهني متكاملا إلا اذا توافرت به هذه الاضلاع الثلاثة . وحتى أشد أنواع التفكير منطقية وتجردا ورمزية يجب أن تتوافر به هذه الاضلاع الثلاثة . فتناولك للقضية المنطقية أو لاسألة الحسابية يجب أن يشتمل على التفكير المنطقي من جهة وعلى قدر من الوجدان توجهه نحو نشاطك الذهني المتعلق بتلك المسائل الحسابية أو القضايا من جهة ثانية - - سواء كنت محبا وشغوقا بها أم كنت كارهها ونابيا عنها - - ، ثم أخيرا يجب أن تقبل على اصدار قرار بارادتك يتعلق بالحل أو بالنتيجة المنطقية بحيث تخزم أمرك ويقر لك قرار وتحسم الموقف وتركن الى الراحة النفسية بعد التوتر في أثناء مجابهتك بالخيارات المتعددة بالموقف العقلي المتسم بالتجريد والرمزية .

ونحن نعتقد أن الذهن لا يمكن أن يوصف بالسوية الا اذا كانت أضلاعه الثلاثة التي ذكرناها متساوية ، أعنى أن تتساوى قوة النشاط العقلاى مع النشاط الوجدانى مع النشاط الارادى . أما اذا حدث خلل ، أو قل اذا كان أحد الأضلاع فى هذا المثلث أطول من الضلعين الآخرين ، فاننا نرجح عندئذ إصابة المرء بالوسواس . ولعلنا نجد ثلاثة احتمالات تنم على هذا الخلل أو على عدم تساوى أضلاع مثلث الذهن . فاما أن يكون ضلع التفكير العقلاى أكبر أو أصغر من ضلعى الوجدان والارادة ، واما أن يكون ضلع الوجدان أكبر أو أصغر من ضلعى التفكير المنطقى العقلاى والارادة ، واما أن يكون ضلع الارادة أكبر أو أصغر من ضلعى التفكير المنطقى العقلاى والوجدان . وفى جميع هذه الاحتمالات الثلاثة يكون المرء عرضة للإصابة بالوسواس .

فلقد قلنا إن على المرء أن يجتاز حلقة الخيار الى حلقة اليقين والقرار . وهذا لا يتأتى فى الحالة الأولى لأن التفكير المنطقى العقلاى اذا كان قويا جدا بحيث يفوق فى قوته قوة الوجدان والارادة فان هذا يحول دون الانتقال من حالة الخيار أو الشك الى حالة اليقين والقرار . ففى حالة زيادة قوة التفكير المنطقى العقلاى على قوة الوجدان وقوة الارادة فان الشخص قد يظل مقبيا للعلاقات المنطقية وهو عاجز عن الانتقال الى حلقة القرار أو اليقين . وكذا الحال اذا كان التفكير المنطقى ضعيفا بالمقارنة بقوة الوجدان وقوة الارادة . فالشخص يظل اذن عاجزا عن تبين طريقه بل ويكون عاجزا عن تبين العلاقات المنطقية تبينا واضحا ، ومن ثم فانه يعجز عن الخروج من دائرة الخيارات الى دائرة اليقين . من هنا فاننا نجد أن الوسواس قد تصيب الاذكياء وضعاف العقل على السواء . أما الحديث عن علاقة الوسوسة بكل من الوجدان والارادة فاننا نرجئه الى الموضوعين التالين وذلك حتى تتضح لنا الصورة المتعلقة بالأضلاع الثلاثة : العقل والوجدان والارادة كما هى فى ذهن الموسوس .

الوسوسة والوجدان :

عرضنا في الموضوع السابق لمفهومنا عن الذهن باعتبار أنه مكون من ثلاثة أضلاع رئيسية هي العقل والوجدان والارادة ، وقلنا إن السوية تتطلب أن يكون مثلث الذهن متساوي الأضلاع وأن زيادة طول أحد هذه الأضلاع أو قصره — إذا جاز التعبير — إنما يؤدي الى احتمال نشوء الوسوسة ، بمعنى عدم قدرة المرء على اجتياز الحلقة الأولى الاختيارية الى الحلقة الثانية أعنى حلقة إصدار القرار أو الوصول الى بر اليقين . وقد عرضنا في الموضوع السابق أيضاً للضلع الأول المتعلق بالعقل وشاهدنا كيف أن قصره أو طوله عن الضلعين الآخرين المتعلقين بالوجدان والارادة يؤدي بالتالى الى نشوء الوسوسة . ونرجو في هذا المقام أن نعرض للضلع الثانى الخاص بالوجدان لنشاهد كيف أنه في حالتي زيادة طوله عن الضلعين الآخرين المتعلقين بالعقل والارادة أو قصره عنهما يؤدي الى احتمال نشوء الوسوسة .

لقد سبق أن قلنا إن الوجدان إما أن يتباور ايجابيا حول الفكرة أو الافكار وإما أن يتبلور حولها سلبيا . والتبلور الايجابي يعنى الحب ، والتبلور السلبى يعنى الكراهية . وفي الموقف الشكى أو الاختيارى يبدأ الوجدان فى الاتجاه نحو الاختيارات المتباينة المتوافرة بالموقف فيتبلور حول بعضها بالايجاب وتبلور حول بعضها الآخر بالسلب . وطبيعى أن الأفكار التى يتم التبلور حولها وجدانيا بالسلب تستبعد من الاختيار . بينما تندرج باقى الأفكار التى تبلور حولها الوجدان بالايجاب فى قائمة الترشيح للاختيار . وهنا تبدأ عملية المفاضلة بين تلك الأفكار المرشحة للانتصار فى معركة الاختيار .

والواقع أن الوجدان عندما يتدفق بسرعة تجاه الأفكار المطروحة فى حضن الذهن فانه يكون كالفيضان السريع الذى لا يسمح بترسب الغرين على الصخور الموجودة بقاع النهر وعلى شاطئيه . فشدة تدفق الوجدان على الأفكار لا تسمح له بالتبلور سواء بالايجاب أم بالسلب . وبذا فان الأفكار تظل تصطدم بالوجدان ، ولعلها أن تدور فى محاور دائرية كما نشاهد فى الدوامات التى تحدثها شدة اندفاع التيار فى النهر لدى اصطدامها بالصخور

وبالعقبات التي تصادفها. ونحن نشبه تلك الدوامات النهرية بما يحدث في ذهن المرء من وسوسة ، أو نشبه الوسوس التي تسيطر على ذهن الموسوس بتلك الدوامات النهرية التي تتقاذف الأفكار بغير أن تبلور حولها وتتحد مع مقوماتها .

وكما كانت الأفكار المطروحة على مسرح ذهن المرء قليلة مع زيادة شدة الوجدان في نفس الوقت ، فإن تقاذف تلك الأفكار يكون شديدا بحيث لا تستطيع أن تقف أمام التيار ، وبحيث لا يتسنى لعملية التبلور أن يحدث كنتيجة لذلك التقاذف السريع الطائش . وهكذا نرى أن الوسوس تنشأ في حالات اشتداد الوجدان ونضوب معين الفكر . وهذا ما يقع لأولئك الأشخاص الذين تنور فيهم عواصف الوجدان بينما تنحصر أفكارهم في قليل من الأفكار. فتغلب الوجدان لدى الواحد من هؤلاء على أفكاره وعلى قدرته المنطقية في التفكير ، إنما يؤدي إلى إعاقة حركة التحول من حلقة الخيارات إلى حلقة اليقين ، أو بتعبير آخر من حلقة الشك إلى حلقة اليقين أو إصدار القرار .

ولعلنا نشاهد هذه الحالة لدى بعض الشعراء والموسيقين وقد توهج الوجدان لدى الواحد منهم واشتعل أواره . إنه يظل حبيس إطاره الفكري فلا يتمكن من قرص شعر أو من تلحين قطعة من الموسيقى . ولقد يظل الفنان - شاعرا كان أو موسيقيا أو غير ذلك من هياكل فنية - إلى حين يهدأ الوجدان لديه حتى يتساوى ضلعه - في تشبهنا للدهن بالمثلث - مع الضلع العقلي .

وإذا كان هذا هو حال الوجدان عندما تكون قوته أشد من قوة العقل ، فإنه أيضا حاله عندما تكون قوته أضعف من قوة العقل . فعندما يكون الوجدان ضعيفا تياره ، فإن احتمال تبلوره حول أفكار العقل يكون احتمالا ضعيفا . ومثل هذه الحال لا تسمح بأن تكتسب تلك الأفكار قوة دافعية تضمن لها اجتياز حلقة الشك أو الاختيارات إلى حلقة اليقين . فشرط ذلك الاجتياز الوصول إلى درجة معينة من التبلور إذا انخفضت عن معدلها فإن مثل ذلك الاجتياز لا يتم بل تظل الأفكار حبيسة العقل لا تريم عنه ، بل

تستمر دائرة في فلكه ببطء مما يجعل الشخص الموسوس يفكر ببطء في إطار ما قبض له من نشاط وجداني دافعي ضعيف .

والواقع أن هذا هو حال أولئك الأشخاص أصحاب الفكر الخصب والوجدان البارد . والموسوس من هذا النوع يكون من فئة الفلاسفة وأصحاب الفكر غير المتمتعين بوجدان غزير . ولعلنا لالخطيء إذا قلنا إن الأزمة النفسية التي يتعرض لها بعض الفنانين - وذلك بالوقوع في فخ الوسواس بسبب التدفق الزائد للوجدان بحيث يكون أشد قوة من الفكر - هي نفس الأزمة النفسية الوسواسية التي يتعرض لها بعض الفلاسفة . بيد أنه على الرغم من أن النتيجة في الحالين واحدة ، وهي الانحباس في إطار الفكر الخياري مع العجز في نفس الوقت عن اجتياز حلقة الشك أو الاختيار إلى حلقة القرار واليقين فان طوبوغرافية الدهن تختلف في الحالين . فبينما يكون أس الداء في حالات الفنانين الموسوسين هو طغيان الوجدان على الفكر ، فان أس الداء في حالات الفلاسفة الموسوسين هو طغيان الفكر على الوجدان . وفي الحالين لا يكون ضلع الوجدان مساويا لضلع الفكر .

وعلينا بعد هذا أن نتناول علاقة ضلع الوجدان وضلع الإرادة وكيف أنه في حالتى زيادة أو نقص طول ضلع الوجدان عن ضلع الإرادة في مثلث الدهن - المكون من ضلع العقل وضلع الوجدان وضلع الإرادة - ينشأ الوسواس في حياة المرء النفسية . إننا نقرر بداءة أن الوجدان يشبه الطاقة بينما الإرادة تشبه المحرك الذى لايسير إلا بفضل تلك الطاقة . والمحرك إذا كان ما يحتاج إليه من طاقة أكبر من الطاقة المتوافرة ، فانه لايعمل . وكذا فانه إذا كان محركاً ضعيفاً وصغير الحجم بينما تكون الطاقة قوية ، فانه يحترق ويبطل عمله أيضاً . ولكى يشتغل المحرك بطريقة جيدة ، فيجب أن تكون الطاقة المتوافرة مناسبة له ، أو بتعبير آخر تكون مساوية لما يتطلبه عمله من جهد .

وإذا صح هذا التشبيه ، فاننا نستطيع أن نقرر أن ضلع الوجدان في المثلث المذكور يجب أن يكون مساويا لضلع الإرادة حتى يتسنى استحالة

الأفكار المتلبسة بالطاقة الوجدانية بالدرجة المناسبة لاجتياز دائرة الشك أو الاختيار إلى دائرة القرار أو اليقين . ولكن إذا كانت قوة الوجدان أو طاقته أقل — أو أفصر — من قوة أو طول الإرادة ، فإن مثل هذا الاجتياز من دائرة الشك إلى دائرة اليقين يكون متعذراً . وعلى نفس المنحى فإن ذلك الاجتياز يكون متعذراً عندما تكون الإرادة أقوى مما قيض للمرء من قوة وجدانية .

وهناك في الواقع أشخاص تكون قوة وجدانهم أكبر من قوة إرادتهم . وهؤلاء الناس تجدهم يتحمسون لأفكارهم ولكنهم لا يستطيعون التعبير عنها أو إلباسها أثواب التعبير . فتجد الشخص وقد امتلأ قلبه شعراً أو صوراً وأخيلة فنية عديدة وقد أستولت على خياله ومشاعره وتحمس لها كل الحماس ولكنه لا يستطيع أن يخرج بأى منها إلى حيز التعبير الشعري أو القصصى أو التشكيلى . إنه يظل حبيس تلك الأفكار المتأججة بالوجدان والمتحدة معه على أحسن وجه بغير أن يتمكن من فك أسرارها والخروج بها إلى حيز الواقع وإحالتها إلى كائنات ذهنية حية في واقع الناس والأحياء على الورق أو على الحجارة تماثيل وتحفاً فنية . وطبيعى أن لاتظل الأخيلة ساكنة في عقل وقلب ثا ، ذلك الشخص الموسوس ، بل هى تضغط عليه ملحة لكى تتحرر ولكن لها أن تجد إلى الحرية سبيلاً وصاحبنا ضعيف الإرادة .

وبالنسبة للفئة من الناس الذين زادت قوة إرادتهم على قوة وجدانهم ، فانك تجدهم وقد طاشوا عما يجب أن يتصيدوه من أفكار متلبسة بالوجدان في أنحائهم . فالواحد من أولئك الأفراد ينزع ويعمل أو يتكلم وينتج ، بغير أن يكون قد رتب ونظم أفكاره المتلبسة بالوجدان . إنه كمن يسبق فكره لسانه أو قلمه عقله ، أو كمن تسبق يده فنه وفكره . فالأفكار الأصيلة التى تطالب بالخروج على شرفة الحياة تظل حبيسة بداخل المرء بينما تخرج إلى حيز الواقع حثالات ورواسب ذهنية منككة غير ملتحمة بفكر أو بوجدان . ومن الطبيعى أن يحس الموسوس من هذه الفئة بخيبة الأمل لأنه لايصيب مرمى فيما يقول أو فيما يعمل .

الوسوسة والإرادة :

عرضنا في الموضوع السابق لعلاقة الوجدان بالإرادة وكنا قد أشرنا من قبل إلى علاقة الإرادة بالعقل في مثلث الذهن المكون من العقل والوجدان والإرادة . وفي هذا المقام سوف نتناول زاوية أخرى جديدة ننظر منها إلى الإرادة في علاقتها بالوسوسة . ذلك أن للإرادة في رأينا معنيين أساسيين يدوران على ألسنة وأفلام الكتاب . أما المعنى الأول — وهو المعنى الشائع — فهو أن الإنسان يقود نفسه بنفسه فيما ينحو إليه من فكر وفيما يضطلع به من أعمال . وهذا المعنى ينطوي على الإيمان بحرية الإنسان فيما يفكر فيه وفيما ينهض به من أعمال وما يصدر عنه من تصرفات . أما المعنى الثاني — وهو المعنى الخاص أو الأقل شيوعاً — وهو المعنى الذي نجده شائعاً في كتب علم النفس التي تدرس السلوك الإنساني باعتباره واقعاً سلوكياً وليس واقعاً أخلاقياً — فانه يتناول الإرادة باعتبارها أقنوماً في ثلوث السلوك المكون من إدراك ووجدان ونزوع . وقد عمدنا نحن إلى إحلال العقل محل الإدراك لكي نتوسع بهذا المفهوم فنضمه الإدراك والذاكرة والتخيل والتصور . بل ولكي نضمه التفكير الشعوري في حال اليقظة والتفكير اللا شعوري والمرء في حال النوم أو في مرحلة ما بين اليقظة والنوم .

وما يستهويننا في هذا المقام هو تناول الإرادة بالمعنى الأول ، أعنى المعنى الأخلاقي . ولعل السؤال الذي يطفو على السطح لأول وهلة هو : هل يستطيع المرء أن يحمي نفسه بارادته من الوقوع في فخ الوسوسة ؟ ولعل السؤال الذي يتلو بعد ذلك هو : هل يستطيع المرء أن يتخلص من الوسوسة بارادته ما إذا ما وقع في فخها ؟

لقد قلنا إن تناول الإرادة بالمعنى الأخلاقي يحمل في حد ذاته التساؤل عن مدى ما يتمتع به الإنسان من حرية . فهل الإنسان هو الموجه لسلوكه وهو المسيطر على مقدراته أم أنه بمثابة قشة في مهب ريح القدر ؟ هناك في الواقع فئتان من الفلاسفة : فئة القدرية وهم قوم يحددون القدر فيقولون إن

كل عبد من عباد الله خالق لفعله متمكن من عمله أو تركه بإرادته ، بمعنى أنه سيد قدره ، وذئبة الجبرية وهم قوم يقررون أن الإنسان خاضع لمشيئة القدر المرسوم له حتى قبل أن يولد وأنه منفذ لمشيئته وليس لديه سلطان على تغيير مجريات حياته أو إثناء أحداثها عن أن تتبع . فالخير والشر مكتوبان على المرء . فكل خير كتب لنا لابد أن نحظى به . وكل شر كتب علينا لابد أن يقع علينا ولا راد للصير المحتوم أو للفواجع التي تنتظرنا في المستقبل القريب أو في المستقبل البعيد .

ولاشك أن كل فرفة من هاتين الفرقتين تقدم الأدلة التي تساند ماتذهب إليه وتؤمن به . ولابد لك أن تتنم لأحداهما . فلما أن تكون قدريا واما أن تكون جبريا . فإذا كنت قدريا فانك تؤمن بالتالي بأن في مقدورك أن تحافظ على نفسك من الانجاس في دائرة الشك أو الخيارات فلا تكون بذلك موسوسا . وأكثر من هذا فانك تؤمن بأنك إذا ما أصبت بالوسواس فانك تكون قادراً على التخلص منها وعبور الجسر المؤدية إلى اليقين . أعني الوقوع على خيار أو على خيارات تنتهي إليها وتخيرها دون سائر الخيارات الأخرى المتاحة بالموقف ، فتكون قادراً بالتالي على استبعاد باقي الخيارات التي لا يقع عليها اختيارك .

أما إذا كنت جبريا ، فانك سوف تتخذ الموقف المضاد ، فلا تعتقد إذن أن بمقدورك حماية نفسك من التردى في غياهب الوسوسة ، بل وأكثر من هذا فانك تؤمن بأنك إذا ما أصبت بالوسوسة فانك لا تستطيع إذن منها فككا ، بل تنتظر رحمة القدر بك إذا كان في قلب القدر رحمة تحمله على رفع غضبه عليك وتحليصك مما تورطت فيه من وسوسة أخذت بلبك وملأت عليك فكرك وشغلت شغاف قلبك .

والواقع أن المؤمنين بحرية الإرادة وسلطانها على السلوك ، إنما يؤمنون في نفس الوقت بأن ذلك المقوم النفسى أو الضلع الثالث في بناء الذهن البشرى غير خاضع من قريب أو من بعيد لعوامل التأثير البيئى المتباينة . فالإرادة في رأيهم هى عطية الهية مغروسة في قلب الإنسان لأشأن لها بما يكتسبه مما يدور

حوله من مؤثرات . فالإرادة الإنسانية في رأيهم هي صنو للضمير . فكلاهما مغروس في الإنسان وكأنها تبس الهى وضع في الإنسان بحيث يولد المرء بها . وكل مايتسنى للتربية عماه هو انعاش ورعرة هذين المقومين الروحيين و ابرازهما في مجالات اجتماعية ومواقف عملية وتصرفات سلوكية والمرء في حالة وعى وشعور ويقظة عقلية .

وفي مقابل القائلين بروحانية الإرادة والضمير نجد الفئة الأخرى القائلة بأن الإنسان مقسور على ما يضطلع به من أعمال وتصرفات . والواقع أن هذه الفئة من الناس إما أن يكونوا دجماطيين بمعنى أنهم يعتقدون في حقارة الجنس البشرى وضعفه الشديد بحيث يكون بمثابة قشة في مهب الريح أو بمثابة أداة منمادة للإرادة الالهية بحيث لا يكون له أى قبس من تلك الإرادة ، واما أن يكونوا ماديين تلواريين يعتقدون أن الإنسان يخلو تماما من العناصر والمقومات التى لا تتشكل بالتربية . فالإنسان أبن للبيئة التى نشأ فيها . فهو كالنبات والسيوان بل هو كإلواح الخشب فى يد النجار يشكله بمنشاره كيفما يشاء . ومن ثم فإن البيئة والنشأة منذ الطفولة هما المسئولان عن تشكيل وصياغة لإرادة المرء . فاذا ما وقع الإنسان فريسة للوسوسة ، فانه لايجد إرادة حرة مسيطرة تسعفه وتناصره بل إن منهووم الإرادة كقوم له قوامه المعارض والمناهض للسكان النفسى ولاتيار الشعورى ، إنما هو فكرة زائفة من أساسها .

ولايفوتنا أن نذكر أيضاً أن هناك بالإضافة إلى فئة الروحانيين القائلين بالقدرية وبأن الإنسان هو صانع قدره ، فئة أخرى نشأت كثورة ضد الجبريين الدجماطيين . فهذه الفئة تقول إن الإنسان سيد قدره لاصدورا عن وازع دينى بل عن وازع الحادى . فهم ينكرون وجود اله رسم للإنسان خطوط حياته أو يتدخل من قريب أو من بعيد فى حياة الإنسان ، بل هم يعتقدون أن الإنسان هو اله الأرض ، وبالتالي فهو القيم على ذاته وعلى أفعاله وأفكاره . وبالتالي فانه يستطيع أن يحمى نفسه من الوقوع فى براثن الوسواس كما أنه يستطيع أن ينقذ نفسه من هوة الوسوسة إن هو وقع فيها .

ونحن نؤمن بأن الإنسان كائن حيواني من جهة وكائن روحي من جهة أخرى. فهو وإن شارك الحيوان في قوامه الجسمي ، فإن له تطلعات وقدرات روحانية كثيرة وإن كان إنسان الحضارة قد فقد الكثير من منشطاتها . وشاهد ذلك أن إنسان الحضارة يفسر العالم من حوله بالآلية فحسب . فهو يستبعد وجود إرادة لها سلطان على مقدرات الإنسان . ولكن الإنسان قديما كان أكثر إيمانا بالجانب الروحاني في قوامه . ومن ثم فإن ذلك الجانب كان يلقي منه رعاية وعناية . بل إن حياة المرء كانت زاخرة بفعل الروحية في حياته اليومية .

فالإنسان وفقا لهذه النظرة الروحية يستطيع أن يحمي ذمار نفسه من الوسوسة ، بل ويستطيع أن يعالج نفسه مما يتردى فيه من وساوس تسيطر عليه حيناً من الزمن . فالإنسان الذي يستلهم القوى الروحية الخارجة عن نطاقه الجسمي والواقعي إنما يستمد منها القوة التي يدعم بها إرادته . ولكم استطاع الإنسان أن يشحذ إرادته وأن يقويها ويجعل منها مهيمناً ومسيطرًا على مقاليد أفكاره . على أن هذا لا يحول دون القول بضرورة الاستعانة بالتمرن لبلوغ هدف التحرر الفكري .

ولعلنا نوفق إذا نحن جمعنا بين المعنيين اللذين عرضنا لهما في مستهل هذا الموضوع ، أعنى المعنى الأخلاقي والمعنى السيكلوجي . فالجمع بين المعنيين يقفنا على تأثير الإرادة في علاقتها بالوسوسة . ونحن لا نجد تناقضا بين جمع المعنيين في قوام واحد أو في مضمون معنوي واحد . وعلينا أن نذكر بضرورة اتساق وتناسب قوة الإرادة مع قوة الضلعين الآخرين في مثلث الذهن كما قررنا قبلا . ومعنى هذا أن الإرادة يجب أن تقوم بعملية تكييفية ذهنية وجدانية ، بحيث يتحقق انسجام الدفع الإرادي للأفكار من حيز الشك الى حيز اليقين . ولسنا ننسى بالطبع قطاع التصرفات والأعمال التي تحتاج الى حسم وخروج من نطاق الشك أو الخيارات الى نطاق القرار واليقين . على أن الدفع الإرادي السليم يحقق كما أوضحنا اليقين المنشود ، ويحمل المرء على عدم الارتواء في أحضان الوسوسة . فالمطلوب إذن هو توافر الرزاة الارادية

بحيث يتم ويتحقق ما يمكن أن نسميه بالتكامل الذهني . أعنى تعاون العقل والوجدان والارادة بحيث لا يسبق أحدها المقومين الآخرين . وبحيث تكون أضلاع مثلث الذهن متساوية ومتعايشة بانسجام بعضها مع بعض .

الوسوسة والثقة بالنفس :

عرضنا في الموضوع السابق لمعنيين للارادة : المعنى الأخلاقي والمعنى السيكلوجي . وفي هذا الموضوع سوف نعرض للدفة المحركة للارادة ، سواء بالمعنى الأول أم بالمعنى الثاني . والدفة التي نعنيها هي ثقة المرء بنفسه . ونستطيع في الواقع أن نعقد تشبيها بين الجهاز النفسي لدى الانسان وبين السيارة . فالثقة بالنفس تشبه قائد السيارة ، والعقل يشبه تركيب السيارة والعلاقات القائمة بين اجزائها المتباينة القائمة على مجموعة من النظريات العلمية . أما الوجدان فهو يشبه الوقود الذي ينشط تلك التركيبات ويفعم تلك العلاقات بالحوية . أما الارادة فانها تشبه الحركة التي تصدر عن السيارة بالداخل والخارج على السواء .

ولقد يجوز لنا أن نتخيل سيارة تدور وتكون جميع مقوماتها الأساسية — أعنى أجهزتها والبنزين والزيت والبطاريات ثم محركها — سليمة تماما ولكن قائدها يكون جاهلا بفن القيادة ومن ثم فان عجزه عن قيادة السيارة بفن ومهارة قد يعرضها للخطر أو قد يعمل على إفسادها وعدم تحقيق التكامل بين مقوماتها الأساسية التي عرضنا لها . وبالمثل فان النقص في الثقة بالنفس أو الاصابة بالغرور يمكن أن يؤدي الى إفساد العلاقات المتسمة بالانسجام فيما بين العقل والوجدان والارادة . ولقد يؤدي النقص في الثقة بالنفس أو الاصابة بالغرور الى الاصابة بالوسوسة .

وعلينا بادىء ذى بدء أن نحدد معنى الثقة بالنفس . ثم علينا أن نحدد بعد ذلك علاقة الثقة بالنفس بالوسوسة .

إننا نعلم أن الانسان يعتمد الى تقدير قيمة الأشياء والعلاقات بصفة دائمة فهو دائم التقييم لكل ما يقع عليه بصره ولكل ما يصل الى سمعه بل ولكل

ما يصل الى أى حاسة من حواسه . ولعل الانسان يتخذ من تقيّماته الحسية أساساً ونقطة انطلاق لتقيّماته الأخرى . فهو يقوم بتقييم ما يترسب في ذاكرته وما يقوم بتخيله ثم ما يقوم بتصوره في صور تجريدية ومعاني مطلقة من قيود الواقع المحسوس . وبدءاً من التصورات الذهنية المجردة ينشأ نوعان جديدان من التقييم : تقييم يتعلق بالخير والشر ، وتقييم آخر يتعلق بالجمال والقبح . والواقع أن الشر والقبح هما انعدام وجود الخير والجمال . ويجب أن نميز بين ما ينشأ من تعقيدات نتيجة افتقاد الخير والجمال ، وبين مجرد انعدام وجود الخير والجمال . فالقتل شر ولكنه ليس مجرد انعدام الخير الذى هو الحب ، ولكنه بمثابة تعقيدات تترتب على انعدام وجود الحب . وكذا يقال عن الدمامة . لأنها ليست مجرد عدم وجود الجمال بل هى تعقيدات تترتب على عدم وجود الجمال .

والانسان لا يقصر تقيّماته على ما يقع خارج ذاته ، بل هو يأخذ ذاته أيضاً في الاعتبار فيقوم بتقييمها . وتقييم الذات ينصب بصفة جوهرية على جانبين هما الخير والجمال . صحيح هناك تقيّمات أخرى كالنظافة والنظام ونحوهما . ولكن اعتقادنا هو أن المحورين الرئيسيين لتقييم الذات هما محورا الخير والجمال ، ولا تعدو التقيّمات الذاتية الأخرى عن أن تكون انبثاقات وتفرعات وانشعابات عن هذين المحورين الرئيسيين .

وإذا رجحت كفة تقييم الذات نحو الخير والجمال ، اكتملت عندئذ ثقة الشخص بنفسه . أما إذا ما مالت كفة التقييم نحو الشر والقبح أو نحو أحدهما فاعتقد المرء أنه شرير أو أنه قبيح ، فان تقديره لذاته يتدهور أو ينحط ، وبالتالي فان ثقته في نفسه تقل أو تنعدم . ومن الطبيعي أن نجد أن الثقة بالنفس تتفاوت من شخص لآخر ، بمعنى أن الثقة بالنفس ليست مجرد وجود أو عدم وجود بل هناك أطراف من الثقة بالنفس يمكن أن تبدى في حياة الناس على تباينهم ، بل ان الثقة بالنفس تتفاوت لدى نفس الشخص من وقت لآخر . والواقع أن الظروف الصحية والاقتصادية ومقارنة الشخص لنفسه في ضوء الموقف الذى يوجد فيه أشخاص آخرون أقوى منه جسماً أو أكثر منه علماً

أو مقاما إنما تلعب دورا هاما في تحديد مدى ثقة ذلك الشخص في نفسه ، وبالتالي فان ثقة نفس الشخص في ذاته تتباين من وقت لآخر ومن موقف الى موقف آخر ، وبمقارنته لنفسه مع شخص ما عن مقارنته لنفسه بشخص آخر .

ولعلنا ننظر الى نقص الثقة بالنفس أو انعدامها في ضوء الرغبة الشخصية. فأنت عندما تقوم بتقييم الخير أو الجمل في أحد الاشخاص فانك في الغالب لتجد سراحا بين تقييمك له بأنه شرير أو بأنه قبيح مع ما تنحو اليه نفسك وتتوق اليه رغبتك اللهم الا اذا كان منتسبا اليك ويعتبر امتدادا لك كما هو الحال اذا كان تقييمك ينصب على ابنك أو ابنتك . ولكن تقييمك لنفسك بأنك شخص شرير أو شخص قبيح وما يترتب على مثل هذا التقييم من نقص أو فقدان ثقتك بنفسك ، فانه يجد مناهضة من قبل ذاتك ، وذلك كتعبير عن رفضك أو عدم رغبتك في الاعتراف بأنك شرير أو قبيح . ومن ثم فانك تصدر أمرا الى نفسك بأن تعاود تقييم ذاتك من جديد .

والواقع أن ما يحدث بالفعل هو أن الشخص لا يصدر قرارا بأنه شرير أو قبيح ، بل إنه يعلق لإصدار قراره ، بمعنى أن الوصول الى بر اليقين بأنه قبيح أو شرير لا يكاد يحدث . فهو يظل في دائرة الشك بصفة دائبة في الغالب مقارنة بين ما يتمتع به من خير وما ابتلى به من شر ، ثم هو يقارن بين ما يتمتع به من جمال وما يريم على وجهه من قبح بغير أن ينتهي الى رأى . ومعنى هذا أن الشخص الموسوس هو شخص لا يعترف اعترافا صريحا بينه وبين ذاته بأنه شرير أو قبيح ، بل هو يظل معلقا حكمه على ذاته بغير أن يقر له قرار .

ولقد تمتد الوسوسة في علاقتها بالثقة بالنفس الى الناحية العقلية . فكثير من حالات الوسوسة ينصب على العمليات الحسابية في الحياة اليومية . فبعد أن يشتري الموسوس شيئا وينصرف من المحل التجاري ، فانه يأخذ في حساب ثمن البضاعة التي اشتراها بصفة مستمرة بحيث يعيد ويزيد في ثمن كل سلعة ويقوم بجمع ثمن جميع السلع وما قدمه الى الخزينة وما استرده منها أى الزائد

عن ثمن السلع . وما يكاد ينتهى من هذه العمليات حتى يبدأ من جديد فى نفس العمليات فى شكل دائرى وكأن دوامة عقلية قد لفته فى طياتها . وهنا يجب أن نميز بين موقفين متشابهين : الأول - يتعلق بالجانب الموضوعى ، والثانى يتعلق بالجانب الذاتى . فلقد يكون شك الشخص منصبا على ما قدمه الى الخزينة وما استرده من نقود متبقية له بعد حساب ثمن البضاعة بغير أن يكون لهذا الموقف صلة بذات الشخص أو بعدم ثقته فى ذاته . ولكن قد يكون مصدر القلق الذهنى والوقوع فى براثن الوسوسة هو نقص الثقة بالنفس ، أعنى عدم ثقة الشخص فى جهازه العقلى وإحساسه بالعجز عن إجراء العمليات الحسابية . ففى هذه الحالة يكون الموسوس غير قادر على الخروج من إطار الشك أو الخيارات أو تأمل الاحتمالات فى العلاقات الرقمية بحيث يخرج الى إطار اليقين حيث تنتهى المسألة بالنسبة له ولا يعود الى التفكير فى إطار الحلقة المفرغة التى ينحبس فيها ويوصف عندئذ بأنه شخص موسوس .

ولقد تمتد الوسوسة فى علاقتها بالثقة بالنفس الى الناحية الوجدانية . فثمة بعض الموسوسين الذين تسيطر عليهم مخاوف غامضة من بعض الأشياء أو المواقف التى لم تكن لتخيفهم لو كشف النقاب عن حقيقتها وجدانيا لا ذهنيا أمام أعينهم العاطفية . من ذلك مثلا أن يخاف أحد الموسوسين من الإصابة بالعدوى أو من بعض الكائنات الحية التى لا تخيف كالفران أو الصراصير أو الخوف من الأماكن المرتفعة أو الأماكن المغلقة أو الأماكن المظلمة . والتفسير النفسى لتلك المخاوف وأمثالها هو الانحباس فى إطار الشكوك أو الخيارات بغير قدره على الخروج من دائرتها الى دائرة اليقين . فثمة نوع من المفاضلة الوجدانية بين الخطر والأمن ، أو بين الضرر وعدم الضرر . فلو أن الموسوس قد انتهى الى معرفة يقينية بأسباب المرض لكان قد أخذ احتياطاته المعقولة منه . ولكن لأنه دائب المفاضلة اللاشعورية ، فانه يبالغ فى حماية نفسه من المجهول الذى لم يحده تماما . ولكأن الموسوس يقول لنفسه « إني حبيس إطار واحد ولم أصل الى قرار اختياري . ومن ثم فإن الخطر محدد بى لأنى طالما لم أصدر حكما قاطعا ، فانى لم أستب الحُدود التى أستطيع الوقوف عندها لا أتخطاها . ولكن

حيث أن الغموض يكتنفني ، فلا مناص من أن أتخذ الموقف المتطرف من الاحتياط . فما نشاهده من غسال يصاب به مثل هذا المريض بالخوف من العدوى إنما هو العرض الذي يتلبس به الموسوس وليس هو الوسوسة ذاتها . فالوسوسة هي الانحباس في إطار الاختيارات بغير قدرة على الخروج من اسوارها الى فسحة ورحابة اليقين والتوصل الى قرار .

الوسوسة والواقع الخارجى :

لاشك أن ارتباط المرء بالعالم الخارجى ارتباطا تفاعليا إنما يحول بينه وبين الوقوع في فخ الوسوسة . ذلك أن الأصل في الوسوسة الانغلاق في عالم العقل بغير قدرة على الخروج من إطار هذا العالم الى عالم الواقع ، وذلك باتخاذ قرار والوقوع على خيار من بين كثير من الخيارات التي كانت مطروحة في نطاق ذلك العالم العقلي الداخلى . فأنت في يوم عطلتك الأسبوعية قد تسرح بطرفك فيما سوف تقضى فيه وقتك . لقد تطرح أمامك مجموعة من الخيارات وفي النهاية تقرر الذهاب الى النادي مثلا حيث تقابل نفرا من أصدقائك . ولكن هذا الخيار لا يكون حاسما الا اذا توجهت بالفعل الى النادي . ولكن اذا اقتصر اختيارك على مجرد التفكير دون الفعل ، فانه لا يكون من الخيار في شيء . إنه كما قلنا يشبه الوليد المبتسر .

وفي حالة تحول الشخص من قراره الذهني الى مجال الاختيارات قبل أن ينفذ فكرته في الواقع وقد أخذ يحيل بصيرته فيها ثم يعود الى قراره الذهني السابق ، ثم يعود من جديد الى مجال الخيارات فأننا نسمى مثل هذا بالوسوسة أيضا . وبهذا فأننا نكون قد أضفنا بعدا جديدا الى الوسوسة الى جانب البعد الذي حددناه لها قبلا وهو الانحباس في إطار الخيارات بغير أن يستطيع المرء أن يخرج الى إطار القرار أو اليقين . والبعد الجديد الذي أضفناه هنا هو ذلك التناوب الذي يتقلب عليه ذهن المرء . فتجده بين مجالين متباعدين : المجال الأول هو مجال الخيارات أو المتغيرات يحيل المرء بصيرته فيها ، والمجال الثاني هو مجال يخلص فيه الى خيار واحد أو أكثر بينما يحذف أو يستبعد باقي الخيارات ولكن الموسوس ما يفتأ يستعيد ما سبق له حذفه أو استبعاده ويبدأ من جديد في إحالة بصيرته فيه . ثم ينتهي الى الوقوع على نفس الخيار أو نفس الخيارات

التي سبق له الوقوع عليها وانتقاؤها دون باقى الخيارات . ثم يعاود الكرة الى غير نهاية بحيث يكون شأنه شأن بندول الساعة في تأرجحه بين قطبين متقابلين متباعدين .

ولعلنا نضيف أيضا نوعا جديدا أو بعدا ثالثا للموسوسة — وهو في هذه المرة يتعلق بالناحية الوجدانية . فالموسوس في ارتباطه بالعالم الخارجى يوجه حبه ثم كراهيته الى نفس الشيء في تتابع وبغير أسباب موضوعية تحمله على تغيير موقفه الوجدانى . لقد تجد الموسوس يحب زوجته مجنون الى درجة العبادة ، ولكنه بغير مقدمات أو أسباب ينقلب عليها شر منقلب ويبدى لها كل علامات الكراهية والمقت . ولكنه ما يفتأ يعود الى موقفه الوجدانى الأول فيستعطفها ويبدى لها كل الشراهد الساوكية التي يعبر بها عن حبه لها وارتباطه وجدانيا بها . ولكن هل يستمر الموسوس على حاله ؟ إنه يفشل في الركون الى حالة واحدة : بل إنه ينمشل في إلهام نفسه وتحقيق التوازن الوجدانى في قلبه وفي ساوكة ، فهو ينقلب من حالة الحب الى حالة الكراهية بنير أسباب تستوجب ذلك . وانك لتجده في غمرة حبه وملاطفته لزوجته وقد انقلب كالتمر الكاسر يهتفها أو يضربها ويسبها بأقذع الشتائم . وهكذا يظل ذلك الزوج الموسوس كبندول الساعة بين حب وكراهية . وبين إقبال وادبار ، وبين الايجابية والسلبية الوجدانية .

وما يقال عن علاقة الموسوس بالناس ينسحب أيضا بازاء المناشط التي يضطلع بها . فهو يتقلب بين الحب الشديد لعمله وبين كراهية ذلك العمل . لقد تجد الرسام الموسوس وقد انكب على لوحاته بتهشق شديد حتى لقد يصرف نهاره وشطرا كبيرا من ليله وهو يرسم بنهم . ولكن هذه الحال لا تستمر طويلا . فلقد ينقض على ما قام برسمه ينزقه أو يحرقه . ولقد ينتحب ويبكى بشدة نادما على افساد لوحاته أو حرقها . وقد يقلع عن الرسم وهو يسب ويلعن الرسم ، ثم يعود الى فرشاته من جديد . ولكن لا تكون هناك مصالحة بينه وبين فنه بغير انقلاب الى الكراهية والمقت ، بل إن تلك المصالحة

والوثام بين مزاجه وبين فنه ما تفتأ تنقلب الى مناهدة وتناذب بين مزاجه الموسوس وبين فنه .

وعلى هذا فاننا نكون قد حددنا ثلاثة أبعاد أو ثلاثة معان للوسوسة على النحو التالى :

فهناك أولا — المعنى الأول الذى سقناه فى أول حديثنا عن الوسوسة ، وهو انحباس المرء فى اطار الخيارات المتاحة فى الموقف سواء طرحت أمام ناظرى المرء أم كانت من ابتكاره وخلقه ، وعجزه عن الخروج بخيار أو أكثر مع اطراح واستبعاد باقى الخيارات .

وهناك ثانيا — المعنى الثانى الذى قدمناه لتونا فى أول هذا الموضوع وهو التذبذب بين الخيار المفضل وبين استعادة الخيارات التى سبق استبعادها ، والتذبذب بين الشك واليقين بصفة متواترة .

وهناك ثالثا — وأخيرا المعنى الثالث للوسوسة وهو التقلب بين الحب والكرامية ازاء الموضوعات الخارجية من أشخاص وأشياء ومناشط .

ونحن فى الواقع لا نعتبر السلوك مكتملا الا اذا خرج من حيز الداخل الى حيز الخارج فى أى صورة من صور التعبير الخارجى . فنحن لا نفرق بين شخص يصنع شيئا بيديه وبين شخص يفوه بما يدور بخلفه يكتبه على ورق أو يحيله الى صورة مرسومة أو الى تمثال . ولا نفرق أيضا بين شخص يقتل شخصا آخر وبين شخص لا يبدى سوى علامات الامتعاض من تصرف لا يعجبه بلوى شفتيه . وعدم تفرقتنا بين هذه الألوان السلوكية يتأتى عن كوننا نحدد معنى السلوك الى الخارج بأنه التعبير عما يخالج المرء من فكر أو مشاعر بوسيلة أو بأخرى ولا يهم ما عسى أن تكون تلك الوسيلة المستخدمة .

المهم هو أننا نعتبر الشخص موسوسا اذا انحبس فى إطاره الداخلى يجيل فكره فيما عساه فاعله وقد وضع نصب عينيه عدة خيارات بغير أن ينبجج فى الوقوع على خيار من بينها وأن يستبعد من ثم باقى الخيارات التى لم تحظ باختياره . فالشخص الذى يتلقى إهانة من شخص آخر ، فأخذ يفكر كيف

يرد عليه ، فصار أمام ذهنه عدة طرق للرد على الإهانة ولكنه ظل يتأمل تلك الوسائل واحدة بعد أخرى ويعاود التفكير فيها المرة تلو المرة الى غير نهاية بغير أن يصدر قرارا باختيار واحدة منها ، يعتبر في نظرنا شخصا موسوسا . ذلك أن الخيار الذى نعينه لا يمكن أن يكون عقليا فحسب ، بل يجب أن يكون عقليا وواقعا أيضا .

وافترض أيضا أنى فكرت فى موضوع كتاب أقوم بتأليفه ، ولكن تواردت على ذهنى موضوعات أخرى كثيرة ترشح نفسها أمام ذهنى بحيث يطالب كل موضوع منها بأن يحظى باختيارى . ولكنى ظلت أتناول كل موضوع من تلك الموضوعات أجيل فيه فكرى ثم ظلت على هذه الحال بغير أن يقع اختيارى على واحد منها . انى أكون اذن شخصا موسوسا . ثم افترض أنى اخترت بالفعل واحدا منها وآثرته على باقى الموضوعات ، ولكنى ظلت أفكر فيه بغير أن أخط كلمة واحدة فيه . انى أكون أيضا فى هذه الحالة الأخيرة شخصا موسوسا . فلكى لا أكون مرسوسا فلا بد من خطوتين أمتداهما جميعا : الخطوة الأولى الانتقاء وحذف الموضوعات الباقية ، والخطوة الثانية — هى تجسيد هذا الموضوع على هيئة كتاب أقرم بتأليفه . وحتى اذا أنا بدأت فى تأليف الكتاب ثم توقفت فى منتصفه ولم أتمه فانى أكون أيضا شخصا موسوسا . فلا بد من الاختيار والتجسيد والاكمال حتى أكون قد خرجت من حيز الشك الى حيز اليقين . واليقين يجب أن يكون يقينا موضوعيا وليس يقينا عقليا محصورا فى نطاق الداخلى فحسب .

ولكى أنحرز من الاصابة بالوسوسة فلا بد لى من الارتباط بالواقع العملى . على أن مثل ذلك الارتباط لا يتسنى للمرء الا إذا تمكن من اكتساب مجموعة من العادات السلوكية . ولعلنا نربط هنا بين العادات وبين المهارات والوسائل . والمهارة يمكن أن تكون أدائية ويمكن أن تكون تعبيرية ويمكن أن تكون اجتماعية ، ويمكن أن تكون وجدانية تأثيرية . وكلما أكتسب المرء وسيلة جديدة للتعبير بها عن واقعه الداخلى وتمكن من تلك الوسيلة بحيث جعل منها إحدى عاداته ، فانه يكون قينا بالألا ينزلق إلى هوة الوسوسة . فلقد

وجد أن الكثير من الوسوس تكون نتيجة نقص في مهارات التعبير عن الذات ونتيجة الافتقار إلى المهارات اللازمة لذلك التعبير . ولاننسى دور الأجهزة وما يتوافر للمرء من أدوات في البراءة من الوسوسة . فلا شك أن الكاتب الذى يرمى به بين حوائط سجن وقد حرم من توافر الورق والقلم بين يديه . إنما تستحيل أفكاره إلى وسوس لأنها لاتجد لها منفذا إلى الواقع . ويقال نفس الشيء عن الفنان والمصلح الاجتماعى والصانع ومن اليهم من أشخاص .

الفصل التاسع

أنواع الوسواس

الوسواس المنطقي والحساسية :

بعد أن عرضنا في الفصل السابق لمعنى الوسوسة ، فإننا نركز جهدنا في هذا الفصل في أنواع الوسواس المتباينة التي يتردس المرء للإصابة بها سواء كانت إصابته بها مؤقتة عابرة أم كانت مستمرة ومسيطره على سلوكه . ولنبدأ بالوسواس المنطقي والحساسية . وهذا النوع من الوسواس لا يصيب الأنبياء الذين يشاهدون أنفسهم من خلال الواقع الخارجى ، بل يصيب الانطوائيين الذين يقفون على الوجود من خلال أنفسهم . وبعبارة أخرى أولئك الذين يفسرون الوجود من خلال منظرهم النفسى لا من خلال الواقع المحيط بهم .

وترتبط الوسواس المنطقية بما يعرف في علم الصحة النفسية بالأفكار الثابتة . والفكرة الثابتة هي فكرة شحورية تستأثر بالجهد العقلى للموسوس . بيد أن الفكرة الثابتة تبدو حكما قاطعا يصدره الموسوس ، ولكنها في الواقع ليست كذلك . إنها بمثابة تساؤل يحير عقل الشخص المصاب بالوسوسة . ولنأخذ مثالا يوضح ما نزعمه هنا . قد يصاب أحد الموسوسين بفكرة ثابتة تتمثل في التساؤل عن الكون : هل هو خاضع لنظام ثابت فلا يحيد عن الخطوط التي رسمت له منذ الأزل وستظل كذلك راسخة ثابتة غير متغيرة إلى الأبد ، أم أن الكون يسير بطريقة عشوائية ووفق ما يمكن أن يسمى بالاحتمالية ؟

لاشك أن مثل هذا التساؤل يمكن أن يعرض لأى إنسان مفكر ، بل إن كثيرا من الفلاسفة المشهود لهم برجحان العقل وبعدم الإصابة بالوسوسة قد

تضرقوا إلى هذه المشكلة . ولكن في حالة الموسوس فان المسألة تتلبس أكثر من مجرد إثارة لمثل هذه المشكلة . فثمة أولا بعد وجداني ملح يسيطر على حياة المرء في يقظته ومنامه حيث يكلفه ذلك شططا وبخيث يصيبه بالارهاق النفسى ويخمله على صرف طاقاته النفسية بكثرة التفكير وبكثرة ما يحمله ذلك من منغصات نفسية . ذلك أن مثل ذلك الشخص الموسوس يكون كارها التفكير في مثل هذا الأمر . وقد أحس إحساسا وجدانيا عميقاً بأن وسواسه قد سيطر عليه ولم يسيطر هو عليه . ففألبد الأمر ليست في يدي الموسوس وليس في مقدوره أن يبعد ذلك الطائف النفسى الذى ألم به وأسره في إساره وأوقعه في حباله . ولعل الارهاق الوجداني يتأتى للموسوس لأنه يندب عنه وسواسه بغير ما جدوى أو نفع . وهو في ذبه هذا لوسواسه إنما يبذل من الطاقة الوجدانية القدر الكبير .

وثمة فارق آخر بين الموسوس المنطقي وبين الفيلسوف هو أن الفيلسوف يكون متعمقاً في فكره ومرتكنا إلى أسس عقلية وثقافية مكيّنة تسمح له بالتفكير العميق في مثل هذه المشكلة ولكن الموسوس لا يستند في الغالب إلى عمق ثقافى . ولا يكون تفكيره الوسواسى استمرارا ونموا لسلسلة متصلة الحلقات كما هو شأن الفيلسوف ، بل إن وسواسه يسيطر عليه فجأة وبغير مقدمات أو أسس فلسفية . لقد يكون الموسوس أبعد ما يكون عن التفكير الفلسفى . لقد يكون الموسوس عاملا أو محاسبا أو طالبا بالمرحلة الثانوية أو في أى موقع من مواقع الحياة التى لا تتصل بالفلسفة من قريب أو من بعيد .

وإذا نحن تناولنا المثال الذى ضربناه خاصا بالوسوسة المنطقية أو الفلسفية فالتنا نجد أن الفكرة الثابتة الرابضة على ذهن الموسوس عبارة عن خيارين . فلما أن يكون الكون متسقاً ومنظماً ومرتباً ترتيباً أزليا أبدياً ، واما أن يكون الكون خاضعاً للمصادفات والاحتمالات ولا يكون منظماً تنظيمياً أزليا أبدياً . وواضح أن الموسوس يظل في مواجهة هذين الاختيارين لا يريم عنهما ، ولا يخلص بواحد منها ورافضاً الآخر . إنه لو فعل ذلك لما كان إذن موسوس

ولارتاح اذن باله ، ولانصرف بالتالى إلى غير ذلك من أفكار أو مشكلات
ولكان فيلسوفاً إذن وليس موسوساً .

فالفرق بين الفيلسوف وبين الموسوس هو أن الفيلسوف يكون ذا بصر
بعيد بالمشكلات التى يعرض لها من جهة ، كما أنه يكون قادراً على عبور
نطاق الشك إلى نطاق اليقين من جهة أخرى .

وهن الوسواس المنطقية الفلسفية أيضاً ذلك الوسواس المتعلق بحقيقة
المعرفة . فهل ما يصل إلى إدراكنا هو الواقع أم أنه زيف من الزيف ؟ وهل
ما نشاهده فى يقظتنا جدير بالتصديق أم أنه حلم مستمر ؟ وألا يجوز أن تكون
أحلامنا هى الجديرة بالتصديق وليس ما نشاهده فى يقظتنا ؟ وهل ما نتذكره
يكون مطابقاً لما مر بنا قبل ذلك أم أن ما نتذكره قد يكون مخالفاً تماماً أو إلى
حد بعيد لما وقع بالفعل ؟ إلى غير ذلك من تساؤلات حول المعرفة .

والواقع أن الفلاسفة من أمثال ديكارت يتساءلون حول صدق المعرفة
بنفس هذه الطريقة . ولكن ما يختلف فيه الفيلسوف عن الموسوس هو هذان
الجانبان اللذان أشرنا إليهما بصدد حديثنا عن الوسواس السابق . فالفيلسوف
يكون على بينة من أمره ، بل ويكون متعمقاً للمسائل الفلسفية بحيث يكون
فكره الفلسفى متسقاً ومتسماً بالاستمرارية . أما الموسوس فانه لا يرتكن إلى
أصول ولا يعتمد فى تفكيره على أسس مكينة . إنه يتسم فى تفكيره بالطفوة
بل وبالهلهلة والتفكك . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الفيلسوف ينجح
فى الخروج من دائرة الشك والانخراط فى دائرة اليقين . فهو بعد أن يطرح
أمام ذهنه هذا التساؤل : هل أثق فى معرفتى ؟ فانه ينتهى إلى نتيجة سواء
كانت تلك النتيجة بالإيجاب أم بالسلب . ولكن الموسوس يظل على حاله .
فهو يقتصر على إثارة السؤال بغير أن ينتهى إلى رد . إنه يجيل بصيرته أمام
الخيارين المتاحين أمامه ويظل على هذه الحال بعصفة مستمرة . ناهيك عن أنه
يبدل الجهد النفسى ويجهض طاقة وجدانية كبيرة لابعاد شبح وسواسه عن
ذهنه ولكن بغير ما جدوى . فهو انحبس فى هذا الاطار الوسواسى وقد

عجز عن إبعاد الفكرة الثابتة عن ذهنه — أو قل الفكرة الثابتة ذات الشقين التي سيطرت على جماع فكره — بغير أن يتسنى له ذبها ، وبغير أن يتمكن من جتياز جدار الشك إلى بر اليقين كما يفعل الفيلسوف .

وبالنسبة للموسوسة الحسابية ، فإنها تصيب بعض الشباب من الجنسين . فالموسوس يجد نفسه مضطراً إلى إجراء عمليات حسابية مستمرة في ذهنه . فهو يضطر إلى عد أعمدة التليفون في أثناء سفره بالقطار ، أو يضطر إلى عد البيوت أو إلى جمع كل رقم يشاهده على أحد المنازل فيضيفه إلى الأعداد السابقة في ذهنه . وهذا الوسواس الحسابية هو خيار بين الصواب والخطأ . الموجود في هذا النوع من الوسواس الحسابية هو خيار بين الصواب والخطأ . فالموسوس في أثناء إجرائه لعمليات الجمع والنرح والضرب والقسمة يدأب على إثارة هذا السؤال : هل الإجابات التي توصلت إليها بذهني صحيحة أم أنها خاطئة ؟ ولذا فانك تجد أن الموسوس الحسابي يكرر العمليات الحسابية التي أجراها في ذهنه إلى ما لا نهاية . ولقد سبق أن ضربنا مثالا بالشخص الموسوس الذي يظل يحسب نقوده بعد خروجه من المحل التجاري الذي اشترى منه إحدى السلع . وحتى بالنسبة للشخص الذي يقوم بعد أعمدة التليفون في أثناء سفره بالقطار ، فانه يتساءل : هل قت بعد جميع الأعمدة أم فاتني عد إياها أحد ؟ وهل وقع خطأ في العد أم أن العمليات التي أجريتها سليمة ؟ ولعل الوسواس الحسابي هو شاهد أكيد على عدم ثقة الشخص في ذهنه وفي قدرته الحسابية ولا ينهض شاهداً على ثقته بنفسه في هذا الصدد . ذلك أن النابغة في المسائل الحسابية ينصرف غالباً إلى المستويات العليا من التفكير الرياضي ولا يمحصر ذهنه في عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة . ولقد تجد لدى الموسوس الحسابي آلة حاسبة بين يديه ولكنه لا يركزن إليها ولا يعتمد عليها بل يظل يحسب العمليات الحسابية الذهنية التي يكون يتمدوره أن يجريها بسرعة وبدقة تامة بالآلة الحاسبة .

ويقول لنا علماء النفس إن الوسواس المنطقية الفلسفية وكذا الوسواس الحسابية إنما هي مجرد عرض لقلق نفسي متمكن في الشخصية وجعله منفذاً

ينفذ من خلاله هورتلك القوالب المنطقية الفلسفية أو القوالب الحسابية الرتيبة .
ولكن تد تتعلق الرسوست بغير هذين القالبين كما سنرى فيما يلى .

الرساوس المتعلقة بالماضى :

نستطيع تقسيم الناس جميعاً إلى ثلاث فئات أساسية بينها أطياف وتفرعات :
الفئة الأولى تضم أولئك الذين يهتمون بأحداث الماضى ويعيشون بقلوبهم
وعتبرهم فيها . ونستطيع أن نطلق على أفراد هذه الفئة اسم « الماضيون » . أما
الفئة الثانية فتضم أولئك الذين يهتمون بالحاضر وما يقع به من أحداث راهنة .
فهم يولون أهتمامهم الأكبر إلى « هنا والآن » . ونستطيع أن نسمى هذا الفريق
من الناس اسم « الحاضريون » . أما الفئة الثالثة فانها تضم فى رحابها أولئك
الذين يولون وجوههم شطر المستقبل وما يترقبونه من وقائع وما يتنبأون به
من أحداث . ونستطيع أن نسمى هذا الفريق بالمستقبليين . وإذا نحن أخذنا
بالرأى القائل إن الأمراض النفسية هى مبالغة أو إفراط فيما جبل عليه الموء
وما طبع عليه ، فاننا نبيد أن ثمة وسوسة تتعلق بالماضى يصاب بها بعض من
أفراد الفئة الأولى ، وأن ثمة وسوسة تتعاق بالحاضر يصاب بها بعض من
أفراد الفئة الثانية ، وأن ثمة أخيراً وسوسة تتعلق بالمستقبل يصاب بها بعض
من أفراد الفئة الثالثة والأخيرة .

والموسوس من فريق الماضيين، يجعل من المواقف التى مرت عليه بالفعل
وانصرفت فى طى الزمان حاضرا يعيش فيه بعقله ووجدانه وكأنها تحدث
« الآن وهنا » . فالموسوس من هذه الفئة يخرج بعقله ووجدانه من حدود
وقبود الواقع الراهن لكي يدرج نفسه بكايته فى إطار ماضى ومكان
بعيد عن قليباً أو كثيراً . على أن الوسوسة فى هذه الحالات قد تكون
وسوسة مطلقة بمعنى أن الموسوس يفقد روابطة السلوكية المتعلقة بالحاضر
فقداناً تاماً ، فتجده شارداً شروداً تاماً فلا ينتبه إلى الأشخاص المحيطين به
ولا يعبأ بما يقع حوله ، بل إنه قد لا يهرب من أخطار يمكن أن تحيق به .
ومن الطبيعى إذنا أن الموسوس فى هذه الحالة يفقد القدرة على الإتصال

بالأشخاص المحيطين به بأى من وسائل الإتصال . فهو لا يستبين ما يقولونه له كما أنه لا يدرك وجودهم لكى ينقل اليهم ما يدور بخلفه من معان . وانك لتجده وقد أسقط على بعض الأشخاص من حوله شخصيات أناس آخرين ممن يعيش معهم بذهنه المريض . فيسميهم بأسمائهم ويجد في بعض الأفراد أصدقاء حميمين مروا في خبرة حياته الماضية ، كما قد يجد في بعضهم الآخر أعداء الداء بحيث قد يهاجمهم بالشتم أو بالضرب أو حتى بالقتل .

وعلينا أن نتفحص وساوس الماضى حتى نحدد أنواعها الفرعية بحيث إذا ما تأملنا تلك الأنواع الفرعية ، عندئذ نستطيع أن نشكل صورة متكاملة عن هذا النوع من وساوس .

هناك أولا - وساوس تتعلق بكرامة الشخص الموسوس . فلقد يقع شخص ما إهانة على الواحد من فئة الموسوسين الماضيين . فلا يعثر على التصرف المناسب يرد به على ذلك الشخص الذى أعتدى عليه وأهانته . فتكون هناك فى الموقف الذى أهين به عدة بدائل ويكون عليه الاختيار من بينها . ولكنه ظل يحيل بصيرته فى جميع تلك البدائل إلى أن أنقشع الموقف وانصرف الشخص المعتدى أو تغير الحديث أو نشأت علاقات جديدة بالموقف . ولكن انتهاء الموقف واقعياً لا يعنى بالضرورة انتهائه نفسياً . فالموسوس يظل فى غمره الموقف بعد انتهائه . ويظل يحيل عقله فى البدائل المتباعدة وقد تأججت فى ذهنه وصارت نابضة بالحياة ولا تقل فى نصوعها وبريقها وتوهجها فى ذهنه عما كانت عليه وقت الوقوع . على أن الموسوس هنا يظل عاجزاً عن الاختيار . ولو أنه أختار من بينها لما كان إذن موسوساً . بل لكان شخصاً عادياً سويًا . ونذكر القارئ بما سبق أن عرفنا به الوسوسة بأنها الاستمرار فى حالة من الاختيار وإجالة البصر فى البدائل أو الخيارات دون ما نتيجة ودون الوقوع على خيار معين ونبد باقى الخيارات المتبقية وحذفها من الذهن ، وإحالة الخيار المفضل إلى ساوك فى الواقع الخارجى .

هناك ثانياً - وساوس تتعلق بحادثة غير مواتية نتيجة الإهمال أو نقص فى الحيلة . من ذلك مثلاً تعرض سيارة المرء لحادث تصادم نتيجة خطأ وقع فيه .

ن تلك الحادثة تظل متجددة في ذهن الموسوس بحيث يجعل أمام تخيلته بدائل متعددة للخروج من المأزق ولتجنب وقوع الحادث بالخيال لا بالواقع . فالموسوس يستحضر الماضي لا كواقع انتهى وقوعه وقد لفته لفائف الماضي بل كحاضر حي متأجج الحياة . فهو يستعرض بذهنه جميع البدائل التي تخميه جيعاً في حاضر ذهنه من وقوع الحادث . فهو يتخيل مثلاً أنه يظل في بيته وقد شغله شاغل حال بينه وبين استخدام السيارة أصلاً ، وقد يتخيل أنه انتحى بعربته إلى اليمين أو إلى اليسار فتجنب بذلك الاصطدام بالسيارة الأخرى ، وقد يصل إلى حد أن يدرج ضمن بدائله الذهنية أن حادث الاصطدام مجرد حلم مزعج يفيق منه فيجد سيارته سليمة ولم يصبها أى أذى . ولقد يجعل ضمن بدائله أنه سمع بحادث اصطدام سيارته ولكنه سرعان ما اكتشف أن سيارة أخرى شبيهة بسيارته هي التي وقع لها الحادث .

على أن تلك البدائل أو الخيارات في ذهن الموسوس من فئة الماضيين تكون بدائل حاضرة في الذهن وليست مجرد أمنيات مع مثول الحادثة أمام الذهن . إن الموسوس يعيش وساوسه بحيث يسلك بعقله ووجدانه في واقع ذهني لا يقل حضوراً عن الواقع الفعلي . فهو لا يقول « ليتني فعلت كذا وكيت » بل يعيش ذلك « الكذا » أو هذا « الكيت » .

وهناك ثالثاً — وساوس تتعلق بخطيئة أو جريمة اقترفها الشخص . من ذلك مثلاً قتل زوج لزوجته وقد ضبطها مع عشيق لها أو بعد أن وشى له واش وأوقع بينها . فثل هذا الرجل في سجنه قد تستولى عليه الوسواس إذا كان من فئة الماضيين. إنه يعيش بدائل أخرى ذهنية غير قتل زوجته. انه مثلاً يذهب إلى أهلها ويطلب اليهم أخذها لأنه قرر تطليقها . وقد يكون من بدائله الذهنية ضربها ضرباً مبرحاً لا يترك بها عاهة ولا يقضى على حياتها . وقد يكون من بدائله التثبت من صدق الوشاية التي بلغته . وهكذا دواليك من بدائل ذهنية يحوكمها الموسوس لنفسه ويعيشها وقد أبعد عن ذهنه بطريقة لاشعورية قتله للزوجة طوال استيلاء وساوسه على ذهنه . وكما قلنا فإن الوسواس يعيش في

ذهن الموسوس كأنه حاضر تماما ، ولكنه لا يتخذ قرارا بازاء بدائله الذهنية بل هو يمر بذهنه على البدائل المتباينة بغير انتهاء أو وقوع على واحد منها ورفض باقي البدائل الذهنية .

وهناك رابعاً — وساوس تتعلق بالحظ . فصاحب الحظ العاثر كأن يكون تاجراً وقد بارت سلعه وانتهى به الأمر إلى الأفلاس وبيع محله والركون إلى منزله كأحد الفقراء ينتظر من يشفقون عليه ويحسنون إليه بما يجودون به من نقود . إنه قد يصاب بالوساوس وذلك بأن يستحضر إلى ذهنه بدائل متباينة منها مثلاً رواج تجارته وزيادة رأس ماله وجلوسه في صدر محله الكبير وقد ارتدى أفخم اللؤلؤ وهو يأمر العاملين بمحله وينهاهم . ولقد يكون من بدائله الذهنية اشتغاله بمهنة أخرى غير التجارة كأن يكون ضابط شرطة أو أحد المهندسين ، إلى غير ذلك من بدائل متباينة . والموسوس في هذه الحالة يعيش بدائله واحداً بعد الآخر بغير أن يختار من بينها . فهو يظل حييس تلك البدائل الذهنية وكأنه في دوامة متتابعة الحلقات .

وهناك خامساً — الوسوس المتماثلة بالعاهات التي أصابت المرء نتيجة حادث أو نتيجة لإهمال ذويه أو نتيجة خطأ وقع فيه أحد الأطباء . والموسوس هنا يتخذ لنفسه الصورة المضادة لما تركته العاهة في جسده وفي نفسه . فلاعب كرة القدم الذي أصيب في قدمه يتخيل نفسه في الملعب لايباريه أحد من اللاعبين وقد أخذ يشق طريقه في الملعب بتحد بالغ . ولقد يكون من بدائله الذهنية الاعتذار عن حضور المباراة التي وقع له فيها الحادث ، أو يكون البديل الذهني هو مبادرته للاعب الذي أصابه فعلاً بضربة في قصبة رجله بحيث يلتقي به إلى الأرض ويخرج هوسلياً من الملعب . فثل هذا اللاعب الذي تركت فيه الإصابة عاهة مؤقتة أو مستمرة قد يستعرض أمام بصره الذهني تلك البدائل واحداً بعد الآخر بغير أن يخرج من إطارها بقرار أو بواحد منها دون البدائل الأخرى المتبقية . وقتل نفس الشيء بالنسبة لمن أصيب بالعمى في إحدى العمليات الجراحية في عينيه . انه يعيش بدائل تعويضية متباينة ولكنها بدائل وسواسية لأنه يدور في إطارها بغير أن ينجح في اختيار أحدها

ورفض باقى البدائل المتبقية . فهى تطويه فى لفائفها إلى ما لانهاية بحيث تصير عرضاً لمرض نفسى .

وساوس الحاضر :

سبق أن عرضنا المعنى الوسوسة وقد حددنا هذا المعنى فى ثلاثة معان على النحو التالى : أولاً — الانحباس فى إطار الخيارات المتاحة والخيارات التى يخلقها المرء بعقله وعدم القدرة على الخروج من هذا الإطار الشكى إلى بر اليقين واصدار قرار باختيار واحد أو أكثر من تلك الخيارات ونبد البقية منها . ثانياً — التذبذب السريع فيما بين بر اليقين وبين إطار الخيارات أو البدائل أعنى إطار الشك . فبعد الوقوع على خيار أو أكثر ونبد باقى الخيارات يعود الموسوس إلى ما كان عليه قبلاً فيطرح البدائل أو الخيارات أمامه من جديد ويجعل البصر فيها مرة أخرى والاستمرار فى الانتقال من اليقين إلى الشك ومن الشك إلى اليقين بتواتر وفى فترات متعاقبة وجيزة . ثالثاً — التقلب بين الحب والكراهية لنفس الشخص أو الشيء أو الفكرة أو المبدأ . على أن التقلب الذى نعينه هو تقلب مستمر من حب إلى كراهية ومن كراهية إلى حب وهكذا دواليك .

ولعلنا فى هذا المقام نضيف معنيين جديدين للوسوسة : أولهما — المحور الوحيد الذى يرد إليه الموسوس كل شيء . وهذا النوع من الوسوسة هو فى الواقع موقف هروبى يلجأ إليه الموسوس لى يخفى وسوسته فيبدو أمام الآخرين وكأنه واقف على أرض صلبة . لقد تتمثل الوسوسة أولاً فى التركيز على شخص واحد لا يدير المرء نشاطه ذهنى أو الوجدانى الا حوله ولا يريم عنه . من ذلك مثلاً أن يركز الزوج على زوجته فيظل طوال الوقت يفكر فيما أهانت به من كلمات أو تصرفات وقد جاوز كل ما يقال له من جميع الناس ولا يفكر الا فى تلك الكلمات التى فاهت بها زوجته معرضة به أمام الأولاد أو الجيران أو الأقرباء . ولقد يتمثل ذلك المحور فى مجموعة من الناس لهم سمه معينة أو دين معين أو لون معين من ألوان السياسة . من ذلك تركيز ذهن الموسوس على أصحاب البشرة الداكنة أو على فئة من المواطنين يخالفونه

فى العقيدة الدينية أو على حزب من الاحزاب السياسية أو على فريق من فرقاء كرة القدم أو مشجعيهم . ومن المتوقع فى مثل هذه الوسوس المتعلقة بالناس سواء كان الموسوس قد ركز ذهنه على شخص بعينه أم على فئة معينة من الناس أن ينتهى الأمر به الى اقتراف جرائم الاعتداء أو القتل ضدّهم وذلك بسبب التركيز الذهني والوجداني ضدّ ذلك الشخص أو المجموعة التي شكّلت محورا يلتف حوله العقل والوجدان جميعا طوال الوقت .

ولقد يكون المحور الوحيد الذى يرد اليه الموسوس كل شيء ولا يفكر الا فيه وبه محورا دينيا . من ذلك مثلا تركيز الموسوس ذهنه على مفهوم النجاسة ، فيظل يفكر فيه بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ويبدى من ألوان السلوك ما ينم على ذلك التركيز . فهو لا ينظر الى نفسه أو الى غيره أو الى الأشياء من حوله الا فى ضوء مفهوم النجاسة . ولقد يترتب على مثل هذا التركيز الذهني والوجداني نتائج وخيمة تصيبه شخصيا وتصيب علاقاته بالآخرين أيضاً . فهو يوقف الكثير من المناشط التي كان يمارسها قبل أن يستولى هذا الوسواس على ذهنه . فلقد تجد إحدى السيدات المصابات بوسواس النجاسة وقد أقامت حاجزا كثيفا بينها وبين العالم الخارجى اعتقادا منها أن العالم الخارجى نجس وأنها هى طاهرة تماما . ومن ثم فإنها تحفى كل شيء فى جسمها حتى أصابعها بل ووجهها . فهى تصير وراء حجاب أو حاجز يفصل بينها وبين العالم الخارجى وتهرب منه تماما .

أما المعنى الثانى الذى نضيفه الى المعانى السابقة للوسوسة فهو المعنى الأدائى . فالموسوس هنا يمارس الشيء الواحد بصفة مستمرة بغير اقتناع من جانبه بأن ما أنجزه قد أبلى وأوفى . من ذلك مثلا قيام الموسوس بالبحث عن شيء ضاع منه فى نفس الأماكن التي بحث فيها عنه . فهو يفتح نفس الأدراج مئات المرات بحثا عن الشيء الضائع . وفى كل مرة يصاب بالاحباط لأنه لم يعثر عليه فيها . ولكنه يجد نفسه مدفوعا الى البحث من جديد فى نفس الأدراج ويصاب أيضا بالاحباط . ولكن أنى له أن يقلع عن بحثه بنفس الأدراج وقد تملكه الوسواس الأدائى وسيطر عليه تماما .

وفى ضوء هذه المعانى الخمسة التى سقناها نعرف بها الوسوسة ، فاننا نستطيع أن نرى كيف أن المرء الموسوس يمكن أن يكون نهبا للوسوسة فى حاضره وفى مجريات حياته اليومية . ولعائنا نجد خمسة أنواع من الوسوس الحاضرة التى يمكن أن تسيطر على الشخص الموسوس فى واقعه اليومى مما يؤثر على طمأنينته الداخلية وعلى علاقاته بالآخرين وثقتهم فيه واعتمادهم عليه ، بل ومما يؤثر فى انتاجيته وفى تقليص فرص نجاحه فى الحياة .

أما النوع الأول من وسوس الحاضر فهو ما يتعلق بالنشاط العقلى . ولعلنا نضرب مثالا بالطالب الذى يذاكر نفس الدرس لا يريم عنه لأن وسواسه يؤكد له أنه لم يستوعبه الاستيعاب الكافى . فهو يعيد ويزيد فى نفس الدرس بغير أن يجرؤ على التحرك والتقدم الى الدرس التالى ، وتكون النتيجة بالطبع هى الفشل فى متابعة وملاحقة الزملاء بالفصل . ونفس هذا النوع من الوسوس يمكن أن يصيب بعض موظفى الحسابات . فالواحد منهم يظل فى العملية الحسابية لا يتخطاها الى غيرها ، بل إنه يظل يعد حصيلة الخزينة بغير توقف . ويراجع الحسابات المرة تلو المرة ويظل وسواسه مسيطرا عليه لا يعفيه من شكائمه .

ومن هذا النوع العقلى من الوسوس ما يتعلق بنغمة معينة تظل تتردد على ذهن المرء الموسوس بحيث لا يستطيع استبعادها أو إحلال نغمة أخرى محلها . ومنه أيضا سيطرة لازمة كلامية معينة على لسان الموسوس . فتجده يردد كلمات بعينها فى غير محلها مثل كلمة « مثلا » وكلمة « يعنى » . ومهما حاول الموسوس الجفام لسانه والامتناع عن ترديد الكلمة الوسواسية فانه يعجز عن ذلك .

أما النوع الثانى من وسوس الحاضر فهو ما يتعلق بالنشاط الوجدانى : فتجد أن الموسوس يرتضى فى أحضان الحزن أو التشاؤم بغير سبب وقد تلبس بالهم واليأس . فاذا ما فندت له حالته وأكدت له أن الدنيا بخير وأن لا سبب لما يدفع به الى الحزن أو التشاؤم أو اليأس ، فانه يقول لك مؤكدا أن المسألة ليست بيده ، وأنه مدفوع دفعا الى ذلك . وما يدفع به فى الواقع الى مثل هذا الموقف النفسى هو الوسواس الوجدانى .

أما النوع الثالث من وساوس الحاضر فهو وساوس الأداء. من ذلك ما يلاحظ لدى بعض الناس من السير في أحد الشوارع ثم الرجوع به ثم الذهاب في الاتجاه الأول مرة أخرى في نفس الشارع ثم الرجوع منه بغير هدف وبغير سبب . فهو يسير في نفس الطريق ذهابا وإيابا عدة مرات بغير مبرر يدفع به الى تلك الرقابة الحركية سوى سيطرة الوساوس الادائية عليه . ولسوف نعرض لهذا النوع من الوساوس في موضوع لاحق .

أما النوع الرابع من وساوس الحاضر فهو وساوس التأجيل . وهذا النوع من الوساوس يبدو مضادا للنوع السابق . فالشخص الموسوس يعززم القيام بعمل ما من الأعمال اليومية ، ولكنه يجد ما يحول بينه وبين النهوض من مكانه وتأجيل التنفيذ . والواقع أن بعض الموظفين يتعرضون للمساءلة نتيجة سيطرة وساوس التأجيل على بعض ما كان يجب عليهم إنجازه من أعمال وما كلفوا به من مهام . وانك لتجد الواحد منهم يؤكد أنه كان يعززم تنفيذ ما كلف به ولكنه وجد شيئا ما يدفعه الى التأجيل والتسويف حتى وقع في حبالل المسئولية .

وأخيرا فإن النوع الخامس من وساوس الحاضر — وهو نوع سلبي أيضا — هو وساوس النوم . وهذا النوع يصيب بعض الطلبة في النصف الأخير من العام الدراسي . فبينما يكون الطالب بحاجة ماسة الى قضاء معظم الوقت في الاستذكار ، فإن وساوس النوم يحمله على التأثوب والرغبة الشديدة في النعاس . ولكأنه قد سهر دهرًا من الزمان . وكلما أخذ ذلك الطالب المسكين في ذب الرغبة في النعاس عن جفنيه ، يكون الحاح تلك الرغبة أعنى وأقوى .

وهكذا نجد أن وساوس الحاضر قد تكون وساوس إيجابية تدفع الى اتخاذ موقف ، كما أنها قد تكون وساوس سلبية تحول بين المرء الموسوس وبين ممارسة بعض المناشط الهامة والمفيدة .

وساوس المستقبل :

سبق أن عرضنا للوساوس المتعلقة بالماضي ثم للوساوس المتعلقة بالحاضر . وفي هذا الموضوع سوف نعرض للوساوس التي تتعلق بالمستقبل . ولقد سبق أن عرضنا أيضا لخمسة معان للوسوسة يتكون من مجموعها تصور عام لها ولعلنا نجعل من هذه المعاني الخمسة لبنات نستفيد من بعضها أو من مجموعها في تكوين مفهوم عن الوساوس المستقبلية .

ولنا أن نقول إن هناك خمسة أنواع من الوساوس المستقبلية نقدمها فيما يلي مع تقديم لكل منها حتى ترتبط الفكرة بالواقع الذي يمكن أن يحدث في الحياة اليومية وفي العلاقات الاجتماعية .

أما النوع الأول من الوساوس المستقبلية ، فهو ما كان متعلقا بالكيان البيولوجي والسيولوجي للمرء . فنحن أولا وبالدرجة الأولى كائنات حية نشبت بالوجود ونصبو الى أن نحيا بحيث لا يلحق بنا مرض أو عاهة . وحتى بالنسبة للموت ، فثمة صراع بين الكائن الحي في أى صورة من صوره وبينه . وعلى الرغم من اعترافنا بضرورة وحتمية الموت ، فإننا نكره سلوكنا . وبالنسبة لحالات الانتحار أو حالات الزهد في الحياة ، فإننا نعتقد أن الباعث فيها يكون استمرار الحياة بشكل أو بآخر . فعظم حالات الانتحار لا يكون المنتحر فيها راغبا في القضاء بالفعل على وجوده الحيوى بل يكون انتحاره مجرد تهديد واثارة لمشاعر المحيطين به المتعلقين وجدانيا بوجوده والذين سوف يحزنون اذا أصابه أى مكروه . فبالنسبة للغالبية العظمى من الناس فإنهم يرفضون الموت ويجبرون عليه اجبارا . ولعل البشرية في محاربتها للأمراض تكون في الواقع — وبطريق غير مباشرة — في صراع ضد الموت .

وثمة موسوسون تركز وساوسهم حول حياتهم الجسمية في المستقبل . فهم يعيشون في قلق بالغ بازاء ما سوف تحمل لهم الأيام من أمراض أو من حوادث يمكن أن تترك في أجسامهم عاهات أو يمكن أن تجعل منهم عيالا على غيرهم حيث تنشب الأمراض أظفارها في أجسادهم فلا يتسنى لهم خدمة

أنفسهم بأنفسهم حتى فيما يتعلق بأبسط الأمور الحيوية ، فيفقدون قيمتهم المعنوية في أنظار أقرب الناس إليهم ويتمنون لهم الموت ويعاملونهم معاملة قاسية .

وواضح أنه في مثل هذه الوسوس تكون البدائل الذهنية القاسية مسيطرة على ذهن الوسوس بحيث لا يستطيع أن يخرج من بينها ببديل يعتبر الحل أو المخرج أو المخلص من تلك الوسوس . وأنى لك أن تقنع الوسوس بأن مستقبله سوف لا يحمل له أيًا من تلك الوسوس التي تلاحقه . فكيف تقنعه ؟ وما الضمانات التي بمكنتك أن تقدمها إليه بحيث يرتاح باله ويتأكد من أن تلك المصائب الجسمية سوف لا تقع له في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

أما النوع الثانى من الوسوس المستقبلية فهو ما يتعلق بالجمال . والواقع أن هذا النوع من الوسوس يصيب أولئك الذين لديهم حساسية شديدة لما وهبوه من جمال . فثمة من الناس من يقتنع ويؤمن بأنه قد خلق على صورة جميلة . ونستطيع أن نضع على رأس قائمة الوسوسين من هذا النوع أولئك المصابين بالرجسية أو عشق الذات . ولعلنا نزعم بحق أن نسبة المصابين بالرجسية تزيد في النساء عنها في الرجال . ومن ثم فإن الوسوسين بهذا النوع من الوسوسة يكونون من النساء أكثر من كونهم من الرجال . فالرجل يهتم برشاقة حركاته وقوة بنيته أكثر من اهتمامه بحلاوة ملامح وجهه أو بجمال خلقته . على أننا نميز بين ما يحظى به الفرد من الناس — ذكرًا كان أم أنثى — من جمال في الحلقة ، وبين حساسيته لذلك الجمال . فلقد يكون الشخص متوسط الجمال ولكنه يكون شديد الحساسية لجماله ، بينما قد يكون الشخص جميلاً ولكن حساسيته لجماله تكون قليلة أو متوسطة . ولقد نجد بعض الوسوسين وقد ركزوا ذهنهم في جمالهم وما يمكن أن يفعل المستقبل فعله فيه ، فيقضون الوقت الطويل أمام المراة للاطمئنان على أنهم لم يتغيروا ولم يحمل الزمن والعمر إليهم القبح بديلاً للجمال . ولقد تنعكس هذه الوسوسة على العلاقات الزوجية ، وهي تبدو أكثر ما تبدو فيما يسمى بسن اليأس لدى المرأة .

أما النوع الثالث من الوسائس المستقبلية فهو النوع الاقتصادي . وهذا النوع من الوسائس يمكن أن يصيب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية ، بل إنه قد يصيب الصغار والكبار على السواء . فلقد لوحظ أن بعض الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين تساورهم الوسائس حول ما يمكن أن يصيبهم من نكبات اقتصادية اذا ما فقدوا عائلهم الوحيد وهم بعد في سن الدراسة فيضيع مستقبلهم ويتضورون جوعا . وكذا فاننا نجد أن بعض رباب البيوت اللآثي يعتمدون كل الاعتماد على الزوج في تسديد نفقات معيشتهم وقد أصبى بهذا النوع من الوسائس . ونفس الشيء يمكن أن يصيب التجار أو الموظفين الذين شاربوا سن المعاش . بيد أن الظروف الواحدة لا تؤدي الى نفس النتائج النفسية بالنسبة لجميع الناس . فثمة أشخاص لديهم حساسية معينة وقلق عميق حول مستقبلهم الاقتصادي ، بينما هناك أشخاص آخرون لا يكادون يفكرون فيما سوف يحمله لهم الغد من أوضاع أو من سوء حظ أو من تدهور في المستوى الاقتصادي أو من نقص في الدخل .

أما النوع الرابع من الوسائس المستقبلية فهو تلك الوسائس المتعلقة بحياة أو صحة الآخرين . فبعض الأمهات أو الآباء يهتمون في أحضان الوسائس حول سلامة أبنائهم وبناتهم . ونفس الشيء قد يصيب بعض الأزواج أو الزوجات حول زواجهم أو أزواجهم . فكل تليفون يرن أو كل جرس باب يذق أو كل زائر يأتي أو كل سيارة تقف أمام البيت يمكن أن تثيرهم وتزعجهم عليهم بالخاوف المشفوعة بالوسوسة . فهو يترقبون أبناء نخيفة سوف تصلهم وتقلب حياتهم شر منقلب .

أما النوع الخامس من الوسائس المستقبلية فانه يضم تلك الوسائس المتعلقة بما سوف يقوله الناس عن المرء في المستقبل . صحيح أن الناس جميعا في كل مكان وفي كل عصر يهتمون أكثر ما يهتمون برأى الناس فيهم وبما سوف يدكروهم به في المستقبل من خير أو من شر . ولعل هذا الوازع هو الذي حدا بقدماء المصريين الى تشييد الأهرامات ، وحدا بالفنانين الى رسم الروائع أو الى نحت التماثيل الخالدة أو الى وضع الألحان التي تعمل على نقش أسمائهم في

سفر الخلود ، بل إن هذا الوازع هو الذى يدفع بالناس العاديين الى الانجاب والى السهر على تربية أبنائهم وبناتهم أحسن تربية حتى يذكروا بالخير من أولئك الأبناء والبنات وعلى السنة من يعرفونهم . ولكن فى بعض الأحيان فاننا نجد أن هذا الاهتمام بالذكرى الحسنة تنقلب الى وسواس يسيطر على المرء . فهو بدلا من أن يركز ذهنه فى عمله فيجيده بغض النظر عن النتائج ، فإنه يركز ذهنه كله أو جله على النتائج فيستبقها وقد خيم عليه التشاؤم وترقب وقوع الشر وإحاطته بمستقبله من كل جانب . فالطالب الموسوس يعيش فى خياله الموسوس وقد خشى من الرسوب فتصيبه فضيحة بين الأقرباء والجيران ، والقادر على الكتابة أو قرض الشعر يخشى أقلام النقاد والبعريض به ، فيتوقف عن الكتابة أو عن قرض الشعر . ولقد يتمتع الشخص حتى عن الزواج لئلا ينجب أطفالا سيئى السمعة فيلعنه الناس الذين سوف يتعاملون معهم . ولعل أن يكون أبو العلاء المعرى واحدا من أفراد هذه الفئة الموسوسة حول السمعة وما تلوكة السنة الناس عما يمكن أن ينجبه من أبناء أو بنات اذا تزوج .

و الواقع أن هذه الوسواس الخمسة تفضى الى نتائج نفسية والى نتائج عملية تتعلق بمدى نجاح المرء فى الحياة . فمن حيث النتائج النفسية ، فاننا نلاحظ أن الموسوس بهذه الوسواس المستقبيلية يعيش فى قلق دائم وفى خوف مطرد مما عسى أن يكون عليه الحال فى الأيام أو السنوات القادمة ، بل إن هذا الموسوس كثيرا ما يفقد ثقته فى نفسه بسبب فقدانه الثقة فى المستقبل . وليس بالغريب إذن - وهذا هو حال الموسوس - أن يقف فى لحظة الحاضرة لا يتقدم نحو المستقبل بجرأة ، بل ولا يحرز أى تقدم فى أى شىء يضطلع به . وكيف ينجح وهو يخشى الأحداث المقبلة ؟ ولقد سبق أن أكدنا على أن الوسوسة تنسم بالانغلاق والانحباس فى إطار الشك والتفكير فى البدائل بغير أن يكون المرء قادرا على التحرك خطوات وثيدة ثابتة نحو مستقبل مشرق ومتفتح ومكمل بالنجاح والتوفيق والتقدم . وليس يعزب عن البال أن الموسوس المستقبلى لا لا يكون شخصا عمليا فى حياته وواقعا فى تصرفاته وعلاقاته . ومن ثم فإنه لا يكون ناجحا أو متكيفا التكيف السليم فى علاقاته بالآخرين من حوله .

الوساوس الأدائية :

سبق أن عرضنا للوساوس الأدائية لما ، وهي الوساوس التي تبدو في التصرفات والسلوك الخارجى للمرء . وفى هذا المقام سوف نتناول هذا النوع من الوساوس بشئ من التفصيل . وهناك فى الواقع خمسة أنواع فرعية من الوساوس تقع فى إطار هذا النوع .

أما النوع الأول من الوساوس الأدائية فانه النوع الأدائى العقلى . وقد سبق أن ضربنا مثالا له بالشخص الذى يدأب على تكرار عملية حسابية معينة بغير أن ينتهى من ذلك الى قرار بأن الحل الذى توصل اليه صحيح أو بأنه عاجز عن الحل . ولقد يتبدى هذا النوع من الوساوس الأدائية العقلية لدى بعض أمناء المخازن الذين يظنون يحصون عدد صنف من أصناف العهد الموجودة بالمخزن بغير أن تهدأ لهم ثائرة وبغير أن يرتاح ضميرهم من عتو الوساوس الأدائى العقلى الذى يحملهم على مداومة التفكير والاحصاء . وهناك أيضا من العلماء من يصابون بهذا النوع من الوساوس الأدائية العقلية . فالمصاب بهذه الوساوس يقوم بأداء التجربة ذاتها العديد من المرات ، وعلى الرغم من وضوح النتائج فى كل مرة ، فان وسواسه الإدائى العقلى لا يسمح له بالخلاص من النتائج الجلية الى بر اليقين الذهنى والمرور من التجربة الى غيرها . ولقد يكون الخياران اللذان لا يتسنى للعالم الموسوس الحكم لواحد منهما هو أولا الفكرة المسبقة لما يمكن أن تفضى اليه التجربة التى يضطلع بها ، والخيار الثانى هو ما يشاهده بأمر عينيه لدى إجرائه للتجربة . فهو يقف بعقله حائرا بين اقتناعه المبني على الفكرة المسبقة واقتناعه أيضا بما يشاهده بعينه وما أفضت اليه التجربة من نتائج .

أما النوع الثانى من الوساوس الأدائية فهو الوساوس الأدائية العقائدية . وهذا النوع من الوساوس قد يشاهد لدى بعض المتدينين فى أى دين . فبعد أن يصلى الموسوس يسيطر عليه وسواسه بأن صلاته لم تكن صحيحة لسبب أو لآخر . فيبدأ صلاته من جديد ، لكنه ما يكاد ينتهى منها حتى تساوره وسواسه مرة أخرى فيعيد الكرة مرة ثالثة فاربعة فخامسة ... الخ . ولا يكون الباعث

لديه على الصلاة هو حب العبادة بل الوسواس المسيطر بأن ما أداه من صلاة لم يكن على النحو السليم أو بالطريقة الواجبة الاتباع . ولقد يتعلق الوسواس بالصوم ، فيعتقد المرء - أو بالأحرى الموسوس - فيما يتعلق بصحة صومه ، فهو يوسوس بأنه ربما أفطر وهو ساه وشارد الذهن ومن ثم فيجب عليه أن يصوم أياما بدلا من الأيام التي يوسوس بأنه أفطر فيها . وقد يظل الموسوس على هذه الحال كلها عوض عن الأيام التي حسب نفسه قد أفطر فيها ، فيصوم أياما جديدة كلها داعبه وسواسه . وقد يتعلق الوسواس الأدائي الاعتقادي باحتمال الإصابة بالنجاسة ، فيعتمد الموسوس الى التطهر بالاغتسال المستمر الذي يبدو في نظر المحيطين به بأنه مرض نفسي وليس من التدنيس في شيء .

أما النوع الثالث من الوسواس الأدائية فهو الوسواس الأدائية الصحية . وفي هذا النوع من الوسواس يكون الشخص موسوسا حول صحته وما يمكن أن يصيبه من أمراض . فبينما نجد أن الموسوس الاعتقادي يغتسل تخلصاً من نجاسة لحقت به في ظنه ، فإن الموسوس الصحي يغتسل خوفاً من تمكن الميكروبات من يديه وجسمه . وهنا نجد الموسوس الأدائي الصحي يستخدم الماء الساخن جدا أو المواد الكاوية أو فرش السلك في تدليك يديه وباقى جسمه مما يترتب عليه الإصابة بالجروح والتقيحات . ولقد يصل الوسواس بالشخص إلى درجة غسل الصابونة بصابونة أخرى كما اعترف بذلك أحد الفنانين الموسيقيين المصريين الكبار على شاشة التلفزيون . فإذا كان هذا هو حاله بازاء تطهير الصابونة ، فما بالك إذا عرضنا لموقفه من الخضض والفاكهة ؟ ولقد يبدو الوسواس الصحي في حياة المريض اليومية . فهو دائم التردد على الأطباء لغير سبب معروف ، بل إنه يكون دائم التردد على الصيدليات يشتري منها ما يظنه مفيدا لصحته أو محصناً له ضدهما يمكن أن يتربص به من ميكروبات . وطبيعي أن يكون في هذا المسلك ما يعرض الموسوس لأخطار صحية قد تطرحه بالفعل في أحضان المرض .

أما النوع الرابع من الوسواس الأدائية فهو ما يمكن أن نسميه بالوسواس الأدائية التعاضمية . فهذا النوع من الوسواس يحمل المصاب به على تحقير الآخرين والخوف من مخالطتهم أو التعامل معهم أو إقامة علاقات بهم فتسيطر مكانته ويصاب بالضعة والخسة . والواقع أن هذا النوع من الوسوسة يتعلق بمرض العظمة حيث يعتبر المريض به أنه شخصية مباينة للآخرين . والوسوسة التي تصيب المريض بالعظمة تنصب على الخوف من فقدان سر تلك العظمة بالاختلاط بالناس الآخرين الذين يقلون عنه مرتبة وقيمة . ولايفلت أحد من الناس من حكم المصاب بالوسوسة الأدائية التعاضمية من نظرة الاحتقار والازدراء التي ينظر بها إليه . والفرق بين المغرور وبين المصاب بجنون العظمة يتبدى في هذه النقطة . فتتجلى الوسوسة الأدائية التعاضمية فيما يتصرف به الشخص المريض نفسياً بهذا المرض . فهو أولاً يهرب من التصادم مع الآخرين ، بل ويخشى أن تلامس ملابسه ملابسهم ، أو أن يقتربوا من أوانيهم أو من الفوط التي يستخدمها أو من أى أداة يقوم باستخدامها . ولعل المصاب بهذا النوع من الوسواس يعتمد أيضاً إلى استخدام القفاز يرتديه ولايسلم على أحد بيده الا وهو يرتديه حتى لايفقد عظمتة بملامسة أيدي من يسلم عليهم .

والنوع الخامس والأخير من الوسواس الأدائية هو الوسواس العاطفية الانفعالية . فالموسوس هنا ينخرط في أوهام ذهنية تجعله ينخرط في بكاء مريز أو في ضحك واستبشار لامثيل لها . وقد تتناوب الوسواس الحزينة والوسواس البهيجة على عقل وقلب الموسوس . وطبيعى أن الناس من حول الموسوس بهذا النوع من الوسوسة يبدوون دهشهم لما يبدو في سلوكه من ممارسات قد تصل إلى العويل أو إلى الضحك بصوت مرتفع . وفي بعض الأحيان تتبدى الانفعالات الوسواسية في حركات وإشارات وجمل يديها الموسوس في أثناء سيره في الشوارع حتى لقد يظن المارة أنه يتحدث إليهم أو أنه يتفعل لمشهد واقعى شاهده لتوه في الطريق ، وهم لايعلمون أنه يعيش في جو وجداني داخلي يفرض نفسه عليه ويوجه أداءه السلوكي الوجهة التي يرسمها له .

وواضح أن هذه الوسوس الأدائية تحول بين الشخص المصاب بها وبين تحقيق التوافق النفسى والتوافق الاجتماعى . ذلك أن الموسوس الأدائى بكافة الأنواع الخمسة السابقة لا يكون راضيا عن ذاته ، بل إنه فى كثير من الحالات - أو فيها جميعاً - يتمنى أن يتخلص من الوسوس الأدائى الجاثم على صدره والذى يحول بينه وبين تحقيق سويته فى نظر نفسه . ولعل أهم علامة من علامات عدم رضى الشخص الموسوس عن ذاته تظهر فيما يحاوله من وسائل للتخلص من تلك الوسوس . ولكن أنى يتحقق له ذلك ؟

ولاشك أن توافق الموسوس الأدائى مع الناس من حوله يكون ضعيفاً أو حتى منعدماً . ولعل أخطر ما يصيب شخصية الموسوس فى علاقاته الاجتماعية تلك التهمة التى توجه إليه من قبل المحيطين به . فهم يعتبرونه مجنوناً أو مصاباً بلوثة ، ومن ثم فهم لا يبدون له أية علامة من علامات الاحترام . ناهيك عما يمكن أن يبدو له من استهزاء وما يمكن أن يظهره له من احتقار وما يمكن أن يرموه به من نكات ، فيتخذون منه وسيلة للترفيه عن أنفسهم وتحقيق جو من المرح بالتهكم عليه والاستهزاء بسلوكه المضحك .

والواقع أن رد فعل الموسوس على ذلك قد يكون عنيفاً إلى الخارج ، كما أنه قد يكون عنيفاً إلى الداخل . فالعنف إلى الخارج يتضمن استخدام القسوة والانتقام من الآخرين ، والانتقام من الداخل قد يكون بالعزلة والبعد عن الناس . فيستقيل الموسوس من عمله ويعكف على وسوسه يجترها وتتمكن منه أكثر فأكثر . وفى الحالين فإن الموسوس الأدائى يفقد فرص النجاح فى الحياة ، ويفقد قيمته الإنتاجية فى المجتمع ، بل إنه فى الغالب يفقد قيمته فى نظر أعز الناس لديه ، وتتدهور علاقاته بهم ، وبالتالي فإنه يتحمل الكثير من الآلام النفسية والانفعالية التى تؤدى بالتالى إلى مضاعفة وسوسه ، لأن فقدان ثقة الناس فى الموسوس ، وفقدانه الثقة فى نفسه يعملان على مضاعفة وسوسه من جهة ، وتثبيت أركان ما ألم به من وسوس أدائية من جهة أخرى : وهل من إهانة تصيب معنوية المرء أكثر من فقدان تقدير الناس له وانصرافهم عنه وقد أخذوا يظهرن له علامات الاحتقار والاستهجان أو عدم المبالاة بأزاء ما يعبر به من كلام أو ما يديه من آراء أو ما ينجزه من أعمال ؟

الفصل العاشر

الموسوسة كمرض نفسي

النقص في النمو العقلي :

يتضح من طوال حديثنا عن الموسوسة أنها عرض نفسي ذو أضلاع ثلاثة : ضلع عقلي وضلع وجداني وضلع أدائي . وهذه الأضلاع الثلاثة هي في الواقع أضلاع السلوك في جميع صوره وأشكاله السوى منه وغير السوى . ولعلنا نزعّم أن هذه الأضلاع الثلاثة يجب أن تكون متساوية – كما سبق أن قلنا – حتى يتسنى تحقيق التكامل في الشخصية ، وحتى لا يكون المرء عرضة بالتالى للإصابة بالموسوسة .

ولاشك أن النقص في النمو العقلي لمن أسباب الإصابة بالموسوسة . ولسوف نعرض فيما يلى للحالات التى يتبدى فيها النقص في النمو العقلي والعلاقة بين مثل هذا النقص وبين الإصابة بالموسوسة .

هناك أولا النقص في النمو العقلي الناجم عن النقص في نمو الجهاز العصبي وبخاصة المخ . وينجم عن هذا حالات التخلف العقلي . والأطفال المتخلفون عقليا بسبب النقص في نمو المخ بأجهزته المتباينة يحسون بالاختلاف بينهم وبين أقرانهم فلا يستطيعون الاستفادة حتى من القدر الضئيل من الذكاء الذى وهبوه ، ومن ثم فإنهم يترتمون في أحلام اليقظة يعوضون بها أنفسهم عما حرموا منه من ذكاء . ويغلب لدى هذه الفئة من الأطفال – وبخاصة بعد انخراطهم في المراهقة والشباب – الإصابة بالوساوس الأدائية حيث يلتزمون بأنماط سلوكية متكررة وبقوالب أدائية ثابتة وضيقة النطاق لا يحدون عنها قيد أنملة . ولذا فإن أصحاب التوجيه الحرفي يعمدون إلى الاستفادة من هذه الخاصية الوسواسية في تدريبهم على عملية واحدة متكررة كملء قواعد الكراسي

بالقش ، أو دهن الأحذية أو الجدران أو غير ذلك من أعمال نمطية لاتتضمن أى نوع من التعقيد .

ثانياً — هناك حالات النقص فى النمو العقلى الناجمة عن الإصابات فى أثناء الحمل أو فى أثناء الولادة . فلقد ترتطم الأم فى بطنها بجسم صلب أو قد يضطر الطبيب المولّد إلى استخدام الجفت فى إيلاد الأم ، فيضغط على رأس الوليد فيصيب المخ بالتلف مع استمرار بقائه على قيد الحياة . وفى بعض هذه الحالات يتوقف النمو العقلى ويكون شأن الطفل شأن الأطفال الذين لم يوهبوا لإرثات جيدة وقد ولدوا من والدين متخلفين عقلياً . بيد أن هناك اختلافاً بين أفراد هذه الفئة وبين أفراد الفئة الأولى هو أنهم ينمون غالباً نمواً وجدانياً وجسمياً سليماً ، ومن ثم فإن هذا يدفع بهم إلى الاحساس بمشاكلهم على نحو أقوى مما يحس به أفراد الفئة السابقة . ولكن الوسواس التى يتعرضون لها تكون فى الغالب شبيهة بالوسواس التى يتعرض لها أفراد الفئة الأولى ، أعنى أنهم يصابون فى الأغلب بالوسواس الأدائية .

ثالثاً — هناك حالات النقص فى النمو العقلى تنجم عن أسباب كيميائية . فهناك مثلاً بعض الأمهات والآباء فى بعض البيئات يستخدمون المهدئات أو المخدرات حتى يضمنوا نوماً هادئاً لأطفالهم الصغار ، فلا يصبرخون فى أثناء الليل ويقلقون راحتهم . ولقد كانت هذه العادة شائعة فى مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وما تزال منتشرة ببعض البلاد العربية مثل اليمن . وثمة بعض العقاقير التى يشتريها الوالدان من الصيدليات بغير إرشاد الطبيب ويقدمونها لأطفالهم تهدئتهم ربما تفضى إلى نفس النتيجة وتؤثر تأثيراً ضاراً فى مدى نموهم العقلى . ونستطيع أن نضم فئة المدمنين على المخدرات إلى هذه الفئة . ذلك أن ما يقع للمرء من ضموور عقلى بحيث يحمله على الرجوع القهقرى إلى مراحل نمو عقلية طفلية لا يختلف فى جوهره عن النقص فى النمو العقلى بداءة . والواقع أنه فى جميع حالات النقص فى النمو العقلى أو تقلص ونكوص هذا النمو لأسباب كيميائية ، فإن الوسواس التى يصاب بها المرء إنما تكون

وساوس ذهنية ذات صبغة وجدانية في الغالب . فيعتمد الموسوس إلى بناء حياة سعيدة بذهنه ويظل يجترها ولا يريم عنها بحيث تشكل وساوسا متكررا لا يختلف كثيرا أو قليلا مع اختلاف الأوقات والظروف . ولقد تكون الصورة الوسواسية المتكررة صورة ذهنية إنتقامية حيث يقوم الموسوس بالاستيلاء على الأعداء وقهرهم وإحراق ممتلكاتهم وإبادتهم أو أسرهم والتشكيل بهم . وقد تكون الصور الذهنية الوسواسية التي تصاب بها هذه الفئة صورا استعطافية . فتجد الواحد من أولئك الموسوسين يتخيل نفسه في وضع ضعيف يستحق الشفقة وقد أخذ أحد المتجبرين في إيلامه والنيل منه ، بينما هو يأخذ في استعطافه واستندار شفقته حتى يخفف عنه ما يؤلمه به من كلام مقذع ومن ضرب مبرح . ولقد تصل الصورة الذهنية الوسواسية في بعض الحالات إلى درجة تخيل الشخص القاسى الذى يؤلمه وقد أمسك بسكين أو سيف وأخذ يبتز به أطرافه والدم يسيل غزيراً وقد برح به الألم كل مبرح .

رابعاً - حالات الإصابة في الرأس بشظية تنفذ إلى المخ أو الإصابة بأورام وخراريج في المخ مما يحمل معه ضرورة اجراء عملية جراحية لاستخراج الشظية أو لإزالة الأورام والخراريج وبالتالي إصابة بعض مناطق المخ التي يعتمد عليها التفكير . والواقع أن الشخص بعد أن تجرى له مثل تلك الجراحات يكون في الغالب نهبا للوساوس المتعلقة بقدرته على التفكير السليم وعلى التركيز وعلى النهوض بجميع العمليات الذهنية . فالوسواس في هذه الحالات يكون في الغالب وساوسا منطقياً يتعلق بطريقة التفكير أكثر من كونه متعلقاً بمضمون التفكير . ولعلنا نثبه الموسوس في هذه الحالة بالشخص المصاب في قدمه لسبب أو لآخر ، فيركز ذهنه في طريقة مشيته ، وهل هو يعرج أم أنه يسير بطريقة عادية فيكون تركيز ذهنه على طريقة المشى وليس على أين يذهب .

خامساً - حالات الحرمان من التفاعلات الثقافية . فثمة أطفال يولدون عادين أسوياء ، ولكن ظروفًا معينة تحول بينهم وبين الانخراط في أى مجتمع من المجتمعات البشرية . وبالتالي فإنهم يحرمون من تعلم لغة الكلام ، بل يحرمون من تعلم القيم والعلاقات الاجتماعية والحضارة الإنسانية برمتها .

وهذه حالات نادرة جداً . ففي بعض الأحيان تقوم القردة بسرقة بعض الأطفال الصغار المولودين حديثاً بجوار الغابات ويهرعون بهم إلى الأشجار حيث يجثونهم ، وحيث يعلمونهم الحياة وفق طرائقهم . فإذا ما عثر بعض المكتشفين على أولئك الأطفال بعد فترة من الزمن وقد بلغوا نهاية مرحلة الطفولة الثانية (حوالى العاشرة مثلاً) وانتزعوهم من مجتمع القردة وأدرجهم في مجتمع الناس وقد أخذوا في تعليمهم وتدريبهم ، فان ما يمكن أن يفعلوه لهم لا يمكن أن يحيلهم إلى أشخاص أسوياء ولا يمكن تعويضهم عن كل ما فاتهم من نمو عقلي يتأتى عن التفاعل الثقافى بين ما جبل عليه المرء وبين الحضارة الإنسانية منذ نعومة الأظفار . ولو أنهم تركوا لحياتهم القردية لما ظهرت لديهم أية وساوس أو أعراض نفسية ، بل لكانوا من أذكى أنواع القردة إذا ما تجاوزنا القول واعتبرناهم عندئذ قردة . ولكنهم وقد استنقلوا وأجبروا على الانخراط في مجتمع إنسانى تظللته حضارة إنسانية معقدة ، فان صراعا نفسيا ينشب لديهم فيما بين جديد يراد لهم استيعابه وقديم يراد تخليصهم منه . فينشأ عن هذا التصادم بين الثقافة القردية وبين الثقافة الإنسانية فى أنحائهم تلك الوسواس التى تبدى أكثر ما تبدى فى الناحية الأدائية . فهم يعكفون على للعملية الواحدة البسيطة يكررونها بغير أن تنشأ لديهم رغبة للتدرج منها إلى عمليات أكثر تعقداً . أضف إلى هذا ما قد ينشأ لديهم من وساوس كلامية . فلقد تسيطر عليهم بعض الكلمات أو العبارات فيلوكونها بغير مضمون معرّف يريدون نقله إلى السامع . ويظل الوسواس الكلامي يسيطر عليهم ويعوقهم عن التقدم ولو خطوة واحدة فى طريق اللغة المنطوقة الحصبة والمتنوعة . ولقد يحاول المربون إثناءهم عن تلك الكلمات أو العبارات الوسواسية ولكن دون جدوى . فهم يرددون على ما يقال لهم بنفس القوالب الكلامية الوسواسية التى أخذت بهم كل مأخذ وسيطرت على ألسنتهم لا تريم عنها ولا تخفف من وطأتها عليهم .

والواقع أنه كان فى وسعنا أن نضيف إلى هذه الأنواع الخمسة من النقص فى النمو العقلى وكذا النكوص عن ذلك النمو ما قد يحدث من وساوس فى

الشيخوخة تنجم عن أسباب متباينة . ولكننا آثرنا أن نخصص فصلاً برمته نعالج فيه موضوع الوسوسة في الشيخوخة . ففي الفصل القادم سوف نتناول وسوس الشيخوخة من زوايا متباينة وذلك لأهمية الشيخوخة في نظرنا ، وقد سبق أن خصصنا لرعاية الشيخوخة عملاً قائماً بذاته (١)

الاضطراب الانفعالي :

عندما نتصفح كتب علم النفس التي عرضت لدراسة الوسوسة ، فإنا نجد أن معظمها يعزو الإصابة بها إلى وقوع اضطراب انفعالي بالشخصية . وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على أهمية هذا العامل في الإصابة بالوسوس . على أن الاضطراب الانفعالي يرجع في الواقع إلى أسباب متعددة يصح أن نعرض لها فيما يلي مبيينين علاقة كل هيئة من هيئات الاضطراب الانفعالي بالوسوسة .

هناك أولاً اضطراب انفعالي يعزى إلى عدم تبلور الوجدان حول موضوعات معينة ، أو بتعبير أدق عدم تبلور جانب كبير من الطاقة الوجدانية حول موضوعات معينة . والواقع أن تبلور الوجدان حول أحد الموضوعات يشكل عاطفة نحو ذلك الموضوع . وتبلور الوجدان قد يكون تبلوراً إيجابياً فينشأ الحب ، كما أنه قد يكون تبلوراً سلبياً فينشأ الكره . ولكن حب أحد الموضوعات أو كراهيته يكبح جماح الوجدان الثائر ، وذلك عن طريق ما أسميناه بتلور الوجدان . فعدم تبلور الوجدان ، أو النقص في بلورته حول الموضوعات إنما يصيب الشخصية بالاضطراب الانفعالي ، أو قل إن الشخصية تكون مترددة في توجيه وجدانها . فهي توجه نفس الطاقة الوجدانية إلى الموضوع والموضوع المتنافي له . وهذا هو الوسوسة بعينها حسب التعريفات السابقة التي قدمناها بصدد عرضنا للموضوعات السابقة .

هناك ثانياً — اضطراب انفعالي يعزى إلى عوامل فسيولوجية وبخاصة تلك العوامل المتعلقة بالمخ . فلقد يحدث عطب بالمخ يمكن الوقوف عليه

(١) أنظر كتاب « رعاية الشيخوخة » للمؤلف — مكتبة غريب بالفجالة .

ويمكن التدخل لوقفه بالعمليات الجراحية ، كما أنه قد يحدث تلف وظيفي بالمخ نتيجة انحراف وظائف المخ عن الخط السليم الذي ينبغي أن يضرب في أثره ويسير على منواله . والواقع أن رد جميع الالتواءات التي يمكن أن تبدو في سلوك المرء إلى أسباب فسيولوجية بحثة تكون قد أصابت المخ ، إنما يكون فيه اجتزاء ببعض الأسباب أو العلل دون باقي الأسباب الأخرى . فثمة في الدراسات النفسية المتعلقة بالانحرافات النفسية ما يعرف بالأمراض أو الأعراض الوظيفية التي لا يمكن الوقوف لدى دراستها على أسباب عضوية معينة ، بل تفسر بأنها انحراف سلوكي أو وظيفي متعلق بسلوك المرء أو بالخبرات غير السديدة أو الملتوية التي اكتسبها المرء . ومن الاضطرابات الانفعالية الوظيفية ما ينتهي بالمرء إلى التلبس بالوساوس . من ذلك مثلاً الخوف أو الحرمان من التعبير عن خلجات النفس أو القمع أو الصد أو ما إلى ذلك من مواقف تجعل الموسوس غير قادر على الإبانة وعاجزاً عن الامتداد بسلوكه إلى آفاق أوسع من الآفاق التي سجن بها .

هناك ثالثاً - اضطراب انفعالي تناغمي يصيب المرء بالإيحاء المباشر أو قل يصيب المرء بالانتقال المباشر من الموقف الراهن إلى موقف جديد والتناغم في الدراسات النفسية معناه الانتقال المباشر للانفعالات من شخص أو أشخاص إلى شخص أشخاص آخرين . والواقع أن الاضطراب الانفعالي الناجم عن التناغم الانفعالي يمكن أن يكون اضطراباً مؤقتاً ، كما أنه يمكن أن يستمر لفترة طويلة أو يمكن أن يلزم المرء بصفة دائمة ما لم يتدخل العلاج النفسي لانقاذ الشخص من قبضة ذلك الاضطراب . ومن بين ظواهر أو أعراض ذلك الاضطراب الانفعالي تلك الوسوس المتباينة بأشكالها التي سبق أن عرضناها .

هناك رابعاً - الاضطرابات الانفعالية الناجمة عن مشكلات اجتماعية أو اقتصادية معينة . فمن تلك الاضطرابات الانفعالية ما ينجم عن فقدان والدين في حادثة أو نتيجة أزمة اقتصادية مفاجئة أو نتيجة مواقف اجتماعية أو سياسية عامة كما يمكن أن يقع في الحروب أو لدى انتشار المجاعات أو غير

ذلك من ظروف اجتماعية غير عادية . فمثل تلك الظروف تطيح بالاستقرار النفسى لدى الأفراد والجماعات ، فيغدون موسوسين حتى بعد أن تنقشع الأسباب والنتائج الاجتماعية الأساسية التى أدت إلى وقوع الاضطرابات الانفعالية .

وهناك خامساً وأخيراً — اضطرابات انفعالية مزاجية تتعلق بالبنية المزاجية التى جبل عليها المرء . والواقع أن علم النفس قد أفرد دراسة للأمزجة تشكل فرعاً قائماً بذاته من فروع علم النفس هو علم نفس الأنماط . ولعل أن كل دارس لهذا العلم يجد نفسه بدءاً فى مواجهة الدراسة المتعلقة بالأمزجة الأربعة كما قدمها بقراط وجالينوس . ويتبعهم بعد ذلك كثير من علماء النفس الذين دأبوا على تقسيم الناس إلى أنماط متباينة بحيث يتصف كل نمط بسمات ثابتة وأصلية يولد بها ويرثها عن آبائه أو أسلافه القرييين والبعيدىين . ومن بين الأنماط التى التى حددها علماء النفس بعض الأنماط التى يكون لديها استعداد قوى للإصابة بالوساوس المتباينة .

وينبغى ألا يعزب عن البال مدى تمكن الاضطرابات الانفعالية فى شخصية المرء وأثر ذلك فى إصابته بالوسوسة . فنحن نجد أن هناك اضطرابات انفعالية سطحية وأخرى غائرة فى شخصية المضطرب انفعالياً . وهنا نذكر أن هناك مستويات من الإصابة بالاضطرابات الانفعالية . ولعل أخف المستويات وطأة على المضطرب انفعالياً هو المستوى الشعورى ، بينما تعتبر أشد المستويات وطأة على نفسيته هو المستوى اللا شعورى . ونحن لانقصد بالمستوى الشعورى والمستوى اللا شعورى مجرد إدراك الشخص لحالته ، بل نقصد بصفة أساسية مدى الاعمال والتمكن من شخصية المضطرب انفعالياً . فعلى المستوى الشعورى يكون تغلغل وتمكن الاضطراب الانفعالى سطحياً ، بينما يكون على المستوى اللاشعورى غائراً فى أعماق الشخصية ومسيطرأ على مقاليدها وآخذاً بجماعها :

وهنا نجد ثمة تلاحاً بين المعنى الذى قصده فرويد لدى استخدامه لكلمة اللاشعور ، وبين المعنى العام للكلمة . فبالنسبة لهذا المعنى العام ، فاننا نقول إن المعدة مثلاً تعمل بطريقة لاشعورية ، بينما يقصد فرويد باللاشعور تلك

الخبرات غير السارة التي ترسبت في أعماق المرء وأخذت بمقاييد سلوكه . ونحن عندما نجمع المعنيين لكلمة « لاشعور » في إطار واحد ، فاننا نعني أن تمكن الاضطراب الانفعالي من الشخصية قد يكون ناجما عن خبرات اجتماعية تلقاها المرء من بيئته منذ نعومة أظفاره ، كما أننا نعني أيضاً تلك الاضطرابات التي تنجم عن عوامل فسيولوجية أو عوامل بيولوجية عامة كالتغيرات التي تحدث في كيمياء الجسم ونحو ذلك . المهم أن اللاشعور عندما يكون مسيطرا على المرء وعلى سلوكه ويكون مشحوناً بالاضطرابات الانفعالية ، فان الشخصية تسمى عندئذ بالشخصية المصابة بالقلق .

والقلق هو اللفظ الذي يستخدمه علماء النفس للإشارة إلى مركبات المخاوف وسيطرتها على الشخص . والواقع أن القلق صنو للوسوسة . ذلك أن الوسوسة الوجدانية معناها الانحباس في إطار نفسي وجداني يحول بين الشخص وبين الخروج منه . وأكثر من هذا فان وقوف الشخص على أسباب قلقه إنما تدفع به إلى التحرر من ربكة المخاوف التي تستعر بداخله . بيد أن القلق هو بصفة أساسية مجموعة من المخاوف العمياء التي لا يستطيع الشخص القلق الوقوف على كنهها أو تبين أسبابها . ولعل من أهم المحاولات التي يضطلع بها المعالجون النفسيون لتخليص القلقين من قلقهم هو الطفو بالقلق من المستوى اللاشعوري غير الواعي إلى المستوى الشعوري الواعي .

على أن عامل الوراثة يلعب دوراً ذا بال في الإصابة بالاضطرابات الانفعالية . على أن أثر الوراثة لا يكون الا على هيئة استعداد فحسب وليس على هيئة الاضطراب الانفعالي نفسه . والواقع أن من الصعب فصل عامل الوراثة عن عامل الاكتساب . فالمصاب بالاضطرابات الانفعالية كثيراً ما ينجب أطفالاً مضطربين انفعالياً . ولكن المشكلة تتعلق بتحديد قوة تأثير الوراثة وقوة تأثير الإيحاء والتقليد والتأثير التربوي المباشر من جانب الوالدين في الأطفال المنجيين . ذلك أن كثيراً مما يعتقد أنه وراثي إنما يكون اكتساباً منذ الطفولة المبكرة . فنحن نغرس في أطفالنا مقومات مكتسبة يمكن أن

تختلط في أنظار الناس بالوراثة . وللانصاف نقول إن ثمة تفاعلا فيما بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية المكتسبة . وليس من الخطأ أن نقول إن الطفل لا يستطيع أن يكتسب شيئا إلا إذا كان لديه استعداد وراثي لاكتسابه . وعلى هذا فأننا نقرر أنه ما لم يكن الطفل قد اكتسب الاستعداد للقلق أو للاضطراب الانفعالي ، فإنه لا يستطيع أن يصير مضطربا انفعاليا أو قلقا . وعلينا أن نتناول الوسواس كمرض أو كثرة للاضطراب الانفعالي أو القلق لا باعتبار أن الوسوسة هي السبب في نشوء الاضطراب الانفعالي أو القلق . وهكذا نجد أن تناول العرض السلوكي ينبغي ألا يكون تناولا سطحيا بل يجب أن يكون تناولا عميقا يصل فيه المرء إلى أغوار الشخصية وما يعتمل فيها من اضطراب انفعالي أو قلق .

الخوف المرضى :

هناك نوعان من الخوف : أحدهما الخوف السوي أو الطبيعي ، والآخر الخوف المرضى . والفرق بين النوعين من الخوف هو أن الخوف السوي يتسم بأنه خوف معقول أو مناسب للموقف ، بمعنى أن القدر الذي يستشعره المرء من الاحساس بالخوف يكون مناسباً لكمية الخطر التي يمكن أن تنأى عن مصدر الخوف ، كما أنه يكون مناسباً من حيث المدة التي يستمر عليها لضخامة الخطر المحدق أو الضرر المتوقع . أما الخوف المرضى فإنه ينجح على المرء بتركيز وتبلور هائلين في نفسيته مع ارتباط غير حقيقي ببعض الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار . ومن ثم فإن مقدار الخوف ومدته لا يتناسبان في حالة الخوف المرضى مع الخطر الممكن أو مع الاضرار المتوقعة .

ونستطيع في الواقع أن نتناول الوسواس التي يمكن أن تصيب المرء في ضوء الخوف المرضى . ولكي تتضح لنا علاقة الخوف المرضى بالوسوسة فإن علينا أن نستعرض الأنواع الأساسية من المخاوف المرضية وأن ندين في نفس الوقت علاقة كل نوع منها بالوسواس .

هناك أولا - مخاوف مرضية تتعلق ببعض الأشخاص الذين تقوم علاقات يومية أو متواترة بينهم وبين الشخص الموسوس . من ذلك مثلا علاقة الابن أو البنت بالأب أو بالأم ، وعلاقة التلميذ بالمعلم ، وعلاقة الممرض بالمرضى . فمن الطبيعي أن يخشى الصغير بأس الكبير ، ولكن تلك الخشية يجب أن تتناسب مع الخطر الذى يمكن أن يصدر عن الكبير ضد الصغير . ولكن إذا وجدنا أن النسبة بين الخوف وبين الخطر المصدق نسبة غير معقولة ، وأن الصغير قد بالغ فى إبداء الخوف من الكبير ، فأننا عندئذ نبدأ فى النظر إلى تلك الخشية أو الخوف باعتبار أنها خشية أو خوف مرضى .

ونستطيع أن نستبين علاقة مثل هذا الخوف المبالغ فيه بالموسوسة عندما نتذكر تعريفنا السابق للموسوسة بأنها الانحباس فى إطار نفسى معين لا يستطيع الموسوس أن يتعداه إلى خارج نطاقه حيث يشاهد الواقع موضوعيا أمامه . وباعتبار آخر الانغلاق على الإطار الوجدانى والعجز عن العبور منه إلى الأطوار العقلانى ، أو بتعبير ثالث البقاء فى سجن اللاشعور والعجز عن الخروج إلى رحابة الشعور . والواقع أن المصاب بالخوف المرضى من أحد الأشخاص يظل محبوسا فى إطاره الوجدانى بحيث يكون عاجزا عن استبانة حقيقة الواقع الموضوعى . وبذا فإن الخوف المرضى يكون صنوا للموسوسة . ذلك أن المصاب بهذا المرض يظل مركزا وجدانه كله - أو جلّه - فى الشخصية التى يخاف منها فلا يريم بوجدانه عنها .

هناك ثانيا - مخاوف مرضية دينية . فالحائف خوفا مرضيا قد يجد الموضوع الذى يركز فيه خوفه المرضى فى كائنات روحانية . وثمة بعض المرضى بالخوف المرضى يركزون خوفهم فى الكائنات الروحانية المقدسة وعلى رأسها الخالق نفسه ، وثمة البعض الآخر من المرضى بالخوف المرضى يركزون خوفهم فى كائنات روحانية شريرة كالشياطين والجن وأرواح الموتى . ومن الطبيعى أن يخاف الإنسان العادى من كلا النوعين من الكائنات الروحانية طالما أنه مؤمن بوجودها . ولكن المريض بالخوف المرضى يبالغ فى إبداء مخاوفه من تلك الكائنات الحية ، بل إنه يكاد يقضى كل الوقت فى ترقب

لما عسى أن توقعه عليه تلك الكائنات من أضرار وما يمكن أن تبثليه به من مصائب ونوائب .

وطالما أن المصاب بالخوف المرضى من هذه الفئة يركز تفكيره ويقضى معظم وقته وقد انحبس وجدانه في هذا الاطار من المخاوف المرضية ، وطالما أنه لا يطفو بتلك المخاوف من الحيز اللاشعورى المتمكن من شخصيته والمتسلط على جماع قلبه الى الحيز الشعورى الواعى والمدرک موضوعيا لأسباب تلك المخاوف . فان الحالة إذن تنخرط في نطاق الوسواس المرضية ، حيث أن المخاوف المرضية من الكائنات الروحانية تشكل سحبا لا يستطيع المريض منه فكاسا أو انطلاقا .

هناك ثالثا . مخاوف مرضية من التأثير النفسى أو الروحانى يتأتى عن مشاهدة بعض الاشخاص للجوانب الحسنة بالشخصية أو بما تملكه من أشياء وعن التقريظ باللسان وهذا ما يعرف بالخوف من الحسد . وعلى الرغم من أن هناك بعض الاشخاص لا يلقون بالا الى الحسد ، فاننا نجد من جهة أخرى أن هناك تفاوتاً في الخوف من الحسد باختلاف الأشخاص . وفي مقابل أولئك الذين لا يحسون بتلك القوة الروحية التى يطلق عليها الحسد تصدر عن الآخرين وتؤثر بقليل أو بكثير في حالة الشخص أو في ممتلكاته ، فاننا نجد أولئك الذين يخشون الحسد بطريقة مرضية . فخوفهم من أن يوجه اليهم بعض الناس سهام الحسد يحملهم على الشعور بالمخاوف المرضية تعصرهم وتغوق نشاطهم وتحصرهم في نطاق مجموعة من الأفكار الضيقة وقد أخذوا يترقبون ويتوقعون المخاطر التى يمكن أن تتأتى عن توجيه سهام الحسد الى صحتهم أو الى أبنائهم وبناتهم أو الى ممتلكاتهم .

وهنا نجد أيضا أن المصاب بهذا النوع من الخوف المرضى وقد انحصرت في هذا الاطار الوجدانى الضيق ، فأخذ يغوص في أعماق لاشعوره وقد عجز تماما عن الطفو على سطح الواقع الموضوعى كما عجز أيضا عن تفهم الموضوع تفهما منطقيا عقلانيا . ومن ثم فان المصاب بالخوف المرضى من الحسد يكون

فى نفس الوقت مصابا بالوسوسة المتمركزة حول هذا المفهوم ، أو قل حول هذا الوجدان المتبلور حول هذا المفهوم .

وهناك رابعا — مخاوف مرضية خاصة ببعض الحيوانات أو الأحياء أو الأشياء . من ذلك الخوف من القُتران والصراصير ونحوهما كما سبق أن ألعنا ، وكذا الخوف من الأماكن المغلقة أو من الأماكن المرتفعة أو من الأماكن الواسعة الفسيحة أو الخوف من الأماكن المظلمة أو نحو ذلك . والواقع أن تلك المخاوف المرضية يمكن أن تكون شديدة لدرجة أن الشخص يكون منحبسا تماما فى إطار مخاوفه ولا يستطيع الخروج من قبضتها أو التخلص من برائتها أو التخفف من وطأتها . وبذا فإن تلك المخاوف تشكل مجموعة من الوسوس التى تحول بين المرء وبين التفكير الموضوعى الواقعى .

وهناك خامسا وأخيرا — مخاوف مرضية من الموت . وليس من شك فى أن جميع الناس يخشون الموت ولكن الخوف من الموت لا يعتدل لدى جميع الناس بنفس القدر ، بل إنه يتفاوت من شخص لآخر . والمرضى بالخوف المرضى يقضون الوقت الطويل فى ترقب الموت بفزع . ولقد نجد الواحد من أولئك المرضى وقد تملكه الخوف المرضى وسيطر عليه لدى مشاهدته لصندوق ميت أو لدى مرور عربة الموتى — ولو فارغة — بالشارع أمام ناظريه ، أو لدى سماعه نبأ وفاة أحد الأشخاص ، أو لدى مشاهدته لهيكل عظمى . فالخوف من الموت فى الحالات المرضية لا يكون معقولا بل يكون فظيحا وخيفاً لدرجة أن شعر الرأس يقف والعينين تتسعان وتمتلئ بالدموع وجميع علامات الفزع تبدو على ملامح الشخص . وإنك لتجد الواحد من المرضى بهذا النوع من الخوف المرضى وقد انحبس فى إطار هذا الخوف لا يستطيع الانطلاق من أساره والخروج الى فسحة التفكير الموضوعى .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من المخاوف المرضية — وهى وسوس فى نفس الوقت — فإننا نحذر من الاعتقاد بأن مجرد اقناع الشخص المصاب بها منطقيا بسخافة مخاوفه جدير بشفاؤه منها . ولعلنا نحذر أيضا من اتباع طريقة الهزء والسخرية من الخائف . ذلك أن هذه الطريقة الأخيرة

تحمل الخائف مرضيا على إخفاء مخاوفه بقدر الامكان ، ومن ثم فانها تتملكه أكثر فأكثر وتسجنه بين أسوارها فلا يكون قادرا على التحرر من ربقتها أو التخلص من قيودها وتكبلها له .

ولاشك أن المخاوف المرضية تبدأ أساسا منذ نعومة الأظفار ، وهي تنتقل أساسا الى الطفل عن والديه ، أو تكون نتيجة لحادث يرتبط بالموت في الطفولة. ولاشك أن الموت في حد ذاته قد لا يخيف الا قليلا ، ولكن الحضارة الانسانية بعامة قد غلفت الموت بكثير من الرهبة والفرع مما يجعل القابلية للاصابة بالخوف المرضى من الموت قوية وقابلة للعدوى الى الأشخاص المعتمدين بقابلية شديدة للايحاء والتقليد . وبمناسبة الايحاء والتقليد ، فاننا نجد أن الايحاء هو تقليد وجداني ، وان التقليد هو تصديق وتقبل وجداني يعبر عنه بالأداء والسلوك الظاهري . وعلى هذا فان سبيل العلاج يكون اذن بنفس الطريقة التي تم بها تقبل المخاوف المرضية والوساوس .

أمراض الذاكرة :

اننا لا نستطيع أن نستبين أثر أمراض الذاكرة في الاصابة بالوسوسة الا بعد أن نقوم باستعراض أمراض الذاكرة المتباينة التي يمكن أن يصاب بها المرء. ولعلنا نلخص تلك الأمراض فيما يلي :

أولا — فيما يتعلق بذاكرة العلاقات المكانية . فالمصاب في ذاكرته فيما يتعلق بالعلاقات المكانية ينسى الأماكن التي عاش فيها مدة طويلة وكان عارفا بتفاصيلها وثناياها الدقيقة . ومن هنا فان المصاب في ذاكرته المكانية يمكن أن يتيه في نفس الشارع الذي يسكن فيه ، بل ويتهي بجوار منزله مباشرة . والواقع أن أولئك المصابين بهذا النوع من ضعف الذاكرة إنما يشملهم القلق على أنفسهم ويعمهم الخوف من أن يتيهوا ويضيعوا بين الناس فلا يعثر عليهم أحد ، وبالتالي يفقدون أحياءهم بل وتهدهم الجوع والضياع . وواضح أن مثل تلك الأفكار والهواجس تشكل وسواسا يحتم على عقولهم وقلوبهم يأخذ بهم كل مأخذ . ولاشك أن الكثير من الأطفال الصغار قد يحسون بنفس الاحاسيس المفزعة

وينحشون من الضياع والتهيه من ذوبهم ، وقد ينهضون فرعين من أحلامهم التي وجدوا أنفسهم فيها وقد ضلوا وأضاعوا أهلهم بعد أن كانوا متشبثين بهم ويرافقونهم في الطريق . ولسنا ندهش اذا ما ساورت نفس الأحاسيس وأفزعت نفس الاحلام التي تساور وتفزع الأطفال أولئك الكبار الذين يصابون بالضعف في الذاكرة المكانية .

ثانيا - فيما يتعلق بذاكرة العلاقات الزمنية . فثمة بعض الأشخاص يصابون بضعف في تذكر الأيام والاسابيع والأشهر والسنوات ، فهم لا يتذكرون « القبل » و « البعد » . فالأحداث تختلط في أذهانهم من حيث وقوعها . صحيح أن هذا ممكن أن يقع لأي إنسان لديه ذاكرة عادية ولكن الملاحظ بالنسبة للشخص المريض في ذاكرته الزمنية أنه لا يستطيع أن يرتب الأحداث اليومية ترتيبا زمانيا . وهناك أيضا ما يسمى بالرؤية السابقة *deja - vue* وهو اضطراب في الذاكرة الزمنية حيث يعتقد المريض بأن ما يقع عليه بصره قد سبق ومر بخبرته الفعلية قبل ذلك (١) . ومن مظاهر وأعراض أمراض الذاكرة الزمنية نسيان المواعيد الهامة كموعد الامتحان أو موعد الزواج أو موعد عقد جلسة لنظر قضية هامة ، ونحو ذلك .

وكما هو الحال بالنسبة لضعف واضطراب الذاكرة المكانية ، فاننا نجد أن ضعف واضطراب الذاكرة الزمنية إنما يكون مصحوبا في نفس الوقت بالوسوسة . ذلك أن الشخص المصاب بمثل هذا الضعف عندما يكشف لإصابته به . فانه يأخذ في توقع النسيان قبل حدوثه ، فيظن دوما أن ثمة مواعيد هامة يجب عليه تذكرها والا فان مسؤوليات سوف تلحق به ، أو سوف تنصب عليه الاتهامات بالاهمال أو قد يتهم بالعتة وضعف العقل ، وهو ما يرغب جاهدا في تجنب الوقوع فيه .

ثالثا - فيما يتعلق بذاكرة الأسماء . فثمة أشخاص يصابون بفقدان نسبي لذاكرة الأسماء ، بما في ذلك أسماء أقرب الناس إليهم . وفي بعض الحالات الحادة والنادرة يمكن أن ينسى الشخص اسمه شخصيا . والواقع أن بعض الأشخاص العاديين قد يشكون من ضعف ذاكرتهم الإسمية ، ولقد تجد من

(١) لنا رأى آخر بازاء الرؤية السابقة عرضنا له في كتاب « سيكولوجية الإلهام » مكتبة غريب بالفعالة .

بن أولئك الأشخاص بعض العباقرة . من هؤلاء اديسون وما يقال عنه من أنه كان ضعيف الذاكرة الاسمية جدا لدرجة أنه في موقف ما نسي اسمه شخصيا .

والواقع أن ضعف الذاكرة الاسمية يسبب حرجا شديدا للشخص في علاقاته الاجتماعية وفي نظرة الآخرين اليه . ومن هنا فإنه يصاب في الغالب بالوسوسة المشفوعة بالقلق الشديد على نفسه وعلى سمعته . وقد يظل مركزا الذهن ليل نهار في هذه المشكلة المستعصية على الحل الناجع والسريع .

رابعا - فيما يتعلق بذاكرة التفاصيل . فثمة أشخاص يتذكرون التفاصيل الدقيقة بالمواقف المتباعدة بحيث تكون تلك الذاكرة التفصيلية معوقا لهم عن الوصول الى مرمى حديثهم مع غيرهم . فهم يذكرون التفاصيل الدقيقة المتعلقة بوصف الأشياء والأشخاص والمواقف والحركات فلا يتسنى لهم ترك تفصيلا من تفاصيل الموقف مهما كانت تافهة . وبدا فقلما يتسنى لهم سرد موقف الى نهايته . وذلك لأن المستمعين يتضجرون وقد ينفد صبرهم فلا يتسنى لهم مواصلة الاستماع . وانك لتجد أصحاب الذاكرة التفصيلية وقد أخذوا يحسون بنبو الناس عنهم وبغزو فهم عن الاستماع اليهم ، فيتشككون في مدى حب الناس لهم وثقتهم فيما يقولونه أو يسردونه على مسامعهم . ومن ثم فإنهم يصابون بالوسوسة عندما يخلون الى أنفسهم وينفض عنهم الآخرون .

وبعد أن عرضنا لهذه العينات الخمس من ضعف الذاكرة ، فانا نبدأ في محاولة الكشف عن أسباب ذلك الضعف . ولعلنا نركز الكلام في الأسباب التالية :

أولا - هناك أسباب بيولوجية أو فسيولوجية تتعلق بالمخ أو بالمراكز الخاصة بالتذكر الوجودية به . ولقد نضع ضمن تلك الأسباب ما كان متعلقا بالضعف يصيب المخ ومراكزه التذكيرية نتيجة الشيخوخة وما يتبعها من ضعف طبيعي بالجسم عامة وبضمنه المخ . واسوف نخصص الفصل التالي برمته للشيخوخة في علاقتها بالوسوسة . وثمة أيضا النقص في نمو المخ والمراكز

التذكرية . ولعلنا نميز هنا لدى الطفولة نوعين من الذاكرة : ذاكرة كلامية ، وذاكرة علائقية . فمن الملاحظ أن ذاكرة الكلام قوية لدى الطفل ، بينما تكون الذاكرة العلائقية المتعلقة بالعلاقات المكانية والزمانية غير ناضجة لديه . ومن هنا فإن الطفل الصغير لا يستطيع تعلم الهندسة ، ولا يستطيع أن ينزع العناصر من سياقها الزمنى أو المكانى . فالقصة لديه — وكما يتذكرها — تركيبة تسلسلية بحيث تسير الأحداث متتابعة كما قيلت له . ولكن القيام بعمل قطاعات عرضية فى القصة أو إقامة علاقات جديدة هو أمر متعذر بالنسبة للطفل . ومن هنا فأننا نستطيع القول بأن الذاكرة العلائقية تكون بحاجة الى الانخراط فى إطار نمائى تدرجى مستمر . وكذا فأننا نستطيع القول بأن أى عطب يصيب المخ قد يؤثر من قريب أو من بعيد فى قدرته على التذكر بكافة أنواع التفكير التذكرى .

ثانيا — هناك أسباب تتعلق باستثمار أو عدم استثمار الذاكرة . فلقد يكون المرء صاحب ذاكرة جيدة أو حتى ممتازة ، لكنه لا يفيد منها بل قد يوجه أو يركز اهتمامه الذهنى فيما يتعلق بالواقع المحسوس أو بالتفكير العلائقى الموجود بالموقف أو بالعلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل ، دون أن يهتم بالذاكرة . ولقد يعزى ضعف الذاكرة عموما لدى الانسان الحديث الى شيوع أجهزة التسجيل البصرية والسمعية .

ثالثا — هناك أسباب لاشعورية . فلقد كشف فرويد عن أسباب لاشعورية يعزى اليها عدم التذكر أو اضطراب الذاكرة . فنحن ننسى ما يزعجنا من أفكار أو ما يؤدى الى تأليب الضمير علينا أو ما يهددنا بالخطر النفسى . ونحن نعتقد أن ثمة أسبابا لاشعورية أيضا تعمل على تركيز الذاكرة على مواقف أو كلمات معينة . فكما أن اللاشعور يكون مسئولاً فى بعض الحالات عن النسيان ، فإنه يكون فى حالات أخرى مسئولاً عن توهج الذاكرة . وأكثر من هذا فأننا نستطيع القول بأن اللاشعور يكون مسئولاً فى حالات ثالثة عن انحراف الذاكرة أو تزييفها . فلقد يعمل اللاشعور على حمل المرء على تذكر أشياء على غير وجهها الصحيح . فأنت ربما تقص ما سمعته أو تصف ما حضرته من

مواقف وتكون مخلصا في قصبك أو وصفك مع أن ما تعيد ذكره أو وصفه يكون غير دقيق أو منحرفا عن جادة الصواب . وهذا يشاهد بأجلى صورة في كثير من شهادات الشهود أمام القضاة . فهم يذكرون صادقين ما شاهدوه وهم لا يعلمون أن ما يروونه للقضاة قد تلون واصطبغ بصبغة وجدانية لاشعورية ، أو بتعبير أدق قد زيف بواسطة اللاشعور .

ونستطيع في الواقع أن نقرر أن سيطرة بعض الأشياء التي يتذكرها المرء على ذهنه واستمرار تواردها برغم تفاهتها ومضايقتها والحاحها على الذهن ، إنما يشبه سيطرة حركة معينة على جسم المرء . فالذاكرة الذهنية والذاكرة الحركية — إذا صح التعبير — قد يشكلان سويا نوعا من الوسوسة فيصير الشخص الموسوس صريعا لوسوسته ، فلا يستطيع أن يحرر نفسه منها . ولكأن الذاكرة في هذه الحالة تكون ذاكرة مرضية حيث يكون الحاحها خارج نطاق سلطة وقيادة الشخص الموسوس . فهو يتذكر ويستمر في تذكر أشياء تضايقه وترهق أعصابه . وكلما التح على التخلص من وسوسته ، زاد تمكنها منه وسيطرتها عليه واستعبادها له .

أمراض الخيال :

يحسن بنا بادئ ذي بدء أن نقدم تعريفا للخيال ، ذلك أنه برغم كثرة استخدام كلمة خيال على الألسنة والأقلام ، فإن كثيرا من اللبس والغموض يحيطان بها ويكتنفانها . فالخيال في ذهن كثير من الناس مرادف للوهم والبطلان والانفصال التام عن الواقع المحسوس . والصحيح هو أن الخيال مركب ذهني يتشكل من مقومات حسية ، سواء كانت تلك المقومات استمدت من الواقع المحسوس مباشرة بطريق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس ، أم كانت مستمدة من ذلك الواقع المحسوس بطريق غير مباشرة عن طريق الذاكرة ، أى أن الذاكرة تأخذ عن الواقع المحسوس ثم تمد الخيلة بما صار مخزننا بها من عناصر حسية .

على أن التخيل يتميز من التذكر في جانب هام وأساسى ، هو أن الذاكرة تحتزن الخبرات الحسية محاولة جهد طاقها أن تبقى عليها كما هى بغير

تحريف أو تزييف ، بينما تعتمد الخيلة الى تشكيل مركبات ذهنية جديدة من العناصر التي تستمدّها من الواقع مباشرة ومن المخزون الخبري بالذاكرة من خبرات ذلك الواقع في نفس الوقت . ولقد تعتمد الخيلة الى اتخاذ عدة طرق في سبيل إعادة تشكيل المقومات الحسية المستمدة من الواقع نلخصها فيما يلي :

أولاً - فيما يتعلق بالعلاقات المكانية : فالخيلة تستطيع أن تجعل البعيد قريباً والقريب بعيداً ، وأن تجعل الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، وأن تجعل البطيء السريع وبطيئاً ، وأن تشكل ملامح جديدة للكائنات وذلك بأن تنزع بالذهن عضواً ما من كائن حتى لكي تركبه على كائن حتى آخر . فخرطوم الفيل يمكن أن يركبه الخيال على رأس حصان ، وأن يصير للأسد فراء كفراء الثعلب .

ثانياً - فيما يتعلق بالعلاقات الزمانية : فبالخيلة يستطيع المرء أن يجعل الماضي مستقبلاً ، والمستقبل حاضراً والحاضر في طي الماضي أو في طي المستقبل . وهي تستطيع نقل الحوادث ذهنياً ليكون القبل بعداً والبعد قبلاً ، أو القبل والبعد آنناً حاضراً .

ثالثاً - فيما يتعلق بالخيال الوجداني : فرغباتنا وانفعالاتنا يمكن أن تجد لها متنفساً بالخيال . فالفقير يستطيع أن يجعل من نفسه أحد الأثرياء ، والمقعد يستطيع أن يحيل نفسه الى عداء يسابق أمهر وأسرع عداء في العالم ، والطالب الفاشل يستطيع بالخيال بان يجعل من نفسه نابغة زمانه والناجح يتفوق نادر على جميع أترابه فيبزههم بيون شاسع . وهذا الخيال الوجداني هو ما يعرف بأحلام اليقظة .

رابعاً - فيما يتعلق بالخيال اللغوي : فاللغة أصلاً تعبر بحدود ضيقة عن الواقع المحيط بالمرء . ولعل اللغة في أصلها تنقسم الى ثلاثة أنواع من الكلمات الأسماء والأفعال والعلاقات كما يتبدى في هذه الجملة « العصفور يقف على الشجرة » « فالعصفور » « والشجرة » اسمان ، « ويقف » فعل ، « وعلى » علاقة مكانية . ولكن الخيال لم يبق على اللغة في هذه الحدود الضيقة ، بل

انتقل باللغة الى مجالات لم تكن تمتد اليها أصلاً . فيقال مثلاً « الريح تزجر »
« والبحر يهدد السفينة » ، كما لو أن الريح قد صارت أسداً أو أن البحر
يغضب كما يغضب الانسان . ومن جهة أخرى فإن الرموز قد اخذت تحمل
معنى الكلمات فيقال « س أقوى أو أسرع أو أذكى من ص » ... الخ .

وبعد أن عرضنا للخيال كظاهرة سوية عامة بالنسبة لجميع الناس العاديين
المتمتعين بصحة نفسية جيدة ، فإننا نبدأ فيما يلي بعرض الجانب الآخر للخيال
وهو الجانب المرضى ، كما نحاول في نفس الوقت إظهار علاقة الخيال
المريض بالوسوسة . فثمة ما يلي :

أولاً - إفلات الخيال من قبضة المرء بحيث يصير مسيطراً عليه ومهيمناً
على سلوكه الداخلى والخارجى جميعاً . فالخيال السوى إنما يكون خيالا وظيفيا
بمعنى أن يكون أداة فى ذهن المرء كما يكون أضعف ولو قليلا من إدراك
الواقع المحسوس . فالشاعر والفنان والفيلسوف والرياضى والمخترع وان
تشبهوا بالخيال ، فان تشبههم يجب أن يكون بدرجة أقل من تشبههم بالواقع
القائم أمامهم . فاذا ما طغى تشبههم بالخيال على تشبههم بالواقع ، وإذا أفلت
زمام نشاطهم الذهنى الخيالى بحيث يعمل على نحو نشاطهم الذهنى المرتبط
بالحواس ، فإننا نعتقد عندئذ أن ما ينتحون إليه من خيال إنما يكون خيالا
مريضاً . صحيح أننا نسمع فى سير العباقرة عن شطحات الخيال لديهم ولكننا
نعلم من جهة أخرى أن تلك الشطحات كانت ملجمة بحدود الواقع وضوابطه .
فما يفتأ العبقرى يعود إلى نمط التفكير الواقعى ويتشبه به . فان لم يفعل ذلك
عد اذن صاحب خيال مريض وخاضع بالتالى للوساوس . ذلك أن تعريفنا
للوسوسة قد تضمن هذا المفهوم أيضاً ، أعنى الانجباس فى حدود الذهن وعدم
الخروج منه إلى إطار الواقع .

ثانياً - اختلاط ما يقوم فى ذهن المرء من أخیلة مع ما يصل إلى إدراكه
من مدركات حسية . فأنت تستطيع أن تصنع بمخيلتك ما يحلو لك من أخیلة
ولكن عليك فى نفس الوقت أن تقيم حاجزاً فيما بين الأخیلة وبين الواقع
الذى تدركه عن طريق الصور الذهنية الحسية المدركة لذلك الواقع .

أما إذا اختلط الأمر عليك ، فحسبت أن ما قمت بتصنيعه بواسطة خيالك هو في نفس الوقت صور أمينة ومطابقة لما هو موجود بالعالم الخارجى ، فان خيالك يكون إذن خيالا مريضاً . ولا شك أن ذهننا كهذا لا يستطيع التمييز والفصل والعزل فيما بين الخيالى والواقعى لهُو إذن ذهن مريض ، ويكون الخيال الذى يمارسه صاحبه ويفكر فيه خيالا مريضاً . وليس من شك فى أن خيالا هذا شأنه يكون فى نفس الوقت نهبا للوساوس المتباينة .

ثالثا — تسلط بضع صور خيالية على ذهن المرء لا تريم عنه وتظل تتكرر بغير خصوبة تنتقل بها إلى صور خيالية جديدة ، وبغير هجران لتلك الصور المتخيلة إلى غيرها من صور ذهنية خيالية . ولعلنا هنا نجد الوسوسة متمثلة بعينها . فبعد أن يعمد الشخص إلى تشكيل صورته الخيالية فإنها تنقض عليه وتفترس باقى نشاطه الذهنى فتستأثر بكل جهده العقلى ولا تسمح له بالافلات من قبضتها أو التحرر من عبوديتها .

رابعا — الخيال الضعيف أو الضامر أو الجذب . فصاحب الخيلة المحدودة التى لا يستطيع أن تفلت من قبضة الواقع ، أو التى لا تستطيع الافادة من عناصر إدراك ذلك الواقع المحسوس الا فى حدود ضيقة وعقيمة ، إنما تكون فى الواقع خيلة ضعيفة وعقيمة . وبالتالي فان الأخيلة التى تتأتى لصاحب مثل تلك الخيلة الضعيفة إنما تكون أخيلة مريضة . ولا شك أن مثل تلك الأخيلة تشكل لضعفها وعقمها وسواسا لأنها لا تنمو ولا تتطور ولا تؤدى إلى غيرها ولا تتجدد ولا تتفاعل مع المقومات الادركية المكتسبة من الواقع المحسوس .

خامسا — الخيال الانتقامى . فلقد يأخذ الشخص الجبان فى حوك أخيلة مؤداها القيام بقتل الأعداء ، أو تفجير القنابل فى المؤسسات أو إبادة مجموعة من الناس يكرههم ولا يستطيع مغالبتهم فى الواقع . ولقد تضغط تلك الأخيلة المريضة على ذهن الشخص فيأخذ فى التعبير عنها بلسانه وحر كاته وهو سائر بالشوارع أو وهو جالس فى حفل عام يضم أناسا كثيرين يشغلهم ويشير اهتماماتهم ما يوجد بالحفل من موسيقى وغناء ورقص وتمثيل .

وفى مثل تلك الحالات فاننا نجد أن صاحب هذا الخيال المريض وقد استحال خياله إلى وسواس منظور ومسموع من جانب المحيطين به . بيد أنه على الرغم من مشاهدة المارة أو المحيطين بصاحب هذا الخيال المريض وسماعهم لما يفوه به ، فانه هو شخصياً يكون فى انفصال تام أو شبه تام عن الواقع المحيط به . فاذا ما فطن إلى المحيطين به وانتبه لما يعلقون به أو لما يبدونه من دهشة أو لما يتغامزون به عليه ، فانه ينتبه فجأة وكأنه كان نائماً ثم استيقظ من سبات عميق .

ولسنا ندهش إذا ما قام شخص من أولئك الذين يتخيلون أنفسهم وقد قتلوا الأعداء أو أشعلوا الحرائق أو أشاعوا الرعب فى القلوب ، وقد أخذوا فى تنفيذ ما يدور بخلد هم ويسيطر على عقولهم وأفئدتهم وهم ما يزالون خاضعين لسيادتهم وانفصالهم عن الواقع من حولهم . فهم يقتلون ويشعلون الحرائق ويفجرون القنابل وهم رازحين تحت ضغط خيالهم السقيم المريض والمؤذى فى نفس الوقت . فما يقترفونه من جرائم يكون بمثابة وسواس وجد له منفذا ينطلق منه كالبركان المتفجر من نقطة ضعيفة بسطح الأرض .

الفصل الحادى عشر

الوسوسة فى الشيخوخة

العوامل الجسمية :

اتضح لنا فى أكثر من مقام بهذا الكتاب ما للناحية الجسمية من أثر فى حدوث الوسوسة ، كما أنه قد سبق لنا أن ألمعنا فيه أيضاً إلى الوسوسة وعلاقتها بالشيخوخة . بيد أننا أرجأنا الحديث التفصيلى عن الوسوسة فى الشيخوخة لهذا الفصل الذى خصصناه برمته لدراسة هذا الموضوع . ولقد سبق لنا أن قمنا بتأليف كتاب تحت عنوان « رعاية الشيخوخة » منذ بضع سنوات ، ونرجو أن يكون كلامنا هنا مكملًا لما سبق أن عرضنا له بذلك الكتاب من موضوعات . والجدير بنا بداءة أن نعرض لبعض النقاط الهامة بازاء الشيخوخة حتى نستطيع بعد ذلك أن نبين العلاقة بين هذه المرحلة العمرية وبين الوسوسة .

أولاً — إن كلمة « شيخوخة » يمكن أن تستخدم بمعنيين : المعنى الأول متعلق بالعمر الذى يمر به المرء . فالشخص بعد الخمسين يعتبر بهذا المعنى قد أخذ ينخرط فى مرحلة الشيخوخة . أما المعنى الثانى لهذه الكلمة فهو المعنى المرضى حيث تعتبر الشيخوخة بمثابة مرض قد يصيب المرء فى أى مرحلة من مراحل عمره . فالشيخوخة بهذا المعنى قد تصيب الطفل كما أنها قد تصيب المراهق أو الشاب أو المسن . وبهذا المعنى أيضاً فإن الشيخوخة يمكن ألا تصيب المسنين ، بل إنهم يظلون أصحاء إلى نهاية العمر ويكون موتهم مفاجئاً ودفعاً واحدة بغير تعرض للأمراض الشائعة لدى المسنين . فموتهم يشبه أن يكون انطفاء الشمعة وقد استهلكت آخر كمية من مادة الشمع والفتيل

فكما أن الشمعة تظل مضيئة إلى آخر لحظة تنطفئ فيها ، كذا فإن المسن يمكن أن يظل بصحة جيدة حتى لحظة وفاته .

ثانيا - إن علاقة الأمراض النفسية بالشيخوخة ليست علاقة سببية ، بل هي علاقة عارضة . ذلك أن التقدم في السن لا يسبب المرض النفسى ، بل إن الإصابة بالمرض النفسى يعتبر ضمن الأعراض الجانبية التى يمكن أو لا يمكن أن تتواكب مع التقدم في السن . فالمسألة هنا شبيهة بالصلع فى علاقته بالشيخوخة . فالشيخوخة لا تسبب الصلع ولكنها تتواكب معه فى بعض الأحيان أو فى كثير من الأحيان . ولكن مواكبة الصلع للشيخوخة لا يتأتى عنها ، بل يسير معها فى كثير من الحالات .

ثالثا - هناك شيخوخات وليس شيخوخة واحدة . فثمة شيخوخة جسمية بيولوجية ، وثمة شيخوخة وجدانية ، وثمة شيخوخة عقلية ، وثمة شيخوخة لغوية ، وثمة شيخوخة اجتماعية . ولعلنا نضع هذه المعانى المتباينة للشيخوخة أو هذه الشيخوخات الخمس تحت مفهوم واحد هو مفهوم التوقف عن النمو والامتناع على التطور والحرمان من الزيادة . فالشيخوخة الجسمية البيولوجية معناها تغلب عامل الهدم Catabolism على عامل البناء Anabolism فى العملية المزدوجة المسماة بعملية الهدم والبناء Metabolism . فهذه الشيخوخة تسمح بالنقص والضمور ولا تسمح بالزيادة والترعرع . وكذا يقال عن الشيخوخات الأربع الباقية من أنها تم على النقص والضمور ولا تم على الزيادة والترعرع :

ولعلنا بعد هذا نعرض لحالات الوسوسة التى تنجم عن الشيخوخة فى جميع أنواع الشيخوخة والمعانى التى عرضنا لها قبلا . ولسوف نكتفى بعرض خمس حالات للوساوس التى تتأتى عن الناحية الجسمية بالشيخوخة وهى على النحو التالى :

أولا - وساوس تتعلق بالصحة . فكثير من الشيوخ يركزون الذهن على حالتهم الصحية . فكل ألم بسيط يحملونه الكثير من المعانى والأوهام التى

لا تتعلق بها من قريب أو من بعيد . فالصداع البسيط يمكن أن يؤول في ذهن الشيخ إلى سرطان أصاب مخه ، والضغط المرتفع قليلا يمكن أن يترجم في ذهنه إلى مقدمة للإصابة بشلل كامل أو شلل نصفي . وهكذا دواليك بالنسبة لأي مرض أو عرض جسمي يلم بالشيخ . ناهيك عن أن الوسوسة يمكن أن تمتد لدى الشيخ إلى ناحية أخرى هي ما يمكن أن يبيده أبنائه وزوجته وأقرباؤه من اهتمام بحياته وصحته . فاذا لم يسأل أحد أبنائه أو إحدى بناته عنه في أحد الأيام ، فأنهما يكونان متمنين الموت له ، وإذا تهامس الموجودون حوله وقد أملت به وعكة أو إذا أصابه مرض ، فلا بد أن تكون إذن هناك مؤامرة تحاك لقتله . وإذا ابتسمت الزوجة وهي تقدم إليه الدواء أو الشاي ، فلا بد أن سما قد وضع في الدواء أو الشاي .

ثانيا - وساوس تتعلق بالموت وأهواله . فالشيخ أكثر تشبها بالحياة من أى شخص آخر في أى مرحلة عمرية . وتشبهه بالحياة يكون في الغالب ناجما عن خوفه من الموت . ولقد سبق أن قلنا إن حضارتنا قد جعلت من الموت نكبة وهولا وعذابا لا يعدله أى عذاب آخر . ويرتبط خوف الشيخ من الموت بخوفه من المرض . ولكنه في الواقع يركز الدهن في موقفين : الأول - لحظة الموت ولفظ النفس الأخير وما يعترى المرء خلاله من ألم شديد ، والثاني - ما بعد الموت ، وما سوف يصادفه في الدينونة من هول في أثناء محاكمته أمام العدالة الإلهية عما ارتكبه من شر وعن كل تقصير اقترفه في حياته .

ثالثا - وساوس تتعلق بالحاجات الحيوية الأساسية . فالمسن مهما كان غنيا وقد أحاط به الخدم فانه يخضع لوساوس تتعلق بما قد يحمله له المستقبل من عجز عن السعى وراء قضاء حاجاته الأساسية وسد رغباته وما يقيم أوده . فهو يخشى العجز عن الذهاب إلى الحمام ، أو العجز حتى عن قضاء الحاجة بغير مساعدة الآخرين بشكل مباشر ، وما يحف به ذلك من اذلال أو إحتقار أو إحساس بالحجل . ولقد تصل الوسوس لدى المسن إلى حد أن يخاف من

إهمال الناس من حوله له فيموت جوعاً أو عطشاً. فهو يخشى من أن يهمله ذووه فلا يوفرون له الدواء الحيوى لصحته وحياته فيموت بسبب ذلك .

رابعاً - وساوس تعترى الشيخ لعدم قدرته على الانخراط فى النوم ، فيظل مستيقظاً بينما الناس من حوله نيام . وأليس نومهم دليلاً كافياً على سلوكهم عنه وانصرفهم إلى شأنهم والضرب بمطالبه عرض الحائط ؟ ولو أنهم كانوا يعبأون به ويخافون على مشاعره ، اذن لكانوا قد خاصموا النوم وظلوا حوله يقظانين . وهكذا تجد المسن وقد صرف جل جهده الذهني فى وساوس لا يستطيع الخروج من إطارها أو التخلص من إسارها .

خامساً - وساوس تتعلق بالناحية المادية . فهو يجد نفسه عاجزاً عن متابعة أعماله والسهر على شئونه ومصالحه، وصار عاجزاً عن منع اغتصاب الآخرين لحقوقه ، أو نهيم لأمواله وسرقته لممتلكاته وتزوير توقيعه على المستندات إلى غير ذلك من مؤامرات اقتصادية قد تخاك ضده ومن اغتصاب لحقوق كان مستحقاً لها . وانك لتجد المسن وقد أخذ يتطلع فى أعين الناس بالكثير من الشك فى نياتهم نحوه ، وقد أخذت نظراته ترميهم بالاتهام بخيائنه والتربص بما يفلت من يديه من مال وما قد ينساه من حقوق وممتلكات . ومن هنا فان هذا الوسواس الذهني يتبدى فى أحيان كثيرة فى هيئة تصرفات صغيرة لها دلالاتها . فهو يبدى بخلاً فى أشياء ليس لها فى الواقع كبير شأن . فهو يكاد يبخل على من يقوم بزيارته بنقطة الماء يشربها أو بقطعة من الحلوى يقدمها إليه أو بفنجان من القهوة يحببه به .

على أنه ينبغي ألا يفهم من استعراضنا هذا للوساوس التي تعتور كثيراً من المسنين أنها تعتور جميع المسنين بالضرورة ، وقد نهينا إلى أن وساوس الشيخوخة إنما هي بمثابة أعراض جانبية لها وليست الشيخوخة سبباً لازماً لظهورها واعتمادها فى حياة وعلاقات المسن . ومن جهة أخرى فان الوسواس فى الشيخوخة فى ارتباطها بالناحية الجسمية إنما تنشط فى الغالب بسبب بطء الحركة والقيود أو الاعتكاف فى البيت أو المستشفى مما يترتب عليه انحبوس

ملاقات الاجتماعية ، وبالتالي عدم خصوبة الحياة الثقافية وتركيز الذهن في مجموعة محدودة من الأفكار والهواجس . ناهيك عن أن روتين الحياة الضيق بممارسة مجموعة محدودة من التحركات يساعد على نشوء واستثراء الوسوس يقل في ووجدان الشيخ .

العوامل النفسية :

من المؤكد أننا لانستطيع أن نفصل العوامل المتباينة في شخصية الشيخ بعضها عن بعض . ذلك أن جميع العوامل المؤثرة في شخصية المرء تتداخل فيما بينها كما تتفاعل بعضها مع بعض . ونحن وإن أفردنا موضوعاً لكل نوعية من العوامل المؤثرة في شخصية المسن ، فإن هذا لايعنى أن كل نوعية من تلك النوعيات تعمل في عزلة عن باقي النوعيات الأخرى من العوامل . وبصدد حديثنا هنا عن العوامل النفسية ، فاننا لانستطيع أن نزعم أنها تعمل بمعزل عن العوامل الجسمية التي عرضنا لها في الموضوع السابق . والواقع أن ثمة تأثيراً متبادلاً فيما بين المقومات الجسمية وبين المقومات النفسية . فكما أن المقومات الجسمية تؤثر في الحالة النفسية ، كذا فإن المقومات النفسية تؤثر بدورها في الحالة الجسمية .

والواقع أن كثيراً من الموظفين يهارون صحياً ويتدهورون جسدياً بعد أن يحالوا إلى المعاش . ويجمع الدارسون للشيخوخة على أن إحساس المحال إلى المعاش بأنه قد أزيح إلى هامش الحياة يؤدي به غالباً إلى الانهيار جسدياً وإلى الإصابة بالأمراض التي لها علاقة بالناحية النفسية . وليس هذا بالغريب ، فإن الاتجاه الحديث في الطب وفي العلاج بوجه عام هو الاتجاه السيكوسوماتي أي الاتجاه الجسمنفسي ، باعتبار أن العاملين يؤثران جميعاً بعضهما في بعض ، أعني عامل الجسم وعامل النفس .

وحرى بنا أن نستعرض الجوانب النفسية لدى المسن وارتباط كل جانب بما يمكن أن يرتبط بعرض الوسوسة . ولعلنا نلخص تلك الجوانب فيما يلي :

أولاً - من حيث اكتساب الخبرات الجديدة : فالواقع أن هناك ما نسميه بالتفاعل الخبرى ، وهو استيعاب الخبرات الجديدة عن طريق تفاعلها وتمثلها عن طريق القوام الخبرى الذى تتشكل منه محور الشخصية . ولعل من أكثر ما يقلق بال المسن إحساسه بأنه لم يعد قادراً على التفاعل خبرياً بما يستجد حوله ويتدفق فى المحالات الحضارية والثقافية المتباعدة التى كان يستوعبها من قبل . وليس هذا الأمر قاصراً على ذوى الثقافات العالية والتخصصات الدقيقة ، بل هو ينسحب بازاء جميع الناس فى أى موقع من مواقع الحياة . فالمسن - أيا كان - يحس بالاغتراب تدريجياً ، وكأنه يتيه فى غابة لا يستبين معالمها أو فى صحراء لا يتبين أطرافها وأبعادها . ولكأن الناس من حول الشيخ وقد أخذوا يتكلمون بلغة لا يعرفها ويتفاهمون بطريقة ليس له قدرة على استخدامها . وهذا ما يجعله قابلاً للإصابة بالوسوسة . ذلك أن المسن يظل مركزاً الذهن فى نفسه وقد اعتوره إحساس بالنقص والتخلف ، وهو تخلف ثقافى مستمر وإلى الأبد . وأكثر من هذا فانه يحس أن مستقبله - إذا كان له مستقبل - سوف لا يكون أخف وطأة وأقل إظلاماً وتدهوراً من الحاضر . فاذا كان لا يستطيع الآن أن يتفاعل مع الخبرات الجديدة ، فما عسى أن يكون عليه حاله فيما بعد ؟

ثانياً - فقدان اللياقة الجنسية : فى الشيخوخة بالنسبة للرجل والمرأة على السواء - والمرأة بصفة خاصة - يخيم إحساس قوى الوطأة بالنقص الجنسى سواء من حيث العجز عن ممارسة الجنس والنهوض بالواجبات الجنسية الزوجية وبخاصة إذا كانت الزوجة شابة بالنسبة للرجل ، أو إذا كان الزوج شاباً بالنسبة للمرأة ، أم بالنسبة للمنظر الخارجى وما يتسم به الوجه من ملامح ثم على الشيخوخة وانعدام الجاذبية الجنسية . ولعل من أكثر ما يؤلم المسن والمسته انصراف الشباب من الجنسين عنها والامتناع حتى عن مجرد النظر إليها . وإذا كان هذا هو حال الأشخاص العاديين الذين لم يحظوا إلا بقدر ضئيل من الجمال ، فانه بالأولى حال أولئك الذين كانوا فى شبابهم فتنة للناظرين وجذبا للأنظار ورواء للمتعطشين إلى الجمال . فالشيخ والشيخة يظلان فى تفكير

دائب وفي قلق بالغ ويأس ممض وشوق بلا أمل إلى استرجاع ما كانا يتمتعان به من جمال ذوى ، ومن جاذبية تلاشت ، ومن وقع على أعين وقلوب الشباب خبا واندثر .

ثالثاً — فقدان اللياقة الكلامية : والواقع أن الكلام يتصل إتصالاً مباشراً بصحة الأسنان . ولكن الشيخوخة غالباً ما تأتى على الأسنان أو على بعضها . فبعد أن كانت الحروف تنطق من مخرجها وقد تميزت بعضها من بعض ، فإنها صارت تنطق بطريقه شائبة في اختلاط بغيرها . فالسين صارت تختلط بالثاء ، كما أخذت المقاطع في الكلمة الواحدة تتداخل بعضها في بعض أو تتباعد بعضها عن بعض . وحتى إذا قام الطب بعلاج ما أفسده الدهر وركب طقم أسنان في الفم ، فإنه يضايق الشيخ وقد أحس بأن زائراً غريباً وثقيل الظل قد اندس في فمه ، فصار مقيداً أو كالمقيد في حركة فكه ، فأخذ لسانه يذب ذلك الجسم الغريب بينما يعتمد الشيخ إلى إعادته إلى مكانه من جديد . وإذا نظر الناس إلى فم الشيخ وهويتحدث وقد خلعت منه بعض الأسنان مما يجعل شكله غير مريح أو بتعبير أصح مما يجعل شكله قبيحاً وغير سار للناظرين خلافاً لحالة قبل تدهور فمه وخلع أسنانه وما تبع ذلك من أثر في القدرة على الكلام ، فإنهم ينصرفون عنه ويشمئزون من متابعة كلامه . وهل ينفصل التحدث مع الناس عن مشاهدتهم للمتحدث ، اللهم إلا إذا كان كلامه وراء ستار أو بالإذاعة ؟

رابعاً — ضعف البصر والعجز عن القراءة وتبين ملامح الأشياء : فالشيخ الذى دأب على الاطلاع ولكنه بسبب الشيخوخة صار عاجزاً عن مواصلة القراءة ، بل وصار عاجزاً أيضاً عن متابعة ما يعرض على شاشة التلفزيون ، فإنه يحس بالضآلة تجاه نفسه من جهة ، وباليأس والقنوط من جهة ثانية . ولعل القراءة تمثل بالنسبة لإنسان الحضارة النافذة التى يطل منها المرء على العالم المحيط به ، بل وعلى العالم البعيد ، وما تزخر به الحياة من أحداث وما يدور في أذهان الناس من أفكار وما تقوم بينهم وبعض من علاقات . فالعجز عن القراءة معناه في الواقع الانعزال بعيداً عن العالم ،

وهو العالم المتسهم بالرمزية وبمشاهدة الواقع من خلال ما يكتب على صفحات الكتب والجرائد والمجلات من كلمات ، وما يصور بها وعلى شاشات التلفزيون والسينما من صور . ولقد سبق أن قلنا إن الوسوسة تتأق وتشتري نتيجة الانحباس في إطار الذات دون الاتصال بالعالم الخارجى ودون الاحتكاك به احتكاكا مباشراً .

خامسا - ضعف السمع وما يترتب على ذلك من لبس في فهم ما يقال : فالشيخ والشيخة قد يجدان صعوبة في الاستماع إلى ما يقال لهما من كلام أو في تفهم ما يوجه إليهما من أسئلة واستفسارات . والواقع أن هذا يرجع إلى عامل آخر إلى جانب ضعف السمع هو عدم القدرة على التركيز والانتباه والتوقع . ذلك أنك لا تسمع بأذنك فقط ، بل تسمع بما تتوقعه من كلام . فإذا كنت شاردأ بذهنك وغير متابع لما يقال ، فانك لا تستطيع ترجمة ما يقال لك ترجمة ذهنية سليمة برغم سلامة جهازك السمعى تماما . وثمة بالأسف مواكبة لدى الشيخ بين ضعف السمع من جهة ، وبين ضعف التركيز الذهني وتوقع ما يقال من جهة أخرى . وعندما يخفق المسن في تحقيق اتصال سليم بالآخرين وما يتبع مثل هذا الإخفاق من انصراف الناس عنه والإشاحة عن التحدث إليه وتركه كما مهملا في المجالس ، فانه يبدأ في احتقار ذاته من جهة ، والحقد على الآخرين المتصلين بعضهم ببعض كلامياً من جهة أخرى ، فيأخذ في الارتقاء في أحضان الوسوسة . فهو يركز ذهنه في فكرة واحدة هي ذاتيته المفقودة وإنيته التي صارت مهزوزة في أنظار الآخرين .

وإذا نحن تناولنا بعض ملامح السلوك الوسواسى الناجم عن تلك العوامل النفسية اذن لوجدناها على النحو التالى :

أولا - تركيز الذهن في الجانب القاتم من الحياة والتشاؤم والفرع والقلق وشدة الخوف والتوجس .

ثانياً - توقع الأنباء المخزنة التي تتعلق بالآخرين الذين يتعلق الشيخ أو الشبهة بهم . فكل باب يدق أو كل مناد ينادى أو كل خطاب يرد لابد أن يحمل خبراً مكدراً في توقع المسن .

ثالثاً - الإصابة بالوسوسة لادائية التي تسمى بالأعمال القهرية compulsions كأن يتردد الشيخ الميسوس طوال الليل من سريره إلى باب الشقة للتأكد من غلقه أو الاستمرار في البحث عن شيء فقد في نفس المكان وكأنه يدور في حلقة مفرغة .

رابعاً - البحث عن مشكلة أو افتعال أزمة عائلية واتهام شخص أو أكثر بإساءة معاملته أو إهماله أو اغتصاب حقوقه . وغالباً ما نجد الحياة الشخص الذي تدير حوله مشكلاتها في كتبها أو في زوج ابنتها . وتظل أياماً بلياليها تفكر أو تبكي بسبب مشكلاتها المختلفة التي تركز فكرها الوسواسي حولها .

العوامل الاجتماعية :

سبق أن نبهنا إلى تعذر فصل العوامل المؤثرة في حياة المسن بعضها عن بعض وذلك لشدة تداخلها وتفاعلها . فنقرأ ما كتبناه حول العوامل السابقة سوف يجد بعض ما يمكن درجه في نطاق العوامل الاجتماعية التي نحن بصددتها هنا . وكذا الحال بالنسبة للنوعين الأولين ، أعني العوامل الجسمية والعوامل النفسية من حيث تداخلها . ولكن مع هذا فثمة تمايز في الصبغة العامة على الأقل التي يصطبغ بها كل موضوع وعدم خروج أي عنصر من سياقه بحيث يكون من الأولى نقله إلى موضوع آخر من موضوعات هذا الفصل .

ومهما يكن من شيء فما يهمنا هنا هو استعراض المجالات الاجتماعية المتباينة التي تؤثر في إصابة الشيخ بالوسوسة . ولعلنا نوجز هذه المجالات فيما يلي :

أولاً - مجال العمل : فن المعروف أن النظام الاجتماعي يقضي بازاحة الشيوخ عن مجالات العمل لكي يحل الشباب محلهم . فثمة سن الستين مثلاً

لإحالة من بلغها إلى سن التقاعد من موظفي الحكومة . وحتى إذا كان الشخص قوياً وقادراً على الاستمرار في العمل ، وحتى إذا كان يحمل من الخبرات والمهارات ما لا قبل للشباب بحمله والتمتع به ، فإن القانون يلزم الجميع باتباعه وطرح جميع الاعتبارات الفردية جانبا . وحتى عندما يبدي أحد المحالين إلى المعاش سروراً وقد بدت السعادة على محياه لخروجه من الخدمة إلى المعاش حيث يكون حراً وبعيداً عن ضغوط العمل ومسئوليته ، فإنه ما يفتأ بعد وقت قصير يشكو من الفراغ القاتل متمنيا لو أن الحياة تعود إلى حالها السابق فيستطيع بذلك أن يعود إلى ما كان عليه قبلاً . وحتى عندما يوفق بعض الشيوخ لممارسة بعض الأعمال الجانبية يملأون بها وقت فراغهم وزيادة دخولهم ، فإن هذا لا يعوضهم في الغالب عن فقدانهم لمكانتهم الوظيفية التي كانوا يشغلونها قبل الإحالة إلى المعاش .

والواقع أن عدداً كبيراً من أولئك المصابين بالسوسة الحركية والكلامية — وهم الذين يحركون أذرعهم ويتكلمون بصوت مرتفع في الشوارع وكان أحداً يسير إلى جانب الواحد منهم ويتحدث إليه — يكونون من أولئك الشيوخ الذين أحيلوا إلى المعاش وقد وجدوا أنفسهم في فراغ ولا يكادون يجدون أحداً يفرغون طاقتهم الحيوية في نشاط مشترك معه. ذلك أن كثيرًا من الموظفين لا تكون لديهم علاقات اجتماعية من أي نوع سوى تلك العلاقات المتعلقة بزملاء الوظيفة والرؤساء . فما يكادون يحالون إلى المعاش حتى تفرغ حياتهم من جميع الناس باستثناء قلة قليلة من أفراد الأسرة — إن وجدوا — وقد تزوج الأبناء والبنات وربما لم يبق سوى الزوجة التي لا تستطيع استقطاب اهتمامات ومشاكل زوجها المحال إلى المعاش . وإنه لحظوظ ذلك الحال إلى المعاش من الموظفين الذي يجد مقهى يجتمع به مع أترابه من أحيلوا مثله إلى المعاش ، فيتسامر معهم وقد أخذ كل منهم في التحدث عن ذكريات وظيفته . ولكن أنى لتلك الذكريات أن تظل نابضة بالحياة بصفة دائمة ! إنها في الواقع تذبل كأي ذكرى من ذكريات العلاقات الاجتماعية المتباينة .

ثانياً - مجتمع الأتراب : وهو المجتمع الذى ذكرناه لتونا . فالحال إلى المعاش يتمنى أن يجد أفراداً مثله لهم نفس الاهتمامات ونفس الهموم . ولكن ذلك المجتمع المنشود قلما يكون مجتمعاً سعيداً أو هانئاً . ذلك أن ماتلوكه ألسنة الشيوخ على المقاهى يكون مصبوغاً فى الأغلب - إن لم يكن دائماً - بصبغة قاتمة . ولعل هناك ثلاثة موضوعات أساسية تحتل مكان الصدارة فى أحاديث الشيوخ : الموضوع الأول - الموت . فعندما يتغيب واحد من زملاء المقهى عن الحضور بضعة أيام فإن أول خاطرة ترد إلى ذهن باقى الزملاء هى أنه قد مات . ومن الطبيعى أن موضوع الموت يرتبط فى أذهان هذه المجموعة من المسنين بالموضوع الثانى الهام ، ألا وهو المرض . فبعد أن يتناول الموجودون موضوع الموت ، فإنهم يأخلون فى الحديث عن المرض ، فيذكر كل واحد منهم ما أصيب به من أمراض وما اتخذ من إجراءات فيذكر أسماء الأطباء الذين عالجوه مع وصف تفصيلي للآلام التى ظل يعاني منها فترة من الزمن . وبالمناسبة فإنه يذكر أسماء الأصدقاء الذين ماتوا بنفس المرض . أما الموضوع الثالث الذى يطرق على مقهى المسنين فإنه خاص بالأبناء والبنات . والأغلب أن يذكر الشيوخ آسفين عقوق أبنائهم وانصرافهم عنهم وعدم تكليف أنفسهم بمجرد السؤال عن صحتهم وأحوالهم . وينعى البعض منهم على أبنائهم عدم مساعدتهم مالياً وقد وسع الله عليهم وفتح مجالات الرزق أهمهم .

ثالثاً - مجتمع الأسرة : وهو مجتمع ضيق فى الغالب إذ يكون الأبناء والبنات قد تزوجوا وانصرفوا إلى ميادين اهتماماتهم المتباينة ، بل ويكونون فى الغالب قاطنين لبلاد أخرى بعيدة . وفى عصر استولى على المصريين حب البحث عن المال والمغامرة بالسفر البعيد والهجرة إلى أمريكا وأوروبا وأستراليا فإن نوعاً جديداً من الآباء والأمهات والأجداد والجدات لا يجدون حو لهم أحداً . ولعل النكبة الكبرى تصيب المسن عندما يموت رفيق عمره فيبقى وحده فى شقة كانت فى يوم ما عامرة بذلك الرفيق أو الرفيقة والأولاد والبنات ، وكانت السعادة ترفرف على البيت ، وكانت الحياة مملوءة بالاهتمامات ، بل إن الهموم ذاتها التى كان الوالدان يعانيان منها ، فيحملان

هم كل واحد وكل واحدة من الأبناء والبنات كانت أفضل من ذلك الفراغ القتال . وهل من حياة أردأ من حياة يجد فيها المرء نفسه وحيداً لا يعتنى به أحد ولا يكلمه أحد أو يكلم أحداً ؟ من الطبيعي أن يجد الشيخ أو الشيخة المرارة في تلك الحياة ، فتبدأ الوسواس العقلية والكلامية والحركية والأدائية في السيطرة على المسن أو المسنة والأخذ بعنانه .

ونستطيع في الواقع أن نلخص خصائص الحياة الاجتماعية في حياة الشيوخ من الجنسين في النقاط التالية :

أولاً — ضمور العلاقات الاجتماعية : وهذا يتأتى في الواقع عن مجموعة من العوامل منها الرغبة الشخصية في الانكماش على الذات والعزوف عن إقامة علاقات اجتماعية جديدة ، ثم تأثير العوامل الصحية في البقاء بالمنزل وبالتالي عدم التردد على الأماكن العامة ، ثم الاحالة إلى المعاش في حالة الموظفين واسناد العمل إلى آخرين في حالات الأعمال الحرة ، ثم تقلص نطاق الأسرة سواء بالزواج أم بالالتحاق بأعمال بعيدة عن البيت .

ثانياً — النقص في تأثير وفاعلية المسن في المجتمع : فمن الطبيعي أن يقل تأثير وفاعلية المسن في المجتمع . ولا يقتصر هذا على أسباب تتعلق بالعمل والإنتاج ، بل يتعدى هذا إلى ما هو أهم من ذلك . فكل جيل من أجيال الناس يكون له سمات واتجاهات وميول خاصة به تنبؤ عن سمات واتجاهات وميول الجيل السابق . فمن كان لهم تأثير بعيد المدى خلال حقبة معينة لا يعودون كذلك ، بل تنحسر قدرتهم على التأثير وقد أخذ غيرهم في تسلّم زمام التأثير والفاعلية . ويبدو هذا في المجالات المتباينة من فن وأدب وتربية . ولكن من الممكن أن نميز أعمال الأفراد من الأفراد أنفسهم . فلقد يحتسى المسن في ظل أعماله الأدبية العظيمة التي نالت اعتراف وتقدير الناس من حوله ، مع أنك إذا جالست نفس ذلك الأديب الكبير فانك لا تجد فيه شيئاً يهز مشاعرك ، بل قد تجده غثا سطحيّاً وغير عميق بالقدر الذي تبدو عليه أعماله . فالشخص بلحمه ودمه قد يكون أضعف بكثير مما سبق أن جسده في أعمال أدبية أو فنية أو علمية .

ثالثاً - إحساس الشيوخ بوجه عام بعدم الرغبة فيهم وأنهم صاروا يشكلون عبثاً على المجتمع . ويزيد من احتدام هذا الشعور لدى المسنين ما يلقونه في وسائل المواصلات من امتحان وما يسمعون من تعليقات وسخرية. فلقد تزلزلت لدينا قيم كانت تعمل الحساب كل الحساب للشيخوخة. فالشاب صار يسارع إلى المقعد الخالي يجلس عليه ويتمطى فيه قبل أن يتمكن المسن من الوصول إليه . ولعله يقول لنفسه وقد حظى بالمقعد دون المسن « ها إني قد انتصرت عليه . لماذا يخرج هذا المحطم من بيته ولماذا لا يحمله الموت إلى الثرى ؟ » فإذا ما أحس المسن بأنه إنسان مرذول ، فانه يكون عندئذ نهبا للوساوس « لماذا أصدق مجاملات أبنائي وأحفادي ؟ إنهم ربما يظهرون غير ما يظنون ، وربما تكون أمنيتهم العزيزة هي التخلص مني في القريب العاجل ولكنهم ينافقوني ويخدعوني بما يبدو أنه من ابتسام ورقة في معاملتي » فإذا ما تسلطت هذه الوساوس على عقل وقلب المسن ، فأنها سرعان ما تجدها ترجمة فيما يبيديه من وساوس كلامية وحركية وأدائية .

العوامل الاقتصادية :

من المشكلات الشائعة مشكلة نقص الدخل في الشيخوخة وما يترتب على ذلك من مشكلات نفسية بضمنها مشكلة الإصابة بالوسوسة بجميع أنواعها التي عرضنا لها قبلاً . والواقع أن مصر في هذه الأيام مهمتة بالمشكلات الاقتصادية التي تعتور الشيخوخة ، وقد صبت إلى توفير مظلة للتأمينات الاجتماعية بحيث لا يعاني المرء مالياً في شيخوخته ، ولا يكون بحاجة إلى مساعدة ذويه وجيرانه . على أن المشكلة الاقتصادية في الشيخوخة تنشعب إلى عدة جوانب نحاول تلخيصها فيما يلي :

أولاً - مشكلة الموظف الذي يحال إلى المعاش ويظل على قيد الحياة أكثر من عشر سنوات . فعاشه الذي بدأ يصرفه منذ عشر سنوات كان يكفيه لسد نفقاته ويزيد ، ولكن بمرور السنين ، فانه يجد أن القوة الشرائية للجنهات التي يقبضها آخذة في القلة بشكل مخيف مما يجعل مستواه المعيشي يتدهور

باستمرار . تخيل مثلاً أحد الموظفين كان معاشه منذ عشر سنوات وقت إحالته إلى التقاعد عشرة جنيهات . إن تلك الجنيهات العشرة كانت تكفيه لسد نفقاته منذ عشر سنوات ، ولكنها ليست كذلك وقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً مخيفاً . وحتى عندما تحاول الدولة مشكورة مساندة أصحاب المعاشات بزيادات قد تصل إلى ١٠ ٪ ، فإن تلك الزيادات لا تحل المشكلة المستمرة في التعاقد والخطورة . ومن الطبيعي أن يحس المحال إلى المعاش بالخطر وبتدهور وضعه تدريجياً ، فيجد نفسه في مهانة بعد عز وفي فقر بعد غنى . ناهيك عن ضياع الهبة والمقام الرفيع إذا كانت وظيفته التي كان يشغلها وظيفة مهينة . وإننا نعرف من أصحاب الوظائف المرموقة أفراداً كان اعتمادهم الرئيسى على المرتب ، وبعد إحالتهم إلى المعاش بجوالى عشر سنوات وقد بلغ معاشهم حوالى سبعين جنيهاً قد فقدوا الكثير من العزة والوفر اللذين كانوا يحسون بهما حتى بعد إحالتهم إلى المعاش مباشرة .

ثانياً — مشكلة أصحاب الدخول الثابتة الذين كانوا يعتبرون في يوم ما من وجهاء القوم وأصحاب العزة . خذ مثلاً لذلك أسرة فقدت عائلها وقد ترك لها عمارة مرموقة تدر ريعاً قدره خمسون جنيهاً في الشهر . وهذا طبعاً مثال متفائل . إن مثل ذلك الدخل — وهو الدخل الوحيد لتلك الأسرة — كان يكفي لسد نفقاتها منذ عشر سنوات . ولكن ماذا يكون حال أسرة كهذه لا دخل لها إلا هذا المبلغ كل شهر ؟ من الطبيعي أن مستواها الاقتصادي ينحدر شيئاً فشيئاً بسبب ضعف القوة الشرائية المستمر للعملة على مستوى العالم . فبعد أن كانت الزوجة الأرملة في بحبوحة من العيش ، فإنها صارت تعاني من ضيق ذات اليد .

ثالثاً — مشكلة زيادة أفراد الأسرة — سواء بتعدد الزوجات أم بزيادة الأبناء المنجبين . والواقع أن مشكلة تضخم الأسرة وعدد الأفواه التي تريد أن تأكل ، والمصاريف المتزايدة باطراد التي يحتاج إليها كل مولود جديد بالأسرة ، إنما تعمل على الهبوط بمستوى معيشة الأسرة . وطبيعى أن نجد من

بين الشيوخ والشيخات من لديهم أبناء وبنات في سن الرعاية وفي عمر بحاجة إلى مصاريف متزايدة . فاذا أضفنا إلى هذا أن ثمة تفجراً سكانياً يهدد العالم كله بصفة عامة والبلاد النامية بصفة خاصة ، فاننا ندرك أن ثمة تأثيراً متبادلاً بين زيادة عدد أفراد الأسرة الواحدة من جهة ، وزيادة عدد السكان بالمجتمع بصفة عامة من جهة أخرى . فحتى أولئك الذين يعمدون إلى تحديد النسل والإبقاء على أسرهم معقولة العدد ، يجدون أن الزيادة العامة في عدد السكان تضر بهم من حيث أن ليس لهم ذنب اقترفوه أو ظلم أوقعوه على أسرهم أو على المجتمع .

ثالثاً — مشكلة أمراض الشيخوخة وما يكون الشيخ أو الشيخة بحاجة إليه من دواء وعلاج ربما ينتلج كل الدخل أو أكثر منه . ولعلنا نزعج أن كثيراً من الشيوخ يستسلمون للأمراض تفتك بهم بغير عرض أنفسهم على الطبيب لعلاجهم لأنهم يعرفون مقدماً أن الدخل لا يكفي لسد نفقات العلاج ، وما يتبع ذلك من توترات نفسية ، ومن إصابة بالوساوس حول مستقبل صحتهم وما سوف يحملون به ذويهم من أتعاب ومضايقات عندما ينشب المرض أظفاره القاسية في كيانهم الصحي فلا يترك لهم أرجلاً يمكنهم السير عليها أو أن أعيناً يشاهدون بها ما يجري حولهم . فهم يقلقون على المستقبل من ناحيتين : الفقر والمرض المتزايد والمقعد والباتر لكل نشاط فيحرمون من الاعتماد على النفس . ومن يعلم كم من السنوات سوف يرمون خلالها على فراش المرض حيث يعز لفظ الأنفاس ، وحيث تكون المنية أمنية عزيزة على التحقق .

رابعاً — مشكلة أصحاب الأعمال الفنية الحرة التي تعتمد على موهبة خاصة لا يمكن توريثها إلى الآخرين . من أولئك الشعراء والقصاصون والكتاب والمترجمون والممثلون ومن على شاكلتهم من أصحاب المهارات اليدوية أو العقلية أو الوجدانية . فثل أولئك ربما تفتح أبواب الرزق أمامهم طوال قدرتهم على الإبداع واستقبال المستهلكين لأعمالهم وشرائها كسلعة خدمية عظيمة . ولكن ماذا يكون حال الواحد من هذه الفئة وقد انحسر عنه تيار

الشهرة فانزوى في الظل بعيداً عن الأضواء ، وقد حالت الشيخوخة في نفس الوقت بينه وبين مواصلة العمل ؟ إنه بالطبع ينهار نفسياً واقتصادياً . ولدينا أمثلة كثيرة من هذا النوع عن فنانين وشعراء ومفكرين انتهى حالهم إلى شيخوخة كالحلة مفعمة بكل ما يأتي على الصحة الجسمية والنفسية ، بل ويأتي على كل كرامة وعزة .

خامساً - مشكلة الشيوخ الذين أصيبوا بكموارث اقتصادية في كبرهم . من ذلك صاحب العمارة التي حكمت المحكمة باخلائها والزام صاحبها بإجراء إصلاحات باهظة التكاليف لإصلاحها . ومن ذلك صاحب المصنع المسن الذي أشعلت النيران في مصنعه أو في مخزنه ، وصاحب سيارة الأجرة الذي لم تعد سيارته صالحة للعمل ولا يجد حتى من يشتريها منه ، إلى آخر تلك الأمثلة الكثيرة التي يزرع كثير من الشيوخ تحت كل كلها .

وبعد أن عرضنا لمجموعة من الحالات التي يمكن أن تعتور الشيوخ في حياتهم الاقتصادية ، فإن علينا أن نعرض بسرعة لما يمكن أن تؤثر به تلك الحالات الاقتصادية المتباينة في الكيان النفسى للشيخ وما يمكن أن يترتب على هذا من إصابة بالوساوس والأعمال القهرية .

هناك أولاً - شرود الدهن والتفكير في حلقة مفرغة فيما عسى أن يفعله الشيخ بازاء ما يعتور حياته من مشكلات اقتصادية . وإذا وضعنا في الاعتبار أن الشيخوخة ليست مرحلة النشاط الذهني الحاد وأنها في نفس الوقت ليست مرحلة الإرادة الماضية والشكيمة والقوة والتحمل ، فإننا ندرك كيف أن شرود الدهن يصاب به الشيخ لا يتفتق عن حيلة يتخذها بل يكون شرود الدهن بمثابة وسواس تسلطى يمتلك ناصية تفكيره بغير ما طائل أو جدوى .

ثانياً - الارتواء في حمأة اليأس بغير قدرة على الإقدام على أى تصرف معقول أو غير معقول . فحتى الإقدام على الانتحار يتعذر على الغالبية العظمى من الشيوخ . ذلك أن تنفيذ الانتحار - وإن كان دليلاً على ضعف الشخصية - فإنه بحاجة إلى إرادة معينة وإلى قوة تنفيذية تزيد في شدتها عن الإرادة والقوة

الثين يكون قاتل غيره بحاجة اليها للقتل . فالطريقان الايجابي والسلبي مغلقان تماما أمام الشيخ . فهو يقف على السلم ، فلا هو يصعد ولا هو يهبط ، أو بتعبير آخر إنه لا يخرج من إطار مشكلته المالية بالبحث عن مخرج عملي يقوم بتنفيذه ، ولا يتخلص من حياته بالانتحار . فهو يظل على هذه الحالة البيئية الوسواسية لا يريم عنها ولا يتخلص منها .

ثالثا — إستقاط مشكلته على شخص أو هيئة والدأب على التفكير في ذلك الشخص أو تلك الهيئة التي يحملها المسؤولية . فالمسن قد يدأب على اتهام زوجته المبددة كما قد تعتمد المسنة إلى تحميل زوجها مسؤولية التمييز والانفاق بغير بصر بالمستقبل ، أو قد يلقي الشيخ باللائمة على المصلحة أو الشركة التي ظلمته ولم تعطه حقوقه ولم تكفل له سبل الترقى . وسواء فاه الشيخ أو الشبيخة بذلك للآخرين أم أكتفى بالتفكير فيه بينه وبين نفسه فانه في الحالتين يشكل محورا وسواسيا مستمرا لا يتسنى له التخلص منه . وقد يتبدى هذا الوسواس في أعمال قهرية ، وذلك بأن يظل الشيخ الموسوس يداعب حبات مسبحة لا بصلوات يتلوها . بل بتمرير أصابعه بعصية حول ذلك الإطار الضيق المتمثل في حبات المسبحة المحدودة .

العوامل الثقافية :

سبق أن قلنا إن ما يصيب بعض الشيوخ من ضعف عام في الصحة قد يحول بينهم وبين الاستمرار في الوقوف على التطورات التي تحيط بهم كما تحول بينهم وبين استمرار نموهم الثقافي أو تفاعلهم مع المقومات الثقافية التي توجد في بيئتهم . بيد أنه إلى جانب ضعف الصحة وضعف البصر والسمع بالذات ، فاننا نلاحظ أن هناك مجموعة من الأسباب النفسية والاجتماعية التي تساعد على فمور الحياة الثقافية لدى كثير من الشيوخ يجدر بنا تناولها فيما يلي :

أولا — الإحساس الشخصي لدى المسن بأن زهرة حياته قد ذبلت وأن ربيع حياته قد ولى وأن شعلة أمله قد خفتت وأقلت . ومن هنا فانه يحس

بأن طريق الحياة أمامه قد سد بسور سميك لا يتسنى له عبوره . إنه يحس في دخيلته بأن الفضلة المتبقية من عمره إنما هي فضلة غثة لا تجدى ولا تنفع . والواقع أن كثيراً من المسنين يقضون شيخوختهم في يأس قاتم وقد وضعوا نصب أعينهم المرض والموت كصنوين لا يفرقان . فهما قضاء محتم لا فرار منه ولا مخفف من حدته . فلماذا إذن والحال كذلك أن يزيد من خبراته أو أن يستمر في التفاعل مع المؤثرات البيئية المتباينة من حوله ؟ إن الحقيق به هو الانزواء بعيداً عن المؤثرات البيئية والتفوق حول الذات والانتظار في يأس وقنوط لحظة انتهاء الحياة .

ثانياً - إحساس المسن بأن أهدافه في الحياة قد تحققت وأن آماله قد وقفت عند الحدود التي انتهى إليها . فلماذا ينمو ثقافياً أو يستزيد خبرياً مع أن كل نمو وكل زيادة مألها إلى التخزين غير المحدى . فما فائدة الاطلاع أو كسب المهارات الجديدة وليس ثمة مجالات توظف فيه أو تقدم من خلاله . فالواقع أن الحياة ليست استقبالا فحسب ، بل هي استقبال وتصدير في نفس الوقت . فنحن نتعلم لكي نشارك بما تعلمناه في ناحية أو أخرى من نواحي الحياة المتباينة . أما أن نتعلم ونزداد خبرة لكي نحتزن ما اكتسبناه بين أضلعنا لابنين عنه ولا نستخدمه في مواقف الحياة المتباينة فانه لا يعبر عن الحياة الحقيقية بهذا الاسم . فلا يجب أن نغضى عن حقيقة العلم والخبرة من حيث كونها لا يحييان ولا يتم لها البقاء الا بالتوظيف والاحتكاك مع مواقف الحياة ومع ما لدى الآخرين من خبرات مشابهة أو مباينة .

ثالثاً - انصراف الناس من حول المسن في معظم الأحيان عنه واستقبالهم واحتفالهم بالشباب . ولا شك أن اللامبالاة التي يحس بها المسنون يتخذها المجتمع من حولهم ، إنما تضرهم بالركود وتساعد على زهد الشيوخ في التحصيل الثقافى المتجدد بل وتعمل على إحباطهم واستسلامهم للكسل العقلى والإفلاس الثقافى .

وإذا نحن تناولنا لفظ « ثقافة » من زاوية أخرى كما ترد بدوائر المعارف الأوروبية والأمريكية ، فاننا نجد أنها تحمل في بعض الأحيان نفس المعنى

الذى تحملها كلمة « حضارة ». فالثقافة بهذا المعنى لاتعنى مجموع المعارف والخبرات التى يحملها المرء فى رأسه فحسب ، بل تعنى مجموعة المعارف والخبرات والمهارات والعلاقات الاجتماعية والقيم والأعراف والقوانين والصناعات والامكانيات ، وكذا الدين والتقاليد الاجتماعية والمخترعات ومصادر الثروة ، بل والمفيد والضار من الممارسات والمواد المستخدمة ، وكذا نظم الحكم وكل ما تنبنى عليه الحضارة من علم وتكنولوجيا وتراث يتصل به تاريخ الأمة .

ولعلنا ننظر إلى المسنين من زاوية هذا المعنى للثقافة ، فنجد أن الحضارة الحديثة تعتمد فى الأغلب إلى العزوف عن المسنين فلا تأخذ فى اعتبارها الا أولئك الذين لهم مستقبل فى الحياة . فاذا أنت تناولت الاهتمامات التى تكفل للطفولة مثلاً من جهة ، والاهتمامات التى تكفل للشيخوخة من جهة أخرى ، حتى فى أعرق البلاد تحضراً ، فانك تجد أن الشيخوخة لا يهتمون بها إلا بأقل القليل من اهتمام الناس . وتستطيع أن تستبين الفارق بين الاهتمام بالطفولة والاهتمام بالشيخوخة إذا ما أحصيت عدد المؤسسات التى أنشئت لرعاية الطفولة فى إحدى المدن الكبرى كمدينة القاهرة وعدد المؤسسات المخصصة لرعاية الشيخوخة بها . وتستطيع أن تعقد من جهة أخرى مقارنة من نوع آخر فيما بين الكتب التى صدرت خلال عام أو خلال خمسة أعوام متتالية عن الطفولة وعدد الكتب التى صدرت خلال نفس الفترة عن الشيخوخة . إنك ستجد أن الاهتمام بالشيخوخة لا يكاد احتسابه أو وضعه فى الاعتبار من جانب أكثر المجتمعات تحضراً ورقياً

ونأسف إذ نقرر حقيقة أخرى شائعة بين الناس ، وإن كان الجميع يحاولون إخفاءها وعدم الإفصاح عنها . فالواقع أن الاهتمام بالشيخوخة يندرج تحت باب الإحسان ، بمعنى أنه عمل اختياري ، بينما يعتبر الاهتمام بالطفولة

من باب الواجب الملح الذى لا مندوحة عنه ولا سبيل إلى الإغضاء عنه .
ولسكان المهتمين بالشيخوخة يقولون فى أنفسهم « إن اهتمامنا بالشيخوخة
لا يعدو أن يكون من باب الاعتراف بالجميل . فالشيخوخة قد أدوا واجبهم
نحونا ، فان علينا بالتالى أن نقدم اليهم الإحسان وهم اليوم يعانون من مصاعب
وآلام الشيخوخة » .

والواقع أن المفهوم الاجتماعى للثقافة الذى سقناه هنا يجعل مهمة تكيف
واستمرار تكيف المسن لمضامينه من الصعوبة بمكان . وإذا نحن قارنا المجتمع
الحديث بالمجتمعات القديمة ، فاننا نلاحظ أن المجتمع الحديث سريع التغير
والتبدل . وإنك لتستطيع أن تلاحظ ذلك إذا ما اضطرت إلى التغيب عن
المدينة التى تقطنها لبضع سنوات قليلة ثم تعود إليها . إنك ستجد أن أشياء
كثيرة قد تغيرت فترتب على هذا بالتالى إحساسك بالاغتراب . وهذا هو
بعينه ما يقع لكثير من المسنين . فهم تحت وطأة الضعف أو تحت تأثير الحياة
الهامشية التى يجدون أنفسهم مسوقين إليها ، يضطرون إلى الانزواء بعيداً عن
الحياة المائجة العامرة بالأحداث والمتدفقة بالتطورات والتغيرات الدائبة . فهم
بعد حين يقصر أو يطول يستشعرون الغربة فى نفس المدينة التى ظلوا يحيون
فى إطارها .

على أن هذا لا يقتصر على الحياة العامة ، بل إنه يمتد إلى ما دأب المسن
على التخصص فيه والتعمق فى معرفته حتى بلوغه الشيخوخة . ولنأخذ مثلاً
بأحد القضايا أو بأحد المحامين القدامى . إن مثل ذلك القاضى أو هذا المحامى وقد
بلغ الشيخوخة وانقطعت صلته بالمحاكم والقضايا ، فانه بعد خمس سنوات على
الأكثر من تركه لمنصة القضاء أو لساحة الدفاع بالمحاكم ، لا يكون على وعى
بما وقع من تطورات وتدفقات فى القوانين . فتلك الفترة التى احتجب
خلالها عن الاطلاع على القوانين الجديدة التى أضيفت والقوانين التى بطل
الأخذ بها تكون كافية لجعله يحس بالاغتراب حتى عن هذا المضمار الذى
دأب على متابعته واستيعاب تطوراتهِ .

وإذا كان هذا هو حال المهني المتعلم والمتخصص في فرع ما من فروع الحضارة ، فما بالك بعامة الناس الذين لم يتخصصوا في شيء ، وقد كانت حياتهم في شبابهم وفتوتهم حياة سطحية غير متعمقة في معرفة ، وغير ساهرة لغور مهنة . وغير مستضيئة بنور فن عميق . لأنهم بالأولى يصيرون غرباء حتى في الجلسات العادية التي يتم فيها تبادل الأحاديث العادية .

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للحياة العامة والمواقف اليومية ، فانه يتبدى بأجلى صورة عندما يوجد المسن في حضرة الشباب . إنه يحس بالاغتراب الشديد . بل وبالتخلف الثقافي . وبالعجز عن ملاحقة أحاديثهم وما تلوكة ألسنتهم من مصطلحات وما يخوضون فيه من موضوعات تروق لهم ولا تروق له بل ولا علم له بأطرافها . من هنا فانك تجد المسن وقد جلس بين الشباب مستحييا ، وقد تواتيه بعض الشجاعة فينصرف عنهم منزوياً في حجرته وقد امتثلاً فكره بالوساوس المسيطرة على كل أنحائه . إنه يشبه أن يكون كائناً غريباً هبط من كوكب آخر غير هذا الكوكب . فسكان هذا العالم مختلفون عنه كل الاختلاف . لا يفهمهم ولا يفهمونه . ويزيد من شدة شعوره بالاغتراب ذلك البطء الذي ألم به في التفكير وفي الابانة . فالشباب يتسمون بالسرعة في الكلام وبالسرعة في الفهم وبالسرعة في الحركة وبالسرعة في اتخاذ القرارات . أما هو فانه بطيء في هذا كله . ومن هنا فانه يكتفى بالتقوقع على ذاته منصرفاً عن مشاغل الآخرين لا يأخذ عنهم فكراً ولا يشاركهم في اهتماماتهم المتباينة ٥

الفصل الثانى عشر

أثر الوسوسة فى قوة الشخصية

التكامل النفسى :

لا بد لنا أولا أن نقوم بتحديد معنى كلمة « تكامل » ثم بعد ذلك نقوم بتحديد معنى التكامل النفسى . ولعلنا نكون أكثر دقة اذا ما قلنا بتعريف التكامل فى بنود محددة . فالتكامل أيا كان وفى أى مجال من المجالات المتباينة يعنى :

أولا – قيام كل عضو أو أداة بأداء العمل المنوط بها على خير وجه وأتمه . فهنا نجد عنصر القوة ، وعنصر اللياقة ، وعنصر المداومة والاستمرار . فى الأسرة مثلا لى يكون الزوج محققا لتكامل أسرته ، فيجب أن يتمتع بالكفاءة الكاملة صحيا وعقليا ووجدانيا واقتصاديا واجتماعيا ، ثم يجب أن يكون مسددا كفاءته الى الوجهات المناسبة والمفيدة للأسرة ، ثم يجب عليه أن يستمر فى نشاطه بغير توقف أو انقطاع .

ثانيا – تركيز العضو أو الأداة على الشطر المنوط بها من العمل المسئولة عنه بحيث لا تقصر فى الأداء من جهة ، وبحيث لا تستولى على مسئوليات الأعضاء أو الأدوات الأخرى من جهة أخرى . فالزوج الذى ضربنا مثلا به يجب عليه أن يضطلع بمسئوليته كاملة من جهة ، وألا يتدخل فى مسئوليات زوجته من جهة أخرى . بهذا يتحقق تركيز جهده فى مسئولياته وعدم تشتيت أو توزيع ذلك الجهد فى نفس الوقت .

ثالثا – استهداف جميع الأعضاء أو جميع الأدوات للأهداف العامة للمؤسسة أولئكيان المركب أيا كان . فثمة هدف عام للأسرة هو تحقيق سعادتها ورفاهيتها وتنشئة أبنائها تنشئة صالحة فعالة . فيجب على أعضاء الأسرة

جميعاً أن يتعاونوا من أجل تحقيق هذا الهدف العام الذى تسعى الأسرة ككل نحو تحقيقه ، سواء كان استهدافهم شعوريا وبوعى من جانبهم أم كان لاشعوريا وبغير وعى .

ونستطيع فى الواقع أن نطبق هذه النقاط الثلاث بازاء جميع الأجهزة الآلية والأجهزة النفسية والأجهزة الاجتماعية . خذ مثالا للأجهزة الآلية : السيارة . إنها لكي تحقق هدفها الرئيسى - ألا وهو التحرك وتوصيل الركاب أو البضاعة من مكان لآخر - فلا بد أولاً أن يعمل كل جزء فيها بقوة ولياقة ومداومة . ثم يجب على كل جزء من أجزائها أن يقوم بعمله دون أن يتدخل فى مسئوليات ومهام الأجزاء الأخرى . وأخيراً يجب أن تتواكب جميع مقومات السيارة لتحقيق الهدف النهائى منها . أعنى التحرك والخضوع لقائدها ليووجهها الوجهة التى يرغب فيها .

ويصح نفس الشيء بازاء الأجهزة الاجتماعية والأجهزة النفسية . فإذا نحن تناولنا الكيان النفسى للإنسان ، فأننا نجد أن من الضرورى توافر هذه الشروط الثلاثة حتى يتسنى تحقيق ما يسمى بالتكامل النفسى . فالعقل مثلاً يجب أن يكون قوياً وعلى مستوى تام من الكفاءة ، وأن تكون القوة والكفاءة مستمرتين لدية بغير انقطاع ، ثم يجب أن يضطلع العقل بمهامه بغير أن يتدخل فى المناشط الخاصة بالوجدان والإرادة ، وأخيراً يجب أن يستهدف كل مقوم من مقومات الجهاز النفسى ، وبالتعاون مع باقى المقومات النفسية ، تحقيق سعادة الفرد وانسجابه مع ذاته وكفاءته فى العلاقات الاجتماعية المتباينة .

وإذا نحن نظرنا إلى الوسوسة وكيف أنها تؤثر تأثيراً رديئاً فى التكامل النفسى للشخصية وبالتالي تعمل على إضعافها ، فأننا نجد أن الوسوسة تضر بتحقيق التكامل النفسى على النحو التالى :

أولاً - سبق أن أوضحنا كيف أن الوسوسة الذهنية تعنى انحباس النشاط العقلى فى إطار محاور محدودة وضئيلة بل وسطحية تدور حولها . وهذا معناه

في الواقع الحكم على النشاط العقلي بالضلالة والخفوت والضعف . فالموسوس لا يستطيع الخروج من تلك الأطر العقلية التي ينصب فيها برمته ، وبالتالي فإن تفكيره يكون ضحلاً ضعيفاً . وهذا في الواقع يتنافى مع المقوم الأول من الشرط الأول الذي حددناه ضمن الشروط الثلاثة السابقة لتحقيق التكامل النفسي وغير النفسي .

ثانياً — من حيث كفاءة التفكير الوسواسي ، فإن من الواضح أن التفكير الوسواسي تفكير فح لا يتسم بالكفاءة . ذلك أن كفاءة التفكير لا تتحقق إلا بالخصوبة والتنوع والمناسبة مع المقام والقدرة على تطوير الأفكار لما يلزم للموقف ولما يعمل على تحقيق الأهداف العقلية والوجدانية والاجتماعية المتباعدة .

ثالثاً — من حيث استمرار التفكير ، فإننا نلاحظ أن التفكير الوسواسي وإن كان يتسم بالاستمرار — فإنه استمرار حول محاور ثابتة لا تتغير ولا تتنوع . والواقع أن الاستمرار المقصود في الشرط الأول من الشروط السابقة هو الاستمرار في النمو وليس الاستمرار في الركود . فكون الموسوس يدأب على الالتفاف حول نفس المحور الذهني ، فإنه لا يحقق شيئاً ولا يدفع بالتفكير نحو الخصوبة أو نحو العمق . ذلك أن التفكير الوسواسي إنما هو تفكير سطحي غير ناجع .

رابعاً — إننا نلاحظ أن التفكير الوسواسي لا يستطيع أن يتعاون مع الحياة الوجدانية والحياة الزوجية للمرأة . فإذا كان التفكير الوسواسي متسماً بصبغة وجدانية معينة ، فإنها تكون اذن صبغة جامدة لا تتنوع ولا تتسم بالخصوبة أو التوظيف في المواقف المختلفة . وكذا الشأن بالنسبة للموسوسة الأدائية فهي لا تتعاون أيضاً مع الجانب الوجداني أو الجانب الأدائي . فالموسوس شخص مقطوع الأوصال ولا تتعاون مقوماته العقلية مع مقوماته الوجدانية ولا مع مقوماته الأدائية . ولكأن كل جانب من جوانب شخصية الموسوس يعمل في انفصال وعزلة عن الجانبين الآخرين .

خامسا - إننا نلاحظ أخيراً أن المناشط التي يضطلع بها الموسوس - أو بتعبير أدق مقومات شخصية الموسوس - لا تتكاتف جميعاً لتحقيق هدف عام للشخصية . ومن الجدير بالملاحظة بالنسبة لهذا الشرط أن من الضروري توافر ما يسمى بشرط الغائية ، أعنى ضرورة وجود غاية خارجية يجب على المرء العمل على بلوغها . فما هي الغاية التي يبغي الموسوس بلوغها وتحقيقها ؟ إننا نجد أن الوسواس - وقد أخذ بمجامع شخصيته - يحول دون تحقيق أى غاية يمكن أن يستهدفها ذلك الشخص الموسوس . ولناخذ مثالا بالطالب الموسوس . إنه بالطبع يتمنى النجاح في امتحان آخر العام . فهل يتأزر فكره ووجدانه وإرادته لتحقيق هذه الغاية ؟ الإجابة بالنفي وذلك لعدم تعاون جميع هذه المقومات الثلاثة الأساسية لتحقيق هذه الغاية .

وهنا ينبغي أن نقرر أن ثمة نزاعا داخليا وانقساماً خطيرا يقع في إطار شخصية الموسوس ؛ فهو يرسم الهدف الذى يبغي تحقيقه في حياته من جهة ، كما أنه يجد من جهة أخرى أن الوسواس قد أخذت بعناقه وأسرته شر أسر وأدومه ، بحيث لا يستطيع منها فككا ، بل ولا يستطيع أن يتخفف من غلوائها أو أن يزيحها عن منكبيه . بيد أن الموسوس لا يستطيع في نفس الوقت أن يستسلم للوساوس . إنه يحس بأنها تمثل عبئا ثقيلا عليه ، فيتبنى أن يتخلص منها ، بل إنه يحاول أيضاً ذلك باذلا قصارى جهده لتحرير نفسه من عبوديتها ولكن دون جدوى . وأنى له أن يصير حرا من الوسواس ومى التي استشرت كخلايا سرطانية في نسيج كيانه النفسى ؟ فالمعركة تظل إذن محتدمة فيما بين قوامه النفسى العليل بالوسوسة وبين أهدافه وواجباته الاجتماعية نحو نفسه ونحو الآخرين من حوله . ولعله يشاهد الفشل وهو ينشب أظفاره في شخصيته . ولعله أيضاً يأمل في التخلص من وساوسه بقدرة قادر وبمعجزة تهبط عليه من السماء فجأة . ولكن ترنح الموسوس بين الأمل واليأس كبندول ساعة لا يهدأ ولا يقف ، إنما يودى به إلى الشعور بالتعب والوهن . ولقد نقول إن الأحساس بالهكة ينجم على شخصية الموسوس ، إنما يشكل عاملا جديداً يمكن إضافته إلى عامل الوسوسة ، فتزداد حياته تشاؤما وقمامة . ولكنه برغم

ذلك يظل مترنحاً بين اليأس والرجاء ، أو بين تحقيق أهدافه الخارجية وبين التضعضع والخنوع تحت وطأة الوسوسة والنهكة الناجمة عن الصراع النفسى فى نفس الوقت .

وماذا عسى أن تكون نتيجة ذلك كله ؟ إنه ضعف الشخصية وهو ما يمكن أن نعرفه فى عبارة قصيرة بأنه عجز المرء عن تحقيق أهدافه التى تراوده ، وعدم القدرة على التغلب على العقبات التى تقف حائلاً بينه وبين تحقيق تلك الأهداف التى يترسمها بذهنه ويصبو إليها بفؤاده فى نفس الوقت .

التوافق الاجتماعى :

يحسن بنا أولاً أن نحدد معنى التوافق الاجتماعى قبل تناول أثر الوسوسة فى تعويق ذلك التوافق والحيلولة دون تحقيقه بطريقة جيدة . ولعلنا نفعل كدأبنا على تقديم معنى التوافق الاجتماعى فى بنود حتى تتضح فكرته ، فنقول إن التوافق الاجتماعى يعنى :

أولاً - فهم واستيعاب العلاقات الاجتماعية القائمة بالموقف بغير تحريف أو بغير زيادة أو نقصان . ذلك أن الشخصية التى لا تتمتع بالتوافق الاجتماعى كثيراً ما لا تفهم العلاقات الاجتماعية القائمة بالموقف . فهى تفهم تلك العلاقات أو بعضها فيها زائفاً عن حقيقتها . من ذلك مثلاً عدم تفهم الموظف المفتقر للتوافق الاجتماعى علاقات الرؤساء بالمرءوسين وعلاقات الزملاء بعضهم ببعض .

ثانياً - تقديم انفعالات مناسبة للموقف . فالشخص غير المتوافق اجتماعياً يضحك حيث لا يوجد مبرر للضحك ، ويبكى بسبب أشياء لا تبكى ، ويهيج ويغضب لأشياء لا تهيج ولا تغضب الأشخاص الأسوياء العاديين . فهنا نلاحظ أيضاً سوء ترجمة الشخص المفتقر للتوافق الاجتماعى لما يقال له ،

ولما يقع من تصرفات تصدر عن الآخرين من حوله . ولذا فانك تجد مثل هذا الشخص كثير المنازعات والخصومات ، بل إنه قد يرتقى في أحضان أشد أعدائه نقمة عليه وتربصا به ، وذلك لأنه لا يستطيع تمييز ما يقال له أو ما يوجه إليه من أعمال وتصرفات .

ثالثاً — التحكم في اللسان وفي حركات اليدين . فالشخص غير المتوافق اجتماعياً لا يستطيع أن يلجم لسانه إذا كان الموقف يتطلب إلجام اللسان ، كما أنه لا يستطيع الامتناع عن بعض الحركات التي تؤذى مشاعر الآخرين أو توغل صدورهم . فثمة زيادات فيما يبيديه من كلام أو حركات ، بل هناك أيضاً ما يضيق أو ما يثير حفيظة الآخرين من كلامه أو حركاته أو تصرفاته . وعلى العكس من ذلك فإن الشخص المتوافق اجتماعياً يعرف كيف يستخدم لسانه أو قلمه ، وكيف يتحرك ويشير ويقف ويجلس وقد فهم أن لكل مقام كلاماً يقال وحركات تؤدي وملامح تبين ، وأن الزائد من السلوك ينبغى الامتناع عن أدائه ، وأن السلوك المؤدى يجب أن يكون مكتملاً من جهة ، ونقياً من الشوائب من جهة أخرى .

رابعاً — التوافق الاجتماعى يعنى أيضاً حسن التصرف في المواقف المتباينة . فالشخص المتمتع بالتوافق الاجتماعى يستطيع أن يحصل من كل موقف أحسن وأجدى النتائج والفوائد الممكنة التى تعود عليه وعلى غيره من أشخاص ، كما أنه من جهة أخرى يستطيع أن يتجنب الضرر بقدر الإمكان وأن يحمى الآخرين في نفس الوقت من وقوعه عليهم وإصابتهم به .

خامساً — أخيراً فإن التوافق الاجتماعى يعنى التمسك بمجموعة من المبادئ التى يستهدى بها المرء في المواقف المتباينة . ويعرف الشخص المتوافق اجتماعياً الفرق بين المبادئ المطلقة وبين المبادئ النسبية . فبالنسبة للمبادئ المطلقة فإنه يستمسك بها لا يتنازل عن شعرة واحدة منها ، ولا يكون حاله كذلك بالنسبة للمبادئ النسبية التى يستطيع تليينها وتطويعها في ضوء المواقف والظروف المتباينة . ولنضرب مثلاً للمبادئ المطلقة بالتزام الزوج والزوجة

بالشرف وعدم إقامة علاقات جنسية خارج نطاق عش الزوجية ، ومن المبادئ النسبية التنازل عن بعض الحقوق في سبيل استمرار العلاقات الودية أو في سبيل درء خطر أو وقوع ضرر .

وبعد أن استعرضنا معنى التوافق الاجتماعي فإن علينا بعد هذا أن نتناول أثر الوسوسة في الحيلولة بين المرء وبين تحقيق ذلك التكامل في حياته مع الآخرين ، وفيما يقيمه من علاقات أو فيما تفرضه عليه الظروف والمواقف من علاقات اجتماعية . ولعلنا نتصفح ذلك الأثر فيما يلي :

أولا — نلاحظ من الناحية العقلية أن الموسوس يجتزىء بفكرة أو ببضع أفكار قليلة ثمحاور ذهنية يدور حولها فحسب ، ولايرى عنها أو يتخلى عن إحداها أو يعدل في ملامحها . فهو صاحب فكرة أو أفكار قليلة تسيطر عليه وتأخذ عليه جماع فكره . ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يوسع عقله لفهم المتغيرات الاجتماعية الكثيرة والدائبة على التنوع والتباين . فبينما يمثل عقل الموسوس للثبات — أو قل بتعبير أدق للجمود — فإن عالم العلاقات الاجتماعية من حوله يمثل للتغير والخصوبة والتباين والتدفق .

ثانيا — ومن هنا فإننا نجد أن الموسوس لا يستطيع أن يتواءم مع ما يقوم حوله من علاقات اجتماعية . وذلك لأن هناك تعارضا شديداً فيما بين دخليته الجامدة وبين العلاقات الاجتماعية المرنة .

ثانيا — إن الشخص الموسوس يصبغ أفكاره الضئيلة والمتسلطة في نفس الوقت بصبغة وجدانية تنسم بالعداء غالباً للآخرين . فهو ينغلق على عالمه الداخلي الخاص به ، وقد أخذ ينظر بنظرة توجس وارتياح إلى العالم الخارجي بل وإلى كل تأثير يصدر عن أى شخص آخر يوجه إليه . ومن المؤسف أن الناس من حول الشخص الموسوس مهما حاولوا إثناءه عما يتسلط عليه من فكر وسواسي وعن تلك الصبغة الوجدانية القائمة التي تخيم عليه فانهم يفشلون في ذلك . فكل ما يحاولون ابداءه له من تعاطف معه أو حب له ، إنما يجد لديه تفسيراً مخالفاً ومبايناً بل ومناقضاً للحقيقة . فهو يعتبر أن التودد إليه بمثابة خوف

منه أو بمثابة خديعة تحاك ضده للإيقاع به وزحزحته عن مبادئه . ذلك أن أتفه الأفكار وأسخفها تعتبر في نظر الموسوس مبادئ مطلقة لايجوز التنازل عنها أو تليينها أو إبدال غيرها بها .

ثالثا — ويرتب على هذا الموقف العقلي الوجداني لدى الموسوس الفشل في الحياة العملية وعدم القدرة على التكيف لواقع الحياة . من هنا فانك تجد الموسوسين فاشلين اجتماعيا واقتصاديا في حياتهم العملية . ذلك أنهم يريدون إخضاع الواقع لما يعتدل في الذهن من أفكار ضحلة غير متطورة ، وهذا بالطبع يفوت عليهم ملاحقة الأحداث والتكيف للوقائع الجديدة واقتناص الفرص المتاحة واستغلال ما يتوافر بالموقف من امكانيات للنجاح والتبريز والتوفيق .

رابعا — وفي ضوء ما سبق يمكن أن نلاحظ أيضاً أن الشخص الموسوس لا يستطيع أن يتطلع إلى المستقبل بحال من الأحوال . والواقع أن التطلع إلى المستقبل يرتبط ارتباطاً مكيناً بالقدرة على التوقع والتنبؤ . ولعلنا لانخطئ إذا قلنا إن التوقع والتنبؤ بالمستقبل يتطلبان إحراز قدرات عقلية ذات مواصفات معينة نوجز ملاحظتها فيما يلي (أ) الإلمام بمعطيات الموقف المتباينة . (ب) التمكن تمكنا تاما من إقامة علاقات متباينة ودقيقة بين تلك المعطيات المتحصلة من الواقع الخارجى (ج) ضم تلك المعطيات المستفادة من الخارج إلى الحصيلة الخبرية التي سبق للمرء الحصول عليها خلال فترة حياته الماضية . (د) الاستفادة من الخلاصات والنتائج التي سبق للمرء الخلوص بها من واقع الحياة خلال تعامله مع الناس . (هـ) التمتع بنظرة موضوعية متحررة من قيود الوسوس فيكون الشخص قادراً على مشاهدة الأمور المطروحة أمام ذهنه كما هي لا كما يريد أن يراها عليه . (و) الامتداد بالبصر الذهني — أو بتعبير أدق بالبصيرة — إلى النتائج المتوقعة كامتداد موضوعي للواقع الراهن والعمل على توظيف الأفكار المستفادة وما اكتسبه المرء من مهارة على الاستدلال في كشف آفاق المستقبل القريب والمستقبل البعيد . والواقع أنه كلما كان المرء متمتعاً

بالحرية الفكرية وبالخصوبة الذهنية وبالقدرة على إقامة علاقات دقيقة بين المعطيات الآتية والقديمة ، كان بالتالى قادراً على كشف المستقبل والتنبؤ بما سوف يقع من أحداث وبما سوف ينشأ من علاقات . وهذا كله لا يتوافر للشخص الموسوس .

خامساً - أخيراً فان الوسوس الأدائية - حيث يكون الموسوس أسيراً لمجموعة من الأداءات المنبثقة عن عقله المريض - تحول بينه وبين آفاق الأعمال الراجعة . ذلك أن الوسوس الأدائية - أعنى الأعمال القهرية - تحول بين الموسوس وبين تخصيص واقعه العملي . فالعمل القهرى يسجنه فى إطاره فتأتى حركاته محصورة فى ذلك الاطار الضيق ، فلا ينفث على الواقع العملي المحيط به ، بل إنه يعجز عن اكتساب المهارات اليدوية المتباعدة ، فلا يستطيع حتى مجرد الاحساس بأهمية اكتساب مهارات جديدة أو الإتساع إلى آفاق عملية أكثر رحابة . فكما أن الموسوس ذهنياً ووجدانياً لا يستطيع أن يتخلص من وسوسه العقلية الوجدانية ، كذا فان الموسوس الأدائى يكون سجين تلك الوسوس أو الأعمال القهرية وقد كبته بقيودها وجعلته يرسف فى أغلالها . وبذا فان الموسوس يفشل فى حياته العملية ولا يستطيع شق طريقه فى الحياة حتى فى أبسط الأعمال التى لا تحتاج إلى مهارات معقدة أو دقيقة .

توجيه الطاقة النفسية :

من الحقائق المعروفة أن السلوك الإنسانى مثلث الأضلاع : الضلع البيولوجى ، والضلع الوجدانى الانفعالى ، والضلع العقلى . وثمة فى الواقع تأثير متبادل بين كل ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة بازاء الضلعين الآخرين . بيد أن الأساس فى بناء الشخصية الإنسانية هو ذلك الأساس البيولوجى . فالإنسان كائن حى أولاً وقبل كل شئ . وشاهد ذلك أن الإنسان جنيناً ووليداً لا يعدو أن يكون كيانا بيولوجيا لا يتعين فيه نشاط عاطفى أو نشاط عقلى ، بل يتبدى فيه النشاط الفسيولوجى الأساسى أعنى الاغذاء والهضم والإخراج والنوم . ومن هذا الأساس البيولوجى تنشعب المناشط الأخرى

التي تضطلع بها الشخصية الإنسانية وقد قيض لها النمو والتفتح والتفاعل مع المؤثرات البيئية مع الخضوع لقوانين نمو الشخصية الإنسانية ولمراحل النمو المحددة مسبقاً لجميع أبناء النوع البشرى .

ومع تطور الشخصية ونموها وتطورها فاننا نجد إلى جانب الطاقة الحيوية البيولوجية التي أفعم بها الكائن البشرى طاقتين أخريين هما الطاقة الوجدانية والطاقة الذهنية العقلية . ولعلنا نجمع الطاقات الثلاث : الطاقة البيولوجية والطاقة الوجدانية والطاقة الذهنية العقلية تحت لافتة واحدة ومسمى واحد هو الطاقة النفسية . فأنت في حياتك وفي أدائك لمناشطك اليومية توجه هذه الطاقة العامة نحو المنافذ المناسبة لما تبغيه من سلوك . فاذا كان السلوك الذى تبغيه هو سلوك جسمى ، فانك توجه طاقتك النفسية وجهة جسمية فتكون طاقة بيولوجية . وإذا كان السلوك الذى تبغيه هو سلوك وجدانى عاطفى انفعالى فان جانباً من طاقتك النفسية يوجه وجهة وجدانية انفعالية فتصير تلك الطاقة النفسية طاقة وجدانية انفعالية . وأخيراً فاذا كان السلوك الذى ترمى اليه هو سلوك ذهنى عقلى ، فانك توجه جانباً من طاقتك النفسية وجهة ذهنية عقلية فتستحيل الطاقة البيولوجية إلى طاقة ذهنية عقلية .

ويحسن بنا أن نستعرض سمات الطاقة النفسية حتى يتسنى لنا بعد هذا أن نقف على أثر الوسوسة في تلك الطاقة النفسية ومعاكستها للتوجيه السديد لتلك الطاقة النفسية .

السمة الأولى — إن الطاقة النفسية مفعورة في الإنسان ولكنها في نفس الوقت طاقة متجددة بصفة مستمرة . ولولا تجدد تلك الطاقة النفسية لكانت أذن قد نفدت ، ولما استطاع الإنسان مواصلة نشاطه ، ولما استطاع الإتيان بأنواع السلوك المختلفة وممارسة النشاط المتباينة في حياته .

السمة الثانية — إن هذه الطاقة النفسية على أكبر جانب من المرونة والقابلية للتشكل والتلبس بالصيغ المناسبة الكثيرة والمتباينة . فما يكاد المرء يستهدف هدفاً معيناً في سلوكه حتى يجد أن طاقته النفسية قد استجابت للصيغة الجديدة

المطلوبة فتستحيل اليها . فاذا كنت تريد بذل جهد جسمي عضلي لرفع ثقل ما من مكان لآخر مثلا ، فان طاقتك النفسية تستحيل في التو واللحظة إلى طاقة عضلية وتوجه بالقدر المناسب إلى العضلة أو العضلات المنوطة بالمهمة العضلية فتفعمها بالنشاط والحيوية . والواقع أن العضلات مهما كانت مفتولة وصلبة وقوية ، فانها لا تستطيع أن ترفع كرسيًا من مكانه بغير أن تصل اليها الدفعة المناسبة من الطاقة النفسية العضلية . ومن حسن الحظ أن هناك تآزرا ومواكبة بل وآتية فيما بين النشاط العضلي المؤدى وبين تدفق الكمية المناسبة من الطاقة الحيوية العضلية إلى العضلات المسئولة عن القيام بالعمل المعين . ولكن إذا كانت كمية الطاقة الحيوية العضلية أقل من اللازم نتيجة التقدير الخاطئ للثقل الموجود ، كأن يظن المرء أن الصندوق المطلوب رفعه خفيف ، واذ به ذو وزن كبير جدا ، فان العضلات عندئذ تنهار وتعجز عن العمل وقد تصاب في هذه الحالة بالتمزق . وما يقال عن الطاقة الحيوية العضلية وموقفها بازاء العضلات ينسحب بنفس الصديق بازاء باقى أنواع الطاقات الحيوية الأخرى في علاقاتها بالمنشط المتباينة المناسبة لها والمرتبطة بها .

السمة الثالثة — تكامل الطاقات الثلاث التي ذكرناها بعضها مع بعض . فهي إلى جانب انبثاقها من طاقة واحدة عامة هي الطاقة النفسية ، فان كل طاقة فرعية من الطاقات الثلاث ، أعنى الطاقة البيولوجية والطاقة الوجدانية الانفعالية والطاقة الذهنية العقلية تؤثر بعضها في بعض تأثيرا بعيد المدى ، بل إنها تعمل في خطوط متوازية من جهة ، وتتداخل بعضها مع بعض في قطاعات مشتركة من جهة أخرى .

وبعد أن استعرضنا هذه السمات الثلاث الأساسية للطاقة النفسية ، فاننا نأخذ في تناول العلاقة بين الوسوسة وبين توجيه الطاقة النفسية ، وكيف أن الوسوسة تعاكس أو تعطل عمل الطاقة النفسية . وبستطيع في الواقع أن نستبين هذا التأثير فيما يلي :

أولا — تدفق الطاقة النفسية نحو وجهات معينة دون غيرها . ذلك أن الوسوسة — سواء كانت وسوسة عقلية أم وسوسة وجدانية أم وسوسة

أدائية — تعنى فى نفس الوقت التركيز على جانب معين دون باقى الجوانب الأخرى . فالمصاب بالوسوسة العقلية يركز ذهنه فى فكرة لايريم عنها ، والمصاب بالوسوسة الوجدانية يركز وجدانه فى انعطاف وجدانى عاطفى ضيق النطاق لا يخرج عن حدوده بل يظل حبيسه باستمرار ، وكذا الحال بالنسبة للمصاب بالوسوسة الأدائية حيث ينحسب فى نطاق حركات بعينها لا يستطيع أن يتخلص منها . والواقع أن الموسوس لا يستطيع أن يتحرى العدالة فى توزيع طاقته النفسية . فهو لا يكتفى بمجرد توجيه طاقته النفسية وجهة واحدة بتحويل طاقته النفسية إلى نوعية واحدة — بيولوجية أو وجدائية أو أدائية — بل إنه يبالغ حتى فى تركيز طاقته المنحاز إليها فى شىء واحد بالذات ضيق النطاق وجديب كل الجذب وضحل كل الضحالة .

ثانيا — من حيث مدى الافادة من الطاقة النفسية . فالموسوس لا يكتفى بتوجيه جل طاقته النفسية وجهة واحدة ضيقة ، بل إنه لا يفيد من تلك الطاقة المركزة التى يوجهها إلى جانب ضيق من سلوكه . فليس ثمة تحسن يحدث فى السلوك المؤدى أو المضطلع به . فالفكر أو الوجدان أو الأداء الوسواسى يستمر فى الأداء على نفس الوتيرة وعلى نفس النحو بغير أدنى تغيير أو تعديل . ومعنى هذا فى الواقع أن الموسوس يبدد طاقته فى غير ما طائل أو فائدة .

ثالثا — إن الطاقة النفسية التى يحاول الموسوس توجيهها لأداء مهامه وللاضطلاع بمناشطه المتباينة المغايرة للناحية التى تتركز حولها وساوسه لا تكون طاقة كافية من جهة ، ولا تكون طاقة ناجعة وذات فاعلية من جهة أخرى . فالطبيب الموسوس لا يستطيع أن يعالج مرضاه بطريقة سليمة ، وكذا يكون المدرس والتجار وكل شخص فى أى موقع من مواقع الحياة . فإلى ما لم يكن المرء سويا ، فإنه لا يستطيع توجيه الطاقة المناسبة للعمل المطلوب ، كما أنه لا يستطيع تسديد الطاقة نحو الهدف المرجو تسديدا دقيقا . ومن ثم فإن جانبا كبيرا من طاقته الموجهة نحو العمل المرجو يطيش عن هدفه ويبعد عن مقصده .

رابعا — يتأتى عن توجيه الطاقة النفسية الوجهة التى يسيطر عليها الوسواس لإصابة الشخصية بالضعف والذبول ، بل إن احساس الموسوس بأنه

لا يستطيع لإنجاز أعماله على خير وجه ، ومن ثم فانه يحس بالفشل . وواضح ان هذا يؤدي إلى زلزلة الشخصية وإصابتها بالخور والضعف .

خامسا — بيد أن هذا الخور أو الضعف يؤدي بدوره إلى نشوء كثير من الأمراض النفسية واعوجاجات السلوك المتباينة . ولسنا نخطئ إذا قلنا إن المرض النفسى كالأصابة بالوساوس العقلية والوجدانية والأدائية لا تنظر على حالها ، بل تشتد ذمراوة وخطرا على باقى مقومات الشخصية . فالموسوس يصير عرضة لأمراض نفسية أخرى كالتخاوف المرضية أو جنون العظمة أو الأعراض المستيرية . ذلك أن الطاقة النفسية إذا لم توجه التوجيه السليم ، أو إذا اختزنت دون توجيه ، فإن الشخصية تصاب بأضرار بالغة . فثمة اتزان بالشخصية الإنسانية السوية كذلك الاتزان الموجود بالقشرة الأرضية . ولكن عندما تتجه الطاقة الموجودة فى باطن الأرض بتركيز نحو جانب معين من القشرة الأرضية ، فإن الزلازل تقع والبراكين تنفجر وتفقد الأرض اتزانها . ولعلنا نصف الوسوسة بأنها الزلزال الذى يصيب الشخصية نتيجة تركيز الطاقة النفسية فى جانب معين بالشخصية دون باقى الجوانب الأخرى منها .

القدرة على الإبانة :

الإبانة هى التعبير عما يدور بخلد المرء من وجدانات وانفعالات وأفكار واتجاهات . وهى تشكل من جانبين أساسيين : المضمون من جهة وطريقة الأداء من جهة أخرى . وتختلف الإبانة من شخص لآخر باختلاف السن والثقافة والجنس والجنسية ، كما تختلف من مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى . فهى تتباين بتباين الثقافات والعادات والتقاليد والدين والقيم الأخرى المتباينة .

وهناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر لدى المرء لكي يوصف بأنه متمتع بالقدرة على الإبانة . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا — الحصوبة المعرفية : فلقد لوحظ أن الشخص المتمتع بمعرفة غزيرة يكون أقدر من شخص آخر أقل غزارة . وأكثر من هذا فان الشخص

المبين إذا قدر عليه الانقطاع عن مصادر المعرفة كأن يلتقي به في سجن انفرادي لمدة طويلة نسبياً ، فان قدرته على الابانة تأخذ في الخفوت والضعف . وعلى نفس المنوال نقول إن الشخص الواحد عندما تزيد معرفته في أحد المجالات فانه يكون أكثر إبانة فيه عن قدرته هو نفسه على الابانة في مجال آخر يكون أقل ثقافة وعمقا فيه . وواضح أيضاً أن تنوع المعرفة مع غزارتها يؤديان بالتالى إلى تفاعلها بعضها مع بعض مما ينتهى إلى إتاحة فرصة أكبر أمام المرء للإبانة .

ثنيا - سلامة أجهزة النطق من حيث بنائها الفسيولوجى ومداومة المرء على تدريبها على الابانة . فبغير أن تكون أجهزة النطق سليمة ، فان التدريب على الابانة يكون عبثاً ، والعكس أيضاً صحيح . فان التدريب لا يصلح لأجهزة النطق . بيد أنه ينبغي أن نميز بين عيوب في النطق تتأتى عن فساد في أجهزة النطق ذاتها ، وبين عيوب تتأتى عن سوء التدريب والنطق بطريقة خاطئة نتيجة التقليد المشوب بالخطأ ، أو نتيجة تقليد أشخاص لديهم عيوب في النطق . ولكن لوحظ أن بعض الناس المصابين بعيوب خلقى في أجهزة النطق قد استطاعوا أن يعوضوا عن النقص أو العيب الموجود في نطقهم بالتفوق في النطق في باقى الحروف أو المخارج التى لا تتأثر بما أصيبوا به من عيب خلقى .

ثالثا - التعويض عن الابانة الشفوية بالابانة الكتابية أو بالابانة الفنية بالرسم أو بالنحت أو بالموسيقى . ونحن وإن كنا نصف هذه الوسائل بأنها بدائل عن الكلام المنطوق ، فاننا من جهة أخرى نرى أنها صارت ذات كيان قائم بذاته . ولكن الواقع أن القول بأن تلك الوسائل التى لا يستخدم فيها النطق اللفظى المباشر هى بدائل للابانة الكلامية إنما هو قول صحيح في نفس الوقت . ولقد نقول على الأقل إن تلك البدائل تكمل ما يستشعره المرء من نقص في الابانة اللفظية الكلامية .

رابعا - انسجام التعبير الكلامى مع باقى جوانب السلوك المستخدمة في الموقف . فالكلام والتحدث مع الآخرين ليس سلوكا في فراغ ، بل هو سلوك متكامل مع غيره من جوانب السلوك المتواجدة بالموقف . فنحن نقيم

مجموعة من الاتصالات بالآخرين بضمها التعبير الكلامي . ولعلنا نقرر بأكثر دقة أن التحدث مع الآخرين إنما هو عملية تعاونية لا يستقل فيها شخص عن غيره . فأنت عندما تتحدث مع غيرك ، فانك تكون بذلك مشيدا بناء معنويا متكامل لا يمكن الاجتزاء بجانب منه دون بقية الجوانب . والواقع أن هذا البناء يكون بناء مضعضعا إذا لم يكن مرصوصا وملتحجا بعضه ببعض على نحو جيد . ولقد نلاحظ أن بعض مايجرى من حديث بين الناس يكون مفككا وغير مرصوص وغير ملتحم بعضه ببعض ، ومن ثم فانه يكون قابلا للانهيار والتلاشي . فالحديث الناجح بمثابة شركة بين شخص وآخر أو بين شخص وآخرين . فإذا ما عمدا أحد المتحدثين إلى الاستيلاء على نصيبه ونصيب غيره ، ونصب من نفسه متحدئا وحيدا في الجلسة ، فانه يكون بذلك قد عمل على افساد المجلس مهما كان كلامه شائقا ممتعا . فالواقع أن كل شخص موجود بمثل تلك الجلسة يكون قد اغتصب حقه في التعبير عن نفسه والابانة عن بعض الجوانب التي يعرفها . بيد أن من حق كل شخص موجود بالجلسة أن يتنازل عن حقه في الكلام ولكن بمحض إرادته وليس نتيجة وجود شخص ثرثار بالجلسة يغتصب حقوق الموجودين في الكلام .

خامسا — تحقيق التوازن بين مضمون الكلام وبين الكلام المستخدم في الابانة عن ذلك المضمون ولكن مسألة الاتزان الذي نقصده إنما هي مسألة نسبية . فمن يتحدث إلى الأطفال أو إلى مجموعة من القرويين غير المستنيرين ، فان عليه لكي يحقق التوازن بين المضمون المعرفي وبين مايقوله من كلام أن يجعل الكلام أوسع وأغزر من المضمون . ولكن نفس ذلك الشخص إذا ما تناول نفس الحديث أمام مجموعة من العلماء والمتخصصين في الموضوع الذي يتناوله ، فان كلامه يجب أن يكون على قد المضمون بغير زيادة أو نقصان . وهناك أيضاً مجالات وأذواق متباينة تختلف من بيئة إلى أخرى ومن شخص لآخر فيما يتعلق بتوازن المضمون مع الكلام المنطوق . فثمة بيئات و ثمة أمزجة شخصية ترنو إلى أن يكون الكلام أغزر من المضمون المعرفي ، كما أن ثمة بيئات وأمزجة ترنو إلى أن يكون الكلام مضغوطة بحيث

لا يكون متخلخلاً ويكون مساوياً للمضمون لا أكثر منه ولا أوسع ، وبحيث لا يمكن حذف كلمة واحدة منه .

وبعد أن عرضنا لهذه الشروط الخمسة التي يجب توافرها لدى المرء لكي يوصف بأنه قادر على الابانة ، فاننا نبدأ في عرض أثر الوسوسة في حرمان الشخص الموسوس من القدرة على الابانة . وهذا الأثر يتضح فيما يلي :

أولاً — تسلط فكرة ما أو مجموعة محدودة من الأفكار على عقل الموسوس فيجعل قدرته على الابانة ضعيفة . ذلك أن حديثه لا يدور إلا حول ذلك المحور أو تلك المحاور القليلة الفجة . ولقد سبق أن اشترطنا الخسوبة المعرفية لتوفير القدرة على الابانة لدى المرء .

ثانياً — في بعض الحالات تكون الوسوسة لفظية كلامية فتتسلط بعض العبارات أو الكلمات على لسان الشخص فلا يستطيع ذبها أو التخلص منها أو استخدامها في الأماكن المناسبة من الحديث فحسب ولكن دون جدوى . والواقع أن مثل هذه الوسوسة اللفظية تمثل عائقاً أمام الاستزادة المعرفية ، بل إنها تشكل أيضاً عقبة أمام القدرة على الابانة يتمتع بها الشخص العادي غير الخاضع لمثل تلك الوسوس اللفظية .

ثالثاً — تعمل الوسوس الوجدانية على عرقلة الابانة . فلقد تسيطر على قلب الشخص بعض المخاوف الغامضة أو بعض المخاوف المتعلقة بالمكان أو بالزمان ، فيؤدي هذا إلى عرقلة الابانة والقدرة على التعبير عن خلجات النفس وعن المعاني التي تدور بذهن المتكلم .

رابعاً — تؤدي أيضاً بعض الوسوس الحركية على تعطيل الابانة . فلقد تسيطر حركة ما على الشخص ، فلا يستطيع أن يسيطر على عقول من يتحدث اليهم . إنهم قد يسخرون منه أو قد يبتسمون ابتسامات السخرية منه ، فيجد نفسه غير قادر على تركيز الذهن فيما يقول ، بل إن الكلام يبدأ في التعثر على لسانه ، فتتحطم عباراته وتتداخل ألفاظه وقد ينطق بكلام غير مفهوم أو غير واضح .

خامسا — قد تعمل بعض الوسواس العقلية والوجدانية على فرض نفسها على عقل وكلام الشخص الموسوس فيعلن أفكارا غريبة شاذة عن المألوف . ولقد تصل الحالة بالموسوس إلى سجد اعتباره شخصا مجنونا وذلك لسيطرة تلك الوسواس على كلامه وعدم تقديم المعقول من المفاهيم والسليم من الأفكار .

ولعلنا نزعج في نفس الوقت أنه بينما نجد أن الوسواس يؤثر تأثيراً ضاراً على الابانة ، فإننا نجد من جهة أخرى أن العجز عن الابانة السليمة يمكن أن يتسبب بدوره في نشوء الوسواس لدى المرء . فلقد نجد أن المصاب بعاهة في أجهزة النطق لا يستطيع الابانة عما يقصده من كلام ، وقد استولت عليه الوسواس من أى نوع . فهو يخضع للمرض النفسى والوسوسة اللفظية أو الوسوسة الوجدانية أو الوسوسة الأدائية . ومعنى هذا في الواقع أن ثمة تأثيراً تبادلياً فيما بين الوسواس والقدرة على الابانة . فكما أن الوسواس تعطل القدرة على الابانة ، فإن العكس يصبح أيضاً ، إذ يؤثر العجز عن الابانة في إحداث الوسواس . وثمة تعقد مستمر ينشأ لدى الموسوس في قدرته على الابانة ، مما قد ينتهى به في نهاية المطاف إلى التدهور في الابانة لدرجة الامتناع التام عن الكلام والانقطاع عن الناس .

أغتنام الفرص المتاحة :

لا يختلف اثنان على أن الحياة تتضمن ظروفًا مواتية في بعض الأحيان وظروفًا معاكسة في أحيان أخرى . ولعل الفرق الأساسى بين شخص وآخر هو أن الواحد منها يستغل الظروف أو الفرص المتاحة ولا يتركها تفلت منه ، كما أنه يصبر على الظروف المعاكسة حتى تمر وتفتح أمامه الظروف أو الفرص المواتية من جديد . أما الشخص الآخر فإنه لا يتحين الفرص المواتية يستغلها كما أنه لا يصبر ولا يتحمل الظروف المعاكسة إلى أن تمر بسلام . ولعلنا في هذا المقام نركز على اغتنام الفرص المتاحة فنحاول جلوه معناه والابانة عن مناحيه المتباينة ، فنقول إن اغتنام الفرص يعنى :

أولاً — أن يغتنم المرء مزايا مرحلة النمو التي يمر بها وهي المزايا التي قد لا تتوفر في مراحل العمر التالية : فن الحقائق المعروفة في علم النفس أن كل مرحلة من مراحل النمو تختص بمجموعة من المزايا . من هذه المزايا ما كان متعلقاً بالتعلم . فمثلاً نلاحظ أن مرحلة الطفولة تتسم بالقدرة على الحفظ الاستظهارى وبخاصة ما كان مرتبطاً بنغمة وإيقاع بسيطين . ومن المعروف أيضاً أن مرحلة الشباب هي مرحلة بذل الجهد الكبير ، فهي مرحلة تسمح للمرء سوى بأن يضطلع بالمشروعات الضخمة . فإذا لم يستثمر المرء الامكانيات والفرص المتاحة له ذهنياً وصحياً واجتماعياً حسباً تمنحه وتوفره له مرحلة النمو التي ينخرط فيها ، فان تلك الفرص تفلت منه إلى غير رجعة وإلى الأبد ، ولاسيبيل إلى استرجاع ما فات وفلت .

ثانياً — أن يغتنم المرء فرص بزوغ الأفكار الكبيرة والطموحة التي تلمتغ في ذهنه فيحليها من مجرد فكرة إلى واقع حي موجود بالفعل ولا ينحصر وجوده في الاطار الذهني الداخلي . والواقع أن العطاء والعباقرة في شتى ميادين الحياة هم أولئك الذين اغتنموا فرص التماح الأفكار العظيمة في الذهن فأخذوا في رعايتها والسهر عليها ومساندتها وتطويرها وتوفير كل الفرص والظروف لإخراجها إلى حيز الوجود . ولعلنا نقول إن ورود الأفكار العبقريّة إلى الذهن ليس من فضل العبقري أو النابغة ولكن فضله يكمن في انتهاز فرصة ورود تلك الأفكار إلى الذهن والتماحها فجأة فيه فيعتمد بسرعة إلى اقتناصها واستئناسها والقيام بتربيتها واحتضانها والحفاظ عليها من الدبول أو الضياع .

ثالثاً — أن يغتنم المرء فرصة تمتعه بالشباب والنضارة فيختار شريك الحياة ويحيا حياة زوجية متسمة باللياقة الجنسية ، ولا يدع فرصة الشباب والنضارة تفلت فيأتى زواجه في هرم أو شيخوخة حيث يكون معين قوته الجنسية قد نضب ، وحيث تكون قدرته على تحمل رعاية الطفولة ضئيلة فلا يقوى على النهوض بمسئولياتهم .

رابعا - اغتنام فرصة التمتع بالصحة الجسمية والصحة النفسية والصحة العقلية وشق الطريق في الحياة والدأب على اجتلاب أطايبها وحصاد فوائدها ومقاومة مضارها وتذليل عقباتها . فلطالما ندم أناس لأنهم لم يستثمروا وقتا كانوا فيه معافين أقوياء أصحاء .

خامسا - اغتنام الفرص المشروعة المتاحة للارتقاء اجتماعيا وللإثراء ماليا ولتخليد اسم المرء في سجل الخالدين إذا تيسر له ذلك . والواقع أن قلة من الناس قد استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى المصاف الأمامية من المجتمع في جهاته المتباينة . فن الناس من تبوأوا مكان الصدارة في السياسة ، ومنهم من فعل ذلك في الجيش أو في الإدارة أو في التعليم أو في الثقافة بفروعها المتباينة . ومن القلة النادرة من احتلوا مكاناً مرموقاً في مجال المهن والعلوم كالعلماء والكهنة والدررة أو في الكشوف الجغرافية كما فعل كولمبس وغيره من مكتشفين جغرافيين .

ولعلنا نستطيع أن نحدد السمات الأساسية في شخصيات المغتنيين للفرص فنجد أن تلك السمات تتلخص فيما يلي :

أولاً - السرعة في التقاط الفرصة السانحة . ذلك أن الفرصة السانحة غالباً ما تكون على هيئة ومضات خاطفة سريعة الظهور وسريعة الانطفاء في نفس الوقت . ولعل أولئك العباقرة الذين خلدوا أسماءهم في سجل الخلود كانوا في حالة ترقب بحذر شديد خشية أن الفرصة تلوح ثم تختفي . ولسكانهم يخبثون وراء شجرة في غابة على أمل أن يمر غزال بالقرب منهم فينقضوا عليه ويمسكوه بأيديهم . والواقع أن كثيراً جداً من الأفكار العظيمة أو النادرة تلتهم في أذهان معظم الناس ، ولكنها تفلت منهم قبل أن يتمكنوا من اقتناصها والقبض عليها .

ثانياً - توفير الغذاء المناسب لتلك الحيوانات الذهنية والعمل على استئناسها وترويضها وتطويعها . ذلك أن هذه العمليات من الصعوبة بمكان . فلقد يقتنص المرء فكرة شاردة تواتيه فجأة ولكنه يفشل في مدها بالغذاء المناسب والعمل

على ترويضها واستئناسها . وبذا فإنها ما تفتأ أن تذبل وتموت وكأنها لم تكن .
فليس بكاف أن يقتنص المرء إحدى شاردات الفكر ، بل عليه أن يتدرب
بالمهارات اللازمة لنموها وحفظها من الخفوت والضمور والموت .

ثالثاً - الاستفادة من خبرات الماضي في اغتنام فرص الحاضر . فالمرء ليس
ابن ساعته فحسب ، بل هو تاريخ ممتد منذ لحظة ميلاده حتى وفاته . وأكثر
من هذا - وبغير مبالغة - نستطيع القول بأن حياة الواحد من الناس تنضم
أيضاً تراث الماضي برمته . ولعلنا نرث عن الماضي مقومات إرثية تنزل إلينا
من خلال قوامنا البيولوجي ، بل إننا قد نرث أيضاً عن الماضي القريب
والماضي البعيد مقومات سيكلوجية على هيئة استعدادات متحفزة للبروغ إلى
سطح حياتنا . ومهما يكن من شيء فلها لاشك فيه أننا نجابه الحاضر بخبرات
الماضي الشخصية وبخبرات نوعنا البشري في نفس الوقت . ولعل التقاط المرء
للفرصة التي تبرز أمامه فجأة يكون سلاحها - أو من أهم أسلحتها - ذلك
الماضي الذي عشناه وحملنا منه خبرات متباينة . وواضح أن العالم لا يستطيع
التقاط واغتنام الفرص الذهنية أو العملية التي يقع عليها بصره لولا تلك
الخصيلة الخيرية العلمية التي سبق له تحصيلها . وكذا يقال عن الشاعر أو
المؤلف . إنهما لا يستطيعان اقتناص الفرص التي تلتصق في ذهنهما فجأة على
هيئة أفكار والهامات إلا إذا كانت لديهما خصيلة خبرية سابقة . فالشاعر
لا يستطيع أن ينظم قصيدة بوحى من فكرة طرأت على ذهنه فجأة ما لم يكن
قد درب وصارت له مرانة في فنون قرض الشعر . وكذا الحال بالنسبة
للمؤلف . إنه لا يستطيع اقتناص ورعاية وإخراج الفكرة التي ترد إلى ذهنه
خاصة بموضوع كتاب جديد إلا إذا كان له باع سابق في فن التأليف .

وإذا نحن تأملنا حال الشخص الموسوس - حتى إذا كان على أكبر
جانب من الذكاء - وهو بازاء الفرص التي تتاح له في مجالات الحياة المتباينة
بل وحتى في المجال الذي شب فيه ونما ، فإننا نجد أن الوسوسة تحول بينه وبين
اقتناص الفرص المواتية وذلك للأسباب الآتية :

أولاً — إنه يكون مسجوناً في إطار فكرة أو أفكار قليلة تهيمن على نشاطه الذهني . ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يتلقى أفكاراً جديدة . فكيف يتم له ذلك وهو مكبل بالوسواس الذي تأخذ عليه مجامع فكره وتستهلك نشاط ذهنه .

ثانياً — إن الموسوس شخص لا يستطيع أن يخرج من إطاره الذاتي إلى الإطار الموضوعي . فكيف وحاله هذه أن يلتقط الفرص السانحة التي لها صفة الموضوعية . وحتى بالنسبة للأفكار الذهنية أو الحالات الوجدانية فإنها تستعصى على التلبس بأي لباس يعبر عن كيانها إلا إذا كان ذلك اللباس موضوعياً . وحيث أن الموسوس يخاصم الموضوعية ويتشبث بالذاتية ، فإن الخروج من الإطار الذاتي إلى الإطار الموضوعي يكون من الأمور المتعذرة أو المستحيلة بالنسبة له .

ثالثاً — لقد أدخلنا في إطار الوسوسة ذلك الموقف التذبذبي الذي يكون فيه المرء كبندول الساعة . فهو يذب من الذاتية إلى الموضوعية ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى الذاتية ، ومنها إلى الموضوعية . وحال كهذه لا تسمح للمرء بأن يخمر فكرة أو أن يقي ذهنه من الضمور الذهني . ذلك أن الفكرة لكي تبلور أو لكي يكون العمل متكاملاً وناضجاً ، فلا بد من الاستقرار وعدم التذبذب بين الذاتية والموضوعية .

وخلاصة القول إن الشخصية الموسوسة ضعيفة لأنها تكون عاجزة بصفة دائمة عن انتناص الفرص المتاحة التي نعود فنؤكد أنها تتاح أمام جميع الناس ، ولكن ليس بمقدور جميع الناس اقتناصها ثم الدأب على رعايتها وإخراجها من حيز الذاتية إلى حيز الموضوعية وترجمتها إلى واقع الحياة العملية .

الفصل الثالث عشر

الوسوسة والاعتقاد

الوسوسة والمعتقدات الجنسية :

من التناقضات الظاهرية أن نربط بين الوسوسة وبين الاعتقاد . ذلك أن من الشائع في الأذهان أن الوسوسة تتناقض تناقضاً صريحاً وغائراً مع الاعتقاد . فالموسوس شخص لا يستطيع أن يعتقد في شيء . والواقع أن هذا التناقض بين الوسوسة وبين الاعتقاد إنما هو تناقض ظاهري وسطحي ولا يمثل الحقيقة من قريب أو من بعيد . فالموسوس شخص شديد الاعتقاد . ويتضح هذا على سبيل المثال والتخصيص في العلاقة بين الوسوسة والمعتقدات الجنسية . فنحن نزعم أن ثمة بطانة اعتقادية يبنى عليها السلوك بأضلاعه الثلاثة : الفكر والعاطفة والتصرف . فالاعتقاد الجنسي كثيراً ما يبطن السلوك بحيث يكون ذلك الاعتقاد غائراً في أعماق اللا شعور فيصطبغ السلوك بصبغته ، بل إنه قد يقسره على شكل أو على نمط معين بغير أن يتسنى له التحرر من قيوده وشكائمه .

ونستطيع في الواقع أن نستعرض الحالات التي يبدو فيها الارتباط فيما بين الوسوسة والمعتقدات الجنسية . ولعلنا ننتقي بعض الحالات الهامة على النحو التالي :

أولاً — اعتقاد الموسوس أن ثمة خطيئة اقترفها هو أو أحد والديه ، وهي خطيئة جنسية في طبيعتها . وربما يكون اقترافه لها منذ الطفولة ، وربما يكون اقتراف أحد والديه لها منذ الطفولة أيضاً ، ولكن آثارها تظل تعمل عملها في حياته . فيأخذ ذلك الشخص الموسوس في الانحباس في إطار هذا الفكر أو الإحساس فلا يستطيع التخلص منه أو التخفف من وطأته . ولقد يصل الأمر به إلى حد عزو كل إخفاق يصيبه في حياته أو كل معاملة رديئة يلقاها من

غيره أو فساد جهاز ما أو تحطم آنية زجاجية بين يديه إلى تلك الخطيئة الغامضة التي لا يتذكرها بتفصيلاتها ولكنه يؤمن ويعتقد أنه لابد اقترفها أو اقترفها أحد والديه .

ثانياً — اعتقاد الموسوس بأن شخصاً ما اقترف خطيئة جنسية ثم لامسه أو تحدث إليه ، فانتقلت النجاسة إليه وأصابته في الصميم . فيدأب على التطهر من تلك الخطيئة المنقولة إليه ولكن دون جدوى . فهو يقرم بالاعتسال وتطهير يديه أو جسمه كله بشتى المواد المطهرة . ولكن أنى له أن يقتنع بأنه صار طاهراً . إن وسواسه يسيطر عليه ويدفع به إلى معاودة الاعتقاد بأن النجاسة قد لاحقته والتصقت به فلا تفارقه على الإطلاق .

ثالثاً — اعتقاد الموسوس بأن شخصاً ما أو فئة من الناس فيهم نجاسة جنسية ، ومن ثم فيجدد النأى عنهم أو مهاجمتهم وابتدئهم . ولقد تجد بعض أفراد هذه الفئة يعتقدون أن النساء جميعاً يرتبطن بالنجاسة ، أو قل إنهن مخزن للنجاسة ، فينظر الواحد منهم إلى أية امرأة بنظرة ازدراء ويتحاشى مخالطتها أو ملامستها أو لمس أى شىء يكون قد لامسها .

رابعاً — يتبدى أيضاً الوسواس الجنسى لدى بعض الموسوسين وقد وقع بصبرهم على عملية اتصال جنسى بين كلبين أو قطتين أو طائرين . فيهم يحرون وراء تلك الحيوانات أو الطيور ويلقون بالحجارة عليها وقد يصر الواحد منهم أنها أصابته بالنجاسة لدى مشاهدته لتلك العلاقة الجنسية . ولكن إذا استطاع قتل الحيوانات النجسة — حسب اعتقاده الوسواسى — فإنه يكون بذلك قد استطاع أن يلاشى النجاسة .

خامساً — الوسوسة التى تصيب بعض المراهقين وبعض المراهقات وقد نشأوا في بيئة محافظة ومتكئة على المسائل الجنسية ، فيحس المراهق نفسه في حالات الاحتلام ، والمراهقة وقد واتها الدورة الشهرية حديثاً ، بالخطيئة ويظللان لا يفكران فى شىء الا فى هذا الموضوع مما يضرب حياتهما بالغم والندم على شىء ما لم يقترفاه فى الواقع . ومما يزيد من شدة وسواسهما

وجود بعض الأفراد حولها يشددان على هذا الشعور لضمان استقامتهما وعدم الردى فى الخطيئة الجنسية مستقبلا .

وبعد أن عرضنا لبعض العينات التى تشير إلى علاقة الوسوسة بالمعتقدات الجنسية فان علينا بعد هذا أن نبحث عن الأسباب التى تدفع إلى اقامة العلاقة بين الوسوسة وبين المعتقدات الجنسية . ولعلنا نوجز أيضاً تلك الأسباب فيما يلى :

أولاً - إحاطة المسائل الجنسية بالكتمان الشديد وجعل الحديث فى المسائل الجنسية أو هوامشها من المحاذير . فلا يجد المرء فرصة للتعبير عن أفكاره المتعلقة بتلك المسائل ، فيظل يحيل فكره فيها بغير أن يحيل الفكر إلى كلام . وهذا هو الوسواس بعينه .

ثانياً - معاقبة الطفل أو الطفلة بطريقة قاسية وبالضرب المبرح عندما يضبط وهو يعبت بأعضائه التناسلية . فيترسب لديهما الخوف والرعب مما عسى أن يوقع عليهما من ضرب وإرهاب . ومن يدرى فرما يصدر عنهما العبث بالأعضاء التناسلية وهما فى غفلة من أمرهما أو وهما مستغرقين فى نوم عميق ، فينهال عليهما الأب أو تنهال عليهما الأم بالضرب المفاجئ مع التوبيخ بالصوت العالى وما يتواكب مع ذلك من تشهير وامتهان . فيظل الطفل أو الطفلة فى حالة من الوسوسة الشديدة وقد استحالت الحياة إلى جحيم وخوف مما يمكن أن يحدث بغير توقع أو بغير جريرة مقصودة .

ثالثاً - الاعتقاد فى تقسيم الناس إلى فئتين لاثلاثه هما : فئة الأخيار وفئة الأشرار . فاذا ما بدرت من المرء أى هفوة بسيطة ، فانه ينتقل من فئة الأخيار إلى فئة الأشرار . فاذا ما سيطر هذا التقسيم الثنائى على عقل الشاب أو الشابة ، فانهما يحسان بالخطر يحقق بهما من كل جانب ، فيكون أمرهما كأمر الطالب فى الامتحان الذى يرسب ويحكم عليه باعادة العام الدراسى إذا ما أخطأ أى خطأ منها كان بسيطاً . فمثل هذا الشعور يضرب الطالب بالوسوسة لأنه يحس بالخطر المحدق به ، والمزيد له ، وبضالة فرصة نجاحه . وعلى نفس

النحو فان من تسيطر عليه هذه الفكرة الإطلاقية يجد نفسه حذرا وخائفا ومتوجسا ، فيخشى ولو من نجاسة تلحق به عن غير قصد أو بالوراثة .

ولعلنا بعد هذا نتناول الآثار التي تترتب على الوسوسة في الحياة الجنسية للمرء . ذلك أن الوسوسة لها نتائجها بعيدة المدى في النشاط الجنسي وفي الحياة العاطفية وفي العلاقات الجنسية بعامة . وهذه الآثار تتلخص فيما يلي :

أولا — الاعتقاد في أن المرء لا يشكل موضوعا جنسيا مرغوبا فيه . فلقد تعمل الوسوسة على تصوير الشخص لنفسه بأنه دميم الحلقة وبأنه منفر للجنس الآخر ، وبأنه موصوم بالنجاسة التي تبعد أفراد الجنس الآخر عنه ، حيث يحسون بحقيقته ونجاسته .

ثانيا — قد تعمل الوسوسة لدى بعض النساء — وأحيانا لدى بعض الرجال — على إشاعة الاعتقاد لدى المرء بأنه مطارذ جنسيا من جميع من يقابلونه من أفراد الجنس الآخر لاغتصابه ، وبذا فان كل حديث يقال يترجم على أنه حوك لخطوة وتدبير لمؤامرة للاغتصاب . وكذا فان كل ابتسامة أو كل تحية تعتبر معاكسة وتعبرا عن الإعجاب الشديد والرغبة في إقامة علاقات غرامية .

ثالثا — قد تؤدي الوسوسة إلى تجنب أفراد الجنس الآخر والاعتقاد بأن مجرد التحدث مع أى من أفرادهم هو وقوع في المحذور . فيفرض الشخص على نفسه حصارا تاما حتى لا يقع بصره على وجه أية امرأة وحتى لا يصل إلى سمعه صوتها .

رابعا — قد تترتب على الوسوسة الجنسية نتائج وخيمة . فلقد يقوم أحد الموسوسين جنسيا باخصاء نفسه حتى يتخلص تماما من وسواسه الجنسي الملح عليه والمنغص عليه حياته . وثمة حالات قام فيها الموسوسون بتر الأير حتى يقطعوا على أنفسهم خط الرجعة ، وحتى يحلوا المشكلة حلا جذريا من وجهة نظرهم المريضة .

خامسا - وفي بعض الحالات يكون الاعتداء على الطرف المحبوب لا على ذات الشخص . فيعمد الموسوس الى تشويه وجه حييبته أو تشويه الجزء المثير جنسيا له ، وقد يصل الأمر إلى حد القتل لا للانتقام من ذات المحبوب ، بل للتخلص من الوسوسة الملحة التي أخذت بجهاج فكر الموسوس ووجدانه جميعاً .

الوسوسة وجنون العظمة :

يحسن بنا أن نحدد معنى جنون العظمة قبل أن نستكشف علاقة الوسوسة به . فنحن نعني بجنون العظمة megalomania ما يأتي :

أولا - المبالغة في تقدير الذات . فتجد المصاب بجنون العظمة وقد أخذ ينزه نفسه عن الوقوع في أى خطأ . فهو شخص معصوم من الخطأ في نظره . فالوقوع في الخطأ وقف على الآخرين أيا كانوا ولكن هذا لا يجوز ولا ينطبق عليه بأى حال من الأحوال . ولقد تجد جنون العظمة عند أحد الأشخاص متمثلا في الناحية المعرفية . فهو يعتقد أنه عليم بكل شيء وأنه جامع مانع في المعرفة ولا يدانيه أحد في الفهم أو في الدكاء . وقد يتمثل جنون العظمة عند شخص آخر فيما يتعلق بالسلوك الأخلاقي . فهو يزعم أنه معصوم من الردى في أية خطيئة مهما كانت بسيطة . فن الجائر أن يخطيء الآخرون ولكن بالنسبة له ، فان هذا لا يجوز ويعتبر من المسائل غير المعقولة .

ثانيا - المبالغة في تقدير أخطاء الآخرين وتحميل كلامهم وتصرفاتهم أكثر مما يراه الناس العاديون . فلقد تصدر كلمة أو إشارة أو تصرف مما يمكن اعتباره من الأمور العادية ، ولكنها تمثل بالنسبة للمريض بجنون العظمة مأساة كبرى يجب أن تقلب بسببها الدنيا ظهرا لبطن .

ثالثا - الاعتقاد في أن هناك سمة خاصة أو خاصية معينة ينفرد بها الشخص تجعله مباينا للآخرين جميعا . فالمصاب بجنون العظمة يحيط نفسه بهالة من التقديس ويجعل نفسه في مكانة قدسية مهية تحول بينه وبين التعامل مع الآخرين أو حتى مخالطتهم أو التحدث إليهم . وهذا الشعور قد يحول بين

المصاب بجنون العظمة وبين الزاور مع الآخرين أو تناول شيء لامتته أيديهم أو مصافحتهم بالأيدي . وكثيرا ما يحول جنون العظمة بين المصاب به وبين الزواج ، وذلك لأنه أو لأنها — تحس بأنها في منزلة لا يدانها منها أحد أيا كان .

رابعا — قد يشمل جنون العظمة أسرة الشخص المصاب به . فهو يعتقد أن أسرته فريدة بين جميع الأسر الأخرى . وواضح أن هذا الزعم قد لا يكون له أى أساس من الصحة ، ولا يكون له ما يبرره ، إذ قد تكون أسرة المصاب بجنون العظمة من الأسر العادية أو حتى من أفقر الأسر وأخسها وأكثرها جهلا وانحطاطا .

خامسا — المبالغة في تقدير قيمة الوقت والتظاهر بالانشغال المستمر كلما وجد المصاب بجنون العظمة نفسه في حضرة الآخرين . فهو يبدى التملل من وجود أى شخص في حضرته أو بالمكان الذى يوجد به . والواقع أن هناك من الناس من يضيق وقتهم بالفعل ويكون لديهم ما يعملونه اذا ما انصرف عنهم الناس وتركوهم في سلام يضطلعون بما عليهم من مسئوليات . ولكن المصاب بجنون العظمة لا يكون لديه أى شيء يملأ به وقته ، ولكنه بسبب إحساسه بالعظمة ، فانه ينتحل الانشغال الدائم حتى يجعل لنفسه قيمة يتباین بها عن الآخرين من حوله ، أو حتى يعظمه الآخرون ويشعروا أنه مباین لهم وأعظم من أن يضيق وقته معهم .

ولعلنا نعلم بعد هذا الى محاولة الكشف عن أسباب الإصابة بجنون العظمة وذلك قبل تناول العلاقة بين الوسوسة وبين هذا المرض النفسى . ثمة مجموعة من الأسباب نجتزئ منها بما يلي :

أولا — قد يكون جنون العظمة بمثابة احتقار للذات مقلوب . فتكون حقيقة سيكولوجية الجنون بالعظمة تشير الى احتقاره الشديد لنفسه والاستهانة بمكانتها . ولكنه لا يستطيع الاعتراف بذلك أمام الناس خشية أن يحتقروه بدورهم ، فيعمد الى تقديم صورة معكوسة عما يحس به . ولسوف نعود الى هذه الفكرة في الموضوع التالى من هذا الفصل بشيء من التفصيل .

ثانيا - قد يكون جنون العظمة بمثابة رد فعل على استهانة الناس بالمرء أو احتقارهم له وإظهارهم لذلك في مواقف معينة سرعان ما ينساها وقد كبر وترك عهد الطفولة . وهنا يكون جنون العظمة عبارة عن آلية لاشعورية تعويضية يعوض بها المجنون بالعظمة عما سبق أن لحق به من إمتهان وازدراء وتحقير ،

ثالثا - قد يكون جنون العظمة ناتجا عن الفشل في جذب انتباه أفراد الجنس الآخر وإحساسهم باحتقاره ونبوهم عنه وامتعاضهم من مشاهدته . وهذا ينطبق على الجنسين . فالرجل والمرأة على السواء قد يخضعان لهذا الشعور برذل أفراد الجنس المقابل لهما ونفورهما من التعامل معهما ، فتكون لذلك فاعليه في لاشعورهما ، فيبدآن في تقديم رد فعل عكسي هو التعالي والتعظيم وإقناع الذات لاشعوريا بأن أفراد الجنس المقابل جميعاً لا يستحقون مجرد التفاتة واحدة . ويبدو هذا الموقف بجلاء لدى بعض الرجال بالذات وقد أخذوا في احتقار المرأة والخفض من قيمتها واعتبارها مخلوقا تافها لا يستحق أى تقدير أو اعتبار . ويكون موقفهم هذا مجرد نتيجة لنبو النساء عنهم وعدم الإقبال عليهم .

رابعا - إخفاق المرء في شق طريقه في الحياة ، سواء في مجال الدراسة أم في مجال التجارة أم في أى مجال من مجالات الحياة المتباعدة . والواقع أن من الممكن أن يكون رد الفعل على الفشل بأشكال وأعراض متباينة . ولعل من ضمن - بل ومن أهم - تلك الأشكال أو الأعراض جنون العظمة وإحساس الشخص لاشعوريا بأنه غير الآخرين ، وأنه يعلوهم مقاما ويبرزهم ذكاء . فلقد يقنع الطالب نفسه بأنه عبقرى ، ولكن المدرسة هي التى فشلت في إبراز مواهبه العبقرية . وكذا ربما يذهب التاجر المفلس نفس المذهب . إنه قد يزعم لمن حوله أن باقى التجار قد تأمروا عليه لغيرتهم منه ولأنهم يحسون بتفاهتهم بازائه ، فحاكوا ضده مؤامرة أضاعت تجارته ونحت به إلى الإفلاس .

خامسا - شدة تدليل الشخص في طفولته ثم جرمانه فجأة من مصدر التدليل ، وذلك بعد موت الأب أو الأم التى كانت تقوم بالتدليل . فرد الفعل من جانب هذا الطفل ثم استمرار رد فعله على معاملة الناس له بغير

تدليل وبغير تمييز عن الآخرين ، إنما يكون على الأرجح بابتداء أعراض جنون العظمة . ولكأن هذه الأعراض تكون بمثابة احتجاج صامت ضد المعاملة المتجردة من الايثار والتدليل والتمييز . ولكأن هذا الشخص يبحث عن مصدر التدليل فلا يجد له أثراً ، فيؤكد لاشعوريا لمن حوله بأنه شخصية فريدة تستحق احتراماً وتقديراً لا يستحقه أى شخص آخر .

وبعد أن استعرضنا حالات جنون العظمة ثم أسبابه ، فإن علينا أن نكشف النقاب عن علاقة الوسوسة بهذا المرض النفسى . وتبدى هذه العلاقة فيما يلى :

أولاً — إن الموسوس كما اتضح لنا طوال هذا الكتاب هو شخص حبيس دخليته ، فلا يستطيع أن يستشرف العالم الواقعى . والمصاب بجنون العظمة هو شخص منحسب فى إطاره الداخلى لا يستطيع أن يشاهد نفسه وواقعه من زاوية موضوعية :

ثانياً — تبدو العلاقة بين الوسوسة وبين جنون العظمة فى الفكرة الثابتة التى تسيطر على ذهن المصاب بهذا المرض ، كما تبدو فى تصرفاته وأقواله وعلاقاته المتباينة بغيره من أشخاص .

ثالثاً — تبدو الوسوسة أيضاً فى الصراع الداخلى بين قطبين متناقضين هما احتقار الذات وتعظيمها . ولعل الموسوس المصاب بهذا المرض يكون قد خبأ وأخفى هذا الصراع المعتمل بدخليته ، وذلك بأن يبدى أحد طرفيه فحسب ألا وهو تعظيم الذات وتأليهها مع أن دخليته مشحونة بالصراع بين احتقار الذات وتعظيمها . فالاختيار القاطع والحاسم بين هذين النقيضين غير موجود . وشاهد ذلك أن المجنون بجنون العظمة ينهار فى بعض المواقف ويبدى الصورة العكسية التى دأب على إخفائها عن أنظار الآخرين ، فيبدى احتقاراً شديداً لذاته ، ويقرر لمن حوله بأنه من أتفه خلق الله وأحقهم . ولكن هذا ليس الوتيرة أو الحالة المستمرة لديه ، فالحالة المستمرة فى سلوكه هى التعاضل واحتقار جميع الناس . والشأن هنا كشأن المصاب بالحمى وقد انخفضت درجة حرارته فجأة بعد أن أخذ حقنة من النوفالجين أو مايشبه مما يعمل على خفض الحرارة لحين زوال مفعوله فتعود الحرارة إلى الظهور من جديد . فهبوط

الحرارة بعد النوفالجين لا يكون الا حالة عارضة ، والأصل هو أن تكون الحرارة مرتفعة . فاذا ما أبدى المحنون بالعظمة احتقاراً لنفسه في موقف متأزم مفاجيء ، فانما يكون تحقيره لذاته كهبوط الحرارة بعد النوفالجين في الحالة التي ذكرناها . ولنتناول هذا الموضوع بالتفصيل فيما يلي .

الوسوسة واحتقار الذات :

قلنا في الموضوع السابق إن جنون العظمة قد يكون إحساساً مقلوباً باحتقار شديد للذات . على أن احتقار الذات بحاجة إلى وقفة خاصة فنفردها لهذا الموضوع . وعلينا أولاً أن نستعرض أسباب احتقار الذات كما يتبدى عند المصابين بهذا المرض النفسى .

هناك أولاً — احتقار للذات بسبب التكوين الجسمى . فلقد يكون الشخص قصيراً لدرجة القزامة أو طويلاً لدرجة العملاقة المرضية ، كما أنه قد يكون نحيفاً كأشد ما تكون النحافة ، أو سميناً كأشجع ما تكون السمنة ، وقد لا تكون أعضاؤه متناسقة بعضها مع بعض . ولقد يصدر احتقار الذات عن إحساس بضالة البنية وما يترتب على ذلك من ضعف وخور ووهن ، وكذا قد يكون احتقار الذات ناجماً عن الإصابة بمرض عضال ورأى يعوق بذل الجهد أو التقدم فى مسارى الحياة .

وهناك ثانياً — احتقار للذات نتيجة الشعور بالقبح . فلقد يجد الرجل أو قد تجد المرأة أنها دميعة الحلقة ومنفرة للناظرين ، فيأخذ بها الغيظ كل مأخذ فتصبب نغمها على ذاتها محترقة ذلك الوجه القبيح وقد أخذت تلوم تلك الظروف غير المواتية التي جعلت وجهها على هذا النحو من الدمامة . ولقد يسود هذا الإحساس نحو الذات بعد أن يصاب الوجه بشويه حقيقى بسبب حادث يكون قد وقع للمرء فترك بعده وجهاً مشوهاً أو عاهة بجزء حيوى مشاهد من الجميع فأخذ يجلب الخجل على الشخص ، فينعكس ذلك الخجل على صاحبه احتقاراً لذاته .

وهناك ثالثاً — احتقار للذات بسبب الضعف العقلى . فلقد يحس المرء بأنه غير قادر على التفكير بسرعة ودقة كما يفعل الآخرون ، أو قد يحس بأن

ذاكرته ضعيفة جدا أو أنه لا يستطيع النجاح فيما يعتمد على التفكير الشديد ،
فيأخذ في احتقار عقليته .

وهناك رابعا — احتقار للذات نتيجة التعثر والتلعثم في الكلام . فالشخص
الذى لا يستطيع الإبانة عن أفكاره ، أو الذى يجد الناس منصرفين عنه لا يحبون
الاستماع لما يقول ، إنما يصب جام غضبه على ذاته ، متبها نفسه بالعجز عن
التعبير وقد أخذ يتهم نفسه ويحتقرها .

وهناك أخيراً احتقار للذات نتيجة ضيق ذات اليد ، أو نتيجة الإشتغال
في أحد الأعمال التى يعتقد الشخص أنها وضيعة ، أو لأنه يتكسب من وراء عمل غير
شريف ، أو لأنه يحس بأن المال الذى ورثه عن والديه إنما هو مال حرام
وقد كسبه الوالد عن طريق غير شرعى .

وليس من الضرورى أن يكون احتقار الذات ناجما عن حقائق موجودة
بالفعل ، أو أن الشخص الذى يحتقر ذاته يكون مصيبا في إحساسه وأن ذلك
الاحساس يعبر عن واقع موضوعي ، بل إن الواقع في كثير من الحالات
لا يعدو أن يكون وسوسة تسيطر على الشخص فيحتقر ذاته لما يعتمل بداخله
من وساوس ليس لها وجود إلا بدخيلته . وشاهد ذلك أن نفس الحالة
لا يكون لها نفس الأثر بالنفس عند جميع الناس . فالمسألة إذن تتعلق بدخيلة
المرء أكثر من كونها تتعلق بالواقع الموضوعي .

وإذا نحن بدأنا في محاولة كشف النقاب عن علاقة الوسوسة باحتقار
الذات ، فأننا سوف نجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلي :

أولا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كعلاقة سببية : فهنا نجد أن
الوسوسة تكون هي الأساس بينما تكون حالة احتقار الذات هي النتيجة . فلقد
يكون الشخص جميلا في الواقع أو قد يكون ماله حاللا أو يكون قوامه بلا عيب
أو يكون عقله عاذايا ولكن الوسواس المعتمل في قلبه وعقله هو الذى يجعله
مصابا بالفكرة الثابتة المسيطرة التى تجعله يشوه الواقع الموضوعي ويحيله إلى
نفس الصورة التى رسمها له وسواسه .

ثانياً — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة لواقع موضوعي : فلقد يكون الشخص بالفعل على غير ما يرام ، فقد يكون دميم الحلقة مثلاً ، ولكن وسواسه يجعله يركز ذهنه ووجدانه على الجانب الضعيف من شخصيته بغير أن يلتقي بالآلى إلى الجوانب الأخرى القوية أو الممتازة. فعمل الوسواس فى هذه الحالة يكون بالتركيز على الجانب الضعيف والإغماض عن الجوانب الجيدة.

ثالثاً — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة للمصاحبة والمواكبة : فهنا لا نجد أن الوسوسة هى السبب فى الإحساس باحتقار الذات ، كما أننا لا نجد هنا أن الوسوسة تكون نتيجة لاحتقار الذات ، بل نجد أن الوسوسة واحتقار الذات يسيران جنباً لجنب . فالوسوسة تغذى احتقار الذات ، وكذا فان احتقار الذات يغذى ويدعم الوسوسة .

رابعاً — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة لآليات لاشعورية ورواسب منسية منذ الطفولة : فهنا نجد أن الوسوسة واحتقار الذات جميعاً يكونان ثمرة رديئة لرواسب لاشعورية منسية منذ الطفولة . وعلى الرغم من أن الوسوسة فى مثل هذه الحالة تكون متعلقة بجانب معين بالشخصية كالجمال مثلاً ، فان احتقار الذات يكون فى حقيقته مرتبطاً بشىء آخر أو بخبرة منسية تعتمد فى ديميلة اللا شعور . من ذلك مثلاً الخبرة غير المواتية المتعلقة بخادث جنسى وقع للمرأة فى طفولته آذاه فى كيانها النفسى ودفع به إلى احتقار الذات . وهنا نجد أن ثمة عملية نقل من تلك المشاعر المتعلقة باحتقار الذات بسبب الخطيئة الجنسية المنسية إلى شكل الوجه أو قوة العقل أو غير ذلك من جوانب متباينة بالشخصية .

خامساً — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كصدى لواقع اجتماعى آتى أو سابق : فلقد تعمد الأم إلى وصف ابنتها بالدمامة مع أنها بنت جميلة أو على مستوى لا بأس به من الجمال . ونتيجة للحاح الأم على وصف ابنتها بالدمامة ، فان وسواساً يشتمل فى دخيلتها حول هذا الموضوع . فهى تقف أمام المرأة لكى تستصدر حكمها على بنتها . ولأنها تظال فى حيرة قاتلة بين ما تقوله أمها لها وبين داتراه فى المرأة من جمال وجاذبية .

وهناك بلا شك نتائج تترتب على الوسوسة المعتملة في دخيلة الموسوس حول احتقار ذاته . ولعلنا نلخص تلك النتائج فيما يلي :

أولاً - اليأس والاستمرار في حالة من القتامة النفسية لاترجم عن الشخص . ولكن اليأس الذي نقصده هو ذلك اليأس الذي لا يخرج عن إطاره النفسى ولا يعبر عنه إلى الخارج بأى صورة فعلية واقعية من أى نوع . فالموسوس باحتقار ذاته في هذه الحالة يظل هامدا ومنزويا وشاحب الوجه وقد أخذ في الانصراف عن الناس وهو سال عن غيره ولا يقيم علاقات جديدة مع أحد .

ثانياً - إيذاء الذات : ويكون ذلك بأشكال متعددة من أهمها الانصراف عن تناول الطعام وإهمال النظافة وعدم الانتظام على العمل . ولكن هناك حالات أخرى أشد من ذلك منها تشويه الوجه أو إنزال عقوبات معينة على ذات الشخص بنفسه كأن يكوى جلدة بسيخ محمى أو بغير ذلك من وسائل التعذيب . والأشخاص من هذا النوع لا يعرضون أنفسهم على طبيب إذا مرضوا . ويقال ان بعض الحوادث التى تبدو وكأنها وقعت بالمصادفة إنما تكون في الواقع تعبيراً عن احتقار الذات وتركها بغير حماية للدوس تحت عجلات السيارات ، وغير ذلك من أسباب الهلاك والقضاء على الحياة ذاتها .

ثالثاً - تشويه السمعة الشخصية ، وذلك بأن يتعمد المرء التواجد في مواقف مزرية تجلب عليه السمعة الرديئة . فلقد يقوم أحد المحتقرين لأنفسهم بالنشل غير المستتر وغير الحذر فيقع في قبضة الشرطة فيرمى به في السجن . ولسان حاله يقول لنفسه « إنك تستحقين كل مايقع عليك من مهانة فأنا احتقرك » .

رابعاً - جلب إيذاء الآخرين والتشفي من الذات . فالشخص المحتقر لذاته قد يرتب المواقف التى تغيظ الناس فيضربوه أو يسخروا منه أو يؤذوه بكافة وسائل الإيذاء . والواقع أن كثيراً من حالات الماسوكية - أى تقبل إيذاء الآخرين للمرء ، إنما تكون تعبيراً لآشعوريا أو شعوريا عن احتقار الذات . فلأن الشخص يحتقر ذاته فانه يهيج الناس ضد نفسه للانتقام

منه ولزيادة هوانه وايدائه لأنه عن طريق ذلك الايداء يصدر عن الآخرين اليه يكون قد انتقم من نفسه التي يحتقرها .

الوسوسة وانتقام الأرواح :

ترتبط الوسوسة في أذهان بعض الموسوسين بالخرف من انتقام الأرواح منهم والايقاع بهم أو التآمر عليهم . وعلى هذا فان هذا النوع من الوسواس يمكن أن يسمى بالوسواس الميتافيزيقية أو الوسواس الروحانية . ذلك أن هذه الوسواس تتعلق بكائنات علوية أو سفلية لها صور معينة في أذهان الموسوسين ولها وسائلها الخاصة في التأثير فيهم كما تخيل لهم وسواسهم . وواضح أن هذه الوسواس تبعد عن الواقع المحسوس كما تبعد عن العلاقات الاجتماعية ، وان كانت نتائجها المتوقعة ترتبط بالأشياء المحسوسة أو بالعلاقات الاجتماعية التي يوجد بها الموسوس . فهو قد يعتقد أن الأرواح التي تنتقم منه تجدد مجال انتقامها في ماله أو في ممتلكاته . فهي قد تعمل على إضاعة أرباحه أو سرقة أمواله أو إشعال حريق في مخازنه ، كما أنها قد تجدد مجال انتقامها في علاقاته الاجتماعية ، فتعمل على تنفير الناس منه ، وكراهيتهم له بغير أسباب على الإطلاق أو لأسباب لا تؤدي في الأحوال العادية إلى نشوء الكراهية .

أما الأرواح التي يخشى الموسوس من انتقامها فانها قد تكون أرواح أشخاص كانت تقوم بينه وبينهم علاقات متسمة بالشحناء والبغضاء والتناذب قبل وفاتهم ، فتستمر في حقدها وتربصها به ولكن بشكل روحاني وبفاعلية أقوى بعد أن تجردت وخلصت من قيود الجسد . ولقد تكون الأرواح المتربصة بالموسوس أرواحا يجندها ساحر ما وقد أخذ في استعدادها ضده وتأليبها عليه ، فصارت ترصد به الدوائر وتحول ضده المؤامرات وتنهز أقرب فرصة للانتقام منه أو للهجوم عليه . أما النوع الثالث من الأرواح التي يخشى الموسوس انتقامها فهي أرواح لا يعرفها الموسوس ولا يقف على كنهها ولكنه ربما يكون قد أغضبها من حيث لا يدري . فربما يكون قد احتل مكانها أو أتى بتصرفات تغضبها أو ربما يكون قد لفظ بكلمة أو عبارة تكون

مؤذية على مسامعها. أو ربما تكون قد شاهدت في سلوكه ما ينم على تحديه لها وازدراؤه بها أو تعريضه بكرامتها .

أما عن علاقة الموسوس بتلك الأرواح فإنها قد تكون علاقة موهومة بحته ، فهو يخشاها ولكنه لا يستطيع أن يقرر لمن يسأله عن مشاهدته لها أو سماعه لصوتها أو لآى أثر على أو محسوس في حياته . فخوفه هنا هو خوف ترقبي فحسب ، وليس خوفا نتيجة ادعائه بالوقوع على أى فاعلية لانتقامها منه بطريق مباشرة أو بطريق غير مباشرة . ولكن قد يزعم الموسوس أن لديه أدلة وبراهين محسوسة على أن الأرواح المتربصة به قد بدأت بالفعل في الانقضاء عليه وإيدائه . فهو يستدل من حدوث أشياء ووقائع معينة على ما يزعمه من أدلة وبراهين على مهاجمة الأرواح له وتغيص حياته عليه . فهو يقول إن زجاج الحجرة قد انفتح بشدة فحطم ما وراءه من أوان زجاجية ثمينة مع أن الهواء كان ساكنا ولم تكن هناك رياح عاصفة على الإطلاق . وقد يزعم الموسوس أن المرض الذى أصابه كان نتيجة غضب بعض الأرواح عليه وانتقامها منه في صحته . وفي بعض الحالات الشديدة يصاب الموسوس بما يسمى بالهلوسات المرئية والمسموعة ، فيشاهد بعينه ويسمع بأذنيه أشباحا أو أرواحا تروجه وتهدهه أو تحاول إيداءه بالفعل .

والواقع أن هناك مجموعة من الاستجابات المتباينة التى ينحو الموسوس إلى التلحف بواحدة منها . فهو قد يعتمد إلى التوقع والانكماش الشديد حتى وكأنه دودة حرير فى شرنقة فتجده مرتبما فى سريره وقد تكور تحت الغطاء هربا من الأرواح التى ربما تؤذيه إذا ما ظهر أى جزء من جسمه خارج الغطاء . أما الاستجابة الثانية التى يمكن أن ينحو إليها الموسوس فهى عدم الإتيان بأعمال بالذات يحددها له وسواسه . من ذلك مثلا عدم استخدام شوكة فى تناول الطعام لأن الشوكة ربما تفقأ عن غير قصد منه عين إحدى الأرواح . ولقد لا يحدث الموسوس أى صوت أو ضجيج فى أثناء سيره بشقته حتى لا يزعم الأرواح إلى غير ذلك من محظورات يفرضها هو على نفسه ويختلقها اختلاقا بداءة حيث لم يسبقه أحد إليها . وقد تكون استجابة

الموسوس بالأبخرة والتعاويد يقرؤها حتى يسترضى الأرواح التي ألم بها الغضب منه .

ومهما يكن من أمر استجابات الموسوسن التي يتباينون فيها ، فاننا نجد أن الموسوس في جميع الحالات يتسم بمجموعة من الخصائص النفسية والسلوكية الأدائية . فهو أولاً يجد في نشاطه الذهني والوجداني المحور الذي يلتف حوله لا يريم عنه ولا يبعد عنه إلى المحاور الأخرى الممكنة . فهو مثلاً - حتى في أشد حالات الاحتكاك بالآخرين - يكون منغلقاً على ذاته وقد شحب وجهه وزاغت عيناه وبدت عليه إمارات الخوف وبردت أطرافه وجف ريقه وتفككت مفاصله . ومن جهة أخرى فإن الموسوس الخائف من انتقام الأرواح يكون خفيض الصوت محتبسه . فهو لا يكاد يدين عن أفكاره إلا همساً وكأنه يخشى إذا ما ارتفع صوته فإن انتقام الأرواح يهدده أو تنكيلاتها تقع عليه وتصيبه في الصميم . ومن جهة ثالثة فإن الموسوس الخائف من انتقام الأرواح يظل واقعاً في الحلقة الاختيارية غير الحاسمة . فهو وإن كان يبدو معتقداً في وجود الأرواح ، فإنه لا يستطيع تحسم هذا الموضوع . ذلك أن مفهوم الأرواح نفسه لا يكون واضحاً جلياً في ذهنه ، بل إنه لا يستطيع بعقله أن يقرر ما يتعلق بالواقع وما يتعلق بالخيال . فهو يعتقد في الأرواح ولكنه لا يقتنع بما يعتقد فيه . وليس هذا بالأمر المستغرب . فغالبية ما يعتقد فيه الإنسان إنما يكون اعتقاداً مبنياً على وجدان وليس على اقتناع عقلي متجرد . فلقد نجد شخصاً آمياً يؤمن بالروحانيات . فإذا ما بدأ في دراستها وتفهم مغزاها أو الوقوف على حقيقتها بعقله ، فإن جلوة إيمانه تبدأ في الخفوت والضمور . فعلاقة الفكر بالاعتقاد ليست علاقة مطردة الزيادة ، كما أنها ليست مطردة التناقص ولكنها أميل إلى التناقص منها إلى الزيادة .

وثمة نوع من التشبث يديه الموسوس حتى لا يقتنع بعدم وجود الأرواح أو بعدم وجود علاقة بينها وبينه في الحياة اليومية ، وأنها في سبيلها وهو في سبيله ، وأنها لا تستطيع أن تؤذيه أو أن توقع عليه أى ضرر من أى نوع . والواقع أن هذا شأن معظم معتقداتنا . فنحن لا نستطيع اقتلاع الاعتقاد من أنفسنا بسهولة كما هو حالنا بازاء الأفكار التي نصدقها . فبالنسبة لما نصدقه

بعقولنا ، فاننا نستطيع أن نحل أفكارا جديدة محل الأفكار القديمة، ونستطيع أن نطور في تفكيرنا سواء من حيث المضمون أم من حيث طريقة التفكير : أما بالنسبة لما نعتقد فيه ، فان المسألة تختلف عن ذلك اختلافا بينا . فليس يسهل علينا أن نحل اعتقادا محل اعتقاد آخر . ولكن هذا ليس مستحيلا في نفس الوقت . ولعلنا نقول إن سبيل تغيير المعتقدات لا يكون بالعقل بل يكون بالاستمالة والايحاء فحسب . ومن الحقائق المعروفة في الحياة اليومية أنك إذا هاجمت اعتقادا ما كانتقام الأرواح وأخلدت تناقض الموسوس في هذا الشأن وتدحض مزاعمه ، فانه سوف يبدى مقاومة قوية جدا بتجاهلك ، وقد يصل في هياجه إلى حد الشجار معك وعلان مقاطعتك والنبو عنك إلى الأبد .

وأغلب الظن أن الموسوس يحاول إخفاء وساوسه عنك . فهو لا يأتى متطوعا لكي يشكو لك خائفا من مهاجمة الأرواح له أو من توجسه خشية انتقامها منه ، بل إنك ربما تكتشف ذلك بنفسك باستدراجه في التحدث اليك وقد اطمأن اليك تماما ، وتأكد من أنك سوف لا تخالف عن رأيه ولا تبدى له امتعاضا مما يحس به أو مما يدور بخلد من خواطر . ولعله يخفى عن جميع الناس وساوسه المتعلقة بانتقام الأرواح منه خشية أن يهيجها ويستثيرها فزيد من انتقامها منه ، وتربص به الدوائر . ولعله يخاف عليك أنت أيضا إذا ما أفاض بمكنون نفسه وعبر عما يعتل بين أضلعه من أفكار ومشاعر تجاه الأرواح ومواقفها المتباينة . فهو يعتقد اعتقادا عميقا بأن ما يدور في ذهنه من وساوس حول الأرواح إنما هو مخفوف بالسرية التامة ولا يجوز كشفه على الملأ أمام الناس . وثمة في رأى الموسوس بالأرواح مجموعة من الشروط والمبادئ التي إذا ما التزم بها وتحراها في علاقاته بها ، فانها سوف لاتصيبه بشر . ولكنه إذا خالف عن تلك الشروط والمبادئ ، فانها سوف تنقلب عليه إذن شر منقلب وتضره أشد الضرر وتنتقم منه أعنى انتقام وأشنعه . فاذا ما أخطأ وأفشى السر المكنون في صدره عن أرواحه المزعومة ، فانه يأخذ في استرحامها واسترضائها مؤكدا لها أنه أخطأ عن سهو وعن ضعف ، ولسوف لا يعود إلى خطئه مرة أخرى . وهكذا نجد أن الموسوس بالأرواح لا يعيش

مطمئنا بل يقضى وقته كله في توجس وارتباب وتوقع للشر يصيبه في الصميم ويعذبه أيا عذاب .

للموسوسة وترقب المصائب :

سبق أن عرضنا للموسوسة المستقبلية ، وهي تلك الوسواس التي تتركز على ما سوف يقع - للمرء أو لمن يهتم بهم في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . ويرتبط بهذا النوع من الوسواس المستقبلية نوع آخر يرتبط به ارتباطاً وثيقاً هو ترقب المصائب الوشيكة . ولكن ما يهمني في هذا المقام هو التأكيد على نوعية من الوسواس الوجدانية التي تنعكس على صفحة العقل فتستحيل إلى أفكار ولكنها أفكار غامضة من الصعب تحديدها . فالوسوسة هنا هي وسوسة اعتقادية وليست وسوسة توقعية . والموسوس هنا يؤمن بأن شراً سينزل عليه على الرغم من أنه لا توجد أية دلائل أو أية شواهد تدفع به إلى هذا التوقع . على أنه ينبغي أن نعترف بأن بعض ما يحس به المرء من خطر وشيك أو من حوادث أو مصائب مرتقبة ، قد يقع بالفعل . ولكن ما نعلم إلى إيضاحه هنا هو ذلك الوسواس المستمر لدى الموسوس . فهو دائماً الترقب للشر يلحق به ، ولا يتوقع خيراً أو فرحاً ، ولا يستطيع أن يحس بخير يصيبه أو يصيب غيره ممن يحبهم . ولعل الأشخاص العاديين يحسون بالخير والشر جميعاً ، ويتوقعون بأحاسيسهم ما هو مبهج وما هو مكدر أيضاً . ولكن الموسوس لا يستشعر سوى الشر يلحق به ويهدد طريق حياته .

ولعلنا نربط هنا بين ما يسمى بحالات الاكتئاب وبين ترقب المصائب . بيد أن المكتئب قد يستشعر الحزن ينجم على آفاقه النفسية بحيث يتلون وجدانه بلون قائم مقبض ، ولكنه لا يترقب شراً وشيكاً أو مصيبة تحدث له أو لغيره من حوله . ولكن الموسوس بترقب المصائب يجمع بين مشاعر المكتئب نفسياً وبين هذه النزعة التنبؤية التوقعية . فهو يصاب بالشعور المقبض وقد أخذ يستشعر في قلبه وضلوعه وينحو به إلى العزلة والتفوق حول الذات : ولكنه لا يستبين بالضبط ماذا يمكن أن يحدث أو الخطر الذي يمكن أن يحدث الشر وينحرف به عن جادة الخير .

ولقد يحاول هذا النوع من الموسوسين إسقاط ما يعتمل بدخائلهم على غيرهم ممن لا يهتمون بأمرهم . فالواحد منهم يهتم أكثر ما يهتم بتصفح الجرائد عليه يقع على جريمة اقترفت أو على شخصية مرموقة اغتيلت أو ماتت في حادث . فهو يهتز اهتزازا شديدا لذلك ، وكأنه ينقل مشاعره عن كاهله ليلقي بها على غيره . ولقد يعتمد الواحد من هؤلاء الموسوسين إلى مشاهدة الأفلام المفجعة وذلك لكي يخفف عن كاهله وما يثقل به قلبه من شر متوقع . ولعلنا نصف حالته بتصفح لسان حاله وهو يقول « ها ما كنت أتوقعه من شر وشيك قد وقع بالفعل ، ولكن الحمد لله . إنه لم يقع لى ولا لأحد من أحبائى ، بل وقع لأشخاص غرباء لا تربطنى بهم أية صلة وجدانية » . ولعل أن تكون هذه العملية التحويلية أو النقلية من الآليات اللاشعورية التى يستعين بها الموسوس فيسقط وسواسه على غيره لكي يتخفف من مرضه النفسى .

ولكن أنى له أن يتخلص من أثقاله النفسية ، وهى التى تزايدت . فوقف الموسوس فى عملية التحويل أو الإسقاط إنما تشبه موقف المصاب بمرض جلدى يهيج بشرته فيعمد إلى حكها للتخلص من الأكال الذى يعذبه . ولكن هيات أن يشفيه حك الجلد مما يستشرى فيه من داء . فكلم شاهد الموسوس بتوقع المصائب ما يخفف عن نفسه ما يهيج فيها من مشاعر لدى مشاهدته أفلاماً مفجعة أو كلما طالع أخبارا مكدره تتعلق بالآخرين ، فان داءه الوسواسى — وان بدا للحظات وكأنه قد انزاح عنه — فانه فى الواقع يزداد شدة وضراوة وهجوما عليه .

وحتى إذا لم يفصح الموسوس بترقب الشر عن وسواسه لك ، فانك تستطيع أن تقف على ما يعتمل بداخله من هياج نفسى متشائم ، إذا أنت تتبعته كلامه وقصصه ، بل حتى بمجرد ملاحظة الكلمات والعبارات والإشارات التى يستخدمها فى الإبانة عن نفسه . فالكلمات والعبارات التى ينحو إلى استعمالها تكون كلمات وعبارات قاتمة تحمل نذر الشر والقتامة . فهو يدمن فى استعمال كلمات مثل « الموت والمرض والحريق والغرق والفقر والتهمة والمصيبة » ونحوها . ومن عباراته التى ترد على لسانه « فلان لم يرسب

فى الامتحان ، أو عبارة « هذا مش بطل » . وإذا سأل الموسوس عن صحة أحد المرضى فانه يقول « هل فلان نجا من المرض أو من العملية الجراحية ؟ أو هل فلان « لسة عايش ؟ » ونحو ذلك من عبارات تصطبغ بالتشاؤم أو ترقب الشر . أما حر كاته وانفعالاته فانه لا تبعث الراحة فى نفوس الجالسين معه أو المستمعين لحديثه . فهو يصبغ كلامه بصبغة تشاؤمية قائمة .

والموسوس بترقب الشر يترجم ما يسمعه أو ما يقرؤه حسب الصبغة القائمة التى تشيع لديه . فهو يسمع عبارة « فلان شقى » على غير وجهها . إنه يسمعها « فلان توفى » ، وعندما يقرأ الموسوس بترقب المصائب هذا العنوان باحدى الصحف « إستقلال المستعمرات » فانه يقرؤه « استغلال المستعمرات » والواقع أننا نذكر الأشياء بعقولنا وقلوبنا جميعا ، ولاندر كها بعقولنا فحسب . فما نحس به من عواطف ، أو ما تصطبغ به نفوسنا من وجدانات إنما تهيم وتسيطر على مدر كاتنا وتحيلها إلى ما يلائمها من ترجحات قائمة غير سارة .

ومن الممكن فى الواقع أن نجد أسبابا غائرة فى طفولة الموسوس بترقب المصائب . فالظروف غير السعيدة التى قاسى منها الأمرين ، أو المفاجآت التى أوصدت باب الأمل أمامه فى تلك الطفولة وبخاصة فى لحظات كان البشر ينغم خلالها على الجميع . من ذلك مثلا موت الأب أو الأم فى أثناء الاحتفال بأحد الأعياد وقد عم الفرح المكان ونشر لواءه على قلوب جميع الموجودين ، ولكن الموت القاسى تعمد أن يختطف والد أو والدة الطفل فجأة فى هذا الجو المرح السعيد . فحدثت صدمة عنيفة هزت كيان ذلك المخلوق الصغير الغض ، واستمرت هذه المصيبة مرتسمة أمامه وإن كان قد نسى معالمها بالذات . ففى كل موقف يبدأ فيه البشر والحبور يداعبان الوجود من حوله ، وقد أخذ الناس المجاورون له يمرحون ويفرحون ، فان الموسوس الذى وقعت تلك الحادثة أو أشباهها له فى طفولته يبدأ فى الاحساس وجدانيا بمصيبة وشيكة سوف تقع ، ولكأن الموقف يتكرر من جديد . فن يدرى ربما إذا هو اندمج وفرح واستبشر تقع له مصيبة كذلك التى وقعت له فى طفولته . بيد أن الخبرة المؤلمة التى مرت فى طفولة هذا الانسان تكون قد ترسبت فى

أعماق شخصيته . فهو وان كان قد نسى معاملها بعقله ، فانه لا يستطيع أن يذيب ما التفت وتبلور من وجدانه حول تلك الواقعة النكداء .

على أن هناك ما يمكن أن نسميه بالعوامل المساعدة في مثل هذه الحالات . فثمة العامل البيولوجى وما يتأتى عنه من مزاج معين يجعل الشخص ذا استعداد قوى لاتخاذ مواقف معينة ثابتة أو شبه ثابتة في الحياة . فالمزاج الشخصى الدائم الذى يرتبط بتكوينه البيولوجى وكذا بما أقدم به من استعدادات وراثية ، إنما يكون بمثابة القوة المدعمة أو المادة التى تثبت اللون أو بمثابة العامل المساعد على تفاعل المواد بعضها وبعض في عالم الكيمياء . بيد أننا لانستطيع الجزم بأن تلك الاستعدادات الموروثة أو تلك الأمزجة التى يفطر عليها المرء تكون وحدها كافية لاصابة أى إنسان بالوسوسة بترقب المصائب . فاذا ما اجتمعت الخبرات المفاجئة المكدرية في الطفولة وبخاصة في أثناء البهجة والسرور والانشراح بالإضافة إلى تلك الاستعدادات الوراثية والمزاجية ، فان الحالة الوسواسية بترقب المصائب تعمل عملها وتصير بمثابة سمة راسخة ودائمة في الشخصية .

والواقع أن هناك تبايناً في نوع الوسوسة بترقب الشر لدى الموسوسين بهذا النوع من الوسوسة على الرغم من اتحادهم جميعاً في شىء واحد هو أن الوسواس لديهم نوع من الاعتقاد الذى لا يستند إلى مبرر أو شاهد مضرعى أو منطقي عقلاني . فثمة وسواس تنصب على الصحة . وأصحاب هذا النوع من الوسواس يتوقعون انهيار صحتهم وارتداءهم في أحضان المرض فجأة وبغير تمهيد ، أو ربما يتوقعون إصابتهم في حادث . والنوع الثانى منهم تتركز وسواسهم على المال فيترقبوا الافلاس والفقر . والنوع الثالث يترقبون الخيانة الزوجية أو جفاء الحبيب أو غدر الصديق . والنوع الرابع يترقب أفراد الفشل في الامتحان إذا كان الموسوس طالبا ، أو في العمل إذا كان صاحب مشروعات . والنوع الخامس والأخير يتوقع الشر لأحبائه وبخاصة أولاده أو شريك الحياة . وهى جميعاً وسواس تتعلق بترقب المصائب المفاجئة .

الفصل الرابع عشر

الوسوسة التربوية

التدقيق الشديد مع الطفل :

هناك من الآباء والأمهات من يرسمون لأطفالهم في أذهانهم مثلاً علياً يرغبون في تحقيقها في شخصياتهم . ولكأنهم يعتقدون أنهم إذا لم يشاهدوا تلك المثل العليا أو الصور الذهنية متحققة بتفصيلاتها في سلوك أبنائهم وبناتهم فإنهم يكونون بذلك قد أخفقوا إخفاقاتاً في تربيتهم وتنشئتهم . فهم يؤمنون بمبدأ الكل أو لا شيء . فليست هناك مراحل أو درجات وسيطة بين ما تخيلوه في أذهانهم وبين ما لا يرغبون في مشاهدته في سلوك أبنائهم من تصرفات أو فيما يلوكونه من ألفاظ أو كلمات . فأولئك الآباء والأمهات المدققون لا يستشعرون السعادة تملأ قلوبهم ولا الطمأنينة تخيم على أبحاثهم إلا إذا هم شاهدوا جميع ما يترسمونه من صور ذهنية وقد استحالت إلى سلوك متمكن من شخصيات أبنائهم .

ومن الطبيعي أن يستشعر الطفل أحاسيس والديه ، فيخاف منها أو يخاف من أن يخفق في تحقيق السعادة لها ، أو أن يكون مصدراً لشقاؤها . ومن هنا فإنه يدأب على تطبيق كل ما يأمرانه به في طاعة عمياء ، وكأنه قد استحال إلى قطعة من الصلصال في يد النحات ، فلا يقاوم لها رغبة ولا يخرج على أوامرها قيد أمثلة . بيد أن تلك المطاوعة أو الطاعة العمياء لاتعبر عن الواقع الداخلي للطفل ، بل تعبر فقط عن سلوكه البادى للعيان . أما دخيلة مثل هذا الطفل فإنها تكون مشحونة بالصراعات الداخلية . فثمة حركة ديبالكتيكية تحكم نمو الطفولة السوية ، أعنى النمو بواسطة المقاومة : فالوالدان طرف والطفل طرف آخر . وثمة ما يشبه التصادم بين ما يرغب فيه

والوالدان وبين ما يرغب فيه الطفل . ولعلنا نزعم بحق أن ما يجب أن تخلص إليه التربية هو ذلك الحل الثالث الذى ينشأ عن تصادم نوعين متباينين من الرغبات : هما رغبات الوالدين ورغبات الطفل .

فإذا يحدث عندما لا ينبثق هذا المنحى الثالث نتيجة صراع رغبات الوالدين ورغبات الطفل ؟ لاشك أن الصراع يظل قائماً ولكن لأجارجية الطفل بل بدخيلته . ذلك أنه بالنسبة للحالات الطبيعية ، حيث تخرج محصلة أو نتيجة ثالثة ، لا هى رغبات الكبار ولا هى رغبات الطفل ، فان الصراع يكون قد وجد له حلا ، فتهداً ثائرتة ولا يظل فى حالة من التقلقل والتمزق الداخلى .

ولا ندهش إذن إذا ما أصيب الطفل من هذا النوع الطائع طاعة عمياء بالوساوس العقلية والوساوس الوجدانية والوساوس الأدائية جميعاً . فالوسوسة كما سبق أن قلنا هى استمرار الموقف الاختيارى بغير أن يتسنى للمرء الخروج من نطاق إجمالة الفكر إلى نطاق الحسم العقلى للموقف والوقوع على اختيار أو على حصيلة جديدة كنتيجة للصراعات الناشئة بالداخل . فلو أنه فعل ذلك لما كان اذن بحاجة إلى المعانة تعتمل بدخيلته وتأخذ به كل مأخذ وتستولى على أعنة فكره ووجدانه .

والواقع أن شدة التدقيق مع الطفل يحرمه من نعمة استكشاف الواقع ثم العمل على تخصيبه . ذلك أن الطفل السوى لا يكون متحركاً من الخارج كما تتحرك قطع الشطرنج بيد اللاعب ، بل هو يتحرك من دخيلته عامداً إلى استكشاف الواقع من حوله وحده فى استقلال عن إرادات الآخرين بما فيهم الكبار بل والوالدان ذاتهما . فهو يصدر عن مكنون نفسه وليس عن فكر وإرادة الآخرين من حوله . فثمة أولاً — الفكر الشخصى للطفل ، ثانياً — عواطفه الشخصية . ثالثاً — إرادته التنفيذية التى يضطلع بواسطتها بما يشقه لنفسه من طرق خاصة فى الحياة . بيد أن الطفل المطواع لا يكون شأنه شأن الطفل السوى ، بل يكون محدود التفكير ومحدود العاطفة ومحدود الإرادة . فالهاور التى يدور حولها إنما هى محاور ضئيلة ومحدودة بمحدود ما يرغب فيه الوالدان .

وأنى لطفل هذا شأنه أن يغير أو أن يعدل ما نشأ عليه من طاعة عمياء بلا مقاومة في مراحل عمره التالية ؟ انه في الواقع يظل على هذا الحال حتى بعد أن يشب ويتعرع وينمو ظاهريا . وليس بمستغرب إذن أن يكون العالم من حول الطفل المطووع عالما ضيقاً كأشد ما يكون الضيق ، فلا تتفتح الآفاق أمام وجهه ، ولا تتسع حياته الذهنية والوجدانية والاجتماعية ، بل إنه يكون محروما من القدرة على توسيع الآفاق الواقعية المتاحة أمام حواسه . ذلك أن هناك عالَمين لا عالما واحدا يعيش فيها المرء إذا كان امرئاً سوياً : عالم الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة وهو العالم الذى يقدمه الكبار إلى الإنسان طفلاً ومراهقاً وشاباً وبالغا وراشداً ، وعالم يخلقه الإنسان لنفسه خلقاً أو قل العالم كما يقرئ المرء بترجمته لذاته وتحديد أبعاد جديدة وذاتية له لم يسبقه أحد إليها . فهذا العالم الثانى يختلف باختلاف الأفراد ، بحيث يمكن القول إن لكل فرد من أفراد الناس عالماً مستقلاً خاصاً به لا يشاركه أحد في خلقه أو في الحياة فيه .

على أنه يجوز لنا في نفس الوقت ومن جهة أخرى أن نقول إن الموسوس يخلق لنفسه عالماً هو عالم الوسوس الخاص به . بيد أن عالم الوسوس يختلف اختلافاً بينا عن العالم الابتكارى الذى نقصده . فعالم الوسوس الذى ينحسب فيه الموسوس هو عالم الصراع الداخلى بين رغبات الكبار وبخاصة الوالدين وبين رغبات الفرد الشخصية . فهو عالم صراع ونزاع ، وهو أرض معركة حامية الوطيس لا تعرف إلى الهدوء سبيلاً . أما العالم الداخلى الذى نقصده الذى يتمتع به الشخص السوى فهو عالم بناء ذهنى إيجابى ، وهو العالم الذى يعيش فيه الطفل بخياله المبدع السعيد ، وهو العالم الذى يخلقه الشاعر والفنان والمخترع لأنفسهم ويعيشون في ظلاله . فهو عالم متمسك بالبناء والتشديد وليس عالماً متصفاً بالشجار والتناوب والصراع بين الأضداد بغير بلوغ إلى نتيجة إيجابية . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن العالم الإيجابى الذى نغنيه هو ثمرة الصراع الدائم بين أطراف ثنائيات الوجود الكثيرة التى لا تنتهى حصراً وعدا . فأنت دائم البناء والتشديد لعالمك الخاص ، ولا يكون بناؤك وتشيدك إلا نتيجة

صراع مستمر ومستخدم بصفة دائمة في دخيلتك. ولكنه صراع محدود ينتهي إلى بناء معين بصفة مستمرة ودائمة . ومن هنا يتكشف لنا الفرق الهائل بين عالم ذهني ووجداني يحيا فيه الموسوس بغير أن ينتهي من صراعه الناشب فيه إلى أى بناء ، وبين عالم آخر يعيش فيه الطفل والمراهق والشاب والراشد والكهل والشيخ غير الموسوسين وقد اخترعوه لأنفسهم ويعيشون في إطاره ولكنه عالم بناء وتشيد ، وقد توصل كل واحد منهم إلى حل للصراع بين أقطاب الثنائيات الكثيرة والمتعددة التي تعتمل بالداخل أعنى بداخل كل منهم .

ومن الواضح أن شدة التدقيق مع الطفل تحرمه من نسج عالمه الخاص به فيظل في حالة عراك مستمر كما قلنا في نطاقه الداخلي . والواقع أن الإنسان يشبه دودة القز في نسجها للحريز حول نفسها . فإذا أنت تدخلت في نشاطها وأخذت تنقلها من مكان لآخر بحيث أنها ما تفتأ تصنع قليلا من الحريز حول ذاتها حتى تأخذ أنت في نقلها إلى مكان آخر لأن جميع الأماكن التي تختارها لنفسها لاتعجبك ، فأنك اذن تفسد عليها عملها وتحرمها من صنع شرنقة خاصة بها . فالعالم الخاص الذي نقصده هو كالشرنقة بالنسبة لدودة الحريز . فهي تشكل عالما خاصا بها تعيش فيه حتى تخرج من الشرنقة فراشة تكمل بها دورة حياتها . ولعلنا نقول إن العالم الخاص بالطفل الذي لا يمكن أن يتأق له الا إذا تركته وشأنه ، هو مرحلة حياتية يجب أن يمر بها حتى نزع أنه قد سار في نموه على النحو الصحيح .

ومن الواضح ان شدة التدقيق مع الطفل يجعله في خشية دائمة من أن يعبر عن ذات نفسه وأن يشكل حياته بطريقته الخاصة . وهذا في الواقع ما يجعل الطفل الخاضع للتدقيق الشديد شخصية ممسوخة بل وشخصية مزيفة غير أصيلة . وكيف تكون شخصية غير مزيفة وهي مجرد نسخة من صورة ارتسمت في ذهن الوالد أو الوالدة ؟ الواقع أن مثل تلك الشخصية المزيفة سرعان ما تقع فريسة للوساوس لأنها تحس بالاغتراب عن ذاتها الحقيقية . فطالما أن الطفل يحمل في دخيلته شخصية غريبة عنه ، فانه لا يستطيع إذن أن

يعقد مصالحة معها ، بل إنه يكون في الواقع شديد الخصومة لها ومناهضا لوجودها وغير موافق على ما يرسم عليها من ملامح وماتنهجه من نشاط . ولاشك أن الشقاء يملأ جنبات الطفل الذي يحس بالاغتراب ، إنما يجعله نهبا للوساوس العقلية والوجدانية والأدائية جميعا .

قلق الكبار :

قلنا إن من دواعي التزام بعض الأطفال بالطاعة العمياء للكبار وبخاصة الوالدين الخوف على مشاعرهم حتى لا تنلهم . والواقع أن مثل هذا الخوف يمكن أن يزداد اشتعالا في نفوس الأطفال عندما يلاحظون ما يشيع من قلق في قلوب الكبار وعلى محياهم إذا هم لم يتمكنوا من إرضائهم أو تحقيق المثل العليا التي ارتسمت في أذهانهم ، والتي دأبوا على محاولة تحقيقها بتفاصيلها في أولئك الأطفال . ولاشك أن الأطفال الذين يسلكون هذا المسلك قبالة الكبار والوالدين بخاصة إنما يظلون في الغالب ينهجون نفس النهج وقد شبوا وكبروا وترعروا . فهم يلتزمون بالطاعة العمياء والخضوع الآلى أو شبه الآلى لهم ولكل أمر يصدر عنهم ، ولكل رغبة تلتهم في آفاقهم . فهم يحاولون من قريب أو من بعيد تكوين شخصية مستقلة بهم تتباين أو حتى تتعارض مع شخصيات الكبار .

ولعل جميع الكبار الذين يقابلون الشخص الذى نشأ على هذا النهج يتلمسون فيه نفس الصورة السلوكية التي ارتسمت في ذهنه صغيرا عن الوالدين . فهذا الشخص وقد بلغ الشباب أو حتى الكهولة يرى في رئيس عمله أو في أى شخص أكبر منه سنا أو مقاما أو مالا أو نفوذا نفس الصورة التي كان يراها في الوالدين أيام كان طفلا صغيرا غضا وفجا . ولم لا يرى ذلك وهو ما يزال في الواقع طفلا كبرت جثته وترامت أطرافه وبرزت لديه علامات الرجولة إذا كان ذكرا أو علامات ودلائل الأنوثة إذا كان أنثى ؟ ذلك أن النمو الخارجى المتعلق بالجسم ، أو النمو المعرفى والمهارى الذى تكفله المدارس والجامعات ، والنمو الاقتصادى الذى تكفله وسائل كسب العيش لاتضمن

بالضرورة نمو الشخصية وفطامها واستقلالها عن الكبار ، أو تباينها وشقتها لطريق مباين أو حتى معارض لما دأب الكبار على شقه أمامها .

والواقع أن من أكثر أسباب الضمور النفسى وعدم الاستقلال الوجدانى عن الكبار هو ذلك القلق الذى يرهب الطفل أو المراهق أو الشاب أو حتى الكهل . والارهاب الذى نعنيه ليس التهديد بالخطر يصيب المرء ، بل هو التهديد بالخطر يحق بالكبير الذى يحبه الصغير حبا لا يكاد يوصف . فالطفل يخاف على الوالدين حتى لا يصابا بأى ضرر ويكون هو السبب فى إحداث ذلك الضرر لهما . ويدعم هذا الشعور تلك القيم الاجتماعية والدينية التى تؤكد للطفل ضرورة الطاعة والخضوع للوالدين وعدم جلب غضبهما وتقديس وصاياهما وعدم الخروج على الخط الذى يرسمانه له حتى لا تغضب عليه السماء ويصاب بالكوارث المتباينة فى مستقبل حياته . ومن الطبيعى أن يظل الخوف يخيم على أفق هذا الإنسان من إغضاب الوالدين وما قد يترتب على هذا من نحس يلاحقه طوال حياته وحتى بعد مماته فى الآخرة .

ولسنا نعيب على القيم الاجتماعية انتحاءها إلى ذلك ، ولكننا نعيب على الوالدين إذا ما استغلا تلك القيم لتخويف الطفل وتهديده بالمستقبل الحافل بالغضب الآلى ، ومن بعد ذلك ملاقة العذاب فى جهنم وبئس المصير . إننا نعيب على التربية ولا نعيب على القيم التى تقرر احترام الوالدين والخوف من غضب السماء إذا أساء الأبناء والبنات اليهما . ونعيب أيضاً على الكبار بكافة أنواعهم إذا ما استغلوا السلطة المكفولة لهم لحق شخصيات الصغار . نعيب على الرؤساء إذا ما استغلوا احترام المرءوسين لهم ، ونعيب على كل صاحب سلطة أو سطوة محاولته محو البذور الأولى لتكوين شخصية المرء المستقلة ومحاولته هدم كل استقلال أو كل تباين أو كل اختلاف فى وجهات النظر يبيدها من هم دونه معارضين بذلك ما يذهب إليه أو ما يحبه .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الكبار بعد الوالدين فى مجريات الحياة المتباينة قد يستعينون بنفس الوسائل التى كان يستخدمها الوالدان بازاء أطفالهما . فهم

يبدون القلق كما كان يفعل الوالدان ، ومن ثم فإن النتيجة التي كانت تقع للمرء طفلاً صغيراً غصاً ، هي بذاتها التي تنتج وهذا الإنسان نفسه قد كبر وصار ضخماً الجثة من حيث الظاهر فحسب . ولعلنا نعيب أيضاً على الاتجاهات الشائعة في مجتمعاتنا الشرقية بصفة خاصة ، وهي المجتمعات التي تجعل التطابق بين رغبات الكبار ورغبات الصغار أساساً لازماً لصالح الشخصية . فكلماً كان المرء أكثر تطابقاً — أو قل أكثر خنوعاً ومسخاً لشخصيته — فإنه يكون بالتالي أكثر قبولاً من جانب الكبار . وعندما يأخذ الصغير في إبداء ذاتيته اعتبر ذلك شقاً لعصا الطاعة وعصياناً والتواء أخلاقياً بشعاً . فالمرءوس من هذه الشاكلة يستحق العقاب أو الطرد من الفصل إذا كان طالباً بالثانوى أو الجامعة . ناهيك عن التشجيع على سمعته ووصفه بالمروق عن الأخلاق القويمة والعصيان والفجور .

وواقع هذا شأنه ليس عجيباً أن يصيب الناشئة بالوسوسة . فطالما أن منافذ التعبير عن الذات أو حتى تكوين تلك الذات قد سدت تماماً ، فليس إذن من سبيل إلى الحيلولة دون التقوقع على الذات ونقل ما كان يجب أن يعبر عنه بالخارج إلى دخيلة المرء . فالوساوس التي تصيب الصغير نتيجة قلق الكبار ، وتحاشياً لذلك القلق ، إنما تبدو أكثر ما تبدو فيما يحط على كاهل الصغير من أفكار وسواسية دائبة الاعمال بداخله .

ولعلنا نصور الوسواس التصارعى ينشأ في عقل وقلب الشخص الوسوس بأنه تعارض قد يكون شعورياً وقد يكون لاشعورياً فيما بين الطاعة والعصيان ، أو بين مراعاة شعور الكبار والضرب بذلك الشعور عرض الحائط . ولاشك أن هذا الوسواس التصارعى لا يتعارض مع ما دأبنا على تعريف الوسوسة به طوال هذا الكتاب ، بأنها الوقوف في مجابهة موقفين اختياريين في عجز عن الاختيار من بينهما . ومن هنا فإن الصراع بين الموقفين المتصارعين يظل قائماً بغير هدوء . وانك لتجد فرويد وغيره من علماء النفس الذين اهتموا بالصحة النفسية وقد أخذوا يعزون الأمراض النفسية إلى ذلك الصراع الفائر بالشخصية بغير قدرة على حسمه والانتهاز بازائه إلى موقف أو حل .

ونستطيع أن نتخيل ما يقع على مسرح الحياة النفسية للطفل أو المراهق أو الشاب أو الراشد من وساوس نتيجة الخوف من قلق الكبار على النحو التالى . فثمة الموقف التقبلى المطواع الذى ينتهجه الفكر والوجدان والتصرف . ولكن هذا الموقف التقبلى الاستسلامى لا يكون فى نفس الوقت موقف الرضا عن الذات أو موقف التقدير لها . العكس هو الصحيح . فالشخص هنا لا يستطيع أن ينظر إلى نفسه بالرضا أو بالتقدير ، بل ينظر إليها بالاحتقار والازدراء . وهذه النظرة الاحتقارية إلى الذات تثير القلق على الكيان الذاتى . فالشخص الموسوس يسلط الفكر والوجدان على نفسه خوفاً من أن ينعكس احتقاره لنفسه على سلوك الآخرين بتجاهه وعلى موقفهم منه . ذلك أن الآخرين يستقرون موقف الشخص من نفسه ويعاملونه على هذا الأساس . فعندما يحتقر الناس شخصا ما ، فإن احتقارهم له يكون فى الغالب صدى أو رد فعل لاحتقاره لذاته . فهم يقرأون على وجهه احتقاره لنفسه ، فيحتقرونه بدورهم ، أو قل إنهم يقلدونه فى هذا التحقير لذاته .

فالموسوس يركز ذهنه ووجدانه على ذاته . ولقد يخشى من احتقار الناس له نتيجة احتقاره لذاته ، فيتخذ موقفاً مضاداً لما يعتدل بنفسه ، فيشدد إحساسه بالكرامة ويكون مرهف الحس بحيث أن أى كلمة عابرة تكون إهانة لا تغتفر ، وبحيث يكون حساساً للغاية بأزاء حركات وإيماءات وتصرفات الآخرين له . فالوسوسة هنا تتخذ صورة أخرى هى الصورة المعكوسة لما يدور بالخلد . فبدل احتقار الذات فإن الموسوس يبالغ فى تقديرها وتعظيمها . ولكأنه فى هذه الحالة كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال حتى لا يراها الصيادون . فالموسوس ينحى عن نفسه ما يحسه بعمق تجاهها .

ولقد يكون الخوف الشديد على قلق الكبار مفعماً أيضاً بالتناقض الوجدانى . فبينما تكون الصورة الظاهرية لسلوك الطفل هى الخوف على الوالدين أو الكبار لأنه يحبهم ، فإن الواقع الوجدانى اللاشعورى قد يكون عكس هذا على طول الخط . ذلك أن الكثير من الكلف ، والكثير من إبداء الحب ، بل والكثير من الطاعة والانصياع تكون شواهد على عكس هذا ، أو

قل إن الصورة السلوكية الخارجية كثيرا ما تكون صورة معكوسة لما يعتمل بالداخل . فالكراهية الشديدة تنعكس إلى الخارج في هيئة حب شديد ، وتمنى الموت والازاحة من طريق الحياة قد يبدو في ظاهرية السلوك على هيئة هلع وخرف على الكبير . ولسنا نغالى إذا قلنا ان الوسواس تسيطر على قلوب الصغار إنما تكون في الواقع أشياء سرية يرغب الوسواس تخبئها وإخفاءها عن الأنظار .

انهيار صرح الأسرة :

ثمة نوعان من انهيار صرح الأسرة : النوع الأول - هدم فعلى ظاهرى وباطنى معا ، ونوع آخر باطنى فحسب مع بقاء الهيكل الخارجى للأسرة قائما . وعلى الرغم من أن البادى للعيان هو أن النوع الأول أكثر تأثيرا في نفسية الطفل ، ومن ثم أكثر قدرة على إصابته بالأمراض النفسية ومن بينها الوسوسة ، فإن الدراسات النفسية الحديثة قد كشفت النقاب عن أن النوع الثانى من انهيار صرح الأسرة ، وهو النوع الذى يتسم بالمنازعات المستمرة بين أفراد الأسرة ، سواء بين الوالدين بعضهما وبعض ، أم بين الوالدين والجد أو الجدة ، أم بينها وبين الأبناء والبنات الكبار ، أم بين الأسرة ككل وبين الجيران ، إنما يكون تأثيره في بعض الأحيان أكثر شدة وضراوة وسوءا من تأثير النوع الأول الذى يكون صرح الأسرة فيه قد تهدم ظاهريا وباطنيا بالفعل . ذلك أن بعض حالات انفصام العرى والتفرق والتباعد المكافئ تكون أفضل بكثير من بعض حالات استمرار هيكل الأسرة قائما من الناحية الظاهرية ، بينما تكون دخيلتها وجوهرها في حالة من التصدع والتزلزل بل وفي حالة من الشقاق وما يتضمنه ذلك الشقاق من إرهاب يخيف الطفل ويشل حركة ذهنه ويحطم سلامة وجدانه ويضرب إرادته بالبلادة أو العجز .

ولاشك أن حالات تمزق أوصال الأسرة جميعا تشكل المناخ المناسب لنشوء الوسواس الوجدانية والوسواس الأدائية . فالطفل الذى يجد نفسه في إطار أسرة مزقة أو متصدعة أو مهددة بالتمزق أو التصدع سرعان ما ينسحب

إلى دخيلته وقد نخم عليه الغم وظل حائرا فى أمره لا يعرف كيف يتصرف .
لأنه يجد نفسه فى مجابهة خيارات لا يستطيع أن يقع على بعضها ويرفض بعضها الآخر .

والواقع أن الطفل الموسوس بسبب حالات انهيار صرح الأسرة يركز بالدرجة الأولى على الجانب الوجدانى . فهو يجد نفسه فى حيرة من أمره . ولعل حيرته تنبدى فى الحكم على أحد والديه أو على والديه جميعاً بالخيرية أو بالشرية . فهو يحار فى الحكم على من حوله بأنهم ظالمون أم مظلومون . فهو يرى أن الوالد هو سبب المشكلات التى تعانى منها الأسرة فى احدى اللحظات ولكنه يجد حكمه قد تغير فى لحظة أخرى ، فيحكم على والدته بأنها هى الظالمة ، بينما يحكم لوالده بأنه لا يقول الا الحق ولا يتصرف الا بما يجب أن يتخذه الوالد الحازم من تصرفات . فأين اذن يقع الخطأ ؟ ومن ذا الذى ينبغي أن يلتقى عليه باللوم كله ؟ إنه يكون هذا مرة وتلك مرة أخرى ، وقد يقف الطفل مكتوف اليدين وهو عاجز عن إصدار أى حكم . فالحيارات الموجودة أمامه متغيرة القيمة دائما ، أو هى زائغة تفلت من قبضته كلما اقترب من خيار منها لكى يلتقى القبض عليه ، ويلقى بالتبعة على الخطيئة . فالصور الذهنية التى رسمها الطفل لوالديه أو لفرد ما من أفراد الأسرة تكون ذات ألوان باهتة لا من حيث هى مدركات ذهنية ، بل من حيث هى ألوان جذابة أو منفرة . فلو أنها كانت ألوانا جذابة أو منفرة أو ألوانا محددة المعالم ، لكان اذن قادراً على الخيار من بينها . ولكن ألوانها المتسمة بها متقاربة أو متداخلة ، أو قل إنها تجذبها جميعا فى لحظة ما ، وتنفره فى لحظة أخرى وذلك لأنها ألوان عقيمة أو مراوغة .

ومن هنا فانك تجد الطفل بالأسرة التى انهار صرحها بالداخل فحسب أو بالداخل والخارج معا ، وقد أصيب بالتناقض الوجدانى المستمر . فهو يحب ويكره نفس الشخصيات . وكل ما يمكن قوله بازاء وجدانه وعواطفه إنه قد بلور وجدانه وصب عواطفه على تلك الشخصيات . فهو لا يستطيع أن يتخذ موقف اللامبالاة الوجدانية بازاء كل أو بعض تلك الشخصيات .

وأنى له أن يكون لامباليا وغير مرتبط وجدانيا وعاطفيا بأى من أفراد أسرته وهو الذى فتح عينيه فوجدهم قبالة ، وقد لقي منهم اللذة والألم ، ووجد فيهم بعض ما يحبه وبعض ما يكرهه ، وقد ارتبطت حياته بحياة كل منهم .

والخطر فى حالة الطفل الموسوس الذى نشأ فى أسرة مهدمة الصرح أنه لا يستطيع أن يتخيل إمكان البعد والانفصال عن أى من أفراد أسرته . إنه قد يلقى الاهانات والزدل من أى منهم ، وقد يضربه الأب أو تضربه الأم ضربا مبرحا ، ولكنه لا يستطيع أن يستغنى عن أى منهما . وعدم استغنائه لا ينبج من أنهما يكفلان له إشباع حاجاته البيولوجية فحسب ، بل ينبج من أنهما يكفلان له إشباع حاجاته النفسية العاطفية . وهل يتسنى له أن يقع على مصدر آخر للحنان يعوضه عما يقدمان إليه من حنان ؟ مهما يكن من شئ ، فان فضلة من حنان يلقيان بها إليه أفضل من لاشئ على الإطلاق ، بل وأفضل من قسوة وازدراء يمكن أن يلقاها من الآخرين وقد تجردوا من كل حنان يسبغونه عليه .

واذا نحن علمنا أن الطفولة لا تعرف النسبية فى الحكم الأخلاقى على الناس ، حيث يكون الفرد الواحد فى الوقت الواحد إما جيدا وإما رديئا ، أو بتعبير آخر إن الطفولة لإطلاقية الحكم ، فاننا ندرك مدى ما تنسم به مرارة الوسوسة يعانى منها الطفل ، وهو يحكم على والده أو على والدته بالخيرية كلها أو بالشرية كلها فى لحظة ما ، ثم ما يفتأ يحكم عليها بعكس ما سبق أن أصدره من حكم فى لحظة أخرى . ومن يدرينا فلعل تلك اللحظات تكون لدى الطفل الموسوس متلاحقة . فهو فى لحظة ما يرى فى أبيه الشخصية الملائكية وفى لحظة تالية يرى فيه الشخصية الشيطانية . وهكذا يكون موقفه من أمه ومن باقى أفراد أسرته . فهو يكون كالبنديل يتذبذب من يمين الى شمال ومن شمال الى يمين الى غير نهاية بغير أن تستقر عاطفته على حال ، وبغير أن يتسنى له اتخاذ موقف وجدانى يتسم بالثبات والاستقرار ، بل وبغير أن ينتهى الى قرار وجدانى لا يريم عنه .

وحال كهذه ترهق الطفل الموسوس أيما إرهاق ، فيحدث ما يسمى بالتوتر النفسى . والطفل المتوتر نفسيا هو إنسان مرهق الفكر والوجدان وقد ماعت ملامح شخصيته لأن أحكامه الوجدانية مائعة . ويكفى للحكم بميوعة الشخصية أن تتصفح ميوعة أحكامها على الناس من حولها وبخاصة الوالدين . وأليس جديراً بطفل كهذا أن يكون موسوسا فى أحكامه على كافة من يتصل بهم من أفراد ؟ الواقع أن هناك ما يسمى بالميل نحو التعميم . فن بؤرة العلاقات بين الطفل ووالديه تنتشر النغمة الوجدانية السائدة بتلك البؤرة ، وهى نغمة متسمة بالتذبذب بين قطبين متنافرين . وهكذا نجد أن الشخص الذى نشأ فى أحضان أسرة منهارة الصرح—وقد ماعت عواطفه وتشتت وجداناته فى أنحاء متباينة فيفتقر الى الحب والتقدير —إنما يظل موسوسا فى علاقاته بجميع الناس . ولعله يفشل أيضا عندما يكبر وتكون له أسرة فتظل علاقاته بشريك حياته وبعد ذلك بأولاده مشوبة بالسوسة الوجدانية ، بل ويظل صريعا تحت وطأة أقدامها .

والواقع أن بعض حالات الوسوسة التى تصيب الأطفال والمراهقين والشبان نتيجة انهيار صرح الأسرة قد تجد لها تعبيرا مباشرا فى سلوك المرء ، بينما قد يتحايل بعضها الآخر للتعبير عن نفسه من خلال وسائل تحتية غير مباشرة . فلقد تظل الوسوسة واضحة المعالم مقروءة الملامح فنقول إن هذه وسوسة عقلية أو أن تلك وسوسة وجدانية أو أن ثلاثة وسوسة أدائية . ولكن فى حالات أخرى تتلبس الوسوسة بمسائل موقفية فتبدو وكأنها سلوك سوى ليس عليه غبار . خذ أمثلة لذلك وقوع بعض المؤلفين فى مصيدة اللوازم اللغوية ، فتجد الواحد منهم يلوك كلمة بعينها أو ينحو إلى استخدام جملة بعينها . ولقد يستملح المستمعون إليه أو قارئو كلامه تلك اللوازم وقد عرف بها لكثرة استخدامه لها . وتكون الحقيقة السيكلوجية للكاتب صاحب اللوازم اللفظية هى استخفاء وساوسه الذهنية فى تلك اللوازم. فلكن الوسواس العقلى يطل برأسه من خلال تلك اللوازم الكلامية .

ولقد تجد شخصا آخر يلبس وسواسه الوجداني صيغة اجتماعية مقبولة ،
 فيصير مدققا جدا فيما يقوله أو يفوه به الآخرون . فيجد في الكلمة النابية
 أو شبه النابية خطرا محققا على المجتمع وعلى جميع القيم المتعارف عليها .
 فيظل صامتا أو شبه صامتا خوف أن يفوهه بكلمة في غير محلها ، كما أنه
 قد يظل مترقبا زلة لسان يقع فيها أحد الموجودين في مجلسه فيقيم الدنيا ويقعدها
 ويقلب المجلس ظهرا لبطن ولكأن القيامة قد قامت . وحقيقة شخص كهذا
 تكمن في وسواسه التي تطل برأسها من خلال شدة تدقيقه مع نفسه ومع
 الآخرين من حوله . ولقد تجد أحد الموظفين وقد صار حرفيا في سلوكه بحيث
 يأتي بنفس الحركات ومتبعا نفس الروتين بازاء العملية الواحدة ، فلا يجرؤ
 على إدخال أى تعديل على مناشطه الوظيفية . ولقد يمتدحه المحيطون به لشدة
 تدقيقه في ترتيب أشياءه وأدواته والتزامه بروتين لا يحدد عنه قيد أنملة .
 ولكنك اذا فحصت مثل هذا الموظف ، اذن لاكتشفت أنه أسير وسواسه
 الأدائي ، ولكنه استطاع أن يلبسه ثوبا اجتماعيا مقبولا أو شبه مقبول .

الضغوط المدرسية :

ألمحنا في الموضوع السابق الى ما قد يصيب الطفولة من توترات نفسية
 بسبب انهيار صرح الأسرة ، سواء كان ذلك الانهيار خارجيا وداخليا ، أم كان
 داخليا فحسب . والواقع أن هناك أسبابا متباينة وممكنة لحدوث التوترات
 النفسية لدى الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين . ولعل من أهم تلك
 الأسباب حاليا ما كان متصلا بالحياة المدرسية وما تتركه به الناشئة من هموم
 دراسية طوال العام ويكللها جميعا ذلك الهم الثقيل المتعلق بالامتحانات وترقب
 ما يمكن أن يؤول اليه من فشل أو عدم توفيق أو إحباط لذات الناشئ
 أو لمن يحيطون به من الكبار وبخاصة الوالدين .

على أننا لا نكتفي بذكر المسئوليات الدراسية التحصيلية المنوطة بالناشئ ،
 بل نرى أن نضيف اليها أشياء أخرى كثيرة تتعلق بالعلاقات الاجتماعية
 المتباينة التي قد لا تكون مواتية في كثير من الأحيان . ولعلنا نجتزئ من تلك
 العلاقات بالذكر ما قد ينشأ من علاقات غير سوية بين الناشئ وبين أترابه

من جهة ، وبينه وبين مدرسيه أو إدارة المدرسة بعامة من جهة أخرى .
فالحياة المدرسية ليست مجرد تحصيل دراسي ، بل هي إلى جانب هذا أيضا
علاقات اجتماعية إما أن يتكيف لها الناشئ أو لا يتكيف لها ، وإما أن يتكيف
هي للناشئ أو لا يتكيف له . فلقد يكون الناشئ بمثابة جسم غريب عن
تلك الجماعات التي تضمه في إطار المدرسة ، فتنبذه وترفضه وتلفظه أو هي
تحاول ذلك ، كما أن المؤسسة التعليمية ذاتها بمجموعاتها المتباينة قد لا تروق
لناشئ فيحاول نبذها والتخلص منها والنأي عنها وهجرانها .

ولسنا ننسى أن العلاقة بين الناشئ وبين المدرسة قد تكون مخوفة
بالخطر يحق به ، فهي تهدد أمنه ، ولا توفر له السعادة في رحابها . لقد
تعصف بأمنه بتلك العقوبات البدنية والنفسية أو باللامبالاة والضرب برغباته
عرض الحائط واعتباره كما مهملا ليس له أية قيمة . وبالطبع فإن من الممكن
أن تحاول المدرسة إيصال الرعب حتى تخدع الطفل بالبيت ، وذلك بأن
تدأب على تحريض الوالدين عليه . فالمدرسة تعنف الوالدين لأنهما لا يراقبان
الطفل بالبيت ، أو لأنهما لا يستخدمان القسوة معه . إنها قد تحضهما على ضربه
وليدائه إذا هو ركن إلى النوم قبل أن ينتهي من واجباته المدرسية . ولقد
تطلب اليها تأديبه لأنه يسىء معاملة زملائه بالفصل ، أو لأنه يهمل في طاعة
المدرسة في أمور أخرى غير الدراسة والاستذكار .

ومعنى هذا في الواقع أن الضغوط المدرسية يمكن أن تلاحق الطفل حتى
بالبيت . فهي تنتشر بعباءتها حتى وهو يرتمي في سريره ليغط في النوم .
ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الضغوط المدرسية يمكن أن تستمر في أعمالها حتى في
أحلام الطفل وفي لاشعوره . فهو لا يستطيع أن ينام نوما عميقا بغير أن تهزه
تلك الضغوط في أحلامه المزعجة . ولقد نجد الناشئ وقد صار شخصية
مهزوزة جبانة هيابة بسبب ما ترسب في أعماقه من مخاوف تظل مخبئة في
طياته ولكنها تطل برأسها في تصرفاته وفي كلامه الموصوم بالتهمة والتردد
والارتعاش أو فيما يديه من حركات وإشارات وأوضاع جسمية في وقوفه
وجلسه ونومه .

والواقع أن الضغوط المدرسية بأنواعها المتباينة وتشعباتها الكثيرة وإرهاقها للطفولة والمراهقة والشباب إنما تؤدي إلى نشر داء الوسوسة في حياة الناشئة . ونستطيع أن نشاهد مجالات كثيرة في حياة الناشئ تتبدى فيها الوسوسة . ولعلنا نلخصها فيما يلي :

أولاً — وسوسة تتعلق بالاستذكار . فلقد تجد الناشئ وقد أخذت فكرة أو مسئولية الاستذكار أو الاحساس بالخوف أو الانقباض أو الكراهية يحس بها بازاء الاستذكار في حد ذاته وقد تسلطت عليه لا تريم عنه طوال الوقت. فهو لا يذاكر بالفعل ، ولكن شبح الاستذكار يطارده ليل نهار . ولكأنه قد انحبس في اطار به خياران اثنان لا ثالث لهما : الخيار الأول — أن يشق عذاب الدروس فيلتهمها التهاما ، والخيار الثاني — أن يضرب بالاستذكار عرض الحائط ولا يعيره أى اهتمام . ولقد تشاهد التذبذب بين هذين القطبين المتنافرين بين لحظة وأخرى من لحظات حياة الطفل أو المراهق أو الشاب . فهو في لحظة تأخذه الحماسة للاستذكار ، ولكنه ما يفتأ أن يفتر وتذبل حماسه التي كانت متوجهة كما لو أنه سوف يلتهم جميع الدروس في لحظة واحدة .

ثانياً — وسوسة تتعلق بموقفه بين زملائه من الناحية الدراسية . فهو يخشى أن يلقي التحقير من مدرسيه وزملائه على السواء . ولقد تخيم عليه هذه الفكرة فلا يستطيع التخلص منها أو التخفف من وطأتها .

ثالثاً — وسوسة تتعلق بالتصرف الذى يتخذه اذا ما قوبل بالاستهجان والتحقير من جانب مدرسيه وزملائه . وهنا نجد خيارين : الأول — الرضوخ للأمر الواقع والاستسلام ومحاولة أخذ المسألة ببساطة أو حتى بالضحك أو الابتسام ، والثانى — مقاومة هذا الوضع والثورة عليه ومقابلة الاهانات باهانات مثلها . على أن الناشئ الموسوس لا يستطيع فى الواقع أن يحسم أمره وأن يقع على واحد من هذين الاختيارين وينبذ الاختيار الآخر . إن فكره يظل كبندول الساعة يتأرجح بين هذين الاختيارين فى نطاق ذهنه وما يرتبط بكل منهما من وجدانات متباينة أو حتى متضاربة .

رابعاً . وساوس تتعلق بالتهديدات التي تلاحقه حتى في سريره بالبيت . فهو يجد نفسه أمام خيارين أيضاً : أحدهما الوقوع تحت وطأة تلك المخاوف في استسلام ورضوخ ، والثاني – مناهضة تلك المخاوف وإحالة شحنة الخوف الى شحنة غضب وثورة وهياج ومقاومة وشق عصا الطاعة . فلماذا لا يقبل المائدة على رؤوس أولئك الذين يريدون قلبها عليه ؟ ولماذا لا يشكل من نفسه موضوعاً للخوف أولئك الذين يخفونه ؟ ولكن هل يختار الموسوس واحداً من هذين الخيارين ؟ إنه لو فعل ذلك لما نعت لإذن بالموسوسة . ولكنه يظل حائراً بينهما لا يقر له قرار ، ولا يجد له مخطأ يحط عليه . فهو متقل ومتذبذب بين هذين الخيارين ليل نهار وفي وقت يقظته ونعاسه على السواء .

خامساً – وساوس تتعلق بالامتحانات ونتائجها وما يمكن أن يترتب عليها من نجاح أو فشل في الحياة برمتها . وهنا أيضاً نلاحظ أن الناشئ يرسم لنفسه صورتين متباينتين تمام التباين . فهو في لحظة ما يتخيل نفسه في قمة النجاح ، وفي لحظة أخرى يتخيل نفسه في حضيض الفشل . على أن الموسوس لا يستطيع أن يرسم بعقله على واحد من هذين الميناءين . فهو لا يستطيع أن يظل متخيلاً نفسه في أوج النجاح ، ولا أن يظل متخيلاً نفسه في الحضيض والفشل الدريع . ومن الطبيعي أن هذا التقلقل بين هذين القطبين المتنافرين يؤدي إلى فساد نفسيته وضعف جودانه واصابته بعدم الاستقرار الانفعالي ، وذلك بسبب تشتته بين قطبين متنافرين ، هما قطب النجاح وقطب الفشل . ولسوف نعود في الموضوع القادم لهذا الوسواس في معرض حديثنا عن التهديد بالمستقبل الفاشل .

ولعلنا نتساءل بعد هذا : من المسئول عن الضغوط المدرسية ينوء بها كاهل الطفل والمراهق والشاب من الجنسين ؟ قد يقول قائل : إن المسئول هو المدرسة بلا شك . فهي التي تضم الطفل والمراهق والشاب في رحابها ، وهي التي تحمله أثقال المواد الدراسية وتشل حركته فكره وحريته ، وتقيد ذلك الفكر بشكائم الواجبات المدرسية ، بل إنها هي التي تعامله معاملة رديئة وتؤذيه في بدنه ونفسه بما توقعه عليه من عقوبات بدنية ونفسية . وهي أخيراً

التي ترهبه بالامتحانات وتضع سياسة لتقويم أعمال التلاميذ والطلاب وتحكم على واحد بالنجاح والارتقاء الى صف أو مرحلة دراسية جديدة ، بينما تحكم على آخر بالرسوب أو حتى بالطرد من المدرسة أو بعدم استمرار الدراسة بالمرحلة الدراسية التي يرغب في الانخراط فيها . فهي المؤسسة التي تعوق تحقيق رغبات الناشئة .

بيد أن المدرسة سرعان ما تلقى باللائمة على البيت متهمة الوالدين بالتوتر النفسى تغلف به حياة الطفل وتزيد الضغط عليه . وأكثر من هذا فان المدرسة بما فيها من مدرسين كثيرا ما تقع تحت ضغط البيت . أليس من المشاهد اليومية زيارة الوالدين للمدرسة وقد حملا الشكرى من الابن أو البنت ، وأخذوا في مطالبة المدرسين بأخذهما بالشدة واستخدام الضرب لتنبيهما إلى خطورة الموقف وحملهما عنوة على متابعة ما تقدمه المدرسة من دروس بالبيت ؟ ومهما يكن من شئ فلا شك أن المسئولية تتوزع منصفة بين المدرسة والأسرة فيما يصيب الناشئة من وساوس متباينة .

التهديد بالمستقبل القائم :

قلنا إن الضغوط المدرسية تتضمن جوانب متباينة من ضمنها إشاعة الخوف في قلوب الناشئة مما سوف يحمله لهم المستقبل من فشل وفقر وضياح إذا هم لم يجتهدوا في دراستهم ، وإذا لم ينصاعوا لما ترسمه لهم المدرسة من طرائق سلوكية وما تقرره من مناهج يأخذون بها أنفسهم في الحياة . وحرى بنا في هذا المقام أن نفتق هذا الموضوع من جوانب المتباينة حتى يتكشف لنا التهديد بالمستقبل القائم يصدر عن الأسرة والمدرسة في علاقته بشيوع الوسوسة في شخصيات الأطفال والمراهقين والشبان من الجنسين .

ولعلنا نبدأ بالتساؤل عما يقصده الكبار المسئولون عن الناشئة بتهديداتهم لهم بالمستقبل القائم . هناك في الواقع عدة أسباب أو عدة أهداف يرغب الكبار في تحقيقها في سوقهم لهذا التهديد الى أبنائهم أو تلاميذهم . وتتلخص هذه الأسباب فيما يلي :

أولاً - قد يستهدف الكبار من تهديدهم للناشئة بالمستقبل القاتم حثهم على بذل جهد أكبر مما يبذلونه بالفعل . فعندما يشاهد الأب أو تشاهد الأم ابناً أو ابنتها في حالة من الاسترخاء والتراخي والتهاون ولعب وإهمال الدروس ، فإنهما يحاولان قلب حالة الأبن أو البنت من الاسترخاء إلى التوتر ، ومن الاطمئنان إلى الاحساس بالخطر ، ومن التواكل إلى الاهتمام .

ثانياً - قد يستهدف الكبار من تهديدهم ذلك معاقبة الطفل أو المراهق أو الشاب لإتيانه تصرفات أو استخدام له ألفاظ وعبارات أغاظت أو جرحت مشاعر أحد الكبار . فهنا نجد أن التهديد بالمستقبل القاتم بمثابة أداة انتقامية يتلذذ بها الكبار لكسر جبروت وعتو الناشئ ووقفه عند حده بغير أن يتطاول أو يزيد من تطاوله وتحديه لسلطة الكبار .

ثالثاً - قد يكون تهديد الكبار للصغار بالمستقبل القاتم قائماً على أساس التعبير عما يساور أولئك الكبار من قلق بالغ ألم بهم وشاع في أنحائهم وأخذ بهم كل مأخذ . فهم يسقطون على أبنائهم أو الصغار من حولهم ما يعتمل في قلوبهم من مخاوف ترهبهم هم ، فيحاولون نقلها إلى الصغار لأنهم يعتقدون أن المنقذ لهم من تلك المخاوف هم أولئك الصغار إذا هم اجتهدوا في دراستهم فأثبتوا بذلك بطلان تلك المشاعر المعتملة في عقولهم وقلوبهم فتتقشع سريعاً .

وهناك في الواقع مناح متباينة يمكن أن ينحو إليها الكبار في تهديدهم للصغار بالمستقبل القاتم . فهناك إلى جانب المستقبل العلمي نفسه وهو الذي يعنى النجاح في الامتحانات بعد استيعاب ما تقدمه المدرسة من مناهج وما تكلف به الصغار من واجبات مدرسية ، المستقبل الاقتصادي حيث يكون هناك هدف - ربما يكون هو الهدف الأساسي لدى كثير من الآباء والأمهات - هو الحصول على عمل عن طريق الحصول على المؤهل الدراسي . فلكن المؤهل الدراسي بمثابة وسيلة لبلوغ غاية أخرى هي الحصول على الوظيفة التي تدر ربحاً ثابتاً كل شهر . بيد أن الكسب المادي ليس كل شيء . فهناك في أذهان الناس مثل اجتماعية يجلسونها ويصبون إليها . فالطبيب أو الجيولوجي له

وضعه المرموق في أنظار الناس أعلى مقاما من وضع السباك أو النجار أو أى حرفي آخر مع أن الحرفيين يربحون أموالا طائلة تفوق ما يمكن أن يربحه الطبيب النطاسي أو الجيولوجي العالم بطبقات الأرض . والناس يحترمون وييجلون النجوم وأصحاب الشهرة والمتفوقين في المجالات المتباينة .

وثمة أيضاً مستقبل آخر يهتم به كثير من الكبار هو المستقبل الأخلاقي . فالسمعة الطيبة ونمو تلك السمعة وارتقاؤها وذيوها ذيوها حسنا بحيث يثني معظم الناس على المرء، لى أيضاً ضمن الآفاق المستقبلية التي يأخذها الكبار في اعتبارهم . وطبيعي أن يكون المستقبل الصحي أيضاً ضمن تلك الآفاق المستقبلية التي يضعها الكبار في اعتبارهم بالنسبة لأبنائهم وبنايتهم . فهم يرجون لأبنائهم دوام الصحة بل ويرجون لهم اللياقة البدنية بحيث يتسنى لهم ممارسة كافة أنواع النشاط المطلوبة منهم على خير وجه . ولعلنا نجد أن الكبار يهددون الصغار بالمستقبل القاتم في جميع الانحاء السابقة في موقف أو أكثر من المواقف اليومية .

وليس من شك في أن الإنسان - كل إنسان - بحاجة لازية إلى قدر معين من التهديد يجعله على قدر معين من التوتر العصبي المعقول . ذلك أن الاسترخاء التام - شأنه شأن التوتر الشديد - فكلاهما مثبط للهمة ومفض إلى الفشل في الحياة . والتهديد الذي نقصده - وهو التهديد المفيد - له شروط يجب أن تتوافر به حتى يكون تهديدا ناجعا للناشئة :

أولاً - يجب أن يكون التهديد بالمستقبل القاتم في توازن تام مع التشجيع والاستبشار بالمستقبل الباسم ، بمعنى أن يقال للناشئة إن فرص النجاح والتفوق متاحة لهم لأنهم يتمتعون بقدرة عالية في الذكاء ولأنهم لا يقللون عن زملائهم الناجحين المتفوقين . ويقال لهم في نفس الوقت إن إهمال القدرات العقلية يضيعها ويجعل من الشخص إنسانا متخلفا عن أترابه . فإذا ما زادت كفة التهديد كان اليأس ، وبالعكس إذا ما زادت كفة الثناء والامتداح كان اذن التواكل والغرور الأجوف .

ثانياً - يجب أن يكون استخدام سلاحى التهديد والتشجيع بقدر وبغير مغالاة ، بل إننا نميل إلى القول بأن الإقلال من هذين العنصرين أفضل من الإكثار منهما والمبالغة فى استخدامهما .

ثالثاً - يجب أن يأخذ الكبير حالة الصغير أو الناشئ لا كما يريد الكبير أن تكون أو كما يتخيل ، بل كما هى فى الواقع . وعلى هذا يقدم التهديد أو التحذير أو التشجيع والثناء . فليست هناك قاعدة أو إطار عام ينصب فيه جميع الناس بالتساوى . فثمة فروق فردية بعيدة المدى بين الناشئة . فهناك مثلاً بعض الناشئة لا يرغبون فى تدخل الكبار فى شئونهم من قريب أو من بعيد . فهم لا يرغبون فى أن يسمعو تشجيعاً أو تهديداً من الكبار . فهم يرغبون فى العمل وممارسة حياتهم بعيداً عن ضغوط الكبار أيا كانت .

والواقع أن الكثير من الوسوس التى تستولى على الناشئة يكون مصدرها لإساءة استخدام التحذيرات والتهديدات يفوه بها الآباء والأمهات والمعلمون فيلقون بها على عواهنها بغير أن يوظفوها التوظيف الصحيح فى المواقف المتباينة ، وبغير أن يلقوا بالهم إلى ما يمكن أن تؤدى إليه أو أن تؤثر به فى عقول وقلوب الناشئة . ولعلنا نتساءل عن الكيفية التى يتم بها نشوب الوسوس فى نفوس الناشئة بسبب الكبار .

هناك أولاً - الحالات التى يؤكد فيها الكبار أن الفشل قد وقع بالفعل ، وأن المستقبل القاتم السدى كان مخشى منه قد صار حاضراً وواقعاً ، فلا حاجة إذن إلى ترقبه أو توقعه أو الخشية من حدوثه لأنه صار بالفعل واقعاً بائناً لا يحتاج للتدليل عليه أو استنتاج حدوثه فى المستقبل . فهذا الموقف يتخذه الوالدان أو المعلمون يمكن أن يقضى على كل أمل يساور الناشئ فى فتح باب الأمل فى مستقبل يغير من ملامح توقعات الكبار .

هناك ثانياً - الحالات التى يكون الطفل أو المراهق أو الشاب قد فشل فيها فيعمم فى ضوءها على جميع الحالات المستقبلية . فيستدل الكبار على المستقبل برمته بناء على شواهد الحاضر الضئيلة . وطبيعى أن الناشئ يحس بأن

استنتاجا كهذا من جانب الكبار صحيح لأنهم كبار ولأنهم يفهمون أكثر منه. فكيف يستطيع أن يتوقع لنفسه نجاحا فيخالف بذلك عما يتوقعه له الكبار ؟ فهو اذن يرتقى في حمة اليأس ولا يحاول من جديد . ومعنى هذا بتعبير آخر ارتماؤه في أحضان الوسوسة وقد صارت فكرة اليأس من المستقبل الباسم هي السائدة على شخصيته .

هناك ثالثا — تخيل الكبار أن عيوب الطفولة إنما هي صورة مصغرة لعيوب الأعمار التالية لنفس الشخص . فاذا ما ضبط طفل وهو يسرق شيئا استهواه من زميل له بالمدرسة ، فان الوالدين أو المعلمين يعتقدون أن ذلك الطفل السارق سوف يكون زعيم عصابة في المستقبل . وكذا اذا ما غضب أحد الأطفال فاعتدى على طفل آخر فجرحه في يده فإن الكبار يمكن أن يسارعوا إلى التعميم ، فيذهبوا إلى أن ذلك الطفل سوف يكون مجرما عاتيا وقتلا قاسيا في المستقبل . ولقد أثبتت الدراسات التتبعية لكثير من الأطفال الذين ظهرت في سلوكهم بعض الانحرافات أن ما يبدو في سلوك الطفل خلال طفولته لا يكون بالضرورة صورة مصغرة لما سوف يكون عليه حاله في المستقبل . وهذا ينطبق على الخير والشر جميعا . فكثير من الأخيار كانوا منحرفين في طفولتهم ، كما أن كثيرا من الأشقياء كانوا على خلق طيب في طفولتهم . وبتعبير آخر فان قياس مستقبل الطفل على حاضره خطأ بالغ واستنتاج سقيم . بيد أن تصميم الكبار من حول الطفل على أن مستقبله سيكون قائما لأن حاضره الطفلى به بعض الانحرافات ، إنما يصيب شخصية ذلك الطفل المنحرف بما يسمى بثبوت أو رسوخ السلوك المنحرف ، وقد استولى عليه الوسواس المتعلق به •

الفصل الخامس عشر

العلاج النفسى للوسوسة

العلاج بالترويح والرحلات :

علينا أن نذكر دائما أن هناك ثلاثة أنواع من الأمراض النفسية : فهناك أولا أمراض تنتج أساسا عن خلل عضوى يتعلق بالمخ أو بفساد أصاب بعض الغدد الصماء كالغدة الدرقية أو الغدد التناسلية . أما النوع الثانى — فهو الأمراض الوراثية التى يرثها المرء عن أسلافه القريبين أو البعيدين على هيئة استعدادات تستحيل إلى واقع سلوكى عندما تجد الفرص المتاحة والظروف الملائمة لظهورها . والنوع الثالث—هو النوع الوظيفى الذى ينجم أساسا عن انتهاج خط سلوكى خاطئ أو عن خروج عن الخطوط السلوكية المتعارف عليها من جانب المجتمع الذى يعيش المرء فى إطاره .

ويهمنا فى هذا المقام أن نقرر أن الوسوسة كمرض نفسى إنما تنتمى إلى هذا النوع الأخير من الأمراض النفسية . فالوسوس لا يرث وسواسه عن أسلافه ، ولا يصاب بالوسواس نتيجة إصابة بالمخ ألت به أو نتيجة فساد فى غده الصماء . ولعلنا نقول إن العامل التربوى فى ظهور الوسوسة بسلوك المرء يشكل الدعامة الأساسية أو أن له نصيب الأسد فى ظهورها . ولقد بنى بالقول بأن امتناع توافر العوامل التربوية تحيط بالمرء منذ الطفولة ، يحول دون ظهور الوسوسة على سطح الشخصية ، فلا تبدى فى فكره أو فى وجدانه أو فى تصرفاته المتباينة .

والواقع أن الأمراض النفسية التى تقع فى إطار النوع الثالث — وهو ما يمكن أن نسميه بالأمراض النفسية التربوية أو الوظيفية — لا تعالج إلا عن طريق التأثير الاجتماعى فى الفرد المصاب بها . فليس بمجد أن تستعين

على معالجة الأمراض التربوية أو الوظيفية بالتأثير في الكيان البيولوجي للمرء . فالوسوسة - مثلا - وهى تقع فى إطار هذا النوع من الأمراض النفسية-لا تجد لها علاجا فى الأقراص الطبية المهدئة ، كما أنها لا تجد لها علاجا باجراء عمليات جراحية بالمخ أو بالتأثير فى الغدد الصماء وما تقوم بفوازه من هورمونات . والعلاج الوحيد الممكن هو البحث عن مؤثرات تربوية جديدة تعمل عملها فى علاقات المريض بالآخرين .

ولعل من أهم وسائل العلاج النفسى خرط المريض فى جو مرح يخفف من الضغوط النفسية المعتملة بدخيلته ، والانتقال به إلى أماكن بعيدة عن المجال الاجتماعى الذى يقطن به . وعلينا فى الواقع أن نقدم الأسس التى يركز عليها العلاج بالترويح والرحلات ، وهى تتلخص فيما يلى :

أولا - التخفيف من الآثار المكدرة للوساوس . ذلك أن وسائل الترويح والرحلات تشيع البهجة فى النفس وتدخل عناصر جديدة مثيرة للانتباه وتنشط الذهن وتخفف من المكدر الذى يتسم به الموسوس غالبا .

ثانيا - إن المقومات الإدراكية التى يتضمنها الترويح والرحلات تجذب انتباه الموسوس الى نطاق أو الى نطاقات إدراكية جديدة تشغله عما يستولى عليه من وساوس .

ثالثا - تتضمن مجالات الترويح والرحلات إقامة علاقات اجتماعية متباينة . فهى تخرج بالموسوس من حالة الانغلاق الاجتماعى الى حالة التفتح الاجتماعى . فمن الملاحظ أن الكثير من الرساوس تنشط وتسيطر على الشخص نتيجة بعده عن الناس ، أو نتيجة ضعف العلاقات الاجتماعية بالآخرين . والواقع أن مجالات الترويح والرحلات كثيرا ما تضم أشخاصا لم يسبق أن شاهدتهم الموسوس أو لم يقيم معهم علاقات اجتماعية سابقة . ومن ثم فإن الموسوس ينسلخ من وساوسه لى يقيم علاقات اجتماعية جديدة . وعلى هذا فإن العلاقات الاجتماعية الجديدة تعمل على تحريك العلاقات الاجتماعية القديمة وكسبها لصفة الجدة . ولعلنا نشبه الموقف هنا بالنهر الذى يلتقى فى مجراه الجديد

بركة من المياه الآسنة فيدفع بمياهها الفاسدة ويجدد لها بل ويحيل مضمونها
المائى إلى مضمون جيد ، وذلك بأن تستحيل مياهها الآسنة إلى مياه جيدة
نقية وصالحة للاستعمال البشرى والحيوانى على السواء .

رابعا - فى المواقف الترويحىة والرحلات نجد أن ثمة عنصرين من عناصر
التأثير الهامة تسود الموقف : العنصر الأول هو الإيحاء ، والثانى التقليد .
فالموقف الترويحى والعلاقات الاجتماعية التى تنتشر وتشيع بين أفراد الرحلة
يتضمنان هذين العنصرين الأساسيين من عناصر التأثير النفسى . ولعلنا نجتمع
هذين العاملين فى عامل واحد ، فنقول إن الإيحاء هو تقليد وجدانى ، وأن
التقليد هو إيحاء عملى أو تصرفى . فعندما يختلط الموسوس بالآخرين من أفراد
غير الموسوسين فى تلك المواقف ، فانه يصطبغ بصبغتهم ويستشف ما يحملونه
من صيغ ويحيلها إلى سلوك داخلى ، كما أنه يقلد ما يمارسونه من تصرفات .
وبذا فان وسوسه تقل فى قوتها ولا تظل على حالها من السيطرة على عقله
ووجدانه .

خامسا - يعمل الترويح والعلاقات الاجتماعية بصفة عامة على تنشيط
الذهن وعلى تحريك الوجدان . والواقع أن الوسواس يمثل حالة خلود ذهنى
وجمود وجدانى . فطالما أن العلاقات الاجتماعية التى تتضمنها العلاقات
الترويحىة والرحلات تنشط الذهن والوجدان ، فانها تحيل عقل الموسوس
ووجدانه الى عقل ووجدان غير آسنين وذلك بتخصيبها وتنشيطها وبالتالي
فانه يتخلص من الوسوسة .

وجدير بنا أن نستعرض بعض الأمثلة للترويح والرحلات التى يتسنى
بواسطتها ممارسة العلاج النفسى . فهناك أولا - حفلات السمر ، وهى
الحفلات التى تتسم بالثقائية والمشاركة العفوية من جانب المشتركين فيها
جميعا بغير استثناء أى واحد منهم . ويكفى فى حلقة السمر اجتماع مجموعة
مؤلفة من الأشخاص المتقاربين فى السن والثقافة والمزاج والميول الطبيعية فى
مكان ما . ونحن ننصح بعدم اشتراك الكبار مع الصغار فى حفلات السمر ،

وذلك لأن وجود أولئك الكبار قد يكون عائقا يقف حجر عثرة أمام انطلاق الموسوسين في التيار الدافق الموجود والمتوافر بحلقة السمر . على أن من الضروري أن تضم حلقة السمر بعض الشخصيات المرحية من الأتراب ، وهم أولئك الأشخاص الذين وهبوا قدرة على إثارة الضحك وعلى إثارة الموجودين بالابتهاج والغبطة بما يقدمونه من ألعاب وبقدرتهم على إقامة علاقات اجتماعية جديدة ، وعلى حمل المنزوين بعيدا عن الباقين على المشاركة فيما يجرى من مناشط وألعاب .

وهناك ثانياً — الأفلام المرحية وأفلام المغامرات . ذلك أن مشاهدة الفيلم المرح ، وكذا مشاهدة أفلام المغامرات ، تحمل المشاهد على التلبس بصيغ سلوكية جديدة . ولعلنا نؤكد بصفة خاصة على تلك الأفلام التي تتضمن فكرة التحدي والاستهتار بالتقاليد البالية أو الأوضاع الروتينية الجامدة ، أو التي تتضمن تحديا للعتاة وانتصارا على المتجبرين من جانب شخصيات ضعيفة لم يكن يعتقد أنها تستطيع الانتصار على الأقوياء . والواقع أن أفلام المغامرات تجعل الموسوس يتحدى لاشعوريا مخاوفه ومضايقاته ، بل تحمله على التجاسر بتحديها وضربها في الصميم .

هناك ثالثاً — ممارسة الترويح في أثناء الرحلات البعيدة . فبالإضافة إلى ما تتضمنه الرحلة من ترويح ، فإن التخلص من قيود المكان وركوب وسائل المواصلات السريعة ومشاهدة معالم جغرافية جديدة ، إنما يساعد على التخلص من الوسوس العقلية والوجدانية والأدائية ، ناهيك عن أن ترك المكان الذي اعتاد المرء ممارسة وساوسه في إطاره فيتبدل ليتبدل ليحل محله مكان آخر ، فإن المكان الجديد لا يشجع على استنهاض الوسوس وإثارتها ، بل بالعكس فإنه يساعد على إطفاء جذوتها وبتر أطرافها والقضاء على قوتها .

وهناك رابعاً — الحفلات الرياضية الترويحية . ذلك أن هذا النوع من الرياضة لا يتطلب توافر شروط تتعلق باللياقة البدنية أو بمعرفة أصول اللعبة أو التمرس بها والتحكم من ممارستها ، بل يتطلب شيئا واحدا هو الممارسة ذاتها من جانب أشخاص لا يتمتعون جميعا بلياقة بدنية ولا يعرفون جميعا قواعد

اللعبة ، ولا يتمكنون جميعاً من ممارستها ممارسة جيدة . من ذلك مثلاً مشاركة جميع القائمين بالرحلة في الكرة الطائرة أو كرة القدم . ولكن يجب أن نضع شرطاً واحداً هو التزام الجميع بعدم إبداء أى علامة من علامات السخرية بأحد اللاعبين وتشجيع الجميع على إبداء أكبر قدر من النشاط . ومثل هذه المناشط الرياضية تفيد في حالات نفسية متعددة بضمنها حالات الوسوسة وهى تندرج في باب الترويح وليس في باب الرياضة البدنية . فبمجرد مشاركة الموسوس في النشاط والحركة فإنه يتخلص بالتالى من قدر كبير من وساوسه وهمومه النفسية .

التدريب المباشر :

إذا لم يؤد العلاج بالترويح والرحلات الى العلاج الناجع بحيث يتخلص الموسوس من وساوسه ، فإن عليه أن يستعين بالتدريب المباشر، سواء كان هو المدرب لنفسه ، أم استعان في ذلك بغيره وخضع لمباشرة أحد الاختصاصيين النفسيين في هذا الصدد . وعلينا بادئ ذي بدء أن نحدد مفهوم التدريب المباشر حتى يتسنى لنا معرفة وسائل التطبيق المتباينة التى يمكن عن طريقها التخلص من الوسواس ويتكون التدريب المباشر مما يلى :

أولاً — تحديد نوع الوسواس الذى أصاب المرء تحديداً دقيقاً . وهذا يتطلب من الشخص الموسوس أن يكون أميناً مع نفسه في تحديد نوع الوسواس الذى ألم به . ولقد يكون من المناسب أن يقوم المعالج — أو بتعبير أدق الموجه النفسى — باستخدام آلة التسجيل الصوتى لهذا الغرض ، وأن يتيح الفرصة له للتعبير عن كل ما يساوره من أفكار ومشاعر بانطلاق وعدم تحفظ . وهذا يستلزم الثقة التامة من جانب الموسوس في المعالج ، بل ويستلزم التأكد من أنه شخص جدير بالحفاظ على أسرارهِ . ويسير التسجيل وفقاً لمبدأ تداعى الأفكار ، ولا تكون مهمة الموجه النفسى الا إثارة الموضوعات لمساعدة الشخص على الإفاضة بما اختزن في نفسه من أفكار وانفعالات . ويستطيع الموجه النفسى الوقوف على البؤرة الوسواسية التى تتمركز في عقل وقلب

الموسوس من سياق الحديث المسجل . وهذا لا يتأتى له الا بمعاودة الاستماع إلى الكلام الذى سجله فى عدة جلسات متباعدة نسبيا .

ثانيا — ملاحظة الشخص الموسوس بغير علم من جانبه وذلك من سياق سلوكه وحديثه وتصرفاته وانفعالاته .

ثالثا — بعد أن يتم تحديد الوسواس يقوم الموجه النفسى بتنفيذ خطوات التدريب المباشر وذلك بتوسيع المجال الذى ينحصر فيه الوسواس . والموقف هنا يشبه عملية توسيع الملابس الضيقة التى تضايق المرتدى لها فيحس بالراحة نتيجة ذلك التوسيع .

ولنأخذ مثالا عمليا للتدريب المباشر بالشخص الذى تسيطر عليه نغمة موسيقية معينة ليل نهار بحيث يضجر من سيطرتها عليه واستعبادها له . إن التدريب المباشر يكون بتناول نفس تلك النغمة التى تشكل الوسواس وادخال تعديلات لحنية عليها بحيث تتدرج التعديلات اللحنية من أكثرها قربا من اللحن الأصيل إلى أكثرها بعدا عنه . ويقوم الموجه النفسى الذى يكون قد طلب مساعدة أحد الموسيقيين القادرين على تطوير اللحن الوسواسى وقد قام بتسجيل الألحان المعدلة حسب تباعدها التدريجى عن اللحن الأصيل على شريط تسجيل . وعند بدء جلسة التدريب المباشر يقوم الموجه النفسى بتقديم اللحن الأصيل كما هو مسيطر على ذهن الموسوس ، ثم يقدم بعد ذلك أول لحن معدل ثم يقدم اللحن الثانى فالثالث فالرابع فالخامس الى آخر الألحان المعدلة والمنبثقة من اللحن الأول :

والواقع أن توسيع اللحن — إذا صح التعبير — يعنى فى نفس الوقت زلزلة بنائه اللحنى كما ارتسم فى ذهن الموسوس وسيطر على وجدانه . ولا شك أن إدخال أى تعديل على الصورة الوسواسية يؤدى الى فقدان قوتها . على أن من الضرورى معاودة التدريب المباشر فى أيام متتالية . ونستطيع أن نتنبأ بأن الوسواس اللحنى ذاك سوف ينقشع تماما بعد خمس جلسات تدريبية على الأكثر ، وقد لا يتطلب الأمر الا ثلاثة جلسات تدريبية فحسب .

ولنأخذ مثالا آخر وهو في هذه المرة يتعلق بوسوسة أدائية تتمثل في الاستمرار في الاغتسال خوفاً من الإصابة بالمرض من ميكروبات موهومة. إن المبدأ التدريبي كما قلنا هو العمل على توسيع المجال فتضييع الصورة الجامدة للوسواس : فالصورة المرضية للاغتسال تتمثل في استمرار غسل اليدين بالماء والصابون مع استعمال فرشاة تدمى الجلد . فكيف السبيل إلى توسيع الأداء حتى يضييع تماسك الوسواس . لقد يطلب الموجه النفسى إلى الوسواس بهذا الأداء الأدائى أن يقوم بغسل قدميه بالماء والصابون بعد كل مرة يقوم بغسل يديه . وفى جلسة التدريب المباشر يتأمل الموجه النفسى مكان الاغتسال والأوانى المستخدمة فى ذلك ، ويحاول ادخال توسعات أيضا فى هذا الباب . فإذا كان الوسواس يقوم بالاغتسال أمام حوض معين ، فإن الموجه النفسى يطلب إليه استخدام بعض الأوانى لهذا الغرض . وبدل أن يكون الماء بارداً يكون الماء المستخدم ساخناً ، وبدل أن يتم الاغتسال فى مكان بالذات تتعدد الأماكن . وبدل قطعة الصابون يستخدم مسحوق الصابون . ولا يسمح الموجه النفسى بأن تصير التغييرات التى أدخلها نمطية ، بل عليه بادخال تعديلات مستمرة وصغيرة جدا ، فيتأتى عن ذلك زلزلة الأساس الذى يقوم عليه الوسواس الأدائى : ولا شك أنه بعد فترة قصيرة يتساقط الوسواس ويبتل سلطانه وتضعف سيطرته على المرء ويتلاشى فى نهاية الأمر .

ولنأخذ مثالا ثالثا ، وهو فى هذه المرة يتعلق بالوسوسة الوجدانية . لقد يجد أحد الأشخاص نفسه فجأة وقد طفت على سطح وجدانه عاطفة جياشة نحو شخص فارقه بالموت أو بالحياة منذ فترة طويلة . لقد يكون ذلك الشخص فى طور الشباب ، ويكون تعلقه الطارئ بذلك الشخص المفارق له قد حدث فى طفولته . فهو يحس بالألم يعتصر نفسه بسبب ذلك الفراق . وفى معظم حالات الشوق المفاجئ للشخص الغائب يكون الشخص الآخر من الجنس المقابل ، وتكون ثمة علاقة حب وغرام قد ربطت بين الشخصين . ولكن الواقع حال بينهما فانقطعت الصلة بين الحبيين . ولقد يشتد الحنين ويصير فكرة — أو بتعبير أدق — عاطفة مهيمنة على الشخص . ويكون نتيجة ذلك

فقدان الشهية للطعام وشروء الدهن المستمر وتجنب مخالطة الناس والانصراف عن أداء الواجبات الاجتماعية والوظيفية وعدم الاقبال على الاطلاع ولا على وسائل الترفيه . فإذا يمكن أن يعمل التدريب المباشر في مثل هذه الحالة ؟ إننا نقول أيضاً بمبدأ التوسيع الذى قررناه في صدر هذا الموضوع . على أن التوسيع المطلوب هنا ليس توسيعاً في الأداء ، بل هو توسيع في بؤرة الحب بحيث أن كل اتساع يقع في تلك البؤرة يؤدي إلى التخفيف من تركيزها . فعلى المدرب أو الموجه النفسى هنا أن يقوم بتوسيع دائرة التعلق العشقى بدءاً من البؤرة وليس من خارجها . فعليه أولاً أن يحدد ملامح وهيئة المحبوب بصفة عامة وذلك عن طريق عرض مجموعة من الصور أو الدمي أمام الشخص الموسوس وسوسة وجدانية إلى أن يقع على أقرب صورة أو على أقرب دمية تشبه الحبيب المفقود . وبدءاً من تلك النقطة يبدأ التوسيع الوجدانى . فنفس الصورة التى وقع اختيار العاشق الموسوس عليها تكون نقطة انطلاق التغيير أو التوسيع فيطلب من أحد الرسامين أو النحاتين رسم أو نحت مجموعة من الصور أو مجموعة من الدمي تشبه الصورة أو الدمية المختارة مع ادخال تغييرات طفيفة بحيث تزايد تلك التغيرات في ترتيب الصور أو الدمي . فترتيب الصور والدمي يتواكب مع زيادة التغيرات أو التعديلات من حيث الملامح والقسمات .

ومن الممكن أن يتم التدريب المباشر في مثل هذه الحالات بتوسيع مجالات التعارف والتعامل مع الجنس الآخر . فبمجرد توسيع أفق العلاقات بأفراد الجنس الآخر ، فإن النتيجة المرغوبة تحدث ، وذلك بالتخفيف من بؤرة التعلق . على أن من الواجب أن يكون التعارف مع أفراد من نفس السن التى حدث فيها التعلق . فلقد يساعد الموجه النفسى الشخص الموسوس بمثل هذا الوسواس بأذابة وسواسه عن طريق تشجيعه على المساهمة في رعاية أحد ملاجئ الأيتام حيث يجد طفلة أو أكثر (أو طفلاً أو أكثر في حالة النساء الموسوسات) فيها شبه جداً بذلك الحبيب المفقود .

والواقع أن هذا الحل الأخير وإن كان يندرج تحت التدريب المباشر ، فإنه لا يكون بالتوسيع الوجدانى ، بل يكون بالاببدال . فالطفل أو الطفلة

الشبهة تحل محل الحبيب المفقود : ونفس هذا الموقف الوسواسي التعلقى قد يوجد فى حالات فقدان أحد الأبناء أو إحدى البنات فى الطفولة . ولقد تثور ثائرة الشخص ويسيطر عليه الوسواس بالحنين الشديد للطفل أو الطفلة المفقودة بعد سنوات عديدة من فقده . فلا يكون ثمة علاج لمثل هذا الوسواس الوجدانى الا باحلال بديل محل الأصل . وهكذا يحل شخص بالفعل محل شخص بالذكرى وبالعاطفة . وهكذا نجد أن التدريب المباشر يصلح فى علاج كثير من حالات الوسواس، سواء كانت وساوس ذهنية منطقية أو حسابية، أم كانت وساوس وجدانية، أم كانت وساوس أدائية متباينة . ولكن النجاح فى التغلب على الوسواس لا يتأتى الا بالتخطيط الجيد للتدريب المباشر .

التمثيل الكوميدي :

إننا نعتقد أن الشخص الموسوس هو فى نفس الوقت شخص تزيد لديه فى محه القوة المسماة بقوة الكف inhibitory عن القوة المضادة المسماة بقوة الاثارة excitatory . ذلك أن المخ محكوم بهاتين القوتين المتضادتين . وفى الحالات السوية تكون قوة الكف مساوية لقوة الاثارة . ولكن إذا طغت إحدى هاتين القوتين على القوة الأخرى ، فإن الحالة تخرج إذن من نطاق السوية لتندرج فى نطاق الانحراف النفسى . ونستطيع أن نقرر أن الموسوس يكون قد أصيب بالضعف فى الأجهزة المسئولة بمخه عن إحداث الاثارة ، بينما يكون متمتعاً بالقوة فى الأجهزة المسئولة بمخه عن إحداث الكف .

والواقع أن الكف يدفع بالنشاط الذهنى والوجدانى إلى الداخل ، بينما تدفع الاثارة بذلك النشاط إلى الخارج . ولعل من أنجع الوسائل لتنشيط وتقوية قوة الإثارة مشاهدة التمثيل الكوميدي والمساهمة فيه . ذلك أن هناك سبيلين لتقوية الجانب الضعيف لدى المرء : السبيل الأول — هو السبيل الكيميائى الحيوى، والسبيل الثانى — هو سبيل التأثير من الخارج وذلك بالانخراط فى مواقف اجتماعية . وليس هذا بالأمر المستغرب . فلقد تتمكن

من توسيع الأوعية الدموية بتناول الكحول ، وهذا يكون بالتأثير من الداخل ، بينما يمكن توسيع تلك الأوعية الدموية بالجري . وبذا يكون التأثير من الخارج .

وثمة في الواقع مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوافر في التمثيل الكوميدي حتى يكون ناجعا في علاج الحالات الوسواسية . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلي :

أولا — أن تكون الكوميديا المشاهدة أو الممثلة كوميديا تعتمد على المواقف وليس على التلاعب بالألفاظ . ذلك أن الموقف الكوميدي المشاهد أو الممثل ينتقل إلى السلوك بالإنحاء والتقليد المباشر . أما كوميديا الألفاظ والتلاعب بالكلمات فإنها لا تنتقل إلى سلوك السامع أو المشاهد إلا كلمات وتعبيرات ، ولا تؤثر في السلوك الأدائي من قريب أو من بعيد .

ثانيا — أن تكون كوميديا المواقف مبنية على معرفة بالحالات النفسية . وبتعبير آخر فإن مؤلف المسرحية يجب أن يكون على دراية تامة بالحالات النفسية ، ولا يكون تناوله للمشاهد المسرحية تناولا سطحيا يقصد من ورائه إضحاك المشاهدين أو السامعين ، بل يكون بمثابة معالجة كوميديا لحالات نفسية معينة وبضمنها الحالات الوسواسية . والواقع أن الدراما السيكلوجية قد ذاعت حديثا بحيث صار ذبوعها أبعد شأوا من ذبوع الدراما التاريخية أو دراما المفارقات والمواقف الاجتماعية أو غير ذلك من دراما .

ثالثا — أن تكون كوميديا المواقف ذات أبعاد سيكلوجية متباينة فتكون ثمة مواقف ذهنية عقلية ومواقف أخرى عاطفية ومواقف ثلاثة أدائية .

والواقع أن هناك مجموعة من الخصائص التي يتسم بها التمثيل الكوميدي تساعد على علاج الوسوسة . وهذه الخصائص نلخص فيما يلي :

أولا — إن هذا النوع من التمثيل يعتمد إلى تقديم تصوير كاريكاتوري يستطيع الممثل بواسطته أن يبرز الملامح السلوكية التي يريد معالجتها بشكل مبالغ في تكبيره أو مبالغ في التهوين من شأنه . وبذا فإن ما يدق على إدراك

وتفهم الشخص الموسوس سرعان ما يتضح . والشأن هنا كشأن المدرس الذى يريد أن يشرح للأطفال تركيب الشكل الخارجى للناموسة ، فيحضر أمامهم نموذجا مكبرا للناموسة بحيث يستطيع أن يتناول أى جزء من أجزائها عامدا إلى إبرازه والقيام بشرحه . فبعد أن كانت الناموسة غامضة المعالم فى أنظار الأطفال ، فإنها تصبح واضحة المعالم ومحددة الصورة فى الذهن . وكذا الحال بالنسبة للممثل الكوميدي . لأنه يحاول باستخدام صورة مكبرة - أو مصغرة فى بعض الحالات كما يفعل المدرس بازاء الكرة الأرضية فيحضر أمام تلاميذه نموذجا مصغرا للأرض بحيث يحمله بيد واحدة - نقول انه يحاول بذلك أن يعظم من شأن شىء أو أن يهون من شأن شىء آخر ، فتكون نتيجة ذلك الإيحاء للشخص الموسوس بما يقدمه من تصوير كاريكاتورى للموقف ، بل وحمله على تقليد سلوك الممثل ولكن فى الحياة العملية .

ثانيا - إن هذا النوع من التمثيل - أعنى التمثيل الكوميدي - يمكن أن يكون وسيلة تربوية لعلاج حالات الوسوس ، وذلك بأن ترسم الشخصيات الممثلة ويقوم المؤلف الكوميدي بنسج المسرحيات التربوية البسيطة وفق تلك الشخصيات المرسومة ، ثم يقوم التلاميذ أنفسهم بتمثيل الأدوار المرسومة . ومن الطبيعى أن تتضمن تلك المسرحيات العلاجية جوانب متباعدة من ألوان السلوك الذى يراد علاجه . وكذا من ألوان الاعوجاجات الأخلاقية والاجتماعية التى يراد نقدها واستبدال غيرها بها .

ثالثا - إن هذا الفرع من التمثيل الكوميدي يمكن أن يقوم برأسه كفرع علاجي من فروع علم النفس لعلاج الأمراض النفسية بصفة عامة ، ولعلاج الوسوس بصفة خاصة . ومن الممكن تطويعه والاتساع بمجاله وآفاقه إلى أبعد حد ممكن . فالتمثيل الكوميدي مرن ويتسع لعلم النفس والفن جميعا . ومن الممكن أن تكون نفس المسرحيات الكوميديّة المقدمة أدوات ترفهية حتى بغض النظر عن فوائدها العلاجية . من هنا فإنها يمكن أن تحتل مكانتها الرفيعة فى الفن وعلى المسارح وفى دور العرض ويمكن أيضاً إحالة الكثير منها إلى أفلام سينمائية رائعة .

بيد أن هذا المطلب بحاجة إلى تأزر بين علماء النفس المختصين بأمور الصحة النفسية وبين الأدباء القصاصين والمؤلفين المسرحيين والمختصين في عمل السيناريو والحوار والممثلين والمخرجين بل والمشتغلين بفنون المسرح الآخرين كالمصورين والمسؤولين عن الإضاءة وغيرهم .

ونستطيع في الواقع أن نقرر أن العلاج النفسى في المستقبل القريب سوف يعتمد اعتمادا بالغا على الدراما بصفة عامة وعلى التمثيل الكوميدي بصفة خاصة في التصدى للأمراض النفسية بصفة عامة والوسوسة بصفة خاصة . ذلك أن التهمك على الموقف الشاذ يكسر من هيئته ومن حدثه ويفوت عليه فرصة الاستيلاء على الشخصية والأخذ بعنانها . ولعلنا نزعم أن الشائع اليوم من الدراما السيكلوجية يعوزه الكثير من التقنين والدقة فى التناول . والشأن هنا فى الواقع كالأشأن عند تعرض بعض الأفلام السينمائية العربية للعمليات الجراحية أو لكشف الطبيب على المريض . فمن له دراية ولو سطحية بتلك الأمور يستطيع أن يقف على جهل الممثلين بالتقنيات المستخدمة بل وجهلهم بطريقة استخدام أبسط الأجهزة وبموقف الطبيب الممثل من المريض .

فما هو ذائع من تمثيلات أو من مسرحيات أو أفلام سينمائية إنما يجتزىء بالقليل أو قل بالقشور من علم النفس وقد بنيت المواقف الدرامية على ذلك القليل أو على تلك القشور . والحقيق بالاتباع هو شق خط جديد مدروس دراسة تفصيلية ودقيقة للحالات النفسية والأعراض المرضية التى يراد من وراء استعراضها تقديم علاج نفسى بواسطة المشاهدة أو المشاركة فى التمثيل . وهذا يتطلب فى الواقع أن تسير الدراما وفق خطوات معتنى بها وقد حظيت كل خطوة بحظها الواجب لها من العناية . والخطوة الأولى هى أن يقوم عالم الصحة النفسية بتقديم تشخيص تفصيلى ودقيق للحالة المرضية . وليس من الصعب عليه أن يقدم أمثلة حية تكون قد مرت فى خبرته الشخصية . ولدينا فى ملفات علم النفس الكثير من القصص الحية التى عرضت بالفعل على العيادات النفسية . فمثل تلك الحالات المشفوعة بالدراسات النظرية للحالة الوسواسية تقدم إلى المؤلف المسرحى الذى يقوم بنفسه أو بمساعدة كاتب

متخصص في السيناريو بتقديم العمل الدرامي . وبعد ذلك يأتي دور المخرج الذي ينبغي بدوره أن يفهم العمل المسرحي برمته بدءاً من خيوطه الأولى ، ولا يكون مجرد قارئ للسيناريو بل يجب أن يتناول المرحلة الأولى – وهي المعلومات السيكلوجية – بالقراءة وإنعام النظر فيها حتى لا يسقط من حسابه في أثناء الإخراج شيئاً يبدو في نظره تافهاً بينما تكون له أهمية خاصة من وجهة نظر علم النفس . وبعد ذلك يأتي دور الممثلين . وهؤلاء أيضاً يجب ألا يكون دورهم هو الأداء بغير بصر بالمقومات الأساسية السيكلوجية التي انبنت عليها الدراما ، بل يجب أن يكونوا على الملم تام بالعمل بتفاصيله المتبينة وبمراحله التي مر بها . فإذا ما توافر التكامل بين جميع الأطراف المشاركة في العمل ، فإن ذلك العمل يكون بالتالي ذا فائدة ونجوع في معالجة الأمراض الوسواسية .

القراءة السيكلوجية :

لقد استقر في أذهان الناس منذ زمن بعيد رأى يقول إن من يعرف الخير يفعلُه ومن يعرف الشر ينأى عنه . ولعل من أكبر المنافحين عن هذا الرأي هو سقراط زعيم المثاليين من فلاسفة اليونان . فهو القائل إن الفضيلة علم والرذيلة جهل . والواقع أن هذا الرأي السقراطي قابل للكثير من النقاش بل والدحض . فالكثير من الفضائل يمارس بغير علم بفلسفة الفضيلة الممارسة ، كما أن الكثير من العلم الأخلاقي لا يضمن للعارف ممارسة الخير . بيد أن ما يصح قوله بالنسبة للمجال الأخلاقي لا يصح بالضرورة بالنسبة للمجال النفسي . ولعلنا نزعّم أن الكثير من المخاوف تنقشع إذا ما وقف الخائف على أسباب ذلك الخوف ، كما أن الكثير من الأمراض النفسية تعالج بمعرفة ما تنطوي عليه تلك الأمراض من أسباب أدت إليها . ولعل أن يكون زعيم هذا الاتجاه العلاجي بالمعرفة هو سigmund فرويد الذي أسس علاجه على تبصير المريض النفسي بأسباب مرضه، وذلك عن طريق تذكر خبرات الطفولة المؤلمة أو المكدرّة .

ونستطيع في الواقع أن نسمي العلاج النفسي بمعرفة الأسباب بأنه العلاج بالتنوير . ولكأن ثمة ظلاماً دامساً يحيط بطريق المرء في حياته مما يضربه بتلك

الأمراض النفسية . فإذا ما انتشر النور وعم طريق المرء ، فإن الظلام ينقشع ويتلاشى ما كان يخيم على طريقه من ظلمة فتتبخر أمراضه النفسية كأنها لم تكن موجودة على الإطلاق . وإذا كان هذا صحيحاً بازاء الأمراض النفسية بصفة عامة ، فإنه ينطبق بازاء الوسوسة بصفة خاصة . فعندما يقف الموسوس على الأسباب الحقيقية لوسوسته فإن تلك الوسوس سرعان ماتتبخر وتتلاشى من حياته .

ومن الممكن أن نقول إن علم النفس صار اليوم من أهم العلوم التي تهتم جميع الناس ولاتهم فئة بعينها . على أننا نخصص فنقول إننا نقصد نوعية معينة من كتب علم النفس وليس جميع كتب علم النفس . فهناك ما يمكن أن نسميه بعلم النفس الأدبي ، وهو العلم الذي يتناول الشخصية الانسانية تناولا عاما ولكن على أسس علمية مكيئة بحيث لا يحتاج تناول الكتاب الذي يقع في إطار هذا العلم إلى دراسة سيكلوجية أكاديمية متخصصة . فهو العلم الذي يستطيع الشخص العادي الذي حظى بثقافة عامة أن يستوعبه وأن يفيد منه . ولعلنا ندرج كتابنا هذا ضمن الكتب التي تقع في هذا الاطار . فهو لا يحتاج إلى متخصص يقوم بقراءته ، بل يحتاج إلى شخص مثقف ثقافة عامة يستطيع استيعابه والإلمام بأطرافه .

على أن هناك كتباً سيكلوجية عامة تتخذ لها منهجاً إيحائياً أو وعظياً ، وكتباً أخرى تتخذ لها منهجاً موضوعياً يخاطب عقل القارئ أولاً قبل وجدانه . ونحن نعتقد أن المثقفين ينبغي أن يكتب الإيحائية الوعظية ويقبلون على النوع الثاني من الكتب التي تتسلح بالاستعراض الموضوعي للأفكار بغير إلحاح على القارئ بأن ينحو منحى معيناً ويترك منحى آخر . ولعل المؤلفين من النوع الثاني الموضوعي يكونون قد آمنوا بحرية القارئ في الاختيار من بين اتجاهات متعددة تعرض أمامه ، بل لعلهم يحترمون القارئ ، إذ يعتقدون في قدرته على الاختيار الصحيح بغير إلحاح من جانبهم على تقبل ما ينحازون إليه هم من أفكار أو اتجاهات ، أو إلى ما يتلبسون به من عواطف وميول شخصية .

وثمة في الواقع مجموعة من الشروط التي يجب توافرها في القراءة السيكلوجية حتى تكون مفيدة في معالجة الوسائس والأفعال القهرية ، أعنى الوسائس الأدائية . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلي :

أولاً — أن يكون القارئ مستعداً لادخال تعديلات على سلوكه وأن يكون بالتالى مستعداً للتفاعل مع ما يقوم بقراءته . ذلك أن هناك من يقرأون وكأنهم متفرجون على أشياء لا تهمهم من قريب أو من بعيد ، بينما هناك من يقرأون وقد انكبوا على القراءة بالعقل والعاطفة والارادة جميعاً . فهم يقرأون بجماع شخصياتهم أو قل بجماع خبراتهم السابقة . فهم يتجاوزون مرحلة الفهم إلى مرحلة الاندماج أو الاستغراق فيما يتفاعلون معه من خبرات جديدة يخوضون فيها بالقراءة . فلكن الفهم هو الوسيلة المبدئية للخوض في مرحلة تالية هي مرحلة الاستغراق الفكر / وجداني .

ثانياً — أن تكون المادة المقروءة مناسبة لحالة المرء . فكثير من كتب علم النفس الأكاديمية لا ترتبط من قريب أو من بعيد بحالة القارئ ، ومن ثم فإنه يعزف عنها أو على الأقل لا يستطيع أن يتجاوز المرحلة الأولى من المرحلتين السابقتين إلى المرحلة الثانية . فهو يظل واقفاً في نطاق المرحلة المعرفية ولا يتجاوزها إلى المرحلة التالية الاستغرافية .

ثالثاً — أن تكون القراءة السيكلوجية قراءة تأملية لا قراءة تحصيلية . والواقع أن هناك فرقاً جوهرياً بين هاتين القراءتين . فالقراءة التأملية لا تستهدف حفظ ما يقرأ بالذاكرة لإعادة سرده من جديد وقت الحاجة إلى ذلك ، بل هي قراءة تثير الفكر الشخصي بحيث يأخذ القارئ في السباحة بفكره في أرجاء متباينة تبعاً أو تقرب من الموضوع المقروء . فالقارئ التأملى يعتمد في تأمله أثناء القراءة على مبدأ تداعى الأفكار من جهة ، وتداعى العواطف من جهة أخرى . فهو يترك لعقله وعاطفته فرصة السباحة الذهنية العاطفية كيها يقذف به تيار التفكير التأملى الترابطى .

ولعلنا نزعم أن المكتبة العربية فقيرة في هذا النوع من الكتب السيكلوجية التأملية وهى الكتب التى يمكن أن نسميها بكتب علم النفس الأدبية أو الكتب الترابطية أو الكتب العامة . وحتى المتوافر منها لا يفي بالغرض فى الغالب . ذلك أن المتخصصين فى علم النفس غالبا ما ينبون عن الكتابة العامة الترابطية ويؤثرون الكتابة المتخصصة ، ويفضلون القيام بعمل بحوث يستقون الجانب الأكبر من مادتها من الكتب الأجنبية . ولسنا نتهمهم بسرقة ما فى بطون الكتب الأجنبية لأن ما يستقونه من معلومات منسوب فى الغالب إلى أصحابها بما يدونونه من مراجع هوامش كتبهم . ناهيك عن الكتب المترجمة برمتها عن إحدى اللغات الأجنبية التى يمكن درجها فى هذا نطاق هذه النوعية من الكتب الترابطية العامة . فمثل تلك الكتب الأدبية العامة أو الترابطية لا يفي بالغرض وذلك بسبب اختلاف البيئة المصرية أو العربية عن البيئة التى عاش فيها المؤلف ، ولأن الترجمة مهما كانت دقيقة وجيدة ، فإنها لا تبين عن مقاصد ومزاج المؤلف بسبب الاختلاف فى الاتجاهات من جهة ، وبسبب اختلاف ثقافتها من جهة ثانية ، واختلاف اللغتين المترجم منها والمترجم إليها بعضهما عن بعض من جهة ثالثة .

ونحن فى مصر والبلاد العربية بعامة فى حاجة ماسة الى الكتب السيكلوجية الأدبية الترابطية العامة يقوم بتأليفها لفيف من الكتاب الذين درسوا وهضموا أصول علم النفس وأسس الصحة النفسية بصفة خاصة وقد حظوا بمراة خاصة فى التعبير فأتقنوا التأليف الذى يمكن أن نسميه بالتأليف النفسأدى — إذا صح التعبير — وصاروا متمتعين بحساسية خاصة لحاجات القراء المصريين أو العرب عامة . ولسنا نغنى المؤسسات الثقافية ودور النشر من مسئولية التخطيط لهذه النوعية من الكتب بحيث تغطى جميع الجوانب والمشكلات النفسية تغطية تامة . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن قراءة واستيعاب بضعة كتب من هذا النوع والتأثر بها والتفاعل مع مضمونها، إنما يكفل فى الواقع وقاية القراء من الكثير من الأمراض النفسية ، ناهيك عن أن الاطلاع عليها يساعد جدا على التخلص مما يكون قد ألم بهم من انحرافات نفسية كالوسوسة وغيرها .

وعليها أن نشير الى نقيصة أخرى تعتور مؤسساتنا الثقافية ، وهي هذه المرة لا تتعلق بالكتب بل تتعلق بالفهرسة . ولسنا نغالى إذا قلنا إن فن الفهرسة لا يقل خطورة وأهمية في الحياة الثقافية عن وجود الكتب الثقافية نفسها . ولقد قطعت الدول المتقدمة شوطا بعيد المدى في هذا المجال بحيث استغلت الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) لكي تقدم لمن يرغب جميع المراجع بصفحاتها التي عرضت للموضوع المطلوب بحثه أو القراءة فيه . فإذا أردت أن تقرأ عن الوسوسة مثلا ، فان عليك أن تملأ بطاقة خاصة وتكتب عليها كلمة « وسوسة » وتضعها في ثقب خاص فتد اليك بعد برهة وجيزة وقد سجل عليها جميع الكتب بصفحاتها التي تضمنت معالجة موجزة أو تفصيلية لهذا الموضوع . فإذا لم يتيسر لنا ما يتيسر للدول المتقدمة ، فلا أقل من أن نهتم بالفهرسة التقليدية حتى نجمع شتات المعلومات المتناثرة فنقدم بذلك خدمة سيكلوجية رائعة في العلاج من الأمراض النفسية وبضمنها الوسوسة .

العلاج الجمعي :

من الحقائق المعروفة أن المرء في أثناء وجوده في مجموعة متألفة يكون أكثر قابلية للإيحاء وأكثر ميلا للتقليد عنه وهو وحده كفرد قائم بذاته . فالتواجد مع الآخرين يضعف من مقاومته ومن تقوقعه على ذاته ومن استقلاله في الفكر والعاطفة والارادة . ولكأن الانسان عندما ينخرط في إطار احدي المجموعات يأخذ في اللوبان أو الانصهار وفقد القوام الذاتي ، فيهدم الجدار القائم بينه وبين الآخرين . ولعلنا لا نخطيء إذا شبهنا وجود الفرد في المجموعة بالأواني المستطرقة التي يتخذ فيها السائل نفس الارتفاع فلا يزيد ارتفاعه في إحدى الأواني عنه في باقي الأواني حيث أن السائل يجري في عروقها جميعا . فاذا انخرط أحد العلماء أو أحد الفلاسفة في ركب جمهرة من الجمهرات في مواجهة حادث وقع فجمع الشمل وأدمج الموجودين جميعا وصهرهم في بوتقة الموقف ، فان ذلك العالم أو الفيلسوف سرعان ما ينصهر هو أيضا ويفقد إننيته ولا يفكر بعقله العلمي أو الفلسفي ، بل يفكر بعقلية الجمهرة ،

وهي عقلية مستطرفة لا تدانى عقل العالم أو الفيلسوف عندما يكون مستقلا بعقله بغير ذوبان أو انصهار في قوام الجماهرة بعقلها الضعيف المتدهور .

ولقد وقف علماء النفس على هذه الحقيقة فأخذوا يفيدون منها في العلاج النفسى بصفة عامة ، وفي علاج الوسواس المرضية بصفة خاصة . فطالما أن عقل المجموعة أكثر قابلية للإيحاء وأقوى ميلا للتقليد ، فإن العلاج الجمعى يكون اذن أسرع وأنجح من العلاج الفردى . وهذا يتطلب في الواقع تصنيف المرضى النفسى الى فئات متجانسة . فاذا ما استطاع المعالج جمع الموسوسين في فئة واحدة ، فانه يستطيع بالتالى التأثير فيهم واستمالتهم نحو السوية بسهولة .

على أن هناك خطوات ينبغى مراعاتها في العلاج الجمعى لفئة الموسوسين : الخطوة الأولى هي تحقيق انصهار أفراد المجموعة بعضهم في بعض انصهارا تاما ، وذلك عن طريق إقامة وشائج بينهم وحشهم على تحقيق هدف أو أهداف مشتركة . ولعل في حفلات السمر وما يشيع فيها من مرح ما يحقق ذلك على خير وجه وأفضله .

أما الخطوة الثانية فانها تتمثل في تدريب المجموعة على تلقى أوامر المعالج وتنفيذه . على أن الأوامر التى يلقيها المعالج ينبغى أن تكون بصوت حاسم وبطريقة تتسم بالشجاعة . فالمجموعة تشكل قواما خارجيا يؤثر فيه المعالج بشكل كلى ، فينهج نهجا كتليا قطيعيا . والأوامر في هذه الخطوة لا ترتبط من قريب أو بعيد بالوسواس ، بل تكون أوامر عامة . فهدف هذه المرحلة هو هدف تدريبى عام وليس هدفا علاجيا .

وتأتى بعد هذا الخطوة الثالثة والأخيرة وهي الخطوة العلاجية ، وفيها يتناول المعالج وسواسا واحدا يستعرضه بالتفصيل والنقد ، ثم يحض الموجودين على اجتياز العتبة التى يقفون عندها مكتوفى الأيدى إلى المرحلة التالية . على أن من الواجب أن تكون الأوامر الملقاة حازمة وحاسمة ، وأن يكون علاج كل وسواس وفق مجموعة من التدريبات التى يتكرر تنفيذها بعد صدور الأوامر اليهم من المعالج . وهنا يجب أن نشير إلى ضرورة تحقيق التطابق في

الأداء بين جميع أفراد المجموعة بغض النظر عن نوعية الوسواس الذى أصاب كل واحد منهم .

وعلينا أن نضع نصب أعيننا أن العلاج الجمعى يبنى على أساس مجموعة من المبادئ نلخصها فيما يلى :

أولا — إن التدريب على أحد المواقف العلاجية يؤثر فى علاج الحالات المشابهة التى لم يتم التدريب لعلاجها . فاذا قام المعالج بتدريب المجموعة على التخلص من وسواس الإصابة بالمرض تدريجا جيدا ، فان أثر ذلك التدريب يمتد إلى نوع آخر من الوسواس قد يكون أصاب أحد أفراد المجموعة مثل الوسواس المستقبلية .

ثانيا — إن الأخذ بيد المرء ولو بخطوة واحدة نحو العلاج يمكن أن يشجعه على الاندفاع حتى آخر الشوط والتخلص من جميع وسواسه المتبائية . فلكأن العلاج الجمعى يشكل مفتاحا يكفل للمرء علاج نفسه بنفسه ، بل ووقاية نفسه من الاصابة بوسواس جديدة .

ثالثا — يعتمد العلاج الجمعى على مبدأ التعميم . فاذا ما تسنى بالعلاج الجمعى التغلب على الوسواس العقلية ، فان قلاع الوسواس الأخرى التى يكون الشخص قد أصيب بها كالوسواس الوجدانية أو الوسواس الأدائية سرعان ما تنهار . ذلك أن الوسواس والأعمال القهرية تبنى بعضها على بعض وتتراكب بعضها فوق بعض ، فاذا أسقطت إحداها ، فانك تكون بذلك قد زعزعت البناء برمته .

رابعا — يكسب العلاج الجمعى المريض بالوسواس الطمأنينة من جهة والشجاعة والإقدام من جهة أخرى . ناهيك عن أن مشاهدة الآخرين من الموسوسين يحمل على مشاهدة ما أصاب المرء من وسواس بل ويحمله على النقد الذاتى عن طريق النقد الموضوعى . فكأنه يرى حاله مجسدة أمامه فى الآخرين . ومثل هذا النقد أدعى الى التخلص من الوسوسة .

خامسا — إن العلاج الجمعى يضمن تقوية النزعة للنشاط نحو الخارج ، أو بتعبير آخر فإن هذا النوع من العلاج يمكن أن يغنى عن استخدام الوسائل العلاجية العضوية التى تؤثر فى المخ بأن تخفف من وطأة الكف والنقد الذاتى . ذلك أن الموسوس هو شخص تستخدم لديه قوة الكف بينما تنقصه قوة الاثارة . فكونه ينخرط فى إطار مجموعة من الأفراد، فإن هذا يساعد على الانطلاق والتعبير عن ذاتيته بغير أن يشهر على فكره ووجدانه واراادته سلاح النقد وإبطال التعبير عن الذات والانطلاق الى الخارج .

ومن الواجب أن نشير إلى مجموعة من المحاذير التى ينبغى أن توضع نصب الأعين لأن عدم مراعاتها وإهمال الاحتياط منها يعرض هذا النوع من العلاج للفشل بل وقد يؤدى إلى الضرر واستعصاء الحالة على الشفاء بعد ذلك بهذه الطريقة . والمحاذير التى ننبه إليها على النحو التالى :

أولا — يجب ألا تكون العلاقة بين المعالج وبين الموسوسين علاقة رسمية . فحتى لفظ « معالج » الذى نستخدمه فى هذا المقام يجب ألا يستخدم ، بل يجب ألا يكون معروفا بالنسبة للفئة الوسواسية التى يراد علاجها . فكلما كانت الصداقة هى الأساس فى العلاقة ، وكلما آنس المريض فى المعالج روح المودة والتعاطف ، فإن العلاج يكون أسرع وأنجح . ومن هنا فإن الأخرى أن يكون المعالج فى موقع الرائد أو الموجه النفسى أو صديق المجموعة أو نحو ذلك من مسميات تبعد به عن فكرة المرض والعلاج .

ثانيا — يجب ألا تكون المجموعة التى تضم الموسوسين موصومة بالوسوسة . فلا يقال لهم مثلا « إن المجموعة التى تتشكلون منها هى مجموعة مصابة بالوسوسة » . والأخرى بالموجه النفسى أو المعالج النفسى أن يتخذ من المجموعات الاجتماعية الطبيعية مجالا لعمله . ومن ذلك مثلا قيام الاخصائى الاجتماعى بالمدرسة أو المصنع أو الشركة بمتابعة جميع أفراد المجتمع المدرسى أو مجتمع المصنع أو مجتمع الشركة، وأن يقوم بتصنيف بطاقات المتابعة النفسية تبعا للأمراض النفسية التى يشتمها من خلال المعلومات التى يجمعها منهم

أو ممن يحيطون بهم في نطاق العمل أو بالمنزل. ولعله يستطيع أن يحصى حالات الوسوسة بحيث يكون من السهل عليه جمع أفرادها دفعة واحدة في معسكر أو في رحلة طويلة ، ثم يقوم بمباشرة العلاج النفسى بغير أن يدري أحد من أفراد المجموعة أنهم جمعوا لهذا الغرض . وأفضل علاج نفسى هو العلاج التلقائى غير المباشر .

ثالثا — يجب إخفاء البيانات والنتائج عن أفراد المجموعة . فعلى المعالج الجماعى أن يحتفظ بسرية البيانات حتى عن أصحابها . فهو يجمع المعلومات في خفية وعندما يحصل على معلومات جديدة فيجب عليه ألا يدونها في حضرة صاحب تلك البيانات . فالحرى به أن يحتفظ بها في ذاكرته ، ثم يعكف على تسجيلها عندما يخلو الى نفسه في البطاقة النفسية الخاصة بذلك الشخص .

رابعا — وبالأولى فإن من واجب المعالج الجمعى ألا يفشى أسرار المجموعة أو أسرار أحد أفرادها. فعليه ألا يقول لأقرب المقربين اليه إنه جمع أولئك الأفراد في مجموعة واحدة لأنهم يشتركون جميعا في سمة واحدة هي الوسوسة . إنه يستطيع أن ينتحل أسباباً أخرى ترويحياً أو ثقافية . ذلك أن مجرد إفشاء سر المجموعة التى يعالجها يمكن أن يؤدى الى فشله في عمله العلاجى وفي إرشاده النفسى برمته .

خامسا — يحسن في العلاج الجمعى مراعاة انسجام المجموعة من حيث السن والجنس والدكاء وغير ذلك من جوانب بالشخصية . ذلك أن المجموعة كلما كانت متقاربة ، فإن انصهار أفرادها فيها يكون أسير . ولعلنا نحلر من وجود أفراد متنازعين أو كارهين بعضهم لبعض أو يستعصون على الانسجام مع أقرانهم ، لأن ذلك يمكن أن يؤدى الى تفكك المجموعة وعدم استحداثها الى وحدة منصهرة الأفراد . وبالتالي فإن العلاج من الوسوسة يتعذر ، ولا يمكن المرور خلال الخطوات العلاجية الثلاث التى ذكرناها .

للمؤلف بمكتبتنا

- | | |
|---------------------------|-----------------------|
| ١ - الشخصية القوية | ٢ - الشخصية المحبوبة |
| ٣ - رعاية الشيخوخة | ٤ - رعاية المراهقين |
| ٥ - سيكولوجية الشك | ٦ - سيكولوجية الالهام |
| ٧ - الشباب والتوتر النفسى | ٨ - العبقرية والجنون |
| ٩ - الحب والكراهية | ١٠ - قوة الارادة |

الفهرس

الصفحة

٣	مقدمة
٥	الفصل الاول : معنى الشك
٥	— المعنى العقلى
٩	— الشك العلمى
١٣	— المعنى الفلسفى
١٧	— المعنى الأخلاقى
٢١	— المعنى السيكولوجى
٢٧	الفصل الثانى : سيكولوجية الشك
٢٧	— الشك وانبثاق التفكير
٣١	— الشك ومراحل النمو
٣٥	— الشك عند الجنسين
٣٩	— الشك والمعرفة
٤٣	— الشك والعادات العقلية
٤٩	الفصل الثالث : الشك والصحة النفسية
٤٩	— الشك عند العقلاء
٥٣	— الاتزان الهورمونى والشك
٥٧	— حالة الجهاز العصبى والشك
٦٢	— أمراض الوجدان والشك
٦٦	— أمراض العقل والشك
٣٣١	

الصفحة

٧١	الفصل الرابع : الشك والاعتقاد
٧١	— الاعتقاد الأولي
٧٥	— الاعتقاد الاقتناعي
٧٩	— الاعتقاد الرفضي
٨٣	— الاعتقاد الغيبي
٨٧	— الاعتقاد الإيحائي
٩٣	الفصل الخامس : الشك والعلاقات الأسرية
٩٣	— الشك عند اختيار شريك الحياة
٩٧	— الشك بين الزوجين
١٠١	— الشك بين الأسرتين النسبيتين
١٠٥	— الشك بين الوالدين والأولاد
١٠٩	— الشك بين الأسرة والعالم الخارجي
١١٥	الفصل السادس : أخلاقيات الشك
١١٥	— الشك والحرية الأخلاقية
١١٩	— الشك وتوظيف الذكاء
١٢٣	— الشك وقوة الشخصية
١٢٧	— الخير والشر
١٣١	— المناسب وغير المناسب
١٣٧	الفصل السابع : الشك الفلسفي
١٣٧	— معنى الشك الفلسفي
١٤١	— مجالات الشك الفلسفي

الصفحة

١٤٥	— خطوات الشك الفلسفى
١٤٩	— نتائج الشك الفلسفى
١٥٣	— سيكلوجية الشك الفلسفى

١٥٩ الفصل الثامن : معنى الوسوسة

١٥٩	— الوسوسة والعقل
١٦٣	— الوسوسة والوجدان
١٦٧	— الوسوسة والإرادة
١٧١	— الوسوسة والثقة بالنفس
١٧٥	— الوسوسة والواقع الخارجى

١٨١ الفصل التاسع : أنواع الوسوس

١٨١	— الوسوس المنطقية والحسابية
١٨٥	— الوسوس المتعلقة بالماضى
١٨٩	— وسوس الحاضر
١٩٣	— وسوس المستقبل
١٩٧	— الوسوس الأدائية

٢٠١ الفصل العاشر : الوسوسة كمرض نفسى

٢٠١	— النقص فى النمو العقلى
٢٠٥	— الاضطراب الانفعالى
٢٠٩	— الخوف المرضى
٢١٣	— أمراض الذاكرة
٢١٧	— أمراض الخيال

الصفحة

٢٢٣ الفصل الحادى عشر : الوسوسة فى الشيخوخة

٢٢٣	—	العوامل الجسمية	...
٢٢٧	—	العوامل النفسية	...
٢٣١	—	العوامل الاجتماعية	...
٢٣٥	—	العوامل الإقتصادية	...
٢٣٩	—	العوامل الثقافية	...

٢٤٥ الفصل الثانى عشر : أثر الوسوسة فى قوة الشخصية

٢٤٥	—	التكامل النفسى	...
٢٤٩	—	التوافق الاجتماعى	...
٢٥٣	—	توجيه الطاقة النفسية	...
٢٥٧	—	القدرة على الإبانة	...
٢٦١	—	اغتنام الفرص المتاحة	...

٢٦٧ الفصل الثالث عشر : الوسوسة والاعتقاد

٢٦٧	—	الوسوسة والمعتقدات الجنسية	...
٢٧١	—	الوسوسة وجنون العظمة	...
٢٧٥	—	الوسوسة واحتقار الذات	...
٢٧٩	—	الوسوسة وانتقام الأرواح	...
٢٨٣	—	الوسوسة وترقب المصائب	...

٢٨٧ الفصل الرابع عشر : الوسوسة والتربية

٢٨٧	—	التدقيق الشديد مع الطفل	...
٢٩١	—	قلق الكبار	...

الصفحة

٢٩٥	— إنهيـار صرح الأسرة
٢٩٩	— الضغوط المدرسية
٣٠٣	— التهديد بالمستقبل القائم

٣٠٩ الفصل الخامس عشر : العلاج النفسي للوسوسة

٣٠٩	— العلاج بالترويح والرحلات
٣١٣	— التدريب المباشر
٣١٧	— التمثيل الكوميدي
٣٢١	— القراءة السيكلوجية
٣٢٥	— العلاج الجماعي
٣٣٠	للمؤلف
٣٣١	فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٣/٢٥٠٦
الترقيم الدولي ٢ - ٠٤٢ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩

هذا الكتاب

يتضح من عنوانه أنه ضمن الكتب السيكلوجية التي تساهم في توفير صحة نفسية أفضل وفهمهم أوضح لمن يولونه العناية بالـ"رأية الجادة وتأمل ما يتضمنه من وسائل وقائية ووسائل علاجية ."

على أن هذا الكتاب يمكن أيضا أن يندرج في إطار نوعية من الكتب التي يمكن أن نسميها بكتب علم النفس المتقلسف أو المتأدب . ذلك أن المعالجة كما تتضح بداءة من فهرس الكتاب ليست معالجة محصورة في نطاق الصحة النفسية . فهي معالجة أشمل وأوسع من ذلك بكثير .

وعلى الرغم من أن لفظي « الشك والوسوسة » متداولان على الألسنة والأقلام ، فإن مضمون الكتاب يعتبر جديدا ، فثمة تعريفات جديدة ومبتكرة تماما ابتدعها المؤلف وأخذ يدافع عن الأفكار الجديدة التي يقدمها مستنبطة من تلك التعريفات الجديدة .

والكتاب يعتبر من هذه الزاوية مناقشة أو «جاذلة» بين الشائع الذي لا يقتنع به المؤلف ، وبين الجديد الذي يقدمه على صفحاته . والدعوة مفتوحة لمن يرغب في المساهمة في مائدة هذا الحوار الذهني النقدي المتجدد .

عبد الحميد أحمد غريب

دار غريب للطباعة

١٢ شارع موبار (لاطو على) القاهرة

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليغون ٢٢٠٧٩